القائمة القصيرة
لجائزة بوكر الدولية لعام
2020

دانييل كيلمَن

تيل

رواية

ترجمة:
د.نبيل الحفار

تيل

دانييل كيلمَن

ترجمة: نبيل الحفار

سرد 2020

أحذية

لم تكن الحرب قد وصلت إلينا بعْد. عِشْنا في خوفٍ وأملٍ، وحاولنا ألّا نجذب غضب الرَّبّ إلى مدينتنا المُحاطة بالأسوار الرّاسخة، والمؤلّفة من مئةٍ وخمسة بيوت، والكنيسة، والمقبرة، حيث ينتظر أسلافنا يوم القيامة.

لقد صلّينا كثيراً لنبعد عنّا الحرب. صلّينا للقادر على كلّ شيءٍ، وللعذراء الشّفيعة. صلّينا لسيّدة الغابة، ولأقزام منتصف اللّيل، للقدّيس غِرفين، لبُطرس حارس بوّابة السَّماء، للحواريّ يوحنّا، ومن باب الاحتياط صلّينا كذلك للعجوز ميلا، التي في اللّيالي القاسية، عندما يجوز للعفاريت أن يتجوّلوا بحُرّيّة، تطير عبر السَّماء أمام حاشيتها. صلّينا لأرباب الأزمنة القديمة ذوي القرون، وللمُطران مارتين، الذي تقاسم معطفه مع الشّحّاذ، عندما شعر بالبرد، ما أدّى بالتّالي إلى أنْ يبْرُدا معاً، واتّقيا الرَّبَّ معاً، فما نَفْعُ نصف معطفٍ في الشِّتاء؟ وصلّينا طبعاً للقدّيس موريتس، الذي اختار الموت مع كتيبته كاملةً كي لا يَشي بإيمانه للرّبّ العادل، الواحد، الأحد.

كان جابي الضَّرائب يأتي مرَّتين في السَّنة، ويُفاجأ دائماً بأنّنا مازلنا في مكاننا. بين الحين والآخر كان يأتي بعض التُّجّار، ولكنْ

بما أنّنا لمْ نشْترِ كثيراً، كانوا يتابعون طريقهم بسرعةٍ، وكان هذا يناسبنا. لمْ نكن في حاجةٍ إلى شيءٍ من العالم الواسع، ولمْ نفكّر به، إلى أنْ قَدِمتْ ذات صباحٍ إلى شارعنا الرَّئيس عَربةٌ ذاتُ خيمةٍ يجرُّها حِمار. كان ذلك اليوم هو السَّبت، وفي بداية الرَّبيع، الجَدْول يضجُّ بمياه الثُّلوج الذّائبة، وقد أخرجنا البِذار إلى الحقول التي لمْ نتركها بوراً في ذاك الموسم. كانت خيمة العربة من قماش شراعٍ أحمر، وأمامها تكوَّرت امرأةٌ عجوزٌ، بَدا جسمها مثل كيسٍ، ووجهها مثل الجلد، وعيناها مثل زرَّيْن صغيرين أسْوَدين، ووراءها وقفت صبيّةٌ ذاتُ نمشٍ وشعرٍ داكنٍ؛ أمّا على مقعد العربة فقد جلس رجُلٌ، تعرفّنا إليه على الرّغم من أنه لمْ يسبق أن كان هنا قطّ، وعندما تذكّره الأوائل، وهتفوا اسمه، تذكّر الآخرون أيضاً، وسرعان ما عَلَتْ أصواتٌ كثيرةٌ من كلّ مكان: «تيل هنا!»، «جاء تيل!»، «انظروا، لقد جاء تيل!». لم يكن من الممكن أن يكون شخصاً آخر.

حتّى المناشير وصلت إلينا، جاءتنا عبر الغابة، الرّيحُ حملتها معها، تُجّارٌ أتوا بها. هناك في الخارج في العالم طُبع المزيد منها، أكثر ممّا في وسْع إنسانٍ أن يُحصيها. كانت تحكي عن سفينة المجانين، وعن حماقة الكَهنة، وعن البابا الشّرّير في روما، وعن الشّيطان مارتينوس لوتر في فيتنبرغ، وعن السّاحر هورّيدوس،

والدّكتور فاوست، والبطل غاوين من فرسان المائدة المستديرة، وعنه أيضاً؛ عن تيل أولِنشْبيغل، الذي جاءنا الآن بنفسه. كنّا نعرف صدريّته الرَّقْطاء، كنّا نعرف طاقيّته المبعوجة، ومعطفه المصنوع من فرو العِجْل، كنّا نعرف وجهه النّاحل، والعينين الصَّغيرتين، والخدّين الأجوفين، وأسنان الأرنب. كان سِرواله من قماشٍ جيّدٍ، وحذاؤه من جِلدٍ فاخرٍ؛ أمّا يَداه فكانتا يَديْ لصٍّ، أو ناسخٍ، لم تعرفا العمل البَتّة. كان يمسك الرَّسن بيمينه، والسّوط بشماله. بَرقت عيناه، وأخذ يُحيّي ذات اليمين، وذات الشّمال.

- «وأنتِ ما اسمك؟». سألتْ إحدى الفتيات.

بقيت الصَّغيرة صامتةً؛ لأنّها لم تستوعب أنَّ رجُلاً مشهوراً يخاطبها.

- هيّا قوليه!

وعندما ذكرت بتلعثم أنَّ اسمها هو مارتا، ابتسم فقط، كأنّه كان يعرف ذلك مُسبقاً.

ثمَّ سألها باهتمامٍ، وكأن الأمر يهمّه: «وكم عُمرك؟».

تنحنحت وأخبرته. لمْ يسبق لها في حياتها التي بلغت اثنتي عشرة سنةً أنْ رأت عينين مثل عينيه. يُحتمل أن يوجد مثلهما في المدن الحُرّة في المملكة، وفي بلاطات العظماء، ولكنْ لم يسبق أنْ جاء إلينا أحدٌ بمثل هاتين العينين قطّ. لمْ تكن مارتا تعرف أنَّ مثل هذه القوّة، ومثل مرونة الرّوح هذه يمكن أن تنطقا من وجه إنسانٍ، وذات يومٍ سوف تخبر زوجها، وبعد ذلك بكثيرٍ ستخبر أحفادها -الذين سيعتقدون أنَّ تيل أولنشبيغل شخصيةٌ من الأساطير القديمة- أنّها قد رأته بنفسها.

ما إنْ تجاوزتها العربة حتّى كانت نظراته قد انزلقت إلى مكانٍ آخر، إلى آخرين على طرف الطّريق. «لقد جاء تيل!»، عاد الهُتاف من الطّريق، و«تيل هنا!»، من النّوافذ، و«تيل بنفسه هنا!»، من ساحة الكنيسة، التي وصلت العربة إليها الآن. ضرب تيل الهواء بسوطه، ونهض واقفاً.

بسرعة البَرْق تحوّلت العربة إلى منصّة عَرْضٍ. طَوت المرأتان الخيمة، وعقصت الصَّبيّةُ شَعرها، وضعت تاجاً صغيراً على رأسها، ولفّت حول جسمها قماشةً قرمزيّة الّلون، في حين وقفت العجوز أمام العربة، ورفعت صوتها بالغناء مع العزف على القيثارة. كانت لهجتها تَشي بالجنوب، بالمدن الكبيرة في بافاريا، ولم يكن فهمها سهلاً، إلّا أنّنا توصّلنا إلى أنَّ المسألة تتعلّق بامرأةٍ

ورجُلٍ يُحبّ أحدهما الآخر، ولمْ يتمكّنا من اللّقاء؛ لوجود نهرٍ هادرٍ يفصل بينهما. تناول تيل أولنشبيغل لفافة قماشٍ أزرق، ركع ورماها ممسكاً أحد طرفيها، بحيث انفردت وهي تطقطق؛ جذبها إليه، ثمَّ فردها ثانيةً، جذبها إليه، وفردها ثالثةً، فتلقّفت طرفها العجوز التي ركعت أيضاً، وأخذ القماش الأزرق يتماوج بينهما، كأنّه ماءٌ حقيقيٌّ يرتفع موجُه بحيث لا تستطيع سفينةٌ أنْ تمخر فيه.

عندما نهضت الصَّبيّةُ، ونظرت إلى الموج بوجهٍ جمَّدهُ الرُّعْب، لَحظنا فجأةً كم كانت جميلةً، وفيما هي واقفةٌ تمدّ ذراعيها إلى السَّماء، لمْ تعد فجأةً تنتمي إلى هنا، كما لم نعُد قادرين على إبعاد أنظارنا عنها، ومن زوايا أعيننا فقط شاهدنا حبيبها يقفز، ويرقص، ويلوِّح بسيفه، وهو يقاتل تنّيناً، وأعداءً، وساحراتٍ، وملوكاً أشراراً.

دامت المسرحيّة حتّى ما بعد الظُّهر، وعلى الرّغم من عِلمنا أنّ الضّروع تؤلم البقر، لمْ يفقد أيٌّ منّا صَبْره. كانت العجوز تنشد ساعةً تِلْو أُخرى، وبَدا من المستحيل أن يحفظ شخصٌ هذه الأشعار كلّها، وراود بعضنا الشّكّ في أنّها كانت ترتجلها في أثناء الغناء، وفي أثناء ذلك لم يهدأ جسم تيل عن الحركة، بَدا كأنّ كعبيه لا يلمسان الأرض؛ فكلّما وقع نظرنا عليه يكون قد انتقل

إلى مكانٍ آخر على الخشبة. في الختام حدث سوءُ فهم: لقد دبّرت المرأة الجميلة لنفسها سُمّاً، كي تتظاهر بالموت، فلا تضطّرّ إلى الزّواج بالوصيّ عليها، لكنّ الرّسالة إلى حبيبها، التي تشرح كلّ شيءٍ ضاعت في الطّريق إليه، وأخيراً، عندما وصل عروسُها الحقّ، وصديق روحها إلى جسدها الهامد، أصابه الرُّعب كمن ضربته صاعقةٌ، بقي وقتاً طويلاً واقفاً متجمّداً، وسكتت العجوز. سمعنا صوت الرّيح، وأبقارنا التي تنادينا. لم يتنفّس أحدٌ. أخيراً، سحب الخنجر، وطعن نفسه في الصَّدر. كان الأمر مثيراً للدَّهشة، فقد غاب النّصْل في لَحْمه، واندلقت من ياقته قماشةٌ حمراءُ مثل مسيل دمٍ، وأخذ ينازع إلى جانبها، ارتجف رجفةً أخيرةً، ثمّ سكن. مات، لكنّه ارتجف ثانيةً، اعتدل، عاود السّقوط، ارتجف مُجدّداً، عاد فسكن، وإلى الأبد الآن. انتظرنا. حقّاً إلى الأبد.

بعد ثوانٍ استيقظت المرأةُ، ووقع نظرها على الجسد الميت إلى جانبها. كانت في البداية ذاهلةً، ثمَّ هزَّته، ثمّ استوعبت، وعاودها الذّهول، ثمَّ انتحبت كمن فقد الأمل بأيّ خيرٍ في الدُّنيا، بعد ذلك تناولت خنجره، وقتلت نفسها أيضاً، ودُهشنا ثانيةً من دهاء الطّريقة التي غار فيها النّصْل في صدرها. ولمْ يبق الآن سوى العجوز التي أنشدت بعض الأبيات، التي لم نفهمها تماماً بسبب

اللّهجة، ثمّ انتهت المسرحيّة، وكثيرون منّا كانوا ما يزالون يبكون حتّى بعد أن نهض المَيتان، وانْحَنيا تحيّةً.

لكنّ هذا لم يكن كلّ شيءٍ، كان على أبقارنا أن تنتظر، فبعد التراجيديا جاء دور الكوميديا. قرعت العجوز على طبلٍ، ونفخ تيل أولنشبيغل في مزمارٍ، ورقص مع الصَّبيّة، التي لم تعد تبدو الآن جميلةً كالسّابق، إلى اليمين، وإلى اليسار، وإلى الخلف، ثمَّ إلى الأمام ثانيةً. مَدّا أذْرعهما إلى الأعلى، وتطابقت حركاتهما معاً، كأنّهما ليسا شخصين، بلْ انعكاس أحدهما للآخر. نحن كنّا نُحْسِنُ الرَّقص على نحوٍ مقبولٍ، وكنّا نحتفل كثيراً، ولكنْ لا أحد منّا كان يُجيد الرَّقص مثلهما؛ عندما ينظر المرء إليهما كان يتبادر إلى ذهنه كأنّ الجسم البشريّ لا ثقل له، وكأنّ الحياة ليست حزينةً وقاسيةً، وهكذا بدأنا نحن أيضاً نشعر بخفّةٍ في أقدامنا، وأخذنا نتأرجح صعوداً وهبوطاً، ونقفز، وننطّ، وندور.

وفجأةً انتهى الرَّقص. رفعنا أنظارنا لاهثين إلى العربة، كان تيل واقفاً عليها وحْده، ولمْ نرَ أثراً للمرأتين. أنشد قصيدةً دراميّةً ساخرةً عن ملك الشّتاء المسكين الغبيّ، حاكم منطقة بفالتس، الذي كان في رأيه قادراً على هزيمة القيصر، وقبول تاج براغ من البروتستانت، لكنّ مملكته ذابت قبل الثّلج، وأنشد أيضاً عن القيصر، الذي كان يشعر دائماً بالبَرد من كثرة الصَّلاة، الرّجُل

الضَّئيل، الذي كان في قلعة البلاط في فيينا يرجف خيفة السّويديّين، ثمّ أنشد عن ملك السّويديّين، أسد منتصف اللّيل، القويّ مثل دُبٍّ، ولكنْ بماذا أفادته قوّته في وجه الرَّصاصة في معركة لوتسِن، التي كلّفته حياته مثل أيّ مُرتزقٍ صغيرٍ، فانطفأ نوره، وخرجت روح الملك، وراح الأسد! ضحك تيل أولنشبيغل، وضحكنا نحن أيضاً؛ لأنَّ مقاومته لم تكن ممكنةً، ولأنّه كان من المُريح التَّفكير في أنّ العظماء يموتون فيما لم نزل نحن أحياء، ثمّ أنشد عن ملك إسبانيا ذي الشّفة السُّفلى الممتلئة، الذي كان يعتقد أنّه يسيطر على العالم، على الرّغم من أنّه كان مفلساً مثل دجاجةٍ.

من شدّة الضَّحك لم نلْحظ إلّا بعد فترةٍ أنَّ الموسيقا قد تغيّرت، وأنّها فجأةً لمْ تعُد توحي بالسُّخرية. غنّى قصيدةً دراميّةً عن الحرب، عن ركوب الفرسان معاً، وعن صليل الأسلحة، وصداقة الرِّجال، والثّبات في المخاطر، ولعلعة صفير الرَّصاص. غنّى عن حياة المُرتزقة، وعن جمال الموت. غنّى عن تهليل بهجة كلّ من ينطلق على جواده لملاقاة العدوّ، وشعرنا جميعنا بتسارُع نبض قلوبنا. الرِّجالُ بيننا ابتسموا، وهزَّت النّساء رؤوسهنّ، حمل الآباء أطفالهم على أكتافهم، ونظرت الأمّهات بفخرٍ إلى أبنائهنّ.

لويزةِ فقط صارت تهسهسُ، وتهزّ رأسها بسرعةٍ، وتُهمهم بصوتٍ عالٍ، حتّى قال لها الواقفون إلى جوارها إنّه من الأفضل أن تذهب إلى بيتها، فكان ردُّ فعلها أنْ رفعت صوتها وهَتفت: «أليسَ بينكم من يفهم ما يفعله تيل هنا؟ إنّه يستحضر الموت، يستدعيه إلى هنا».

ولكنْ عندما هسهسنا بدورنا رافضين قولها، وهدّدناها، انزعجتْ وانسحبتْ، نحْمد الله، فعاود العزف على المزمار فيما وقفت الصَّبيّة إلى جانبه وقفةً مَلَكيّةً، فبَدت كأنّها من الأشْراف. غنّت بصوتٍ صافٍ عن الحُبّ الذي كان أقوى من الموت. غنّت عن حُبّ الوالدين، وحُبّ الرَّبّ، وعن الحُبّ بين الرّجُل والمرأة، وهنا ثمّة ما تغيّر في الّلحن: تسارع الإيقاعُ، واحْتدمت النَّغمات، وفجأةً انتقل الغناء إلى العشق الجسديّ بين الأجساد الدافئة، والتّقلُّب على العشب، وعن رائحة الجسد العاري، والمؤخّرة الكبيرة، فضحك الرِّجال بيننا، ثمَّ اندمجت النّساء في الضَّحك، وكان ضحك الأولاد هو الأعلى، حتّى مارتا الصَّغيرة ضحكت. كانت قد تسلّلت إلى الأمام، وفهمت الأغنية جيّداً، فكثيراً ما كانت تسمع أباها وأمّها في الفراش، والخَدَم في البرسيم، وأختها، التي خرجت السَّنة الفائتة ليلاً مع ابن النَّجّار، لكنّ مارتا تسلّلت وراءهما، ورأت كلّ شيءٍ.

ارتسمت على وجه الرّجُل المشهور ابتسامةٌ شهوانيّةٌ عريضةٌ، وانشدَّت بينه وبين المرأة طاقة جذبٍ قويّة، دفعتها إليه، ودفعته إليها، وانشدَّ جسداهما الواحد نحو الآخر، بحيث أوشكا أخيراً أن يتماسّا، لكنّ الموسيقا التي كان يعزفها بَدأت تَحول دون ذلك؛ إذْ تبدّلت كأنّما نتيجة سَهْوٍ، فمرَّت اللّحظة، ولم تعُد النّغمات تسمح بعودتها. كان لحن (حَمَل الرَّبّ) رمز قيامة المسيح. فمدَّت الصَّبيّة يديها بتقى «من يحمل خطايا العالم عن البشر»، فتراجع تيل، وبَدا كلاهما مرعوباً من الجموح الذي كاد يأخذهما، مثلما ارتعبنا نحن أيضاً وصَلَّبْنا، لتذكُّرنا أنَّ الرَّبَّ يرى كلَّ شيءٍ، ولمْ يكن راضياً. ركع كلاهما، فركعنا مثلهما. أوقف المزمار على الأرض، نهض، بسط ذراعيه، وطلب مالاً وطعاماً، فثمّة استراحة، وبعدها سيعرض الجزء الأفضل، إذا ما دفع له الجمهور جيّداً، لاحقاً.

مددنا أيدينا إلى جيوبنا مأخوذين. جالت المرأتان بيننا، وبيَدِ كلٍّ منهما كوب. دفعنا كثيراً، بحيث صارت قطع النّقود ترنّ وتقفز. الكلّ دفعوا: كارل شونْكنِشت دفع، ومالتِه شوبف وأخته التي تلثغ دفعا، وكذلك عائلة موللر البخيلة عادةً دفعت أيضاً، حتّى هاينريش ماتَّر الأدرَد وماتياس فولزيغن دفعا بسخاءٍ، على الرّغم من أنّهما عاملان يدويّان، ويعدّان نفسيهما من فئةٍ أرقى.

جالت مارتا ببطءٍ حول العربة ذات الخيمة.

كان تيل أولنشبيغل يجلس هناك، مستنداً بظهره إلى دولاب العربة، ويشرب من كوب بيرةٍ كبيرٍ، وإلى جانبه يقف الحمار.

- «تعالي إلى هنا». قال لها.

اقتربت منه بقلبٍ يخفق.

مدَّ نحوها كوب البيرة قائلاً: «اشربي».

تناولت منه الكوب الكبير. كان مذاق البيرة مُرّاً وثقيلاً.

- النّاس هنا، هل هُم طيّبون؟

هزَّت رأسها موافقةً.

- هل هُم مسالمون، يساعدون بعضهم، ويفهمون بعضهم، ويحتملون بعضهم.. هل هُم من هؤلاء النّاس؟

- أخذت رشفةً ثانيةً وقالت: «نعم».

- «حسناً». قال تيل.

- «سوف نرى». قال الحمار.

من رعبتها أفلتت مارتا الكوب من يدها.

- «خسارة! البيرة الطّيّبة، يا لكِ من طفلةٍ غبيّةٍ!». قال الحمار.

- «هذا يسمّونه الكلام من البطن». قال تيل: «يمكنك أنتِ أيضاً أن تتعلَّميه، إذا أردتِ».

- «يمكنكِ أنتِ أيضاً أن تتعلّميه». قال الحمار.

رفعت مارتا الكوب، وخَطت خطوةً إلى الوراء. كبرت بركة البيرة، ثمَّ صغرت من جديد، فالتّربة الجافّة امتصَّت البَلل.

- «بجدٍّ الآن». قال تيل: «تعالي معنا. صرتِ تعرفينني الآن. أنا تيل. أختي هناك اسمها نِله. إنَّها ليست أختي. اسم المرأة العجوز لا أعرفه، والحمار هو الحمار».

حَمْلقت مارتا فيه.

- «سنعلّمكِ كلَّ شيءٍ». قال الحمار: «أنا، ونِله، والعجوز، وتيل. وأنتِ تتخلَّصين من هذا المكان. العالمُ كبيرٌ. يمكنك رؤيته. أنا اسمي ليس حماراً فقط، بل لي اسمٌ أيضاً، أنا أوريغِنِس».

- لماذا تطلب مني أنا؟

- «لأنك لستِ مثل أولئك». قال تيل: «أنت مثلنا».

مدَّت مارتا يدها إليه بالكوب الكبير، لكنّه لم يأخذه منها، فوضعته على الأرض. أخذ قلبها يخفق. فكّرت في والديها، وأختها، والبيت الذي عاشت فيه، وفكّرت في الهضاب هناك وراء الغابة، وبصوت الرّيح في الشَّجر، الذي لم تستطع تصوُّر أن يكون له في الأماكن الأُخرى الوقْع نفسه كما هنا، وفكّرت في اليَخنة التي تطبخها أمُّها.

بَرقتْ عينا الرَّجُل الشَّهير عندما قال مبتسماً: «فكّري في المثَل القديم: ما هو أفضل من الموت تجدينه في كلّ مكان».

هزَّت مارتا رأسها رفضاً.

- «حسناً إذاً». قال تيل.

انتظرت، لكنّه لم يُضِف شيئاً، واحتاجت إلى بُرهةٍ كي تدرك أنَّ اهتمامه بها قد انطفأ.

بناءً على ذلك دارت حول العربة ثانيةً، وعادت إلى النّاس الذين تعرفهم، إلينا، فنحن كنّا آنذاك حياتها، التي لم يعد هناك غيرها. جلست على الأرض. شعرت بنفسها خاويةً، ولكنْ عندما رفعنا أنظارنا، فعلت مارتا الشّيء نفسه، فجميعنا في الوقت نفسه انتبهنا إلى أنّ هناك شيئاً عالقاً في السَّماء.

ثمّة خطٌّ أسْودُ قصَّ زُرقة السَّماء. كان حَبْلاً.

كان مربوطاً من أحد طرفيه إلى صليب نافذة بُرج الكنيسة، ومن الطّرف الآخر إلى سارية العَلم الخارجة من الجدار إلى جانب نافذة مجلس المدينة، حيث يعمل الحاكم، إلّا أنّه نادراً ما يفعلها؛ لأنّه كسولٌ. كانت الصَّبيّة واقفةً في النّافذة، ولابدّ من أنّها قد انتهت في الحال من تثبيت عُقدة الحَبْل، ولكنْ، كيف شدته؟ هكذا سألنا أنفسنا.يمكن للمرء أن يكون هنا، أو هناك، في هذه النّافذة، أو في تلك، ويمكن للمرء بسهولةٍ أن يثبّت رباط حَبْلٍ ويتركه ليسقط، ولكنْ كيف له أن يرفعه إلى النّافذة الأُخرى كي يربط الطّرف الثّاني؟

فتحنا أفواهنا دهشةً. تراءى لنا لبُرهةٍ من الزَّمن كأنّ الحَبْل نفسه هو الفقرة الفنّيّة، ولا حاجة إلى شيءٍ آخر. حطَّ عليه عصفورٌ دوريٌّ، قفز قفزةً صغيرةً، فردَ جناحيه، غيَّر رأيه وبقي جالساً.

ظهر تيل أولنشبيغل في نافذة بُرج الكنيسة، لوَّح بيده، قفز إلى حافّة النّافذة، ووقف على الحَبْل. فعلها كأنّ لا شيء في الأمر. فعلها كأنّها ليست أكثر من خطوةٍ كأيّ خطوةٍ أُخرى. لمْ ينطق

أحدنا بكلمةٍ، ولمْ يصدر عنّا أيٌّ هُتافٍ، أو حتّى حركة. توقّفنا عن التّنفُّس.

لمْ يتأرجح، ولمْ يحاول أن يتوازن، بلْ مشى ببساطةٍ، مُحرّكاً ذراعيه يميناً ويساراً، مشى كما يمشي المرء على الأرض، لكنّ المشية بدَت متكلّفةً نوعاً ما، بطريقة وضعه القدم بعد الأُخرى دائماً بكلّ دقّة. كان على المرء أن يدقّق النَّظر كي يلْحظ حركات الوركَيْن الدَّقيقة، اللّذين كان يتلقّى بهما تأرجُح الحَبْل. قام بقفزةٍ، وثنى ركبتيه لحظةً عندما نزل على الحبل ثانيةً، ثمّ مشى متمهّلاً، ويداه مبسوطتان وراء ظهره حتّى الوسط. طار العصفور، لكنّه خفق بجناحيه بضْع مرّاتٍ، وعاد إلى الحَبل ملتفتاً برأسه. كان السُّكون شاملاً، إلى درجة سماعنا تلوينات زقزقته، وسمعنا -طبعاً- بقراتنا أيضاً.

فوقنا استدار تيل بهدوءٍ واسترخاءٍ، ليس كمن كان في خطرٍ، ولكنْ كمن يستطلع ما حوله بفضولٍ، وقدمه اليُمنى على الحَبل طولانيّاً، واليسرى عرضانيّاً، الرُّكبتان محنيّتان قليلاً، والقبضتان مستندتان إلى خاصرتيه، ونحن جميعنا، الذين كنّا قد رفعنا أنظارنا إليه، فهمنا دفعةً واحدةً ماهي الخفّة. فهمنا كيف يمكن أن تكون الحياة لشخصٍ يفعل حقّاً ما يريده، ولا يصدّق شيئاً، ولا يطيع أحداً. فهمنا ما معنى أن يكون المرء مثل

هذا الإنسان، وفهمنا -أيضاً- أنّنا لا يمكن أبداً أن نصير مثل هذا الإنسان.

- اخلعوا أحذيتكم!

لا ندري إنْ كنّا قد فهمناه.

- «اخلعوها». صاح تيل: «كلّ واحدٍ منكم الفردة اليمنى. لا تسألوا. نفّذوا. سيكون الأمر مسلّياً. ثقوا بي. اخلعوها. الكبار والصّغار، الرّجال والنّساء، الجميع. الفردة اليمنى».

حَمْلقنا فيه.

- ألَيسَ الأمر مسلّياً حتّى الآن؟ ألا تريدون المزيد؟ سأريكم أكثر. اخلعوا أحذيتكم. الفردة منى، هيّا!

احتجنا إلى برهةٍ حتّى بدأنا نتحرّك. هكذا حالنا دائماً، فنحن نتحرّك بتُؤدة. أوّل من أطاع كان الخبّاز، وبعده مباشرةً مالتِه شوبف، ثمّ كارل لَم، ثمّ زوجُه، تبعهم العُمّال اليدويّون، الذين يظنّون أنّهم من عليّة القوم دائماً، ثمّ أطعنا جميعنا، كلّ واحدٍ منّا، إلّا مارتا. نكزتها بكوعها تينِه كروغمَن الواقفة إلى جانبها، وأشارت إلى قدمها اليمنى، لكنّ مارتا هزّت رأسها رافضةً، وقام

تيل على الحبل بقفزةٍ ثانيةٍ، ضرب في أثنائها قدميه ببعضهما، وهو في الهواء. بلغت القفزة علوّاً اضطّرّه عند الهبوط على الحبل إلى بسط ذراعيه كي يوازن نفسه، ولكنّ لحظةً قصيرةً كانت كافيةً لتذكيرنا بأنّه هو أيضاً له ثِقل، ولا يستطيع أنْ يطير.

- «والآن، ارموها». صاح بصوتٍ عالٍ وواضحٍ: «لا تفكّروا، لا تسألوا، لا تتردّدوا. ستكون التّسلية كبيرةً. نفّذوا ما أقول. ارموا!».

كانت تينِه كروغمَن الأولى. طار حذاؤها، وارتفع عالياً، واختفى في الحشْد، ثمّ طار الحذاء الثّاني، وكان لسوزانِه شوبف، تبعه الثّالث، ثمّ عشرات، وبعدها عشرات، وأكثر فأكثر. ضحكنا جميعنا، وصحنا، وهتفنا: «انتبه!»، و«احمِ رأسك!»، و«هناك شيء يسقط!»، كانت التّسلية صاخبةً، ولم يتأذَ أحدٌ من إصابة حذاءٍ رأسه، بعض النّساء شَتمْنَ، وبعض الأطفال بكوا، ولكنْ لم يقع ما يُسيء، حتّى مارتا اضطّرّت إلى الضّحك عندما كادت جزمةٌ جلديّةٌ ثقيلةٌ أن تصيبها، في حين هبط نعلٌ قماشيٌّ إلى جانب قدميها. كان تيل مُحقّاً، وبعضهم وجد الأمر مسلّياً جدّاً، فرموا فراد الأحذية اليسرى أيضاً، وبعضهم رموا قبّعاتٍ وملاعقَ، وأكوابٌ تكسّرت في مكانٍ ما، وطبيعيٌّ أنّ بعضهم قد رموا حجارةً أيضاً، ولكنْ عندما خاطبنا صوتُه تراجع الصَّخب، وأصْغينا.

- أيّها الحمقى!

رمشت عيوننا، فالشّمس مالت نحو الأفق. الواقفون في الجانب الخلفيّ من السّاحة رأوه بوضوحٍ؛ أمّا بالنّسبة إلى الآخرين فكان مجرّد خيالٍ.

- أيّها المجانين، أيّتها الرّؤوس الفارغة، أيّتها الضّفادع، يا عديمي النّفع، يا مناجِذ، يا جرذان غبيّة، ليلتقط كلٌّ منكم الآن فردته ثانيةً.

حَملقنا نحوه.

- «أم إنّكم في غاية البلادة؟ ألمْ يعُد بإمكانكم التقاطها، لم تعودوا قادرين، هل رؤوسكم غبيّة إلى هذا الحدّ؟». وضحك متذمّراً. طار العصفور، ارتفع فوق السّطوح واختفى.

تبادلنا النّظرات فيما بيننا. ما قاله كان حقيراً، ولكنْ ليس إلى درجة ألّا يمكن عدّهُ مُزاحاً وسُخريةً خشنةً على طريقته، فقد كان مشهوراً بذلك، ويجيزه لنفسه.

- «ماذا بكم؟». سألنا: «أما عُدتم في حاجةٍ إليها؟ أما عُدتم تريدونها؟ التقطوا أحذيتكم يا بقر!».

كان مالتِه شوبف أوّلنا. لمْ يكن مرتاحاً طوال الوقت، فانطلق الآن إلى حيث ظنّ أنّ جزمته قد طارت. دفع في طريقه بعضهم جانباً، شقّ طريقه، انسلّ بين الواقفين، انحنى وبحث بين الأرجُل. على الطّرف الآخر من السّاحة اندفع كارل شونكنِشت مثله، وتلته إليزابِيت أرملة الحدّاد، لكنّ العجوز لِمبكِه اعترض طريقها صائحاً إنّ عليها الابتعاد، فهذه فردة حذاء ابنته، لكنّ إليزابيت التي ما زالت جبهتها تؤلمها جرّاء إصابتها بجزمةٍ صاحت في وجهه بأنّ من الأفضل له أن ينسحب، فهي مازالت قادرةً على تمييز حذائها، ومن المؤكّد أنّ ابنة لمبكة لا تملك حذاءً مطرّزاً وجميلاً مثل حذائها، فما كان منه إلّا أنْ صاح بها لتبتعد عن طريقه، وألّا تشتم ابنته، فعاودت الصّياح بدورها قائلةً: إنّه لصٌّ أحذيةٍ قذرٌ، عندها تدخّل ابن لمبكه قائلاً: «إنّي أحذّرك!»، وفي الوقت نفسه بدأ شجارٌ آخر بين ليزِه شوخ وزوجِ الطّحّان، فحذاءاهما كانا فعلاً متشابهين، وقدماهما بالمقاس نفسه، كما تصايح كارل لَمّ وزوج أخته بكلماتٍ نابيةٍ، وفجأةً فهمت مارتا ما يجري هنا، فنزلت على أربعتها على الأرض وشقّت طريقها مبتعدةً.

فوقها كان النّاس يتدافعون، ويتشاتمون، ويتضاربون. ثمّة اثنان عثرا على فردتيهما بسرعةٍ، وغادرا السّاحة؛ أمّا بين الآخرين فاشتعل غضبٌ جامحٌ، كأنّه كان متراكماً منذ مدّةٍ طويلةٍ. كان

النّجّار موريتس بلات وحدّاد الخيل سيمون كِرْن يتبادلان اللّكمات، ومَن فكّر في أنّ الأمر كان فقط بسبب الأحذية، ما كان ليفهم ما يجري؛ إذْ كان يُفترض به أن يعرف أوّلاً أنّ زوجَ موريتس كانت في طفولتها موعودة لسيمون. كلاهما كانا ينزفان من أنفيهما وفميهما، ويلهثان كحصانين، ولمْ يجرؤ أحدٌ على التّدخّل بينهما؛ وكذلك لورِه بيلتس وإلزا كولشميت كانتا تتعاركان بفظاعةٍ، لكنّهما كانتا أوّلاً وآخراً تكره إحداهما الأُخرى منذ وقتٍ طويلٍ إلى درجة أنّهما نسيتا الأسباب. إلّا أنّ النّاس كانوا يعرفون جيّداً سبب شجار عائلة زِمْلر مع جماعة بيت غرونانْغر؛ كانت بسبب قطعة الأرض المتنازع عليها، ومسألة الإرث القديم، التي تعود إلى أيّام بيتر رئيس مجلس المدينة، وأيضاً بسبب ابنة زملر وابنها الذي ليس من زوجها، بلْ من كارل شونكنشت. مثل الحُمّى انتشر الغضبُ في المكان، حيثما وقعت عين الإنسان كان النّاس يتصايحون ويتضاربون، والأجسام تتدحرج، أدارت مارتا رأسها، ونظرت إلى الأعلى.

كان واقفاً على الحَبْل ويضحك، مميلاً جسمه إلى الوراء، فاتحاً فمه حتّى آخره، وكتفاه يهتزّان. قدماه فقط كانتا ساكنتين، ووركاه يهتزّان مع أرجحة الحَبْل. خُيِّل إلى مارتا أنّها إذا نظرت على نحوٍ أفضل فستفهم سبب سروره بهذه الصّورة، لكنّ رجُلاً

راكضاً في اتّجاهها من دون أن يراها صدمها بجزمته في صدرها، فخبط رأسها الأرض، وعندما أخذت شهيقاً أحسّت بإبرٍ تَخِزها. انقلبت على ظهرها. كان الحَبْل والسّماء خاليين. لقد اختفى تيل أولنشبيغل.

رفعت نفسها عن الأرض بصعوبةٍ. مشت تعرج متجاوزةً الأجساد المتعاركة، المتضاربة، الباكية، التي تعضّ بعضها بعضاً، متعرّفةً هنا وهناك إلى بعض الوجوه؛ عَرجت على طول الطّريق بكتفين محنيّين، ورأسٍ منكّسٍ، وما إنْ وصلت إلى باب دارها حتّى سمعت وراءها طقطقة العربة ذات الخيمة. استدارت مارتا. على مقعد الحوذيّ جلست الصّبيّة التي سمَّاها نِله، وإلى جانبها تكوَّرت العجوز بلا حراكٍ. لماذا لم يوقفها أحد، لماذا لم يلحق بهم أحد؟ تجاوزت العربة مارتا، التي تابعتها محدّقةً إليها. بعد لحظاتٍ ستصل إلى شجرة الدّردار، ثمّ إلى بوّابة المدينة، ثمّ تغيب.

وعندما اقتربت العربة من آخر البيوت، ركض وراءها شخصٌ بخطواتٍ واسعةٍ، وبلا جهدٍ. كانت فروة معطف العِجْل تشرئبّ حول عنقه مثل شيءٍ حيٍّ.

- «كان بودّي أن آخذك معي». هتف عندما تجاوز مارتا راكضاً، وقبل أن ينعطف الطّريق بقليلٍ، لحق بالعربة وقفز إليها. كان حارس البوّابة معنا في السّاحة الرَّئيسة، فلمْ يوقفهم أحدٌ.

ببطءٍ دخلت مارتا إلى الدّار، أغلقت الباب وراءها، وأنزلت المِزلاج. كان التّيس قابعاً إلى جانب المَوقد، ورفع رأسه إليها متسائلاً. سمعت خوار البقر، ومن السّاحة الرّئيسة تردّدت أصداء صراخنا.

لكنّنا هدأنا أخيراً، وقبل حلول المساء حلبنا البقرات. عادت أمُّ مارتا إلى الدّار، وعدا بعض الخدوش لمْ تُصَب بكبير أذىً؛ أمّا أبوها ففقد سنّاً وتمزّقت أذنه قليلاً، كما داس أحدهم بشدّةٍ على قدم أختها، فبقيت تعرج بضعة أسابيع، ثمّ جاء الصّباح التّالي، والمساء بعده، واستمرّت الحياة. في كلّ بيتٍ كانت هناك أورامٌ، وجروحٌ، وخدوشٌ، وأذْرعٌ ملتويةٌ، وأسنانٌ ناقصةٌ، ولكنْ في اليوم التّالي كانت السّاحة قد نظفت، ولبس كلّ امرئٍ حذاءه.

لمْ نتحدّث قطّ عمّا جرى، كما لمْ نتحدّث عن أولنشبيغل، ومن دون أن نتّفق على ذلك تقيّدنا جميعنا بالأمر؛ حتّى هانس زِملر، الذي كانت إصابته فادحةً، اضطرّته منذئذٍ إلى ملازمة السّرير، من دون أن يستطيع أكل أيّ شيءٍ سوى حساءٍ سميكٍ، متظاهراً

بأنّ الأمر كان كذلك دائماً، وكذلك أرملُ كارل شونكنشت، الذي دفنّاه في اليوم التّالي في أرض الرّبّ، تصرّفت كأنّ الأمر كان ضربة قدَرٍ، وكأنّها لا تعرف بدقّةٍ صاحب السّكّين التي طعنت ظهره، لكنّ الحَبْل بقي عدّة أيّامٍ معلّقاً فوق السّاحة، مهتزّاً مع الرّيح، ومهبطاً للعصافير والسّنونو، حتّى تمكّن الكاهن -الذي تأذّى على نحو خاصٍ في المعمعة؛ لأنّنا لا نحتمل عَجرفته وتعاليه- بعد تعافيه من صعود برج النّاقوس، وقصِّ الحَبْل.

لكنّنا لمْ ننسَ أيضاً. ما جرى بقي بيننا. كان موجوداً في أثناء جمعنا الحصاد، وكان موجوداً عندما كنّا نتساوم مع بعضنا حول سِعر الحبوب، أو عندما كنّا نجتمع في الكنيسة لقدّاس الأحد، حيث عَلا وجْه الكاهن تعبيرٌ جديدٌ، نصفه دهشةٌ، ونصفه خَشْيةٌ، وكان موجوداً خاصّةً في السّاحة عندما كنّا نحتفل بالأعياد، وعندما ننظر أحدنا في وجه الآخر في أثناء الرّقص، ثمّ خُيّل إلينا أنَّ الهواء صار أثقل، وأنَّ مذاق الماء اختلف، وأنَّ السَّماء منذ انشَدَّ الحَبْل عبرها لمْ تعُد هي نفسها.

وبعد مُضيّ سنةٍ تقريباً جاءت الحرب إلينا فعلاً. ذات ليلةٍ سمعنا صهيلاً، ثمّ سمعنا في الخارج ضحكاً بأصواتٍ كثيرةٍ، وسرعان ما سمعنا تحطّم أبواب البيوت، وقبل أنْ نصل إلى

الشّارع مسلّحين بالمذارِ والسّكاكين التي لا جدوى منها، كانت النّيران قد اندلعت.

كان المرتزقة أشدّ جوعاً من العادة، وكانوا قد شربوا أكثر. كانوا قد أمضوا مدّةً طويلةً لم يدخلوا في أثنائها مدينةً قدّمت لهم بهذه السَّعة. العجوز لويزهِ، التي كانت مستغرقةً في النّوم، ولمْ تحْدِس هذه المرّة بما يجري، ماتت في سريرها، كما مات الكاهن عندما احتمى ببوّابة الكنيسة، وماتت ليزهِ شوخ، وهي تحاول أنْ تخبّئ قطع النّقود الذّهبيّة، ومات كلٌّ من الفرّان، والحدّاد، والعجوز لمبكه، وموريتس بلات، ومعظم الرّجال الآخرين في محاولاتهم حماية زوجاتهم، وماتت الزّوجات مثلما تموت الزّوجات في الحرب.

مارتا ماتت أيضاً. رأت قبل ذلك تحوُّل سقف الغرفة فوقها إلى قيظٍ أحمر، شمّت رائحة الدّخان قُبيل أن يحيط بها كلّيّاً، بحيث لمْ تعُد ترى شيئاً، وسمعت أختها تصيح طالبةً النّجدة، في حين أنّ المستقبل الذي كان لا يزال أمامها قد ذاب إلى لا شيء: الزّوج الذي لن يكون لها، الأطفال الذين لن ترعاهم حتّى يكبروا، والأحفاد الذين لن تحكي لهم عن مهرّجٍ شهيرٍ ذات يومٍ ربيعيٍّ قبل الظُّهر، وأولاد هؤلاء الأحفاد، والنّاس كلّهم لن يعود لهم وجودٌ بعدها. بهذه السّرعة يذهب كلّ شيءٍ، فكَّرت كأنّها قد اكتشفت

سرّاً مستغلقاً، وعندما سمعت عوارض السّقف تتكسّر وتتفتّت، خطر في بالها أنّ تيل أولنشبيغل ربّما سيكون الوحيد، الذي سيتذكّر وجوهنا، ويعرف أنّنا كنّا موجودين.

لمْ ينجُ عمليّاً سوى المشلول هانس زِمْلر، الذي لم يلتقط بيته الحريق، والذي سهوا عنه؛ لأنّه لم يستطع أن يتحرّك، وكذلك إلزا تسيغلر وباول غرونانغر، اللّذان كانا خفيةً في الغابة معاً، وعندما رجعا في الفجر بثيابٍ شعثاء، وشَعرٍ أشعث، ولم يجدا سوى حطامٍ يتصاعد منه الدّخان، فكّرا لحظةً بأنّ الرّبّ القدير قد عاقبهما على خطيئتهما بالنّار. غادرا معاً في اتّجاه الغرب، وكانا لوقتٍ قصيرٍ سعيدَيْن.

أمّا نحن -الآخرين- فكنّا نُسمعُ هناك، حيث عشنا ذات يومٍ، في الأشجار أحياناً، في الحشائش، وفي الجداجد، وإذا وضع المرء رأسه على إبط غصن شجرة الدّردار، وكان يُخيّل إلى الأطفال أحياناً أنّهم يرون وجوهنا في مياه الجدول. كنيستنا لم تعُد موجودةً، لكنّ الحصى الذي صقلته المياه، وجعلته أبيضَ اللّون مازال هو نفسه، مثلما أنّ الأشجار هي نفسها، لكنّنا نتذكّر أنفسنا، حتّى عندما لا يتذكّرنا أحدٌ؛ إذْ إنّنا لمْ نرض بعْد بعدم وجودنا. الموت مازال جديداً بالنّسبة إلينا، ولمْ نفقد بعْدُ

تيل

اهتمامنا بأمور الأحياء؛ إذْ لم يمضِ وقتٌ طويلٌ بعْدُ على كلّ ما جرى.

سيّد الهواء

1

شدَّ الحَبْل بارتفاع رُكبةٍ، من شجرة الزّيزفون إلى شجرة التّنوب، ومن أجل تحقيق ذلك كان عليه حفر حزوز. كان الأمر سهلاً في شجرة التّنوب؛ أمّا في الزّيزفونة فكانت السّكّين تنزلق باستمرارٍ، لكنّ الأمر تمّ له أخيراً. تفحّص العُقَد، خلع حذاءه الخشبيّ بتؤدة، ارتقى الحَبْل، سَقط.

ارْتقى الحَبْلَ ثانيةً، بسط ذراعيه، ومشى خطوةً، فردَ ذراعيه، لكنّه لم يستطع الثّبات، فسقط. ارتقاه من جديد، حاول المشي، سقط مُجدّداً.

حاول مرّةً أُخرى، وسقط.

لا يمكن للإنسان أن يمشي على حَبْلٍ؛ هذا أمرٌ جليٌّ. أقدام الإنسان غير مهيّأةٍ لذلك، فلِمَ المحاولة عموماً؟

لكنّه تابع المحاولة، كان يبدأ دائماً من شجرة الزّيزفون، ويسقط فوراً كلّ مرّةٍ، والسّاعات تمضي. نجح بعد الظُّهر في المشي خطوةً، خطوةً واحدةً، وحتّى حلول المساء لم يستطع أنْ يخطو

خطوةً ثانيةً. على الرّغم من ذلك، ولحظة حَمله الحَبْل، ووقف عليه كما على أرضٍ ثابتةٍ.

في اليوم التّالي هطل المطر مدراراً. بقي في البيت وساعد أمّه. «أبْقِ القماش مشدوداً، لا تحلم، لأجل المسيح»، والمطر يقرع على السّطح، كما بمئات الأصابع الصَّغيرة.

في اليوم الذي تلاه استمرّ هطول المطر. بردٌ قارسٌ، والحبل متجمّدٌ، لا يمكن المشي عليه ولو خطوة.

في اليوم الثّالث مطرٌ ثانيةً. ارْتقى الحَبْل، وسقط، وارتقاه مُجدّداً، وعاود السّقوط في كلّ مرّةٍ. بقي على الأرض برهةً، باسطاً ذراعيه، وشَعره من البَلل بقعةٌ داكنةٌ فحسب.

اليوم التّالي كان الأحد، لذلك لمْ يستطع ارتقاء الحَبل حتّى بعد الظُّهر، فالقدّاس يستمرّ الصَّباح كلّه. في المساء نجح في المشي ثلاث خطواتٍ، ولو لم يكن الحَبل مبلولاً لمشى الخطوة الرّابعة.

تدريجيّاً بدأ يفهم كيف يمكن للمرء أن يفعلها. عليه فهم ركبتيه لكي يُثبّت كتفيه على نحوٍ مختلفٍ. على المرء أن يستجيب للتّأرجح، وعلى ركبتيه أن تلينا، وردْفيه كذلك، كي يتفادى

السّقوط قبل خطوةٍ. الثّقل يجذب الإنسان، لكنّ الإنسان يكون قد تابع الرّقص على الحبل يعني الهروب من السّقوط.

في اليوم الخامس تحسّن الطّقس. كانت زيغان الزّرع تنعق، والنّحل يطنّ، والجداجد تصرّ، والشّمس تقشع الغيوم. كان زفيره يرتفع في الهواء مثل غيومٍ صغيرةٍ، وكان ضوء الصّباح ينقل الأصوات، فسمع أباه في الدّار يصرخ بأحد الخَدم. أخذ يغنّي لنفسه أغنية الجزّاز، المدعو موت، الذي منحه الرّبُّ القدير سُلطةً. كان لحنها يناسب جيّداً الوقوف على الحَبْل، ولكن يبدو أنّه رفع عقيرته جدّاً بالغناء، ففجأةً وقفت أمّه أغْنيتا إلى جانبه وسألته: لماذا لا يعمل.

- سآتي حالاً.

- «لا بُدّ من جَلْب الماء، ويجب تنظيف المَوقد». قالت.

فرَدَ ذراعيه، ارْتقى الحَبْل، وحاول ألّا ينْجذب إلى بطنها المقبّب. هل يوجد فيه طفلٌ حقّاً، يركل، ويرفّ، ويسمع أحاديثهم؟ الفكرة تزعجه. إذا أراد الرّبّ خلق إنسان، فلماذا يخلقه في إنسانٍ آخر؟ ثمّة شيءٌ بشعٌ في أنّ الكائنات جميعها تتشكّل في الخفاء: الدّود في العجين، الذّباب في الرّوث، الدّيدان في التّربة البنّيّة، ولكنْ نادرٌ

جدّاً -شرح له أبوه- ما ينمو من أطفالٍ من جذور تفّاح المجانين، والأكثر ندرةً أن يفقس الخُدّج من بيض الجنّ.

- «أعليَّ أن أنادي سِب؟». سألته: «أتريدني أن أُحضر لك سب؟».

سقط الصَّبيُّ عن الحَبْل، أغمض عينيه، فردَ ذراعيه، صعد ثانيةً. عندما التفت نحو أمّه ثانيةً، كانت قد اختفت.

أمِلَ ألّا تُحوِّل تهديدها إلى واقعٍ، ولكنْ بعد فترةٍ حضر سِب فعلاً، نظر إليه برهةً، ثمّ داس على الحَبْل، ودفع الصَّبيّ. لم تكن دفعةً بسيطةً، بلْ قويّةً جدّاً بحيث خبط الصَّبيّ بطوله الأرضَ، ونتيجة غضبه نعت سِب بأنّه مؤخّرة ثورٍ مقرفةٌ، وينْكح أخته.

لمْ يكن ما قاله يدلّ على ذكاءٍ، فهو أوّلاً لا يعرف إطلاقاً ما إن كان لدى سِب أخت، وهو مجرّد خادمٍ جاءهم من مكانٍ ما، وسيتابع طريقه إلى مكانٍ ما، وثانياً كان الشّابُّ في انتظار مثل هذا الكلام، وقبل أنْ يتمكّن الصّبيُّ من النّهوض، قعد سِب على قفا رأسه.

لمْ يستطع الصّبيُّ أنْ يتنفّس، والحجارة تحزّ في وجهه. استدار بجسمه من دون أن يستفيد شيئاً، فعمر سِب يعادل ضعف

عُمره، وهو أثقل منه بثلاث مرّات، وأقوى منه بخمس مرّات، فضبط نفسه كي لا يستهلك الكثير من الهواء. أحسّ على لسانه بطعم الدّم. كان يتنفّس برازاً، غَصَّ وبصق. أحسّ في أذنيه بزنينٍ وصفيرٍ، وبدا كأنّ الأرض ترتفع وتنخفض تحته لتعود فترتفع.

فجأةً اختفى الثّقل. قُلِب على ظهره، في فمه ترابٌ، وعيناه ملتصقتا الجفون، وفي رأسه يحفر ألمٌ شديدٌ. جرَّه الخادم إلى الطّاحون: على الحصى، والتّراب، عبر الحشيش، على المزيد من التّراب، على حصى صغيرٍ حادّ الأطراف. تجاوزا الأشجار، والخادمة الضّاحكة، والشّونة، وإصطبل الماعز، ثمّ أنهضَه نتراً، فتح الباب ودفعه إلى الدّاخل.

- «جئتَ في الوقت المناسب أخيراً. المَوقد لا يُنظِّف من تلقاء نفسه». قالت له أمّه أغنيتا.

إذا مشى المرءُ من الطّاحون في اتّجاه القرية، فعليه أنْ يعبر قطعةً من الغابة، هناك حيث تخفّ كثافة الأشجار، ويعبر المرءُ الممرَّ المؤدّي إلى القرية: مروجٌ، ومراعٍ، وحقولٌ، ثلثها متروكٌ بوراً، وثلثان قيد الفلاحة ومحميّان بسورٍ من الألواح الخشبيّة، ويرى ذروة بُرج الكنيسة. ثمّة مَن يجلس هنا دائماً في الطّين ويصلح الأسوار؛ لأنّها تخرَب باستمرارٍ، لكنّها يجب أنْ تصمد، وإلّا لهربت

المواشي، أو تخرّب حيوانات الغابة الحبوب. معظم الحقول مُلك بيتر شتيغَر، ومعظم الحيوانات أيضاً، يمكن للمرء ملاحظة ذلك بسهولةٍ من وشْمه على رقابها.

أوّل ما يتجاوزه المرءُ هو دار هنَّا كريل، تجلس على عتبتها وتصلح الثّياب، وماذا عساها تفعل سوى ذلك، فهكذا تكسب رزقها، بعده يمشي المرء في الزّقاق الضّيّق بين عزبة شتيغر وورشة حِدادة لودفيغ شتِللينغ، يصعد الرَّصيف الخشبيَّ كي لا يغوص في الرّوث الطّريّ، يترك وراءه على اليمين إصطبل ياكوب كرون ليجد نفسه على الشّارع الرّئيس، وهو الشّارع الوحيد. هنا يسكن أنسِلم مِلكر مع زوجِه وأولاده، وإلى جانبه يسكن أخو زوجِه لودفيغ كولَّر، وبعده ماريا لوزِرين التي توفّي زوجها السّنة الفائتة؛ لأنَّ أحدهم تمنّى له السّوء؛ الابنة في السّابعة عشرة من عمرها، وجميلةٌ جدّاً، وسوف تتزوّج الابن البِكْر لبيتر شتيغر. على الجانب الآخر من الشّارع يسكن مارتين هولتس الخبّاز، مع زوجِه وبناته، وبعده تأتي الدُّور الأصغر لعائلات تام وهِنريك، وكذلك لعائلة هاينرلينغ، التي غالباً ما يُسمع شجارٌ من نوافذها؛ آل هاينرلينغ ليسوا أناساً طيّبين، فلا شرف لديهم. الجميع عدا الحدّاد والخبّاز لديهم قطع أرضٍ خارج القرية، ولدى الكلّ بعض الأغنام، لكن بيتر شتيغر الغنيّ هو الوحيد الذي عنده بقر.

ثمّ يصل المرءُ إلى ساحة القرية، والكنيسة، وزيزفونة القرية المعمّرة، والبِرْكة ذات النّافورة. بيت الكاهن يقع إلى جانب الكنيسة، وإلى جانبه البيت الذي يقيم فيه الموظّف الإداريّ باول شتيغر ابن عمّ بيتر شتيغر، وهو يتفقّد الحقول مرَّتين سنويّاً، ويجبي الضّرائب لمالك الأراضي في ثالث شهر.

في الجانب الخلفيّ لساحة القرية يوجد سياجٌ. إذا فتح المرءُ باب السّياج، ومشى عبر الحقل الكبير الذي يملكه شتيغر أيضاً، يجد المرء نفسه في الغابة ثانيةً، وإذا لمْ يخشَ المرءُ جدّاً من كالتِه رافد نهر مانْغْفَل، وتابع تجواله إلى الأمام من دون أن يضيّع الدَّرب في الغياض، فسيصل خلال ستّ ساعاتٍ إلى عِزْبة مارتين رويتر، فإنْ لم يعضّه الكلب هناك، وتابع طريقه، فسيصل بعد ثلاث ساعاتٍ إلى القرية التّالية، التي ليست أكبر بكثيرٍ من قريتنا.

لكنَّ الصَّبيّ لم يكن هناك قطّ. إنّه لم يغادر القرية إلى أيّ مكانٍ آخر قطّ، وعلى الرّغم من أنَّ عدداً من الذين كانوا في أماكن أُخرى قالوا له إنّ هناك يشبه هنا تماماً، فإنّه لا يستطيع التّوقّف عن سؤال نفسه: إلى أين يصل الإنسان إذا تابع سَيره إلى الأمام ببساطةٍ، ليس فقط إلى القرية التّالية، بلْ إلى الأمام دائماً؟

عند رأس الطّاولة يتحدّث السّيّد موللر عن النّجوم. زوجُه، وابنه، والخَدَم، والخادمة يتظاهرون بأنّهم يُنصتون. الطّعام هريس الحبوب. أمس كان الطّعام هريس الحبوب أيضاً، وغداً سيكون الطّعام هريس الحبوب كذلك. أحياناً تكون كمّيّة الماء في الطّبخة أقلّ، وأحياناً أكثر؛ كلّ يومٍ الطّعام هريس الحبوب، إلّا في الأيّام الأسوأ، حين لا يوجد بدل الهريس أيُّ شيءٍ. هناك لوحٌ زجاجيٌّ سميكٌ في النّافذة يصدّ الرّيح، وتحت المَوقد الذي لا يبثّ إلّا قليلاً من الدّفء تتناوش قطّتان، وفي زاوية الحُجرة تستلقي عنزةٌ، يُفترض أنْ تكون في الإصطبل خارج الدّار، لكن ليس هناك من يرغب في طردها إلى الخارج، فالجميع مُتعبون، كما أن قرنيها مدبّبان. إلى جانب الباب، وحول النّافذة حُفِرت نجومٌ خماسيّةٌ لطرد الأرواح الشّرّيرة.

كان موللر يصف كيف أنّ الدوَّامة في مركز الدّنيا، قبل ألفين وسبعمئة سنة وخمسة شهور وتسعة أيّام بالتّمام والكمال، قد التقطت النّار، ومنذئذٍ يدور هذا الشّيء الذي يُسمّى الدّنيا مثل مغزلٍ، ويَلِد نجوماً إلى الأبد، فبما أنّ الزّمن لا بداية له، كذلك لا نهاية له.

- «لا نهاية». كرّر وتوقّف عن متابعة الكلام. لقد لَحظ أنّه قال شيئاً غامضاً. «لا نهاية». قال بصوتٍ خافتٍ: «لا نهاية».

كلاوس أولنشبيغل أصله من الشمال، من مولّن في الشّمال اللوتري. لم يكن قد تجاوز الطّفولة بعْد عندما وصل إلى هنا قبل عقدٍ من السّنين، ولأنّه لم يكن من المنطقة لم يستطع أن يكون سوى خادم طاحونٍ، ومهنة الطّحّان ليست وضيعةً مثل مهنة جامع جُثث الحيوانات، أو مهنة الحارس اللّيلي، أو حتّى مهنة الشّانق (الجلّاد)، لكنّها ليست أفضل من مهنة المُياوِم، غير أنّها أسوأ بكثيرٍ من مهنة العمّال اليدويّين في نقاباتهم الحِرفيّة، أو من الفلّاحين الذين ما كانوا ليتنازلوا ويصافحوا شخصاً مثله، ثم تزوّجته ابنة الطّحّان، وسرعان ما مات الطّحّان، فصار هو نفسه طحّاناً، ويقوم إلى جانب ذلك بمداواة وإشفاء الفلّاحين، الذين مازالوا لا يصافحونه، فما لا يليق لا يليق، إلّا أنّهم يأتون إليه عندما يتوجّعون.

- «لا نهاية». لمْ يستطع كلاوس متابعة كلامه، فقد شغله الموضوع كثيراً. كيف يُفترض بالزّمن أن يتوقّف؟ ومن ناحيةٍ أُخرى... حكَّ رأسه. لا بُدَّ من أن يكون قد بدأ أيضاً؛ إذْ إنْ لم يكن قد بدأ إطلاقاً، فكيف وصل الإنسان إلى هذه اللّحظة؟ جال بنظره حوله. لا يمكن أن يكون قد انقضى زمنٌ لا يُحصى. إذن، لا بُدَّ من أن يكون قد بدأ حتماً، ولكنْ ماذا عمّا قبل؟ ما قبل بدء الزّمن؟ هذا يُدوِّخ، كما في الجبال، عندما ينظر الإنسان إلى تلعة.

ذات مرّةٍ، عاود كلاوس الكلام، نظر إلى إحدى التّلع في سويسرا، حين أخذه معه أحد رُعاة الألب إلى المراعي العالية، كانت الأبقار تحمل أجراساً كبيرةً، والرّاعي كان اسمه رودي. توقّف كلاوس، ثمَّ تذكّر ما كان يريد قوله. إذنْ، نظر في التّلعة، وكانت بعيدة الغَور إلى حدِّ أنّه لم يستطع رؤية قعرها، عند ذلك التفت إلى الرّاعي، الذي بالمناسبة كان اسمه رودي، وهو اسمٌ غريبٌ حقّاً؛ وسأله: «كم يبلغ عمقها؟». فأجابه رودي، وهو يجرّ الكلمات جَرّاً، كأنَّ التّعب قد تمكّن منه: «هذه لا قعر لها».

تنهّد كلاوس. الملاعق تغرف في السّكون. فكّر في البداية، تابع كلامه بأنّ هذا غير معقول، وأنّ الرّاعي كذّاب، ثمّ تساءل في نفسه عمّا إذا كانت التّلعة ربّما مدخلاً إلى جهنّم، ولكنْ فجأةً اتّضح له أنَّ الأمر لا يتعلّق بهذا إطلاقاً؛ فحتّى لو كان للتّلعة قعر، فما على الإنسان سوى أن يرفع نظره إلى الأعلى، ليرى تلعةً بلا نهايةٍ، وحكَّ رأسه بيده الثّقيلة. «تلعة». هَمْهَم، تستمرّ ببساطةٍ دائماً بلا نهايةٍ، تستمرّ، وتستمرّ، دائماً إلى الأمام، إذن، فيها مُتّسعٌ لأشياء الدُّنيا كلّها، من دون أن تملأ حتّى جزءاً من عُمقها، وفيها يتلاشى كلّ شيءٍ. أكلَ ملعقةً من هريس الحبوب. يشعر المرءُ بالغثيان، ويغشاه الوهن، حالما يتّضح له أنَّ الأرقام

لا تنتهي مُطلقاً، وأنَّ في وسع المرء أنْ يضيف إلى أيّ رقمٍ رقماً آخر، كأنّه لا ربَّ هناك ليوقف مثل هذه الممارسة.

عندها صرخ سِب، وضغط يديه على فمه. نظر إليه الجميع متفاجئين، لكنّهم مسرورون بالدّرجة الأولى بهذه الاستراحة. بصق سِب عدّة حصواتٍ بنّيّة اللّون تشبه تماماً كُتَل العجين الصَّغيرة في هريس الحبوب. لم يكن أمراً سهلاً تهريبها خفيةً إلى طاسِه، ولتحقيق ذلك على المرء انتظار اللّحظة المناسبة، وإنْ لزم الأمر فعلى المرء بنفسه أنْ يشتّت الانتباه؛ ولهذا السّبب قام الصّبيُّ قبل قليلٍ بِرَكْل الخادمة روزا في عظم ساقها، وعندما صرخت وشتمته بأنّه جرذٌ قذرٌ، أجابها بأنّها بقرةٌ بشعةٌ، فردَّت عليه بأنّه أوسخ من الرَّوث، فتدخّلت أمُّه آمرةً كليهما بالهدوء الفوريّ، وإلّا سيُحرمان من الطّعام اليوم، انحنى الصّبيُّ بسرعةٍ في لحظة التفات الجميع نحو أغنيتا، وأسقط الحصوات في طاس سِب. اللّحظة المناسبة تفوت بسرعةٍ، ولكنْ إذا كان المرءُ يقظاً فإنّه يحسّ بها، وعندها يمكن أن يَعْبُرَ وحيدُ قرنٍ من الغرفة من دون أن يلْحظه الآخرون.

تلمَّس سِب داخل فمه بأصابعه، ثمَّ بَصق سنّاً على الطّاولة، ثمّ رفع رأسه، ونظر إلى الصّبيّ.

هذا ليس جيّداً. كان الصّبيُّ متأكّداً إلى حدٍّ كبير من أنّ سِب لن يكشف الخدعة، ولكنْ من الواضح أنّه ليس غبيّاً إلى هذا الحدّ.

قفز الصّبيُّ عن كرسيّه، وركض نحو الباب، إلّا أنَّ سِب لم يكن ضخماً فقط، بلْ وسريعاً أيضاً، فتمكّن من الإمساك به. حاول الصّبيُّ التّخلُّص منه، فلم ينجح، ورفع سِب ذراعه، وهوى بقبضته على وجه الصّبيّ، فامتصَّت الضَّربة الأصوات الأُخرى جميعها.

رَمش الصّبيُّ. انتفضت أغنيتا واقفةً، ضحكت الخادمة، فهي تحبُّ مشاهدة العراك والضَّرب، وكلاوس لا يزال جالساً مقطّب الجبين، أسير أفكاره. بَحلق الخادمان الآخران بفضول. لا يسمع الصّبيُّ شيئاً، الحُجرة تدور به، وسقفها صار تحته، فقد رماه سِب على كتفه مثل كيس طحين، ثمّ حمله إلى الخارج، فرأى الصّبيّ حشيشاً فوقه، وتحته تنبسط السّماء مشوبةً بخيوط سُحب المساء. عاوده السّمع ثانيةً، ثمّة صوتٌ حادٌّ، راجفٌ، عالقٌ في الهواء.

أمسكه سِب من عضديه، وحدّق إلى وجهه عن قُرب. تمكّن الصّبيُّ من رؤية اللون الأحمر عبر لحية الخادم، فهناك في المكان الذي ينقص فيه السِّن كان الدَّمُ ينزف، وكان في مقدوره الآن أنْ

يَلْكم الخادم في وجهه بكلّ قوّةٍ، عندها كان سِب سيتركه يسقط، فإذا تمكّن بسرعةٍ من الوقوف على قدميه، فسيكسب مسافة كافية بينهما، ويصل إلى الغابة.

ولكنْ لأيّ غرضٍ؟ إنّهما يعيشان في الطّاحون نفسه، فإنْ لم يمسكه سِب اليوم، فسيمسكه غداً، وإنْ لم يكن غداً، فبعد غَد. إذنْ، الأفضل هو أن يضع المرء القضيّة وراء ظهره، على مرأى من الجميع، فأمام عيون الآخرين يُحتمل أن سِب لن يقتله.

لقد خرج الجميع من الدّار. روزا تقف على رؤوس أصابع قدميها لتتمكّن من الرُّؤية على نحوٍ أفضل، إنّها ما زالت تضحك، والخادمان إلى جانبها يضحكان أيضاً. أغنيتا تقول شيئاً ما، الصَّبيُّ يراها تفتح فمها حتّى آخره، وتهزّ يديها، لكنّه لم يستطع أن يسمعها. إلى جانبها مازال كلاوس شارد النّظرات، كأنّه يفكّر في شيءٍ آخر.

رفعه الخادم عالياً فوق رأسه. خشي الصّبيُّ أن يرميه على الأرض القاسية؛ فرفع يديه أمام جبهته للحماية، لكنّ الخادم خطا إلى الأمام خطوةً، وثانيةً، وثالثةً، وفجأة أخذ قلب الصّبيّ يضخّ بسرعةٍ، والدّم يخفق في أذنيه، فأخذ يصرخ. لم يستطع سماع صوته، صرخ بصوتٍ أعلى، مازال لا يسمع صراخه. لقد أدرك ما

ينوي الخادم، فهل أدركه الآخرون أيضاً؟ مازال في وسعهم التّدخّل، لكنْ فات الأوان؛ لقد فعلها سب، وهَوى الصّبيّ.

ما زال يهوي. بَدا أنَّ الزّمن يتباطأ، ما زال يستطيع رؤية ما حوله، إنّه يحسُّ بالسّقوط، بالانزلاق عبر الهواء، وما زال قادراً على التّفكير، أنّ ما يحدث هو بدقّةٍ ما كان يُحَذَّر منه طوال حياته: لا تنزل في النّهر أمام دولاب الطّاحون، لا تنزل أبداً أمام الدّولاب، لا تقترب من أمام الدّولاب، لا تقربه بأيّ حالٍ من الأحوال، أبداً أبداً، لا تنزل في النّهر أمام دولاب الطّاحون! والآن بعد أن فكّر في الأمر، السّقوط لم ينتهِ بعد، وما زال يهوي، ويهوي، ويهوي، وفي اللّحظة التي خطرت فيها في باله فكرةٌ أُخرى؛ أنّ لا شيء سيحدث، والسّقوط سيستمرّ ويستمرّ، ارتطمَ بالماء ونزل، وثانيةً استغرق الأمر لحظةً قبل أنْ ينهشه البَرد الجليديّ، فانغلق صدره، وصار ما أمام عينيه أسْود.

شعر بسمكةٍ تلامس خدّه، وأحسَّ بتدفُّق المياه، وأحسَّ بتسارع الدّفق، وأحسَّ بأثر المخرِ بين أصابعه. كان يعرف أنّ عليه التّمسُّك بشيءٍ ما، ولكن بماذا؟ ما حوله كلّه يتحرّك مندفعاً، ما من شيءٍ ثابت في أيّ مكان، ثمّ أحسَّ بحركةٍ فوقه، وكان عليه التّفكير في أنّه لطالما فكّر طوال حياته في هذا الأمر برُعبٍ وفضولٍ، فالسّؤال: ماذا يتوجّب عليه فعله إذا ما سقط حقّاً

ذات مرّةٍ أمام دولاب الطّاحون؟ كلّ شيءٍ مختلفٌ الآن، ولا يستطيع فعل أيّ شيءٍ، وهو يعرف أنّه على وشك الموت، سيُضغط، وسيُهرس، وسيُطحن، لكنّه يتذكّر أنَّ عليه ألّا يطفو، فلا نجاة على السَّطح، هناك يوجد الدّولاب، لذلك عليه الغوص إلى القاع.

ولكن أين هو هذا القاع؟

قام بكلّ قوّته بحركات سباحةٍ. الموت يعني لا شيء، إنّه يفهم هذا. الأمر ينقضي بسرعةٍ كبيرةٍ؛ ليس الأمر مسألةً عظيمةً، قُمْ بخطوةٍ خاطئةٍ، بقفزةٍ، بحركةٍ، وتنتهي كإنسانٍ حَيّ. عُشبةٌ تُنتَزع، جدجدٌ يُداس، لهبٌ ينطفئ، إنسانٌ يموت، لا شيء! يداه تحفران في الوحل، لقد وصل إلى القاع.

وعرف فجأةً أنّه لن يموت اليوم. خيطان من حشائش طويلةٍ تلامسه، يدخل وسخٌ في أنفه، يحسُّ بقبضةٍ باردةٍ على عنقه، يسمع صوت احتكاكٍ، يشعر بشيءٍ على ظهره، ثمَّ على كعبيه. لقد عبر من تحت دولاب الطّاحون.

دفع نفسه من القاع نحو السّطح. يرى للحظةٍ في أثناء صعوده وجهاً شاحباً، بعينين كبيرتين خاويتين، وفمٍ مفتوحٍ، يضيء على نحوٍ خافتٍ في عتمة المياه، ربّما روح طفلٍ كان ذات يومٍ أقلَّ حظّاً

منه. تحرّك الصّبيُّ سابحاً، وصل إلى الهواء، تنفّس وبصق وحلاً، وسَعلَ، وتشبّث بحشائش الضّفّة، وزحف لاهثاً على الأرض إلى الأمام.

ثمّة بقعةٌ تتحرّك على أرجُلٍ دقيقةٍ أمام عينه اليمنى، رَمشَ، البقعة تزداد اقتراباً. جفنه يحكّه. يضغط يده على وجهه. البقعة تختفي. في الأعلى تتحرّك غيمةٌ مستديرةٌ وتومِضُ بألقٍ. أحدهم ينحني فوقه، إنّه كلاوس. يركع، يمدّ يده، ويَلمس صدره، يُهمهم شيئاً لا يفهمه الصّبيُّ؛ لأنَّ الصَّوت الحادّ لا يزال عالقاً في الهواء، ويطغى على أيّة أصواتٍ أُخرى؛ ولكنْ في أثناء كلام أبيه إليه، يخفت الصّوت تدريجيّاً. ينهض كلاوس واقفاً، يتلاشى الصّوتُ الحادّ.

وها أغنيتا قد وصلت أيضاً، وروزا إلى جانبها. كلّما وصل شخصٌ جديدٌ احتاج الصَّبيُّ إلى لحظةٍ حتّى يتعرّف إلى الوجه، ثمّة شيءٌ في رأسه بات أبطأ، ولم يستعد عمله بعْد. يقوم أبوه بيديه بحركاتٍ دائريّةٍ، يشعر بأنّه يستعيد قواه. يريد أن يتكلّم، لكنّ حَنجرته لا تُخرِج إلّا نعيباً.

تُربّت أغنيتا على خدّه، وتقول: «ها قد تعمدّْت للمرّة الثانية».

لم يفهم ماذا تعني، ربّما بسبب الألم في رأسه، ألم بلغت شدّته أن تجاوز جسمه، وملأ الدُّنيا كلّها، الأشياء المرئيّة كلّها: الأرض، والبشر من حوله، وحتّى الغيوم هناك فوق، التي مازالت بيضاء كالثّلج.

- «هيّا ادخل إلى الدّار». قال له كلاوس. شابَ صوتَه شيءٌ من العتاب، كأنّه ضبطه يقوم بشيءٍ ممنوعٍ.

قرفص الصَّبيُّ في مكانه، انحنى إلى الأمام واسْتفرغ، ركعت أغنيتا إلى جانبه، وأمسكت رأسه.

ثمَّ رأى أباه يهمُّ ويصفع سِب. انثنى جذعُ سِب إلى الأمام، وضع سِب يده على خدّه، واعتدل ثانيةً، وعندها أصابته الصَّفعة الثّانية، تبعتها ثالثةٌ بعزمٍ شديدٍ، بحيث كادت قوّتها تدحرجه أرضاً. فرك كلاوس يديه من الألم، فيما ترنَّح سِب. كان واضحاً للصَّبيّ أنّه يتظاهر وحسْب؛ فالصَّفعات لم تؤلمه جدّاً، فهو في واقع الأمر أقوى من الطّحّان، كما أنّه يعرف أنّه لا بدَّ من أن يُعاقَب؛ لأنّه كاد يُميت ابن صاحب رزقه، مثلما يعرفُ الطَّحّان والآخرون جميعهم أنّ طرْدَه ليس أمراً سهلاً، فكلاوس يحتاج إلى ثلاثة خَدمٍ، بأقلّ من ذلك لا تسير الأمور، وإذا نقص أحدهم، فسيستغرق الأمر عدّة أسابيع حتّى يمرّ بهم خادم طاحونٍ

يتجوّل بحثاً عن عمل. خَدمُ الفلّاحين لا يريدون العمل في الطّاحون؛ لأنّها بعيدةٌ عن القرية، والمهنة وضيعةٌ، اليائسون وحدهم مستعدّون لذلك.

- «ادخل إلى الدّار». قالت أغنيتا أيضاً.

حلَّ المساء، والجميع مستعجلون؛ إذْ لا يرغب أحدٌ في البقاء خارج الدّار مساءً، الجميع يعرفون ما يجري في الغابات ليلاً.

- «تعمّدتَ مرّتين». كرّرت أغنيتا.

عندما أراد أن يسألها عمّا تعنيه لَحظ أنّها لم تعُد إلى جانبه. وراءه يهمهم النّهر، وعبْر السّتارة السّميكة لنافذة الطّاحون يتسلّل بعض النّور إلى الخارج. لا بدّ من أنّ كلاوس قد أشعل شمعة الدّهن. من الواضح أنّه لا أحد يريد بذل جهدٍ لجَرّه إلى داخل الدّار.

نهض الصّبيُّ واقفاً، وهو يرجف من البرد. نَجا، لقد نَجا، لقد نَجا من دولاب الطّاحون، من دولاب الطّاحون نَجا. دولاب الطّاحون، منه نَجا. أحسَّ بنفسه خفيفاً على نحوٍ لا يوصف. حاول أن يقفز، ولكنّه عندما ارتفع خذلته ساقه، فنزل على ركبتيه وهو يئنّ.

أتاه همسٌ من الغابة، فامتنع عن التّنفُّس، وأصْغى، كان الصّوت قرقرةً تارةً، وهسهسةً تارةً أُخرى، ثمَّ توقّف الصّوت لحظةً، ثمَّ رجع من جديد. خُيّل إليه أنَّ كلَّ ما يحتاج إليه هو الإصغاء جيّداً، وسيمكنه سماع كلماتٍ وفهمها، لكنّه لا يريد ذلك بأيّ حالٍ من الأحوال، فعَرج بسرعةٍ إلى الطّاحون.

مضت أسابيعُ إلى أن سمحت له ساقه بالعودة لارتقاء الحَبْل، والمَشي عليه، ومنذ اليوم الأوّل جاءت إحدى بنات الخبّاز، وجلست على الحشيش، سبق له أن رآها؛ فأبوها غالباً ما يأتي إلى الطّاحون؛ إذْ منذ أن صبّت هَنّا كْرِل لعناتها عليه بعد شِجارٍ بينهما وهو يعاني الرّوماتيزم، والآلام لا تدعه ينام، لهذا يحتاج إلى السّحر الدّفاعيّ من كلاوس.

فكّر الصَّبيُّ فيما إذا كان يُفترض به أن يطردها، ولكنْ أوّلاً: لن يكون الأمر لطيفاً، وثانياً: هو لم ينسَ أنّها في احتفال القرية الأخير قد كسبت مسابقة رمي الحجارة، فلا بدَّ من أنّها قويّةٌ جدّاً، ثمَّ إنَّ جسمه كلّه مازال يؤلمه، إذاً لا بدَّ من تحمُّل وجودها، وعلى الرّغم من أنّه لا يراها إلّا من زاويتي عينيه، فقد لَحظ وجود نمشٍ على ساعديها ووجهها، وأنَّ عينيها في الشّمس تبدوان زرقاوين كماء النّهر.

- «أبوكَ قال لأبي إنّه لا وجود لجهنّم». قالت له.

- «لم يقل ذلك». ومشى على الحبل أربع خطواتٍ قبْل أن يسقط.

- بل قال.

- فقال جازماً: «البتّةً، أقسم لكِ».

لكنّه متأكّدٌ في دخيلة نفسه أنّها مُحقّةٌ، فمن المُحتمل أن يقول أبوه حتّى عكس ذلك: نحن في جهنّم، وسنبقى فيها، ولا مخرج لنا منها، أو من الممكن أنّه قال: إنّنا في الجنّة، فقد سمع أباه يقول كلَّ شيءٍ، ممّا يمكن لإنسانٍ أن يقول.

- «هل عرفت؟». سألته: «أنّ بيتر شتيغر ذبح عِجْلاً عند الشَّجرة المعمّرة؟ الحدّادُ هو الذي حكى. كانوا ثلاثة: بيتر شتيغر، والحدّاد، والعجوز هاينزلينغ، خرجوا إلى المرعى في اللّيل، وتركوا العِجْل هناك، لروح نهر كالتِه».

- «أنا أيضاً كنت هناك مرّةً». قال.

البنت. طبعاً لن تصدّقه، وهي -طبعاً- مُحقّةٌ، فهو لم يكن هناك؛ فلا أحد يذهب إلى هناك إنْ لم يكن مضطّرّاً.

- أقسم لكِ، صدّقيني نِله!

عاود ارتقاء الحَبل، وبقي واقفاً من دون أن يتمسّك بشيءٍ. بات متمكّناً من ذلك الآن، ولكي يدعم قسمه وضع إصبعين من يمناه على قلبه، لكنّه سرعان ما سحب يَده، فقد تذكَّر أنَّ كيتِه لوزر الصَّغيرة أقسمت أمام أبويها كذباً في العام الماضي، فماتت بعد ليلتين، وليتخلّص من حيرته، تظاهر بأنّه فقد توازنه، وترك نفسه يسقط على طوله فوق

- «تابع ذلك». قالت بهدوءٍ.

- «أتابع ماذا؟». ونهض بوجهٍ مكشّرٍ من الألم.

- الحَبل. جيّدٌ أن تُتقن ما لا يتقنه غيرك.

هزَّ كتفيه؛ إذْ لم يتبيّن ما إذا كانت لا تهزأ به.

- «يجب أن أذهب». قالت، وقفزت، وانطلقت راكضةً.

وفيما كان يتابع ذهابها بعينيه، فرك كتفه من الألم، ثمَّ ارتقى الحَبل ثانيةً.

كان عليهم بعد أسبوع نقل عربةٍ مُحمّلةٍ بالطّحين إلى عِزْبة رويتر. كان مارتين رويتر قد أحضر لهم الحبوب قبل ثلاثة أيّام، لكنّه لمْ يعُد قادراً على جلبه بنفسه، فقد انكسر عريش عَرَبته، وأرسل خادمه هاينَر ليخبرهم بذلك.

كان الموقف صعباً؛ إذْ لا يمكن ببساطةٍ إرسال الطّحين مع الخادم، فقد يذهب به ويختفي عن الأنظار، ولا تجوز أصلاً الثّقة بخادمٍ على الطّريق، وكلاوس لا يستطيع ترْكَ الطّاحون؛ لأنَّ هناك الكثير من العمل، إذنْ، على أغنيتا مرافقة العَربة، ولأنّه لا يجوز أن تعبر الغابة مع هاينر وحدهما؛ لأنَّ الخَدم قد يُقدِمون على أيّ شيءٍ، لذا سيرافقهما الصّبيُّ أيضاً.

سينطلقون قُبَيْل الشُّروق. خلال اللّيل هطل مطرٌ غزيرٌ. الضَّباب عالقٌ بين جذوع الشّجر، في حين ما زالت ذراها غائبةً في عتمة السّماء، والمروج ثقيلة من البَلل. الحمار يجرُّ نفسه جرّاً، فكلّ شيءٍ بالنّسبة إليه سواء. الصَّبيُّ يعرفه من عُمر ذاكرته، لقد أمضى ساعاتٍ كثيرةً عنده في الإصطبل، استمع إلى خنفرته الهادئة، ومسَّد وَبره، وهو مسرورٌ بضغط الحمار شفتيه الرّطبتين على خدّه دائماً. كانت أغنيتا تمسك الرَّسن، والصَّبيُّ يجلس إلى جانبها على مقعد العَربة بعينين نصف مغمضتين ملتصقاً بها. وراءهما كان هاينر مستلقياً على أكياس الطّحين، يشخر أحياناً كالخنزير، ويضحك أحياناً لنفسه، من دون أن يعرف المرء إن كان صاحياً أم نائماً.

لو أنّهم ساروا على الدّرب العريض لوصلوا إلى هدفهم عصر هذا اليوم، لكنّه يمرّ على مقربةٍ من فسحة الغابة، حيث شجرة

الدّردار المعمّرة. لا يجوز لإنسانٍ الاقتراب هناك من نهر كالتِه؛ ولهذا السّبب عليهم الالتفاف عبر الدّرب الضّيّق الذي غطّته الحشائش، والذي يمرّ في عُمق الغابة، مروراً بهضبة القيقب وبركة الفئران الكبيرة.

تحدّثت أغنيتا عن المرحلة السّابقة لزواجها من كلاوس أولنشبيغل، أحد ابني الخبّاز هولتس أراد الزّواج بها، وقد هدّد بالانضمام إلى المرتزقة إذا لم تأخذه، أراد الهجرة نحو الشّرق إلى السّهول الهنغاريّة، ليقاتل ضدَّ الأتراك، وكانت على وشك القبول به. لمَ لا؟ فكّرَت، ففي نهاية الأمر كلّ واحدٍ منهم مثل الآخر، ثمَّ جاء كلاوس إلى القرية، كاثوليكيٌّ من الشّمال، هذا بحدّ ذاته أمرٌ مُستغربٌ، وعندما تزوّجته؛ لأنّها لم تستطع مقاومة غوايته، لم يرحل الشّاب هولتس نحو الشّرق، بل بقي وصار يخبز الأرغفة، وبعد سنتين عندما عبر الطّاعون القرية، كان أوّل مَن ماتوا، وبعد أن مات أبوه أيضاً استلم أخوه المخبز.

تنهّدت أغنيتا وربّتت على رأس الصَّبيّ: «أنت لا تعرف كيف كان حينذاك شابّاً، ورشيقاً، ومختلفاً تماماً عن الآخرين».

احتاج الصَّبيُّ إلى برهةٍ كي يستوعب عمّن تتكلّم.

- «كان يعرف كلّ شيء، وكان يُحسن القراءة، وكان وسيماً أيضاً. كان قويّ البنية، وعيناه برّاقتين، وكان يغنّي ويرقص أفضل من الجميع». فكّرت قليلاً، ثمّ قالت: «كان... يقظاً».

أومأ الصَّبيُّ برأسه. كان يُفضّل لو تروي له حكايةً.

- «إنّه إنسانٌ طيّبٌ. لا يجوز أن تنسى هذا أبداً». قالت.

تثاءب الصَّبيُّ.

- لكنّه شاردُ الذّهن مُعظم الوقت، وهذا ما لم أفهمه حينذاك، فأنا لم أكن أعرف أنّ مثله موجود، ومن أين لي أن أعرف؟ فقد كنتُ طوال الوقت هنا، ولم يكن ممكناً بيننا وجود مثله. في البداية كان يشرد أحياناً فقط، كان معظم الوقت معي، كان يحملني، وكنّا نضحك، وعيناه كانتا يقظتين جدّاً. أحياناً فقط كان يقرأ الكتب، أو ينشغل بتجاربه، كان يولع شيئاً ما، أو يمزج البارود، ثمّ صار ينشغل كثيراً بالكتب، وقلَّ انشغاله بي، ثمَّ بات نادراً، والآن، أنت ترى بعينيك، في الشّهر الماضي، عندما توقّف دولاب الطّاحون، لم يصلحه إلّا بعد ثلاثة أيّام؛ لأنّه أراد قبل ذلك تجريب شيءٍ على المرج. لم يكن لديه وقتٌ للطّاحون، ذلك السّيّد الطّحّان، وفوق ذلك لم يكن إصلاحه الدّولاب جيّداً،

وعَلِق محور الدّولاب، فاضطّررنا إلى استدعاء أنسِلم مِلكر لمساعدتنا؛ أمّا بالنسبة إليه فكان الأمر سيّان.

- أيمكن أن أسمع حكايةً؟

أومأت أغنيتا برأسها، وبدأت: «قبل وقتٍ طويلٍ، عندما كانت الصّخور لا تزال صغيرةً، ولم يكن هناك أشرافٌ بعْد، ولم يضطّرّ أحدٌ إلى أن يدفع قرشاً لهم. في زمنٍ بعيدٍ عندما لم يهطل ثلجٌ حتّى في الشّتاء...».

تردّدت، لمست بطنها، وجذبت العنان إليها قليلاً. الدّرب الآن ضيّقٌ، وفيه جذورٌ عريضةٌ لا بدَّ من المرور فوقها. خطوةٌ خاطئةٌ واحدةٌ من الحمار قد تؤدّي إلى قلب العَربة.

- «قبل زمنٍ بعيدٍ». بدأت من جديد: «عثرت فتاةٌ على تفّاحةٍ ذهبيّةٍ، وأرادت أن تتقاسمها مع أمّها، لكنّها أصيبت بجرحٍ في إصبعها، ومن قطرات الدّم نمت شجرةٌ حملت تفّاحات كثيرة، لكنّها لم تكن ذهبيّةً، بل مجعّدةً، وبشعةً، وكريهةً، ومَن يأكل منها يموت ميتةً بشعةً، فقد كانت أمّها ساحرةً، تحرس التّفّاحة الذّهبيّة مثل بؤبؤ عينها، وكلّ فارسٍ يهاجمها ليحرّر الابنة، ويتزوّجها، كانت تمزّقه وتفترسه، وتضحك في أثناء ذلك سائلةً: أليس بينكم بطل؟ ولكن عندما جاء الشّتاء أخيراً، وتغطّى كلّ

شيءٍ بالثّلج البارد، كان على الابنة المسكينة أن تنظّف لأمّها السّاحرة وتطبخ، يوماً وراء يومٍ بلا نهايةٍ».

- ثلج؟

سكتت أغنيتا.

- أنت قلت إنّه لا ثلج في الشّتاء.

بقيت أغنيتا صامتة.

- «أعْذريني». قال الصّبيُّ.

- وكان على الابنة المسكينة أن تنظّف لأمّها وتطبخ، يوماً وراء يومٍ بلا نهايةٍ، وهذا على الرّغم من أنّها فائقة الجمال، وكلّ مَن تمكّن من رؤيتها لم يستطع إلّا أن يعشقها.

سكتت أغنيتا ثانيةً، ثمَّ تأوّهت بصوتٍ خافتٍ.

- ما بك؟

- ونتيجة لذلك، وفي قلب الشّتاء، هربت الابنة، فقد سمعت أنّه في مكانٍ بعيدٍ، بعيدٍ، بعيدٍ جدّاً، على طرف البحر العظيم، يوجد شابٌّ يليق بالتّفّاحة الذّهبيّة، ولكنْ كان عليها أن تهرب أوّلاً، وهذا كان أمراً عسيراً؛ لأنّ أمّها السّاحرة كانت حذرةً.

سكتت أغنيتا ثانيةً. اشتدّت كثافة الغابة الآن، والسّماء الزّرقاء لا تبدو إلّا لماماً بين ذُرى الأشجار الشّامخة. شدّت أغنيتا العنان، فتوقّف الحمار. قفز قنفذٌ على الدّرب، رمقهم بعينين باردتين، ثمَّ اختفى بسرعةٍ، كأنّه خداعٌ بصريٌّ، توقّف الخادم وراءهما عن الشّخير، واعتدل جالساً.

- «ما بك؟». سأل الصّبيُّ ثانيةً.

لمْ تُجبه أغنيتا. فجأةً، بَدت شاحبةً مثل جثمانٍ، وانتبه الصّبيُّ إلى أنَّ ثوبها ممتلئٌ بالدّم.

تعجّب للوهلة الأولى، كيف أنّه لمْ يلحظ قبل الآن بقعة دمٍ بهذا الحجم، ثمَّ أدرك أنَّ الدّم قبل لحظةٍ لم يكن موجوداً.

- «سألِد، يجب أن أرجع». قالت أغنيتا.

حدّق الصّبيُّ إليها.

- «ماءٌ ساخن». قالت بصوتٍ متقطّعٍ: «أحتاج إلى ماءٍ ساخنٍ، وإلى كلاوس. أحتاج أيضاً إلى حِكمه المأثورة وأعشابه، وإلى القابلة من القرية. أحتاج أيضاً إلى ليزِه كوللرين».

حدّق الصّبيُّ إليها، وحدّق هاينر إليها أيضاً، فيما حدّق الحمار أمامه.

- «وإلّا سأموت». قالت: «لا بدَّ من ذلك. لا مَحيد عن هذه الأمور. لا أستطيع هنا أن أدير العَربة، هاينر سيسندني، سنذهب مشياً، وأنت تبقى هنا».

- لماذا لا نتابع الرّكوب؟

- «سنستغرق حتّى المساء إلى أن نصل إلى عزبة رويتر، العودة مشياً إلى الطّاحون أسرع». ترجّلت عن العربة لاهثةً. أراد الصّبيُّ أن يمسك بساعدها، لكنّها أبعدته عنها قائلةً: «هل فهمت؟».

- ماذا؟

يضيق نَفَس أغنيتا، لكنّها تقول: «لا بدَّ من بقاء أحدٍ عند الطّحين. إنّه يساوي نصف قيمة الطّاحون كلّه».

- وحدي في الغابة؟

زفرت أغنيتا.

هاينر ينقّل نظراته ببلادةٍ بينهما.

- «إنّي هنا مع مغفّلين». وضعت أغنيتا كلا كفّيها على خدّيّ الصّبيّ، ونظرت في عينيه بثباتٍ حتّى يرى صورته في عينيها، وكان

تنفّسها يَصفر ويَصلُّ. «هل فهمت؟»، سألته بصوتٍ خافتٍ: «يا قلبي، يا فتاي، هل فهمت؟ أنت ستنتظر هنا».

كان قلبه يخفق في صدره بصوتٍ عالٍ جدّاً، إلى درجةٍ ظنّ معها أنّها لا شكّ تسمعه. أراد أن يقول لها إنّها أخطأت التّفكير؛ إنّ الألم يعكّر وضوح تفكيرها، إنّها لن تصل مشياً، فالأمر سيستغرق ساعات، وهي تنزف بشدّة، لكنّ حَنْجرته جفّت، وبقيت الكلمات عالقةً في حلقه. نظر إليها بعجزٍ، وهي تَعرج مغادرةً متّكئةً على هاينر. تارةً يسندها الخادم، وتارةً يجرّها، وهي تتأوّه. بقي يراها فترةً، ثمّ سمع تأوّهاتها تخفت تدريجيّاً، إلى أن بقي وَحْده.

ألهى نفسه لبعض الوقت بأن صار يشدّ أُذنيّ الحمار، اليمنى، ثمّ اليسرى، ثمَّ اليمنى، ومع كلّ مرّةٍ يصدر الحمار صوتاً حزيناً. لِمَ هو صبورٌ بهذا الشّكل، لِمَ كلّ هذا التّهذيب والطّيبة، لِمَ لا يعضّه؟ ينظر في عينه اليمنى، مثل كرةٍ زجاجيّةٍ تقبع في محْجَرها. داكنةٌ، ومبلولةٌ، وفارغةٌ، لا ترمش، إنّما ترفُّ قليلاً عندما يلمسها بإصبعه. سأل نفسه: كيف سيكون الحال لو كان هو هذا الحمار، حبيس روح حمارٍ، ورأس حمارٍ فوق الكتفين ممتلئاً بأفكارٍ حماريّةٍ. كيف كان سيشعر؟

قطع تنفّسه وأصغى. الرّيح: أصواتٌ في أصواتٍ وراء أصواتٍ، وزنينٌ، وحفيفٌ، وصريرٌ، وأنينٌ، وسقسقةٌ. همساتُ أوراق الشّجر فوق همسات أصواتٍ بشريّةٍ، ويبدو له مُجدّداً أنّ عليه أنْ يُصغي جيّداً فترةً من الزّمن، وعندها سوف يفهم ما يُقال. أخذ من نفسه يزنّ، لكنّ وقْع صوته بَدا له غريباً.

لفت نظره أنَّ أكياس الطّحين قد حُزمتْ بحبلٍ، بحبلٍ طويلٍ يمتدّ من كيسٍ إلى آخر. ارتاح للأمر، وأخرج سكّينه، وأخذ يحفر حزوزاً في جذعَيْ شجرتين.

ما إن انتهى من شدِّ وتثبيت الحَبل بين الشّجرتين بارتفاع صدره حتّى شعر بتحسُّنٍ. تفحّص مقاومة الحَبل، ثمَّ خلع حذاءه، تسلّق صعوداً، ومشى حتّى منتصف الحَبل بذراعين مفرودتين. وقف هناك أمام العربة والحمار فوق الدّرب الطّينيّ، فقَدَ توازنه وقفز، عاود التّسلُّق فوراً. ارتفعت نحلةٌ من الأجمة، انخفضت ثانيةً، واختفت في الخضار. بدأ الصّبيُّ يتحرّك ببطءٍ، كاد يصل إلى الطّرف الآخر، لكنّه سقط فعليّاً.

بقي فترةً منبطحاً. ولِمَ الوقوف مُجدّداً؟ انقلب على ظهره، وانتابه إحساسٌ كأنّ الزّمن يتوقّف؛ ثمّة ما تغيّر: الرّيح تتابع همْسها، وتتابع الأوراقُ حفيفها، ومَعِدة الحمار تُقرقر بصوتٍ

عالٍ، لكنّ هذا كلّه لا علاقة له بالزّمن. سابقاً كان الآن، والآن هو الآن، وفي المستقبل عندما يختلف كلّ شيءٍ، وعندما يكون هناك أناسٌ آخرون، ولا أحد سوى الرّبّ يعرف شيئاً عنه، وعن أغنيتا، وكلاوس، والطّاحون، عندها سيكون دائماً لا يزال الآن.

صار الشّريط السّماويُّ فوقه داكنَ الزُّرقة، وبدأت تغشاه طبقةٌ رماديّةٌ مخمليّةٌ. الظّلال تهبط عن جذوع الأشجار، وفجأةً هنا تحت حلّ المساء، والضّوء في الأعلى ضمر إلى لمعانٍ ضيّقٍ، ثمَّ هَيْمَن اللّيل.

بكى، ولكنْ لعدم وجود من يمكن أن يساعده، ولأنَّ الإنسان في واقع الأمر لا يستطيع أن يبكي إلّا فترةً قصيرةً، قبل أن تنتهي الطّاقة والدّموع، توقّف أخيراً عن البكاء.

شعر بعطشٍ. أغنيتا وهاينر أخذا معهما قِربة البيرة، هاينر ربطها حول خصره، لا أحد فكّر في أن يترك له شيئاً للشُّرب. شفتاه جافّتان. يُفترض أنّ هناك جدولاً قريباً، ولكنْ كيف سيجده؟

اختلفت الأصوات الآن عمّا كانت عليه في النّهار، هناك أصوات حيواناتٍ مختلفة، الرّيح مختلفةٌ، حتّى طقطقة الأغصان اختلفت. أنْصت. فوق سيكون الوضع أكثر أمناً. بدأ يتسلّق شجرةً، ولكنّ الأمر صعبٌ، حين لا يكاد يرى المرء شيئاً. الأغصان

الرّفيعة تتكسّر، واللّحاء الخَشن يجرح أصابعه. أفلتت فردةٌ من حذائه، سمعها تصطدم بغصنٍ أوّل، ثمّ ثانٍ. لفّ ذراعيه حول الجِذْع، وسحب جسمه عالياً، وتمكّن من أن يصعد قليلاً، ثمّ لم يعُد يقدر.

بقي فترةً عالقاً. تخيّل أنّه سيتمكّن من النّوم على غصنٍ عريضٍ مستنداً إلى الجِذْع، لكنّه لَحظ الآن أنّ الأمر لن يكون على ما يرام. لا يوجد في الشّجرة ما هو طريّ، وعلى المرء أن يتمسّك بثباتٍ طوال الوقت كي لا يسقط. هناك غصنٌ يضغط على ركبته. ظنّ في البداية أنّه سيحتمل، لكنّ الحال بات فجأةً لا يُحتمل، وحتّى الغصن الذي يجلس عليه بات يؤلمه. أخذ يفكّر بحكاية السّاحرة الشّريرة، والابنة الجميلة، والفارس، والتّفّاحة الذّهبيّة، هل سيعرف يا ترى كيف تنتهي؟

عمل على النّزول عن الشّجرة. الأمر صعبٌ في الظّلام، لكنّه مَرنٌ، فلا ينزلق، ووصل إلى الأرض، لكنّه لم يعُد يجد فردة حذائه. كم هو جيّدٌ أنّ الحمار هنا على الأقلّ. تمسَّح الصّبيُّ بالحيوان النّاعم ذي الرّائحة الزّخمة.

خطر في باله أنّه من الممكن أن تكون أمّه قد عادت، فإنْ ماتت في الطّريق إلى البيت، يمكن أن تظهر هنا فجأةً، فتمرّ به ملامسةً

إيّاه، هامسةً له برسالةٍ ما، وتريه وجهها المتحوّل. جعلت الفكرة قلبه يتجمّد. هل يمكن أن يحدث فعلاً أن يموت الإنسان رعباً إذا عاد فجأةً شخصٌ كان يحبّه في الحال؟ فكّر في أنّ الصّغيرة غريت، في العام الماضي، في أثناء جمع الفطر، قابلت أباها الميت، لم تكن في وجهه عينان، وكان يتأرجح في الهواء مرتفعاً عن الأرض بعَرْض كفّ، وفكّر بالرّأس الذي رأته جدّته قبل سنوات كثيرةٍ في حجر الحدود وراء عزبة شتيغر. «ارفعوا الحجر يا بنات». فلم يكن هناك من يختبئ وراء الحجر، لكنّ الحجر نفسه ظهرت له فجأة عينان وشفتان. «إذنْ، ارفعنهُ هيّا لنرى ما تحته!». الجدّة حكت له ذلك عندما كان صغيراً؛ مضى على موتها وقتٌ طويلٌ الآن، ولا بدَّ من أنّ جسمها قد تحلّل منذ وقتٍ طويلٍ أيضاً، فصارت عيناها حجرين، وصار شعرها حشيشاً. أمرَ نفسه بالتّوقّف عن التّفكير بمثل هذه الأشياء، لكنّه لم يُفلِح، وثمّة فكرةٌ لم يستطع طردها: يُفضّل أن تكون أغنيتا ميتةً، ومأسورةً في غياهب جهنّم، من أن تخرج له كروحٍ من الأجمة فجأةً.

انتفض الحمار، وثمّة خشبٌ يتكسّر في الجوار، هناك شيءٌ يتقدّم، امتلأ سروال الصّبيّ بالدّفء. ثمّة جسمٌ ضخمٌ لامسه على نحوٍ عابرٍ وغادر، يبرد سرواله ويثقل. هَمْهَم الحمار، فقد شعر بالجسم أيضاً. ما كان ذاك؟ هناك الآن وميضٌ أخضرُ بين

الأغصان، أكبر من اليراعات، ولكنّ سطوعها أخْفَت، ومن الخوف تراءت له في رأسه صورٌ مخيفةٌ، تارةً يشعر بسخونةٍ، وتارةً ببرودةٍ، ثمّ تعاوده السّخونة، وعلى الرّغم من ذلك كان يفكّر: لا يجوز أن تعرف أغنيتا، سواء كانت حيّةً أم ميتة، أنّه قد فعلها في سرواله؛ إذْ سيكون عقابه الضّرب، وعندما رآها مستلقيةً تئنُّ تحت أجمةٍ، هي في الوقت نفسه الرّباط الذي تتعلّق به الأرض متدليّةً من القمر، قال له ما تبقّى من عقله الذّائب إنّ عليه أن ينام الآن، متعباً من مخاوفه، ومن خفقان القلب كلّه، ويدع نفسه لقواه المتلاشية، على الأرض الباردة، وفي صخب الغابة اللّيليّ، إلى جانب الحمار الذي يُصدر شخيراً خافتاً، وهكذا فإنّه لم يعرف أنّ أمّه مستلقيةٌ فعلاً على مسافةٍ غير بعيدةٍ عنه على الأرض، وهي تئنّ وتتأوّه، تحت أجمةٍ لا تختلف كثيراً عن التي رآها في حُلمه، أجمةٌ من شجيرات العَرْعر المُتخمة بالثّمار الملوكيّة. إنّها مستلقيةٌ هناك، في الظّلام، هناك.

أغنيتا والخادم أخذا الدّرب القصير، فقد كانت بالغة الضّعف لتحتمل الالتفاف الطّويل، وهكذا اقتربا جدّاً من فسحة الغابة المجاورة لفرع نهر كالتِه، وأغنيتا الآن مستلقيةٌ على الأرض، وقد تلاشت قواها، ولم يعُد صوتها يساعدها على الصّياح، وهاينر جالسٌ إلى جانبها، وفي حضنه الكائن حديث الولادة.

يفكّر الخادم فيما إذا كان يُفترض به أن يهرب. ما الذي يعيقه؟ هذه المرأة سوف تموت، فإن بقي في الجوار، سيقول النّاس إنّه المُذنب. هكذا هو الحال دائماً، إذا وقع مكروهٌ، وثمّة خادمٌ في الجوار، فالذّنْبُ عندها هو ذنبُ الخادِم.

بإمكانه الغياب عن الأنظار نهائيّاً، ما من شيءٍ يجذبه إلى عزبة رويتر؛ الطّعام شحيحٌ، والسّيّد ليس طيّب المعاملة، يضربه باستمرارٍ مثلما يضرب أبناءه، فلماذا لا يترك الأمّ ووليدها؟ «العالم واسعٌ». يقول الخَدم، ومن السهولة الالتحاق بسيّدٍ جديدٍ. هناك كثيرٌ من المزارع والعِزب، وما هو أفضل من الموت يجده المرء حيثما بحث.

كان يعرف أنّه لا يفترض بالمرء الحضور إلى الغابة ليلاً، كما أنّه جائعٌ، والعطش واخزٌ، فقد سقطت منه القِرْبة في مكانٍ ما على الطّريق. أغمض عينيه، هذا يساعد؛ عندما يغمض المرء عينيه يكون مع نفسه، ولا يوجد سواه ليتدخّل في شؤونه، يكون المرء في نفسه؛ أيْ: هو ذاته، يتذكّر مروجاً مشى عبرها عندما كان طفلاً، ويتذكّر خبزاً طازجاً، لذيذاً جدّاً، لم يحصل على مثله منذ وقتٍ طويلٍ، ويتذكّر رجُلاً ضربه بعصا، ربّما كان أبوه، لكنّه لا يعرف، ولذلك فقد هرب من الرّجُل إلى أنْ وصل إلى مكانٍ آخر،

فهرب منه أيضاً. الهروب أمرٌ رائعٌ، لا يوجد خطرٌ لا يمكن للمرء النّجاة منه، إذا كانت ساقاه سريعتين.

لكنّه هذه المرّة لم يهرب، بلْ حَمل الطّفل، وسَنَد رأس أغنيتا أيضاً، وعندما أرادت النّهوض سَنَدها ورفعها عالياً بقوّةٍ.

وعلى الرّغم من ذلك ما كانت أغنيتا لتستطيع الوقوف على قدميها قطُّ لو لم تتذكّر أقوى المستطيلات. «احفظيه». قال لها كلاوس: «ولا تستعمليه إلّا عند الضّرورة القصوى. يمكنك كتابته؛ أمّا لفظه فلا يجوز لك أبداً!». وهكذا استعملت ما تبقّى في رأسها من وضوحٍ لِحَفر الحروف في التّراب، المربّع يبدأ بـ: SALOM AREPO؛ أمّا التّتمّة فلمْ تتذكّرها؛ الكتابة أصعب بثلاث مرّات، إنْ لم يكن المرء قد تعلّمها أصلاً، ولاسيّما في عتمة اللّيل مع نزف الدّم، لكنّها من ثمَّ تجاوزت تعليمات كلاوس، وصاحت بصوتٍ كالنّعيق: «Salom Arepo Salom Arepo!» وبما أنّ الأجزاء أيضاً تحتفظ بطاقةٍ، استعادت ذاكرتها، واسترجعت التّتمة.

SALOM

AREPO

LEMEL

وبهذا وَحْده فقط، وقد أحسّت بذلك، تراجعت قوى الشّرّ، وتوقّف النّزيف، وانزلق الطّفل مع الآلام مثل حديدٍ مُحمرٍّ من جسمها.

كم كانت ترغب في البقاء مستلقيةً، لكنّها تعرف أنَّ من فقد كثيراً من الدَّم، وبقي مستلقياً، فسيبقى مستلقياً إلى الأبد.

- أعطني الطّفل.

أعطاها الطّفل.

إنّها لا تستطيع رؤيته؛ اللّيل أسْود، كأنَّ المرء أعْمى، لكنّها عندما حملت الكائن الصَّغير، أحسّت بأنّه ما زال حيّاً.

- «سوف لن يدري بكَ أحدٌ». فكَّرتْ: «لن يتذكّرك أحدٌ سواي أنا، أمّك، وأنا لا أنسى؛ لأنّني لا يجوز أن أنسى، فالآخرون كلّهم سينسونك».

قالت هذا أيضاً للثّلاثة الآخرين، الذين ماتوا في أثناء ولادتها إيّاهم. وفعلاً، ما زالت تعرف كلّ شيءٍ ممّا يمكن معرفته، عن كلّ

واحدٍ منهم: الرّائحة، والوزن، والشّكل المختلف قليلاً في كلّ مرّةٍ، والطّفل بين يديها، حتّى لم يكن لهم أسماء.

انثنت ركبتاها، فأمسك بها هاينر.

للحظةٍ كانت الغواية شديدةً لأنْ تستلقي ثانيةً، لكنّها فقدت كثيراً من الدَّم. نهر كالتِه ليس بعيداً، والعفاريت الصّغار يمكن أن يعثروا عليها أيضاً. مدّت يديها بالطّفل إلى هاينر، راغبةً في أن تنطلق، إلّا أنّها سقطت فوراً على جذورٍ وأعشابٍ، وأحسّت بمدى عَظَمة اللّيل. حقيقة، لماذا يقاوم الإنسان؟ فالأمر في غاية السّهولة؛ ما عليه إلّا أن يفلت العنان، بكلّ سهولةٍ.

عوضاً عن ذلك تفتح عينيها، تشعر بالجذور تحتها. ارتعدت من البرد، وأدركت أنّها ما زالت حيّةً.

عاودت النّهوض. واضحٌ أنّ النّزيف قد انقطع. ناولها هاينر الطّفل، أخذته ولَحظت من فورها أنّ الحياة قد غادرته، فأعادته إليه؛ لأنّها في حاجةٍ إلى يديها الاثنتين كي تثبّت نفسها على جذْع شجرةٍ. وضع هاينر الطّفل على الأرض، لكنّها فحَّت فيه، فرفعه ثانيةً، فمن الطّبيعيّ ألّا يمكن تركه هنا؛ ستنمو فوقه الطّحالب، وستلتفُّ حوله النّباتات، وستسكن الجَداجِدُ في أطرافه، فلنْ تهدأ روحه أبداً.

وحدث أنّ كلاوس في هذه اللّحظة، في سقيفة الطّاحون، تملّكه إحساسٌ بأنّ هناك ما ليس على ما يرام، فهَمْهَم صلاةً بسرعةٍ، ونثر قليلاً من اليبروح المهروس على لهب فانوس دهن الحوت، فثبت نذير السّوء، فعوضاً عن أن يتأجّج اللّهب انطفأ فوراً، وامتلأ هواء السّقيفة برائحة اليبروح النّفّاذة.

في العتمة كتب كلاوس على الجدار مستطيلاً ذا قوّةٍ متوسّطةٍ:

M I L O N

I R A G O

L A M A L

O G A R I

N O L I M

ثمَّ زيادةً في التّأكيد، تلا سبع مرّاتٍ بصوتٍ عالٍ جملة: Nipson anomimata mi monan ospin. إنّه يعرف أنّها باللّغة اليونانيّة، لكنّه لا يعرف معناها، إلّا أنّها تُقرأ من اليسار إلى اليمين وبالعكس باللّفظ نفسه، وجُملٌ من هذا القَبيل تمتلك قدرةً

خاصّةً، ثمَّ عاود الاستلقاء على الأرض الخشبيّة القاسيّة ليتابع إنجاز عمله.

كان في ذلك الوقت يرصد كلّ ليلةٍ مسار القمر. خطوات تقدُّمه كانت تزحف ببطءٍ، ما يدعو إلى اليأس. إنّ القمر يبزغ كلّ مرّةٍ من مكانٍ مختلفٍ عن البارحة، وبالتّالي فإنّ مساره يتغيّر، وبما أنّه من الجَليِّ أنّه ليس في وسع أحدٍ تفسير الأمر، قرّر كلاوس إضاءة الموضوع بنفسه.

- «إذا لم يعرف أحدٌ شرح الأمر، فعلينا اكتشافه بأنفسنا». قال له فولف هُتْنر ذات يومٍ.

هُتنر هذا كان معلّمه، وهو قارئ كفٍّ، ومُستحضر أرواحٍ في كونستانتس. مهنته الرّئيسة حارسٌ ليليٌّ، وكلاوس أولنشبيغل أمضى شتاءً كاملاً في الخدمة عنده، ولا يمرُّ يومٌ من دون أن يفكّر فيه بامتنانٍ، فقد علَّمه هُتنر الحِكَمَ، والمستطيلات، والأعشاب ذات التّأثير الفعّال، وكلاوس لم يفوِّت كلمةً عندما تحدّث هُتنر إليه عن شعب العفاريت الكبير، وشعب العفاريت الصَّغير، وعن شيوخ ما قبل الزّمن، وشعب ما تحت الأرض، وأرواح الهواء، وكذلك عن أنّه لا تَجوز الثّقة بالعلماء؛ لأنّهم لا يعرفون شيئاً، لكنّهم لا يعترفون بذلك كي لا يفقدوا نعمة

أمرائهم، وعندما تابع كلاوس طريقه عقب ذوبان الثلوج كان قد وضع في جعبته ثلاثة كتبٍ من مجموعة هُتنر. لم يكن في ذلك الحين قد تعلّم القراءة بعْد، ولكنَّ واعظاً في مدينة أوغسبورغ قام بتعليمه بعد أن شفاه كلاوس من الرّوماتيزم، وعندما تابع طريقه ثانيةً، أخذ معه ثلاثة كتبٍ من مكتبة الواعظ. كانت الكتب ثقيلةً، ستّةٌ منها ملأت كيس كلاوس النّهاريّ مثل الرَّصاص، وسرعان ما تبيّن له أنّ عليه إمّا ترك الكتب وراءه، وإمّا الاستقرار، ويُفضَّل في مكانٍ غير مطروقٍ، بعيدٍ عن الطّرقات الكبرى؛ فالكتب غالية الثّمن، وليس جميع أصحابها قد تخلّوا عنها بملء إرادتهم، وإذا كان المرء سيّئ الحظّ، يُحتمل أن يظهر له هُتْنر أمام الباب، ويُسلّط عليه لعنةً، ويطالب بما يخصّه.

ولمّا كانت الكتب في واقع الأمر كثيرةً ليحملها ويتابع طريقه، فقد اتّخذ القَدَرُ مساره. أعجبته ابنة طحّانٍ، كانت جميلة المظهر، وخفيفة الظّلّ أيضاً، إضافةً إلى أنّها قويّة البنْية، وحتّى الأعمى كان يرى أنّها تريده. لم يكن كسْبُها صعباً، فقد كان جيّداً في الرّقص، ويعرف الأقوال الحكيمة المناسبة، والأعشاب الملائمة لربط قلب، وبصورةٍ عامّةٍ كان يعرف أكثر من أيّ شخصٍ آخر في القرية، فنال إعجابها. في البداية كانت لدى أبيها شكوك، ولكنْ

لم يبدُ على أيٍّ من الخَدم الآخرين أنّه أهلٌ لاستلام الطّاحون، فتراجع أبوها عن موقفه، ولمدّةٍ من الزّمن كان كلّ شيءٍ يسير على خير ما يرام.

بعد ذلك شعر بخيبة أملها. أحياناً بادئ الأمر، ثم غالبًا، ثم دائماً. لم تعجبها كتبه، ولم يعجبها أنَّ عليه حلّ ألغاز الدُّنيا، وصحيحٌ أيضاً أنّها مهمّةٌ كبيرةٌ، لا تترك للإنسان طاقةً لأمورٍ أُخرى، ولاسيّما لأشغال الطّاحون اليوميّة، وفجأةً أحسَّ كلاوس أيضاً بأنّه قد ارتكب غلطةً: ماذا أفعل أنا هنا، ما علاقتي بغيوم الطّحين، وبالفلّاحين بَليدي الذِّهن، الذين يبغون دائماً الخداع عند الحساب، وبالخدم ذوي الفهم البطيء، الذين لا ينفّذون أبداً ما يكلّفون به؟ ومن النّاحية الأُخرى، كان يقول لنفسه غالباً: إنَّ الحياة تقود المرء إلى مكانٍ معيّنٍ، فلو لم تكن أنت هنا، لكنت في مكانٍ آخر، ولكان كلّ شيءٍ يثير الاستغراب كما هنا، لكن ما كان يقلقه حقّاً هو سؤال: هل يُرمى المرء في جهنّم بسبب كثرة الكتب التي سرقها؟

ولكنْ من واجب الإنسان أخذ المعرفة حيثما يجدها، فليس قَدَر الإنسان أن يفطس، وهو جاهلٌ، وإذا لم يجد الإنسان أحداً ليتبادل معه الكلام، فلن يكون الوضع سهلاً. إنّك تهتمّ بأمورٍ كثيرةٍ، ولكن ليس هناك مَن يرغب في سماع آرائك حول ماهي

السّماء، وكيف تنشأ الحجارة والذّباب، وكلّ ما يملأ الحياة في كلّ مكانٍ، وبأيّة لغةٍ يتكلّم الملائكة مع بعضهم، وكيف خلق الرّبّ نفسه بنفسه، وكيف عليه ألّا يتوقّف عن الخلق، يوماً بيومٍ؛ لأنّه إن لم يفعل ذلك لتوقّف كلّ شيءٍ من لحظةٍ إلى أُخرى، ومَن سوى الرّبّ، يُفترض به أن يعيق العالَم عن أن يوجد ببساطة؟

لقد احتاج كلاوس إلى شهورٍ لقراءة بعض الكتب، وإلى سنةٍ كاملةٍ لبعضها الآخر. إنّه يحفظ بعض الكتب عن ظهر قلب، ومع ذلك فإنّه لا يفهمها، ومرّة على الأقلّ في الشّهر يعود عاجزاً إلى الكتاب اللّاتينيّ الضّخم الذي سرقه من أبرشيّةٍ تتأجّج ناراً في مدينة ترير. لم يكن هو من أشعل النّار، لكنّه كان في الجوار، وشمّ رائحة الدّخان، فانتهز الفرصة. لولاه لكان هذا الكتاب قد احترق. إنّ له حقّاً فيه، لكنّه لا يستطيع قراءته.

يتألّف الكتاب من سبعمئة وخمسٍ وستّين صفحةً، ومطبوعٌ بخطٍّ مرصوصٍ، وفي بعض الصّفحات هناك صور، يبدو أنّ منشأها من أحلامٍ سيّئةٍ: بشرٌ برؤوس طيورٍ، مدينةٌ ذات أسوارٍ مسنّنةٍ، وأبراجٌ فوق غيمةٍ يسقط منها مطرٌ في خطوطٍ ناعمةٍ، وحصانٌ برأسين في فسحة غابةٍ، وحشرةٌ بجناحين طويلين، وسلحفاةٌ تصعد إلى السّماء على شعاعٍ من الشّمس. الصّفحة الأولى، التي كان عليها عنوان الكتاب، ناقصةٌ، وهناك مَن انتزع

من الكتاب الصّفحات: الثّالثة والعشرين، والرّابعة والعشرين، وخمسمئة وتسع عشرة، وخمسمئة وعشرين. لقد ذهب كلاوس ثلاث مرّاتٍ حتّى الآن حاملاً الكتاب إلى الكاهن، ورَجاه مساعدته، وفي كلّ مرّةٍ كان الكاهن يصرفه من الكنيسة، معلّلاً بأنّه لا يجوز إلّا للضّالعين في العلم التّعامل مع الكتب الّلاتينيّة. في البداية وازن كلاوس بين رَمْيه بلعنةٍ خفيفةٍ تطال حَنجرته، أو روماتيزم، أو بجائحة جرذانٍ في بيت الكاهن، أو أن يفسد ما يشربه من حليبٍ، لكنّه أدرك من ثمّ أنّ كاهن القرية المسكين، الذي يُكثر من الشّراب، ويكرّر نفسه في الموعظة دائماً، هو نفسه لا يفهم من الّلاتينيّة إلّا القليل، وهكذا كاد يقبل كلاوس بأنّه لن يتمكّن من قراءة هذا الكتاب تحديداً، الذي قد يتضمّن مفتاح كلّ شيءٍ، فمن الذي سيعلّمه الّلاتينيّة في طاحونٍ نسيه الرّبّ؟

على الرّغم من ذلك توصّل كلاوس في السّنوات الأخيرة إلى معرفة أمورٍ كثيرةٍ، فقد بات يعرف جوهريّاً من أين تأتي الأشياء، كيف نشأت الدّنيا، وما سبب كون الأشياء على ما هي عليه: الأرواح، المواد، الجنّ، الخشب، الماء، السّماء، الجلود، الحبوب، الجداجد. هُتنر كان سيَفخر به. لن يطول الوقت حتّى يكون قد سدَّ الثّغرات الأخيرة، وعندها سيؤلّف كتاباً بنفسه، يضع فيه

الأجوبة جميعها، وعندها سيستغرب علماء الجامعات الأمر، وسيخجلون، ويشدّون شَعرهم.

لكنّ الأمر لن يكون سهلاً؛ فيداه كبيرتان، والرّيشة الرّفيعة تنكسر مرّةً تِلْو الأُخرى بين أصابعه. يجب عليه أن يتمرّن كثيراً قبل أن يتمكّن من ملء كتابٍ كاملٍ بحروفٍ من حِبْر، ولكنْ لا بدّ من ذلك؛ إذْ لا يمكنه الاحتفاظ في ذاكرته إلى الأبد بما اكتشفه، فهو كثيرٌ، ويؤلمه، وغالباً ما يشعر بالدّوخة من هذه المعرفة في رأسه كلّها.

ربّما سيستطيع فيما سيأتي من الأيّام أن يعلِّم ابنه شيئاً منها، فقد لَحظ أنّ ابنه أحياناً ينصت إليه في أثناء تناول الطّعام، رغماً عنه تقريباً، وباذلاً جهداً لئلّا يبدو عليه شيءٌ. إنّه نحيلٌ، وضعيف البنْية جدّاً، ولكنّه يبدو ذكيّاً. قبل وقتٍ قصيرٍ ضبطه كلاوس، وهو يلعب بثلاثة أحجارٍ معاً في الهواء، بكلّ خفّةٍ ومهارةٍ. صحيحٌ أنّ هذا عبثٌ، لكنّه مؤشّرٌ إلى أنّ الصّبيّ قد لا يكون بليداً مثل الآخرين، ومؤخّراً سأله الصّبيُّ عن العدد الحقيقيّ للنّجوم، ولمّا كان كلاوس قد عدّها قبل وقتٍ قصيرٍ، فقد أعطاه الجواب وبكلّ فخرٍ. إنّه يَأمَل أن يكون الطّفل الذي تحمله أغنيتا حاليّاً صبيّاً أيضاً، ومع شيءٍ من الحظّ سيكون أقوى، كي يساعده في العمل، وكي يعلّمه لاحقاً أيضاً.

أرضيّة الألواح الخشبيّة قاسيةٌ جدّاً، لكنّه إذا استلقى على ما هو أطرى، فسينام، ولن يتمكّن من رَصْد حركة القمر، وكان بجهدٍ كبيرٍ قد ركَّب على نافذة السّقف المائل شبكاً من خيطانٍ رفيعةٍ، أصابعه ثخينةٌ وثقيلة الحركة، والصّوف الذي نسجته أصابع أغنيتا يصعب التّعامل معه، لكنّه تمكّن أخيراً من إنجاز ما يبغي؛ تقسيم النّافذة إلى مربّعاتٍ متساوية الحجم تقريباً.

وهكذا يستلقي ويُحدّق. الوقت يمضي. يتثاءب. يتجمّع الدّمع في عينيه. «لا يجوز لك أن تغفو». يقول لنفسه: «بأيّ شكلٍ من الأشكال لا يجوز لك أن تنام».

وأخيراً: ظهر القمر، فضّيّاً، وبدراً تقريباً، ومبقّعاً مثل نحاسٍ مُتّسخٍ. ظهر في الصّفّ السُّفليّ، ولكنْ ليس في المربّع الأوّل، حسبما توقّع كلاوس، إنّما في الثّاني، ولكن لماذا؟ رَمش. عيناه تؤلمانه. يكافح ضدّ النّوم ويغفو، يستيقظ ثانيةً، يغفو مُجدّداً، لكنّه يقظٌ الآن ويرمش، والقمر لم يعُد في صفّ المربّعات الثّاني من الأسفل، بلْ في الثّالث، وفي المربّع الثّاني يساراً. كيف حدث هذا؟ المؤسف أنّ المربّعات غير متساوية الحجم؛ لأنّ الصّوف ينْسِل، ولهذا جاءت العُقَد سمينةً، ولكنْ لماذا يتحرّك القمر بهذا الشّكل؟ إنّه كوكبٌ حقيرٌ، وغادرٌ، ومخادعٌ، وليس مُصادفةً وجود صورته في أوراق الطّالع، دلالةً على السّقوط والخيانة،

ولتحديد متى يكون القمر في هذا، أو ذاك المكان، على المرء إضافةً إلى ذلك معرفة الوقت، ولكنْ باسم الشّياطين جميعهم. كيف للمرء قراءة الوقت إنْ لم يكن من موقع القمر؟ قد يودي هذا بالمرء إلى الجنون التّام، يُضاف إلى ذلك أنّ أحد الخيطان قد انفكّ. نهض كلاوس، وحاول بأصابعه ثقيلة الحركة أنْ يعقده، ولم يكد ينتهي أخيراً من هذا الأمر حتّى جاءت غيمةٌ، على أطرافها يومض الضوء شاحباً، ولكنْ لم يعُد بالإمكان معرفة أين يقف القمر. أغمض عينيه من الألم.

مع الفجر، عندما صَحا كلاوس، وهو يشعر ببردٍ شديدٍ، كان يحلم بالطّحين. هذا لا يُصدّق! فالأمر يتفاقم. فيما مضى كانت أحلامه مملوءةً بالنّور والصّخب. كان هناك موسيقا في أحلامه، وأحياناً كانت هناك أرواح تكلّمه، لكن ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ، وحاليّاً بات يحلم بالطّحين.

وفيما ينهض منزعجاً، اتّضح له أنّ ما أيقظه لم يكن حُلم الطّحين، بلْ أصوات من الخارج. في هذا الوقت؟ تذكّر بقلقٍ نذير اللّيلة الفائتة. انحنى من النّافذة، وفي اللّحظة نفسها انشقّ ضباب الغابة الرّماديّ، وعَرجت منه أغنيتا مستندةً إلى هاينز.

لقد وصلا حقّاً، على نقيض الاحتمالات كافّةً. في البداية حملهما الخادم معاً: المرأة الحيّة، والطّفل الميت، ثمّ لم يعُد يقدر، فمشت أغنيتا بنفسها، وهو يسندها؛ ثم ثقُلَ الطّفل عليه جدّاً، وبات يشكّل خطراً أيضاً، فالطّفل الميت قبل أن يُعمَّد يجذب الأرواح، سواء كانت أرواح الفضاء أم أرواح الأعماق، وهكذا اضطّرّت أغنيتا إلى أن تحمله بنفسها، وتلمّسا الدّرب إلى الطّاحون.

نزل كلاوس على السُّلّم، وتعثّر بالخَدم الذين يشخرون، دفع العنزة جانباً، وشدّ الباب بقوّةٍ، وخرج في اللّحظة المناسبة ليتمكّن من تلقّف أغنيتا المنهارة. جعلها تستلقي بحذرٍ على الأرض، وتلمّس وجهها. أحسّ بتنفّسها. رسم نجمةً خماسيّةً على جبينها، رأسها نحو الأعلى طبعاً، كي تشفيها، ثمّ أخذ شهيقاً عميقاً، ونطق بنفَسٍ واحدٍ: عليكم ألّا تفعلوا هذا، بلْ عليكم تجاوز الأشجار جميعها، وخوض المياه كلّها، وصعود الجبال جميعها، ومناداة ملائكة الرّبّ أجمعين، وسوف تُقرع النّواقيسُ جميعها، وتُرتّل الصّلوات جميعها، وتقرأ الأناجيلُ جميعها؛ لبثّ الشّفاء ثانيةً في جسمها. إنّه يعرف تقريباً معنى ما تلاه، لكنّ هذه التّعويذة قديمةٌ قِدَم الدّهر، وهو لا يعرف أقوى منها مفعولاً، لإبعاد عفاريت ليل جبال الألب.

الزّئبق سيفيدها الآن، لكن ما كان عنده نفد، إذنْ، سيرسم علامته عوضاً عنه على بطنها، الصّليب مع الثّمانية، الذي يرمز إلى مِركوريوس العظيم؛ العلامة وحْدها ليس لها مفعول الزّئبق الأصليّ، لكنّها أفضل من لا شيء، ثمّ صاح بهاينر: «اِصعد السّقيفة، وأحْضِر عشبة الصّبيان!». هزّ هاينر رأسه موافقاً، وترنّح إلى الطّاحون، وتسلّق السُّلّم لاهثاً، لكنّه عندما صار فوق في السّقيفة، التي تفوح برائحة خشبٍ وورقٍ قديمٍ، ووقف ينظر مرتبكاً إلى الشّبك المُعلّق على النّافذة، انتبه إلى أنّه لا فكرة لديه إطلاقاً عن عشبة الصّبيان.

وهكذا استلقى على الأرض، ووضع رأسه على الوسادة المحشوّة بالقشّ، التي ترك الطّحّان أثراً عليها، وراح في سُباتٍ عميقٍ.

طلع النّهار. بعد أن حمل كلاوس زوجَهُ إلى الطّاحون، تصاعد النّدى من المرج بخاراً، وأشرقت الشّمس، وانقشع ضباب الصّباح لصالح ضياء الظّهيرة، وبلغت الشّمس سمتها، ثمّ أخذت بالانحدار. إلى جانب الطّاحون يوجد الآن كومةٌ من التّربة المقلوبة حديثاً، هناك يرْقد الطّفل الذي لا اسم له، والذي لم يُعمَّد، فلا يجوز دفنه في المقبرة.

وأغنيتا لم تمُت؛ فاجأ هذا الجميع. ربّما تعلّق الأمر بقوّة بنيتها، وربّما بتعاويذ كلاوس، وربّما بعشبة الصّبيان، على الرّغم من أنّها ليست قويّةً كفايةً، بنجر السّياج، أو الآقونيطن كانا أفضل، لكنّه مع الأسف استعمل آخر ما كان عنده قبل مدّةٍ قصيرةٍ في علاج ماريا شتِللينغ، التي ولِد طفلها ميتاً، قيل إنّها قد ساعدت على هذه الولادة؛ لأنّها لم تحمل بالطّفل من زوجها، بلْ من أنسِلم مِلكر، إلّا أنّ هذا لم يهمّ كلاوس. أغنيتا لم تمُت إذن، لكنّها عندما اعتدلت في مضجعها، ونظرت حولها بتعبٍ، ثمّ نادت اسماً، بصوتٍ خافتٍ أوّلاً، ثمّ بصوتٍ أعلى، وأخيراً: صُراخاً، عندها تبيّن للجميع أنّهم نتيجة الاضطّراب قد نسوا الصّبيّ، والعربة، والحمار، والطّحين الغالي.

لكنّ الشّمس كانت على وشك أن تغيب. لقد تأخّر الوقت للاستعداد للانطلاق، وهكذا بدأت ليلةٌ جديدةٌ.

في الصّباح الباكر انطلق كلاوس مع الخادمَيْن: سِب وهاينر. مشوا صامتين. كلاوس غارقٌ في أفكاره، وهاينر ليس من عادته الكلام، وسِب يصفر بصوتٍ خافتٍ شارداً. بما أنّهم رجالٌ ثلاثة معاً، فلا حاجة بهم إلى الالتفاف، بلْ يمكنهم عبور المنطقة الخالية إلّا من شجرة الدّردار المعمّرة. سوداء وشامخة انتصبت الشّجرة الشّرّيرة هناك، وأغصانها تقوم بحركاتٍ لا تقوم بها

أغصان الشّرّ عادةً. بذل الرّجال جهدهم لئلّا ينظروا إليها، وعندما دخلوا الغابة ثانيةً تنفّسوا الصُّعداء.

لم يفارق أفكار كلاوس الطّفل الميت، على الرّغم من أنّه كان بنتاً، بقي الفقدان مؤلماً. «إنّه لعُرفٌ جيّدٌ». قال في نفسه: «ألّا يحبَّ المرء أطفاله مبكّراً جدّاً». لقد ولّدت أغنيتا عدّة مرّاتٍ، لكنّ واحداً فقط بقي حيّاً، وهو نحيلٌ وضعيف البنْية، ولا يُعرَف ما إن كان قد اجتاز اللّيلتين في الغابة بسلامٍ.

من الأفضل للمرء أن يقاوم حُبّ الأطفال، فالإنسان لا يقترب كثيراً من كلبٍ، ولو بَدا وَدوداً يمكنه أن يعضّ. على المرء دائماً الاحتفاظ بمسافةٍ بينه وبين طفله؛ لأنّهم ببساطةٍ يموتون بسرعةٍ، ولكنْ مع كلّ سنةٍ تمضي يعوِّد المرء نفسه على نحوٍ متزايدٍ على هذا الكائن، فيجمع ثقته، ويسمح لنفسه بأن يحبّه، وفجأةً يموت الطّفل.

قُبَيل الظّهيرة اكتشفوا آثار أقدام شعب العفاريت الصّغار. بقوا واقفين حذراً، ولكنْ بعد فحصٍ دقيقٍ تبيّن كلاوس أنّها تتّجه نحو الجنوب، بعيداً عن هنا، إضافةً إلى أنّ العفاريت الصّغار في الرّبيع لا يشكّلون خطراً كبيراً، لكنّهم في الخريف يضجّون ويصيرون حُقراء.

بعد العصر عثروا على البقعة. كادوا يتجاوزونها، لخروجهم عن الدّرب قليلاً، فالأجمات كثيفةٌ، بحيث لا يعرف المرء إلى أين يتّجه، لكنّ سِب انتبه إلى الرّائحة الحرّيفة الحلوة. أبعدوا بعض الأغصان جانباً، وكسروا أُخرى، وهُم يسدّون أنوفهم بأيديهم. مع كلّ خطوةٍ كانت تزداد قوّة الرّائحة، وها هي العربة مُحاطةٌ بسحابةٍ من الذُّباب. أكياسُ الطّحين مبقورةٌ، والأرض بيضاءُ من الطّحين. هناك شيءٌ وراء العربة، يبدو مثل كومةٍ من الفِراء القديم. احتاجوا إلى بُرهةٍ ليتعرّفوا فيها إلى بقايا الحمار، ولكنْ ينقصها الرّأس.

- «ربّما كان ذئباً». قال سِب، وهو يجدّف بذراعيه؛ ليُبعد الذُّباب عنه.

- «آثار الذّئب تختلف». قال كلاوس.

- عفاريت كالتِه؟

- «لن يهمّها حمار». انحنى كلاوس، وتلمّس الكومة. شقٌّ أمْلسُ، ولا أثر لعضّاتٍ في أيّ مكانٍ. هذه كانت بلا شكّ ضربة سكّين.

هتفوا اسم الصّبيّ، وأصْغوا، وكرّروا الهُتاف. نظر سِب إلى الأعلى وخَرِس، وفيما تابع كلاوس وهاينر النّداء وقف سِب مثل الصّنم.

فرفع كلاوس نظره إلى الأعلى الآن. دَهَمه الارتياعُ، وأَمْسك به، فمدَّ يديه ليتمّسك بشيءٍ ثابتٍ، وشعر أنّه على وشك الاختناق. ثمّة ما يتأرجح فوقهم، أبيض من رأسه إلى قدميه، ويحدِّق إلى الأسفل، وعلى الرّغم من أنّ العتمة قد بدأت تنتشر، كانت العينان الكبيرتان مرئيّتين، والأسنان مكشّرةً، والوجه مُلْتوياً. والآن، بما أنّهم ثلاثتهم يحدّقون إلى الأعلى، فقد سمعوا صوتاً حادّاً كالنّشيج، لكنّه ليس نشيجاً. مهما كان ما فوقهم في الأعلى، فقد كان يضحك.

- «هيّا انزل!». صاح كلاوس.

لكنّ الصّبيّ، وهو حقّاً الصّبيّ: قَهْقَهَ، ولم يتحرّك. إنّه عارٍ تماماً، وأبيضُ كلّيّاً. لا بدَّ من أنّه قد مرَّغ نفسه في الطّحين.

- «يا إلهي!». قال سِب: «يا إلهي القدير الرّحيم!».

وفيما ينظر كلاوس نحو الأعلى، فإنّه يرى شيئاً آخر، لم يَرَه من الوهلة الأولى، لأنّه مُستغرَبٌ جدّاً، فما على رأس الصّبيّ، وهو يضحك عارياً، وواقفاً على حبلٍ من دون أن يسقط على الأرض، لم يكن قُبّعةً.

- «يا أيّتها العذراء المقدّسة». قال سِب: «ساعدينا، ولا تتخلّي عنّا».

صَلَّب هاينر أيضاً.

أخرج كلاوس سكّينه، وحفر بيَدٍ مرتعشةٍ على أحد الجذوع نجمةً خماسيّةً، رأسها نحو اليمين، والشّكل مغلق الأطراف تماماً، وحفر إلى يمينها حرف ألفا اليونانيّ، وإلى يسارها حرف أوميغا، ثمّ أوقف تنفّسه، عدَّ ببطءٍ إلى الرّقم سبعة، وهَمْهَم تعويذة إبعادٍ: «يا أرواح العالم العُلويّ، يا أرواح العالم السُّفليّ، يا جميع القدّيسين، أيّتها العذراء الطّيّبة، ساعدونا باسم الثّالوث الأقدس». ثمّ قال ل سِب: «أنزله. اِقطع الحبل».

- لماذا أنا؟

- لأنّي آمُركَ بذلك.

حَمْلَق سِب، ولم يتحرّك من مكانه. حطَّ ذبابٌ على وجهه، لكنّه لم يَنشَّه.

- «أنت إذاً». قال كلاوس لهاينر.

كان هاينر يفتح فمه ويغلقه، ولو أنّه لم يستصعب الكلام، لتكلّم الآن عن أنّه قام وَحْده بحمل امرأةٍ عبْر الغابة، وأنقذها،

ووجد طريق الخروج وَحْده، ولَقال إنَّ لكلّ شيءٍ حَدّاً، حتّى التّسامح، ولكنْ ما دام الكلام ليس مسألته، فقد شبك ذراعيه، ونظر إلى الأرض بعنادٍ.

- «أنت إذاً». قال كلاوس لسِب: «أحدكما يجب أن يُنزِله. أنا مصابٌ بالرّوماتيزم. عليك تسلّق الشّجرة، وإلّا ستندم طوال حياتك». وحاول أن يتذكّر التّعويذة، التي تجعل المعاندين يطيعون، لكنّ الكلمات لم تَرِدْ على ذاكرته.

أطلق سِب لعناتٍ رهيبةً، وبدأ يتسلّق. أخذ يئنّ؛ فالأغصان لا تساعده على التّمسُّك جيّداً، وعليه في الوقت نفسه أن يبذل جهده كلّه لئلّا يرفع ناظريه إلى الظّاهرة البيضاء.

- «ما هذا؟ ماذا جرى لك؟». صاح كلاوس بسِب.

- «الشّيطان العظيم العظيم». قال الصّبيُّ بفرحٍ.

نزل سِب عن الشّجرة. إنّ سماع هذا الجواب تجاوز قواه كلّها، وتذكّر إلى جانب ذلك أنّه هو الذي كان قد رمى الصّبيّ في النّهر، وإذا كان الصّبيُّ لا يزال يذكر الحادثة، ولا يزال حاقداً عليه، فليس الآن وقت المواجهة. وصل إلى الأرض، وهزّ رأسه رافضاً.

- «أنت إذاً». قال كلاوس لهاينر.

لكنّ هذا استدار من دون كلمةٍ، ومشى حتّى غاب في الدّغل، ولم يعُد يُسمع أثرٌ له.

- «تسلّق الشّجرة ثانيةً». قال كلاوس لسِب.

- لا.

- «موتوس دِديت». هَمْهَم كلاوس، وقد تذكّر الآن كلمات التّعويذة اللّاتينيّة: «موتوس دِديت نومِن».

- «لن يفيدك هذا». قال سِب: «لن أتسلّق الشّجرة».

سُمِعتْ طرطقةٌ من الأجمات، وتكسُّر أغصانٍ، لقد عاد هاينز؛ إذْ أدرك أنّ اللّيل سيحلّ بعد قليل، ولن يستطيع أن يكون وحْده في الغابة المظلمة، لن يحتمل ذلك. كان ينشّ عنه الذّباب غاضباً، استند إلى جذعٍ وأخذ يُهَمْهِم.

عندما التفت عنه كلٌّ من كلاوس وسِب، لَحظا أنَّ الصّبيّ يقف إلى جانبهما. قفزا مرعوبَين إلى الوراء. كيف نزل بهذه السّرعة؟ نزع الصّبيُّ ما كان يضعه على رأسه: قطعة من جِلْد رأس الحمار مع الأذنين. كان شَعرهُ متيبّساً مع الدّم.

- «بحقّ الرّبّ». قال كلاوس: «بحقّ العذراء، والأب، والابن».

- «كان الوقت طويلاً». قال الصّبيُّ: «لم يأتِ أحدٌ. كان ذاك مجرّد مزاحٍ، والأصوات مزحة كبيرة».

- أيّة أصوات؟

تلفّت كلاوس حوله. أين بقيّة رأس الحمار: العينان، والفكّ مع الأسنان، وعَظم الجُمْجمة الكبير، أين هذا كلّه؟

قرفص الصّبيُّ ببطءٍ، ثمَّ مال إلى جنبه ضاحكاً، ولم يعُد يتحرّك.

أنهضوه، ولفّوه ببطّانيّةٍ، وتحرّكوا بعيداً عن العَربة، والطّحين، والدّم. تعثّروا في مشيتهم في الظّلام لفترةٍ، إلى أن شعروا بما يكفي من الأمان لوضع الصّبيّ على الأرض. لم يوقدوا ناراً، ولم يتبادلوا الكلام فيما بينهم كي لا يجذبوا إليهم شيئاً. كان الصّبيُّ يضحك في نومه، وكان ملمس بشرته ساخناً. ثمّة أغصانٌ تفرقع، والرّيح تهمس، وبعينين مغمضتين أخذ كلاوس يُرتّل صلواتٍ همساً، وتعويذات إبعاد الأرواح الشّرّيرة، ما ساعدهم نوعاً ما، فتحسّن حالهم تدريجيّاً. حاول في أثناء صلاته أن يحسب بصورةٍ تقريبيّةٍ كم سيكلّفه هذا كلّه: العربة تحطّمت، والحمار مات، ولا بدَّ له قبل كلّ شيءٍ من تعويض الطّحين. من أين له أن يُسدّد هذا كلّه؟

في ساعات الصّباح الباكرة تراجعت حُمّى الصّبيّ. عندما استيقظ سأل مرتبكاً عن سبب التصاق شعره، ولماذا جسمه أبيض، ثمّ هزّ كتفيه، ولم يعُد يجد الأمر مهمّاً، وعندما أخبروه أنّ أغنيتا لا تزال حيّةً فرحَ وضَحك. وجدوا جدولاً، فاغتسل الصّبيُّ، لكنّ شدّة برودة الماء جعلت جسمه كلّه يرجف، فلفّه كلاوس ثانيةً بالبطّانية، وانطلقوا. في طريق العودة إلى الطّاحون حكى لهم الصّبيُّ الحكاية التي سمعها من أغنيتا، حكى عن ساحرةٍ، وعن فارسٍ، وعن تفّاحةٍ ذهبيّةٍ، وفي الختام تنتهي الأمور كلّها على خير، الأميرة تتزوّج البطل، والعجوز الشّرّيرة تموت ميتةً تَعِسة.

وفي الطّاحون استلقى الصّبيُّ على كيس القشّ إلى جانب المَوقد، ونام في اللّيل بعمقٍ، بحيث ما كان لشيءٍ أن يوقظه ثانيةً. كان الوحيد الذي استطاع النّوم، فقد عاد الطّفل الميّت مجرّد وميضٍ في العتمة، إضافةً إلى أنينٍ خافتٍ، أقرب إلى صوت تيّار هواءٍ منه إلى صوتٍ بشريٍّ. دخل فترةً من الزّمن إلى الغرفة الخلفيّة، حيث يستلقي كلاوس وأغنيتا، لكنّه عندما لم يستطع الاقتراب من سرير الوالدين؛ بسبب النّجوم الخماسيّة على دعاماته، عاد إلى غرفة المعيشة، حيث رتّب الصّبيُّ والخَدمُ أكياس نومهم حول الموقد. إنّه أعمى، وأصمّ، ولا يفهم شيئاً،

صدم دلو الحليب فأسقطه، وطيَّر قِطع القماش المغسولة في النّهار عن رفّ المطبخ، ولفَّ نفسه بستارة النّافذة قبل أن يغادر إلى ليمبوس، حيث تقيم أرواح الأطفال غير المعمَّدين في بردٍ جليديٍّ طوال مئات آلاف السّنين، قبل أن يغفر لهم الرّبُّ.

بعد بضْعة أيّامٍ أرسل كلاوس الصّبيّ إلى الحدّاد لودفيغ شتِللينغ في القرية. إنّه في حاجةٍ إلى مطرقةٍ جديدةٍ، على ألّا تكون غالية الثّمن، فمنذ أن فقد حمولة الطّحين بات مديناً بمبلغٍ كبيرٍ لِمارتين رويتر.

في الطّريق تناول الصّبيُّ من الأرض ثلاثة أحجارٍ، رمى الأوّل نحو الأعلى، ثمّ الثّاني، ثمّ تلقّف الأوّل ورماه عالياً ثانيةً، ثمّ رمى الثّالث، تلقّف الثّاني، وعاود رَمْيه، ثمّ تلقّف الثّالث، وعاود رَمْيه، ثمّ الأوّل. الثّلاثة صاروا الآن في الهواء، تقوم يداه بحركاتٍ دائريّةٍ، وكلّ شيءٍ يسير كما من نفسه. الحيلة في الأمر، عدم التّفكير، وعدم تثبيت النّظر على أيٍّ من الأحجار. على المرء أن ينتبه بدقّةٍ، ويتظاهر في الوقت نفسه كأنّها غير موجودة.

وسار هكذا مُحاطاً بالأحجار، مُتجاوزاً دار هنَّا كرِل، وعبر حقل شتيغر. قَبْل ورشة الحدادة ترك الأحجار تسقط في الطّين الطّريّ، ودخل.

وضع قطعتي نقودٍ على السّندان، وما زال في جيبه قطعتان أُخْرَيان، ولكن لا يجوز للحدّاد أن يعرف ذلك.

- «هذا قليلٌ جدّاً». قال الحدّاد.

هزّ الصّبيُّ كتفيه، واستعاد القطعتين، واستدار نحو الباب.

- «انتظر!». قال الحدّاد.

بقي الصّبيُّ واقفاً.

- عليك أن تدفع أكثر.

هزّ الصّبيُّ رأسه نفياً.

- «ما هكذا تسير الأمور». قال الحدّاد: «عندما تريد أن تشتري شيئاً، عليك أن تساوم».

مشى الصّبيُّ نحو الباب.

- انتظر!

للحدّاد حجم عملاقٍ، كِرشه العاري مُغطّى بالشَّعر، وقد ربط قطعة قماشٍ حول رأسه، وجهه أحمر، وممتلئٌ بالمسام. الكلّ في القرية يعرف أنّه يخرج ليلاً مع إلزه مِلكر إلى الأجمات، زوج إلزه وحده لا يعرف، أو ربّما يعرف، لكنّه يتظاهر بأنّه لا يعرف؛ إذْ

ماذا بوسع المرء أن يفعل في مواجهة حدّاد؟ وعندما يَعِظ الكاهن يوم الأحد عن الفجور، فإنّه ينظر دائماً إلى الحدّاد، وأحياناً إلى إلزه أيضاً.

- «هذا قليلٌ جدّاً». قال الحداد.

لكنّ الصّبيّ عرف أنّه قد كسب الجولة، مسح العرق عن جبهته. كانت النّار تشعّ بحرارةٍ عاليةٍ جدّاً، والظّلال تتراقص على الجدار. وضع يده على قلبه وأقسم: «لم أحصل على أكثر من هذا، أقسم بسلام روحي!»

بوجهٍ غاضبٍ أعطاه الحدّاد المِطرقة. شَكره الصّبيُّ بأدبٍ، ومشى ببطءٍ نحو الباب، كي لا تُخشخش النّقود في جيبه.

تجاوز إصْطبل ياكوب برانتنر ودار مِلكر، ثمّ دار متوجّهاً إلى ساحة القرية. هل ستكون نِله هناك يا تُرى؟ وفعلاً، ها هي ذي جالسة على سور البِركة الصَّغير تحت رذاذ النّافورة.

- «أنت ثانيةً». قال لها.

- «هيّا اذهب إذن». أجابته.

- بل اذهبي أنتِ.

- أنا قبلك هنا.

جلس إلى جانبها. كلاهما ضَحكا باستهزاءٍ.

- التّاجر كان هنا. قال: إنّ القيصر يقطع الآن رؤوس سادة بوهيميا كلّهم.

- «والملك أيضاً؟». سألها.

- ملك الشّتاء، هكذا يسمّونه؛ لأنّه لم يبقَ مَلكاً إلّا لشتاءٍ واحدٍ، بعد أن أعطاه سكّان بوهيميا تاجَهم. تمكّن من الهرب، وسيعود على رأس جيشٍ جرّارٍ، فالملك الإنجليزيّ هو والد زوجِه. سيعاود احتلال براغ، وسوف يُنحّي القيصر ليصير هو قيصراً.

أحضرت هنّا كرلِ دلواً، وبذلت جهداً لتملأه من حافّة البِركة. الماء ليس نظيفاً، لا يمكن للنّاس شُربه، لكنّه ضروريٌّ للغسيل وللحيوانات. عندما كانوا صغاراً شربوا حليباً، لكنّهم منذ بضع سنواتٍ كبروا بما يكفي لشرب بيرة مخفّفةٍ. الجميع في القرية يأكلون هريس الحبوب، ويشربون بيرة مخفّفة، حتّى الأغنياء مثل آل شتيغر. لملوك الشّتاء والقياصرة هناك ماء الورد ونبيذ؛ أمّا البسطاء فيشربون الحليب والبيرة المخفّفة من أوّل يومٍ في حياتهم حتّى الأخير.

- «براغ». قال الصّبيُّ.

- «نعم». قالت نِله: «براغ».

فكّر كلاهما ببراغ؛ لمجرّد أنّها كلمةٌ وحسب، ولأنّهما لا يعرفان شيئاً عنها، تكتسب الكلمة جرْساً واعداً، كما في حكاية.

- «كم تبعد براغ؟». سألها الصّبيُّ.

- إنّها بعيدةٌ جدّاً.

- أومأ برأسه كمن حصل على جواب: «وإنجلترا؟».

- بعيدة جدّاً أيضاً.

- يحتاج المرء إلى سنةٍ ليصل.

- بل أكثر.

- أنسافر إلى هناك؟

ضحكت نِله.

- «لِمَ لا؟». سألها.

لمْ تُجِبْه، وعرف أنّ عليها الآن أن تكون حذرةً؛ فالكلمة الخاطئة قد تجرُّ عواقب. أصغر أبناء بيتر شتيغر أهدى في العام الماضي

إلزِه برانتنر مزماراً خشبيّاً، ولأنّها قبلت الهديّة فهما الآن مخطوبان، على الرّغم من أنّهما لا يحتمل واحدهما الآخر، ووصلت المسألة حتّى إلى المحضر في المركز الإداريّ، الذي حوّلها بدوره رسميّاً إلى المحكمة الكنسيّة، التي حسمت الأمر بأنّه ما من حلٍّ: فالهديّة تعدُّ وعداً، والوعد نافذٌ أمام الرّبّ، ودعوة شخصٍ إلى رحلةٍ لا تُعدُّ هديّةً، لكنّها في منزلة وعدٍ تقريباً. كان الصّبيُّ يعرف ذلك، ويعرف أنّ نِلِه تعرفه أيضاً، وكلاهما يعرفان أنّه لا بدَّ من تغيير الموضوع.

- «كيف حال أبيكِ؟». سألها الصّبيّ: «هل تحسّن الرّوماتيزم؟».

- أومأت: «لا أعرف ما فعله أبوك، لكنْ هناك تحسُّن».

- تعويذات وأعشاب.

- هل ستتعلّم ذلك؛ أن تشفي النّاس، هل ستتقن ذلك في المستقبل؟

- أفضّل السّفر إلى إنجلترا.

ضحكت نله.

نهض واقفاً. كان لديه أمل غير محدّدٍ بأن تستوقفه، لكنّها لم تتحرّك.

- «في احتفال الانقلاب الشّمسيّ القادم سوف أقفز فوق النّار مثل الآخرين». قال الصّبيُّ.

- وأنا أيضاً.

- لكنّكِ بنت.

- وهذه البنت ستضربك فوراً.

انطلق من دون أن يلتفت مرّةً ثانيةً. كان يعرف أهمّيّة ذلك، فهو إنْ التفت، تكون قد انتصرت.

المطرقة ثقيلةٌ. قبْل دار هاينرلينغ ينتهي الرّصيف الخشبيّ. ترك الصّبيُّ الدّرب، وشقّ طريقه عبر الحشائش الطّويلة، وهذا ليس خلواً من الخطر تماماً، بسبب شعب الصّغار. فكّر بسِب، منذ ليلة الغابة صار الخادم يخاف منه، ويحافظ على مسافة أمانٍ منه، وهذا مفيدٌ. لو أنّه يدري فقط ما الذي جرى في الغابة! كان يعرف أنّه لا يريد التّفكير في الأمر. التّذكّر مسألةٌ عجيبةٌ، لا يأتي ويذهب ببساطةٍ حسبما يريد، بلْ يمكن للمرء أن ينعشه، ثمّ يطفئه مثل نثار الخشب الراتينجي. فكّر الصّبيُّ بأمّه، التي استعادت قواها مؤخّراً، وفكّر لحظةً بالصّغيرة الميتة، أخته، التي ذهبت روحها الآن إلى ليمبوس الباردة؛ لأنّها لم تُعمَّد.

توقّف ونظر إلى الأعلى. يجب شدّ الحبل أعلى من قمم الأشجار، من برج كنيسةٍ إلى آخر، من قريةٍ إلى قريةٍ. بسط ذراعيه، وتخيّل الصّورة، ثمّ قعد على صخرةٍ، وراقب الغيوم، وهي تتجزّأ. صار الجوّ دافئاً، والهواء ممتلئٌ بالبخار؛ إنّه يتعرّق. وضع المطرقة إلى جانبه، وأحسّ فجأةً بنعاسٍ وبجوعٍ، ولكنْ مازالت أمامه عدّة ساعات حتّى يحصل على هريس الحبوب، وماذا لو استطاع المرء الطّيران، أن يخفق بذراعيه، أن ينفصل عن الحبل، ويصعد إلى الأعلى، فأعلى؟ قصف عوداً، ومرّره بين شفتيه. للعود طعمٌ حلوٌ، رطبٌ وحادٌّ قليلاً. استلقى بين الحشائش، وأغمض عينيه، بحيث يسقط شعاع الشّمس دافئاً على جفنيه. تسلّل بللُ الحشائش ليرطّب ثيابه.

سقط ظلٌّ عليه، ففتح الصّبيُّ عينيه.

- هل رَعَبتُك؟

اعتدل الصّبيُّ من استلقائه، وهزّ رأسه نافياً. الغرباء نادرون هنا، أحياناً يأتي المحضر القانونيّ من مركز المحافظة، ومن حينٍ إلى آخر يمرّ بعض التُّجّار، لكنّه لا يعرف هذا الغريب، إنّه فتيٌّ، لم يصبح رجُلاً بعد، له شاربان خفيفان، ويرتدي صدّارةً وسروالاً رماديّاً من قماشٍ جيّدٍ، وجزمةً عاليةً. نظرته مشرقةٌ وفضوليّةٌ.

- هل كنت تتخيّل كيف سيكون الأمر لو كنتَ قادراً على الطّيران؟

حدّق الصّبيُّ إلى الغريب.

- «لا». قال الغريب: «لم يكن هذا سِحراً. الإنسان لا يستطيع قراءة الأفكار. لا أحد يستطيع ذلك، ولكن عندما يفرد طفلٌ ذراعيه، ويقف على رؤوس أصابع قدميه، وينظر نحو الأعلى، فهو يفكّر بالطّيران؛ وهو يفعل ذلك لأنّه لم يصدّق بعْد أنّه لن يطير أبداً، أنّ الرّبّ لا يسمح لنا بالطّيران. يسمح للطّيور، ولكن ليس لنا».

- «في وقتٍ ما بوسعنا جميعنا أن نطير». قال الصّبيّ: «عندما نموت».

- عندما يموت الإنسان، يكون كخطوةٍ أولى قد مات، ثمّ يرقد في قبرٍ، حتّى عودة الرّبّ ليحاسبنا.

- متى يعود الرّبّ؟

- «ألم يُطلعك الكاهن على ذلك؟». هزّ الصّبيّ كتفيه. طبعاً يتكلّم الكاهن في الكنيسة حول هذه الأمور: القبر، يوم الحساب، الموتى، لكنّ صوته رتيب، وكثيراً ما يكون سكراناً.

- «في آخر الزّمن». قال الغريب: «إلّا أنّ الموتى لا يحسّون بالزّمن، فهُم موتى. إذنْ، يمكن للمرء أن يقول: فوراً، ما إنْ تموت حتّى يبدأ يوم الحساب».

- هذا ما قاله أبي أيضاً.

- وهل أبوك عالِم؟

- أبي طحّان.

- هل لديه أفكار؟ هل يقرأ؟

- «يعرف أشياء كثيرة». قال الصّبيُّ: «يساعد النّاس».

- يساعدهم؟

- عندما يكونون مرضى.

- قد يقدر على مساعدتي أنا أيضاً.

- وهل أنت مريض؟

جلس الغريب إلى جانبه على الأرض.

- ما رأيك، هل سيبقى النّهار مشمساً أم سيعود المطر؟

- وما أدراني بذلك.

- لأنّك من المنطقة.

- «سيعود المطر». قال الصّبيُّ: «لأنّها غالباً ما تمطر، الطّقس سيّئ دوماً، تقريباً، ولهذا السّبب محصول الحبوب سيّئٌ، ولهذا لا يحصل الطّاحون على ما يكفي من الحبوب، ولهذا الجميع جَوْعى. يقال: إنّ الأحوال كانت في الماضي أفضل. كبار السّنّ يتذكّرون أصيافاً طويلةً، ولكنْ لربّما هُم يتخيّلون ذلك، من يدري، إنّهم عجائز».

- «أبي يقول». قال الصّبيُّ: «إنّ الملائكة يركبون على الغيوم المطريّة، وينظرون إلينا من عَلٍ».

- «الغيوم من ماء». قال الغريب: «لا أحد يجلس عليها، والملائكة أجسامهم من نور، ولا يحتاجون إلى مركبات، كذلك الشّياطين، إنّهم من هواء، ولهذا يسمّي الإنسانُ الشيطانَ باسم سيّد الهواء». توقّف عن الكلام، كأنّه أراد سماع كلماته، ونظر إلى رؤوس أصابعه بتعبيرٍ يكاد يكون فضوليّاً، ثمّ قال: «وعلى الرّغم من ذلك فإنّهم ليسوا إلّا جزيئاتٍ من مشيئة الرّبّ».

- الشّياطين أيضاً؟

- طبعاً.

- الشّياطين هُم مشيئة الرّبّ؟

- مشيئة الرّبّ أكبر من كلّ شيءٍ يمكن تصوّره، إنّها من الكبر إلى درجة قدرتها على إنكار نفسها. ثمّة أُحجيةٌ قديمةٌ تقول: أيقدر الرّبّ على أنْ يجعل حجراً على درجةٍ من الثّقل، بحيث لا يستطيع بعد ذلك أنْ يرفعه؟ يبدو هذا كأنّه تناقضٌ. هل تعرف ما هو التّناقض؟

- نعم.

- حقاً؟

أومأ الصّبيُّ.

- فما هو؟

- أنت نفسك تناقُضٌ، وحيلتك لتربط الطّرفين ببعضهما تناقضٌ آخر أيضاً.

صمت الغريب بُرهةً، ثمّ ارتفعت زاويتا فمه لتشكّلا ابتسامةً خفيفةً: «إنّه في واقع الأمر ليس تناقضاً؛ لأنّ الجواب الصّحيح هو: طبعاً يستطيع ذلك؛ إذْ إنّه بعد ذلك يستطيع دونما جهدٍ رفع الحجر الذي لم يكن قادراً قبلُ على رفعه. إنّ الرّبّ على درجةٍ من

الشّمول أكبر من أن يكون مطابقاً لذاته. ولهذا يوجد سيّد الهواء وأعوانه، ولهذا يوجد كلّ ما ليس الرّبّ، ولهذا توجد الدّنيا».

رفع الصّبيُّ إحدى يديه أمام وجهه؛ فالشّمس قد تحرّرت الآن من السُّحب. ثمّة شحرورٌ يُرفرف عابراً. «نعم، بالتّأكيد». فكّر الصّبيّ: «هكذا على الإنسان أن يطير، فهذا أفضل من المشي على الحبل، ولكنْ إن لم يكن الإنسان قادراً الآن على الطّيران، فإنّ المشي على الحبل هو ثاني أفضل حلّ».

- «يسرّني جدّاً التّعرُّف إلى أبيك».

أومأ الصّبيُّ برأسه من دون اهتمامٍ.

- «يُفضَّل أن تُسرع؛ فبعد ساعةٍ ستمطر». قال الغريب.

أشار الصّبيُّ إلى الشّمس متسائلاً.

- «أترى تلك الغيوم الصّغيرة هناك؟»، سأله الغريب: «وهذه المتطاولة فوقنا؟ التي هناك في الخلف تُكوِّرها الرّيح معاً، وهي قادمة من الشّرق، وتحمل هواءً بارداً، والتي فوقنا تتلقّفها، ثمّ يبترد كلّ شيءٍ معاً، فيثقل ماء الغيوم، ويهطل مطراً على الأرض. لا توجد ملائكة جالسة على الغيوم، ولكنْ من المفيد النّظر إليها؛ لأنّها تجلب ماءً وجمالاً. ما اسمُك؟».

أخبره الصّبيُّ به.

- «لا تنسَ مطرقتك يا تيل». استدار الغريب وغادر.

كلاوس متجهّمٌ هذا المساء، فكونه لم يُفلح في حلّ مشكلة الحبوب يُشعره بثقلٍ على روحه في أثناء الجلوس إلى المائدة.

المسألة معقّدةٌ، إذا كان أمام المرء كومة حبوبٍ، وأخذ منها حبّةً، يبقى أمام المرء كومة حبوب. خُذ الآن حبّةً ثانيةً، أما زالت الكومة كومةً؟ طبعاً. خُذْ حبّةً أُخرى، أما زالت كومةً؟ نعم، ما زالت. خُذ الآن حبّةً أُخرى، أما زالت كومةً؟ طبعاً. وهكذا دواليك. الأمر بسيطٌ جدّاً: لن تصير أبداً كومةُ حبوبٍ شيئاً آخر غير كومة حبوبٍ، بمجرّد أخْذ حبّةٍ واحدةٍ منها، وكذلك أيضاً لن يصير أبداً ما ليس كومة حبوبٍ كومةً بمجرّد إضافة حبّةٍ واحدةٍ.

وعلى الرّغم من ذلك، إذا استمرّ المرءُ في أخْذ حبّةٍ تِلو الأُخرى، سيأتي وقتٌ لا تبقى فيه الكومة كومةً، ففي وقتٍ ما لن يبقى هناك سوى بضع حبّاتٍ على الأرض، لا يمكن للمرء مهما صفت نيّته أن يسمّيها كومةً، وإذا تابع المرء الأخْذ، ففي لحظة ما يأخذ المرء الحبّة الأخيرة، ولا يبقى على الأرض شيءٌ. هل الحبّة كومة؟ بالتّأكيد لا. ولا شيء؟ لا، لا شيء ليس كومةً؛ لأنّ لا شيء يعادل لا شيء.

ولكن مع أيّة حبّةٍ، يؤدّي غيابها إلى توقّف الكومة عن بقائها كومةً؟ كرّر كلاوس اللّعبة مئات المرّات، ومئات الحبوب، سكبَ الحبوب في مخيّلته، كي يأخذ من ثمّة حبّة وراء أُخرى في مخيّلته أيضاً، لكنّه لم يعثر على اللّحظة الحاسمة، لقد طردت اللّعبة القمر من دائرة اهتمامه، كما تراجع تدريجيّاً تفكيره بالطّفلة الميتة.

بعد ظُهر هذا اليوم جرّب اللّعبة في الواقع العمليّ، وكانت أصعب مرحلةٍ هي الحصول على ما يكفي من الحبوب غير المطحونة، والصّعود بها إلى السّقيفة، من دون أن يضيع منها شيءٌ خلال ذلك، فبعد غدٍ سيأتي بيتر شتيغر لينقل الطّحين. بالصّياح والتّهديدات حضَّ كلاوس الخَدم الثّلاثة على اليقظة؛ لأنّه ليس بمقدوره مراكمة المزيد من الدّيون. نعتته أغنيتا بكونه تيساً مبروم القرنين، وملتفّاً بالفراء، فأجابها بألّا تتدخّل في أمورٍ بالغة التّعقيد بالنّسبة إلى المرأة، فكان ردُّها أنْ صَفعته، وبناءً على ذلك قال لها: إنّ عليها أن تأخذ حذرها، فما كان منها إلّا أنْ هَوَتْ على خدّه بصفعةٍ، اضطرّ بعدها إلى الجلوس مدّةً من الزّمن. غالباً ما يحدث مثل هذا بينهما، في البداية كان كلاوس أحياناً يردُّ على ضرب أنيتا بمثله، لكنّ هذا لم يناسبه قطُّ، صحيحٌ أنّه أقوى، لكنّها غالباً أشدّ غضباً منه، وهكذا عوَّد نفسه

منذ مدّةٍ على ألّا يردَّ على ضربها بالمثل، فبالسّرعة نفسها التي يأتي بها غضبها، يتراجع أيضاً لحُسن حظّه.

صعدَ بعد ذلك السّقيفة ليعمل، بدأ برزانةٍ ودقّةٍ، متفحّصاً الكومة مع كلّ حبّةٍ ينقلها، لكنّه تدريجيّاً أخذ يتعرّق ويتذمّر، وعند أواخر العصر بلغ درجة اليأس. في وقتٍ ما تشكّلت في الجهة اليمنى من الغرفة كومةٌ جديدةٌ، وفي الجهة اليسرى بقي شيءٌ ما زال في وسع المرء أن يسمّيه كومةً، وربّما لا، وبعد بعض الوقت لم يبق يساراً إلّا حفنة من الحبوب.

وأين هي الحدود الآن إذاً؟ يكاد يبكي. يتناول هريسه بالملعقة، يتنهّد، ويُنصت إلى زخّ المطر. طعمُ الهريس رديءٌ كالعادة، لكنّ صوت المطر يهدّئه لفترةٍ، ثمّ خطر في باله أنّ حال المطر مشابه: كم قطرة يجب أن ينقص المطر حتّى يبلغ درجة التّوقُّف؟ تنهّد. يبدو له الأمر أحياناً كأنّ هدف الرّبّ عند تكوين الدّنيا كان دفْعَ عقل طحّانٍ مسكينٍ إلى الجنون.

وضعت أغنيتا يدها على ذراعه، وسألته إن كان يبغي المزيد من الهريس.

إنّه لا يبغي، لكنّه يفهم أنّها تشفق عليه، وتعرض عليه السّلام بعد الصَّفعتين. «نعم». قال بصوتٍ خافتٍ: «شكراً».

وفي تلك اللّحظة قُرِع الباب.

صَلَّبَ كلاوس إصبعيه لدفع الأذى، وهَمْهَم تعويذةً، ورسم علامةً في الهواء، وبعدها فقط هتف: «من الطّارق باسم الرّبّ؟». الكلّ يعرف أنّه لا يجوز قول: (ادخل) قبل أن ينطق الطّارق باسمه. الأرواح الشّرّيرة ذات سُلطةٍ، لكنّ أغلبها لا يستطيع تجاوز العتبة، إلّا إذا دعاءها المرء للدّخول.

ارتفع صوتٌ يقول: «رحالّان اثنان، باسم المسيح افتحوا».

نهض كلاوس، مشى إلى الباب، ودفع التّرباس جانباً. دخل رجُلٌ تجاوز مرحلة الشّباب، لكنّه يبدو قويّاً، شَعرُ رأسه ولحيته مبلولٌ ويَقطر، وحبّات المطر تلمع كاللّؤلؤ على قماش معطفه الرّماديّ السّميك، تَبِعه آخرُ أصغر منه بكثير. تلفّت حوله، وعندما رأى الصّبيّ ابتسم وجهه. إنّه الغريب من ظُهر اليوم.

- «أنا الدّكتور أوزفالد تِزيموند من جمعيّة يسوع». قال الأكبر سنّاً: «هذا الدّكتور كيرشر. لقد دُعينا».

- «دعيتما؟». سألت أغنيتا.

- «جمعيّة يسوع؟». سأل كلاوس.

- نحن يسوعيون.

- «يسوعيون». كرّر كلاوس: «يسوعيون حقّاً وفعلاً؟».

أحضرت أغنيتا كرسيّين بلا ظَهرٍ إلى الطّاولة، فتقارب الآخرون ليفسحوا مجالاً.

انحنى كلاوس مُحيّياً على نحوٍ غير رشيقٍ، وقدّم نفسه بأنّه كلاوس أولنشبيغل، وهذه زوجُه، وهذا ابنه، وهؤلاء خَدَمه، وأضاف إنّهم نادراً ما يتلقّون زيارةً من أفاضل السّادة، وهذا يشرّفهم. ليس لديهم الكثير، لكنّهم سوف يقدّمون ما عندهم، ها هو هريس الحبوب، وهناك البيرة المخفّفة، وهناك في الجرّة بعض الحليب. تنحنح، ثمّ قال: «هل لي أن أسأل إن كنتما من العلماء؟».

- «أعتقد ذلك». أجاب الدّكتور تِزيموند، وتناول ملعقةً برؤوس أصابعه. «أنا دكتور في الطّبّ واللّاهوت، إضافةً إلى أنّي خيميائيٌّ في اختصاص (التنينولوجيا)؛ أمّا الدّكتور كيرشر، فيهتمُّ بعلم التّنجيم، وبعلم البلّورات، وبطبيعة الموسيقا». تذوّقَ هريس الحبوب، كشّر وجهه، ووضع الملعقة جانباً.

ساد صمتٌ للحظةٍ، ثمّ انحنى كلاوس وسأل إنْ كان يجوز له طرح سؤال.

- «بالتّأكيد». قال الدّكتور تِزيموند. ثمّة شيءٌ غير مألوفٍ في طريقة كلامه: بعض الكلمات في جُمله لا تأتي في أماكنها المتوقّعة، كما أنَّ نَبْره إيّاها يختلف، فيُخيّل للمرء كأنّ في فمه حصى صغيرة.

- «ماهي (التّنينولوجيا)؟». سأل كلاوس. حتّى في ضوء شمعة الدّهن الضّعيف، كان في وسع المرء ملاحظة أنّ خدّيه قد تورّدا.

- إنّها عِلمُ طبيعة التّنّين.

رفع الخَدم رؤوسهم. فتحت الخادمة فمها حتّى آخره، وتركته مفتوحاً.

لم يستطع الصّبيُّ ضبط نفسه، فسأل: «هل رأيتما واحداً؟».

قطّب الدّكتور تزيموند جبينه، كأنّ صوتاً بشعاً أزعجه.

نظر الدّكتور كيرشر إلى الصّبيّ، وهزَّ رأسه نافياً.

قال كلاوس: إنّه يرجو المعذرة، فهذا بيتٌ بسيطٌ، وابنه لا يُحسن التّصرُّف، وينسى أحياناً أنّ على الطّفل أن يسكت عندما يتكلّم الكبار، لكنّ السُّؤال خطر في باله أيضاً. «هل رأيتما تنّيناً؟».

أجاب الدّكتور تزيموند بأنّ هذه ليست أوّل مرّة يسمع فيها هذا السّؤال الطّريف، وكلّ عالم تنّينولوجيا في واقع الأمر يواجه هذا السّؤال من النّاس البسطاء. «لكنّ التّنانين نادرةٌ. إنّها... ماهي الصّفة؟».

- «خجولة». قال الدّكتور كيرشر.

- «الألمانيّة ليست لغته الأم». قال الدّكتور تِزيموند: «وعليه أن يعتذر، فهو يحنُّ أحياناً إلى لغة وطنه الذي يحبّه فوق كلّ شيءٍ، والذي لن يراه بعْد في حياته: إنجلترا، وجزيرة التّفّاح، وضباب الصّباح. نعم، التّنانين خجولةٌ بشكلٍ لا يمكن تصوّره، وهي قادرةٌ على اللّجوء إلى حِيَل تمويهٍ مذهلةٍ. قد يبحث المرء مئة سنةٍ، من دون حتّى أن يقترب من تنّين، وقد يمضي المرء مئة سنةٍ بالقُرب المباشر من تنّين، من دون أنْ يلْحظه مُطلقاً؛ ولهذا السّبب تحديداً يحتاج الإنسان إلى التّنّينولوجيا، فعِلم الطّبّ لا يمكن أن يستغني عن القوّة الشّفائيّة لدَم التّنّين.

حكَّ كلاوس جبينه: «من أين حصلتم على الدَّم إذن؟».

- «الدّمُ -طبعاً- غيرُ متوفّرٍ لدينا، لكنّ الطّبّ هو فنٌّ... ما كانت الكلمة؟».

- «فن إيجاد البدائل». قال الدكتور كيرشر.

تماماً، دمُ التّنّين هو مادّةٌ ذات قوّةٍ خارقةٍ، بحيث لا يعود الإنسان يحتاج إلى مادّة الدّم، يكفي أنّ المادة موجودةٌ في العالم، وفي وطنه المحبوب لا يزال هناك تنّينان، إلّا أنّه لم تتوفّر لإنسانٍ منذ قرونٍ إمكانيّة اقتفاء أثرهما.

- «إنّ دودة المطر واليرقات». قال الدّكتور كيرشر: «تشبه التّنّين، فإذا طحنت مادّتها إلى مسحوقٍ ناعمٍ، يمكن لجسمها أن يكون ذا مفعولٍ مذهلٍ. دمُ التّنّين يستطيع جعل الإنسان غير قابل للجرح، ولكن كبديل يمكن للزّنجفر المبشور بسبب الشّبه أن يشفي أمراضاً جلديّةً، ولكنّ الزّنجفر أيضاً يصعب الحصول عليه، لذلك يمكن أن نستبدل به جميع الأعشاب التي تشبه سطح التّنّين الحرشفيّ. فنُّ الشّفاء هو إيجاد البديل وفقاً لمبدأ التّشابه، الزّعفران يشفي أمراض العين؛ لأنَّ شكله يشبه العين».

- «وكلّما ازداد فَهمُ المتخصّص في التّنّينولوجيا لميدان عمله». قال الدّكتور تِزيموند: «تمكّن على نحوٍ أفضل من إيجاد البدائل في غياب التّنّين. إلّا أنَّ الهدف الأسمى لا يكمن في الاستفادة من جسم التّنّين، إنّما من... ماذا كانت الكلمة؟».

- «معرفته». أجاب الدكتور كيرشر.

- من معرفته، فحتّى بلينيوس الإغريقيّ كتب عن معرفة التّنّين عشبةً يستطيع بمساعدتها إحياء أبناء جنسه من الموت، والعثور على هذه العشبة هو بالنّسبة إلى علمنا بمنزلة العثور على كأس المسيح المقدَّس.

- «لكنْ كيف يعرف المرء بوجود تنانين؟». سأل الصّبيُّ.

قطَّب الدّكتور تِزيموند جبينه، فيما انحنى كلاوس وصفع ابنه.

- «من فعالية البدائل». أجاب الدّكتور كيرشر: «وإلّا من أين لحيوانٍ تافهٍ مثل اليرقة القوّة الشّافية إنْ لم يكن نتيجة الشّبه بالتّنّين؟ لماذا يستطيع الزّنجفر أن يشفي إنْ لم يكن لأنّه داكنُ الحُمرة مثل دَم التّنّين؟».

- «سؤالٌ آخر». قال كلاوس: «بما أنّني أتحدّث إلى علماء... بما أنّ الإمكانيّة متوفّرة...».

- «تفضّل». قال الدّكتور تِزيموند.

- كومة حبوبٍ، إذا أخذَ منها المرءُ دائماً حبّةً واحدةً. إنّها تدفعني إلى الجنون.

ضحك الخَدم.

- «إنّها مشكلةٌ معروفةٌ». قال الدّكتور تزيموند، وأعطى الدّكتور كيرشر إشارةً ليتحدّث.

- «حيث يوجد شيء، لا يمكن لشيءٍ آخر أن يوجد». قال الدّكتور كيرشر: «إلّا أنّ كلمتين لا تستبعد إحداهما الأُخرى، فبين شيءٍ هو كومة حبوبٍ، وشيءٍ هو ليس كومة حبوبٍ، لا يوجد حدٌّ فاصلٌ. إنّ طبيعة الكومة تبهت بالتّدريج، مثل غيمةٍ تُذيب نفسها».

- «أجل». قال كلاوس كأنّه يكلّم نفسه: «أجل، لا، لا؛ لأنّ... لا! من وتدٍ خشبيٍّ لا يستطيع المرء صُنْع طاولة، طاولة يمكن استعمالها، فخشب الوتد قليلٌ جدّاً، لا يكفي، ولا حتّى من وتدين، فالخشب قليلٌ جدّاً، لا يكفي لصُنْع طاولة، ولن يكفي أبداً، ما دام المرء لا يضيف إلّا قَدْراً ضئيلاً».

بقي الضّيفان صامتين. الجميع يسمع المطر، واحتكاك الملاعق بالطّاسات، وصوت الرّيح التي ترجّ النّافذة.

- «سؤالٌ جيّدٌ». قال الدّكتور تزيموند، ونظر إلى الدّكتور كيرشر مُطالباً إيّاه بالكلام.

- «الأشياء هي ما هي». قال الدّكتور كيرشر: «لكنّ الغموض مُتجذّرٌ في أعماق مفاهيمنا. إنّه ليس من الواضح دائماً ما إذا كان شيءٌ ما جبلاً، أو ليس جبلاً، زهرةً، أو ليس زهرةً، حذاءً، أو ليس حذاءً، أو بالتّحديد طاولةً، أو ليس طاولةً، ولهذا فإنّ الرّبَّ عندما يبغي الوضوح يتكلّم بالأرقام».

- «ليس مألوفاً أنْ يهتمّ طحّانٌ بمثل هذه المسائل». قال الدّكتور تزيموند: «أو بهذه الأشياء»، وأشار إلى النّجوم المحفورة فوق إطار الباب.

- «إنّها تُبعد الشّياطين». قال كلاوس.

- ويحفرها المرء هكذا ببساطة؟ أيكفي هذا؟

- يحتاج المرة إلى الكلمات المناسبة.

- «اسْكُت». قالت أغنيتا.

- «لكنّ الأمر عسيرٌ مع الكلمات». قال الدّكتور تزيموند: «مع...». ونظر إلى الدّكتور كيرشر مُتسائلاً.

- «التّعاويذ». أجابه الدّكتور كيرشر.

- «تماماً». قال الدّكتور تِزيموند: «أليس هذا خطيراً؟ يُقال إنّ الكلمات نفسها تُبعد الشّياطين، وتحت شروطٍ معيّنةٍ تجذبهم».

- بلْ هي تعاويذُ أُخرى، أعرفها أيضاً. لا داعي للقلق؛ أستطيع التّمييز بينها.

- «اسْكُت». قالت أغنيتا.

- وبأيّة أمورٍ أُخرى يهتمُّ طحّانٌ مثلك؟ ما الذي يشغل بالك، ماذا تريد أن تعرف؟ كيف يمكن للمرء أن... يساعدك؟

- «يمكن، بالأوراق». قال كلاوس.

- اسْكُت يا رجُل!

- قبْل نحو شهرين، قُرب شجرة الدّردار المُعمّرة في حقل ياكوب برانتنر عثرت على ورقتين. إنّه في واقع الأمر ليس حقل برانتنر، بلْ كان دائماً ملكاً لعائلة لوزر، لكنّ عُمدة القرية قرّر في نزاع الإرث أن يكون الحقل لبرانتنر. لا يهمّ، الورقتان على كلّ حال بَدتا متشابهتين تماماً.

- «إنّه حقل برانتنر بكلّ تأكيد». قال سِب، الذي كان خادماً في عزبة برانتنر طوال سنة: «آل لوزر يكذبون، ليأخذهم الشّيطان».

- «إذا كان هناك مِن كاذب». قالت الخادمة: «فهو ياكوب برانتنر. على المرء أن يرى عينيه فقط، كيف تنظران إلى النّساء في الكنيسة».

- «ومع ذلك، الحقل ملكه». قال سِب.

ضرب كلاوس يَده على الطّاولة، فسكتَ الجميع.

- «الورقتان بَدتا متطابقتين في كلّ شيءٍ. لقد جفّفتهما. يمكنني عرضهما عليكما، حتّى إنّي اشتريت من التّاجر عدسةً مكبّرةً عندما مرَّ من القرية، كي أراهما بوضوحٍ. التّاجر لا يمرُّ كثيراً من هنا، اسمه هوغو، وله في يده اليسرى إصبعان فقط، وإذا سأله المرء كيف فقد الأُخرى يقول: «يا حضرة الطّحّان، إنّها مجرّد أصابع». فكّر كلاوس لحظةً، مستغرباً إلى أين حمله الكلام: «عندما وضعتهما أمامي، هاتين الورقتين، سألت نفسي فجأةً، ألا يعني هذا أنّهما في حقيقة الأمر ورقةٌ واحدةٌ إذا كان الفارق يكمن فقط في أنَّ هذه الورقة موجودةٌ إلى اليمين، والثّانية إلى اليسار؟ عندها لا يحتاج المرء إلّا إلى حركةٍ بيَده»، وعرض الحركة بإيماءةٍ خرقاءَ بحيث طارت ملعقةٌ إلى اليمين، وطاسةٌ إلى اليسار. «وليتصوّر المرءُ أنّ أحدهم يقول الآن إنّ الورقتين هما الورقة ذات نفسها، فماذا يُفترض بالمرء أن يجيبه؟ بأنّه على حقّ؟».

خبط كلاوس بيَده على الطّاولة، لكنّ الجميع عَدا أغنيتا، التي نظرت إليه بثباتٍ مبتهلةً، تابعوا بأعينهم الطّاسة الدّائرة حول نفسها، راسمةً حلقةً، وثانيةً، ثمّ سَكنتْ. «هاتان الورقتان إذن». قال كلاوس في الصّمت المُهيمن: «إذا كانتا من حيث المظهر فقط اثنتين، وفي الحقيقة واحدة، أفلا يعني هذا أنّ... كلّ ما هو هنا وهناك مجرّد شبكةٍ لا غير، نسجها الرّبُّ كي لا نكتشف أسراره؟».

- «عليك أن تصمت الآن». قالت أغنيتا.

- «وبما أنّنا نتحدّث عن أسرار». قال كلاوس: «لديّ كتابٌ لا أستطيع قراءته».

- «لا يوجد بين مخلوقات الرّبّ ورقتان مُتطابقتان». قال الدّكتور كيرشر: «بلْ لا يوجد حبّتَا رملٍ متماثلتان. ما من شيئين لا يُدرك الرّبُّ اختلافاتٍ بينهما».

- «الورقتان موجودتان فوق، بإمكاني عرضهما عليكما، والكتاب أيضاً يمكنني أن أريكما إيّاه، وما قلتَه عن اليرقات غيرُ صحيحٍ يا سيّدي المُبجّل، اليرقات المبشورة لا يمكنها أنْ تشفي، بلْ تسبّبُ آلاماً في الظَّهر، وبرودةً في المفاصل». أعطى كلاوس ابنه إشارةً قائلاً: «أحْضِر الكتاب الكبير، الذي بلا جِلدةٍ، الذي فيه صُوَر».

نهض الصّبيُّ، وركض إلى السُّلّم المؤدّي إلى فوق، تسلّقه بسرعة البرق، وسرعان ما اختفى عبر الكُوّة.

- «عندك ابنٌ طيّبٌ». قال الدّكتور كيرشر. أومأ كلاوس برأسه شارداً.

- «مهما كان الأمر». قال الدّكتور تِزيموند: «لقد تأخّر الوقت، ويجب أن نكون في القرية قبل هبوط اللّيل. هلّا رافقتنا أيُّها الطّحّان؟».

نظر إليه كلاوس غير فاهِمٍ. نهض الضّيفان واقفين.

- «يا لكَ من مُغفّل!». قالت له أغنيتا.

- «إلى أين؟». سأل كلاوس: «لماذا؟».

- «لا داعي للقلق». قال الدّكتور تزيموند: «نريد أن نتحدّث فقط، بالتّفصيل، وبهدوءٍ حول ما يشغلك كلّه. هل نبدو مثل أُناسٍ أشرار؟».

- «لكنّني لا أستطيع». قال كلاوس: «بعد غدٍ سيأتي شتيغر مُطالباً بطحينه، وأنا لم أطحن الحبوب بَعْد، إنّها في الغرفة فوق، والوقت يضغط».

- «هؤلاء خَدمٌ طيّبون». قال الدّكتور تزيموند: «يمكن للمرء الاعتماد عليهم، والعمل سوف يُنجَز».

- «إنّ مَن لا يريد أن يتبع أصدقاءه». قال الدّكتور كيرشر: «عليه أن يحسب حسابه لأنْ يُضطرّ ذات يومٍ إلى التّعامل مع غير أصدقائه. لقد أكلنا معاً، وجلسنا في الطّاحون معاً، فيمكننا تبادل الثّقة».

- «هذا الكتاب الّلاتيني». قال الدّكتور تزيموند: «أريد أنْ أراه. إذا كانت هناك أسئلة يمكننا الإجابة عنها».

انتظر الجميع الصّبيّ، الذي يتلمّس طريقه فوق عبْر السّقيفة المُعتمة. مرَّ بعض الوقت إلى أنْ عثر إلى جانب كومة الحبوب على الكتاب المطلوب. عندما نزل السُّلّم وجدَ أباه والضّيفين عند الباب.

ناول كلاوسَ الكتاب، الذي ربَّت على رأسه، ثمّ انحنى وطبع قُبلةً على جبينه. في آخر ضوء النّهار رأى الصّبيُّ تجاعيد وجه أبيه الصّغيرة والحادّة، رأى البريق في عينيه القلقتين، الّلتين لا تستطيعان إدامة النّظر إلى أيّ شيءٍ، إلّا بُرهةً، ورأى الشّعرات البيضاء في الّلحية السّوداء.

وفيما كان كلاوس ينظر إلى ابنه، تعجّبَ من أن يموت له عند الولادة هذا العدد كلّه من الأطفال، ولا ينجو إلّا هذا تحديداً. لم يُبدِ كلاوس إلّا القليل جدّاً من الاهتمام بالصّبيّ؛ إذْ كان مُعتاداً ببساطةٍ على اختفائهم السّريع جميعهم، لكنَّ الأمر سيتغيّر. فكّر كلاوس: «سوف أعلّمه ما أعرف: التّعويذات، والمستطيلات، والأعشاب، ومسار القمر». أخذ الكتاب مبتهجاً، وخَطا إلى المساء خارج الطّاحون. لقد توقّف المطر.

أمسكتْ به أغنيتا بقوّةٍ. تعانقا طويلاً. أراد كلاوس الانسحاب، لكنَّ أغنيتا بقيت متمسّكةً به، فقَهْقه الخَدم.

- «ستعود قريباً». قال الدّكتور تزيموند.

- «هل سمعتِ؟». قال كلاوس.

- «يا لكَ من مُغفّل!». قالت أغنيتا، وبَكت.

فجأةً أحسَّ كلاوس بالأسف لكلّ شيء: الطّاحون، والزّوجُ الباكية، والابن النّحيل، ووجوده البائس كلّه. أبْعد زوجَهُ عنه بحَزمٍ. أعجبه أن يشارك السّادة العلماء الآن في قضيّةٍ، يشعر بنفسه أقرب إليها من ناس الطّاحون هؤلاء، الذين لا يعرفون شيئاً.

- «لا تخفْ». قال كلاوس للدّكتور تزيموند: «أعرفُ الطّريق حتّى في الظّلام».

انطلق كلاوس بخطواتٍ واسعةٍ، والرّجُلان يتبعانه. تابعتهم أغنيتا بعينيها حتّى بَلعَهُم الغَسق.

- «هيّا ادْخُل». قالت للصّبيِّ.

- متى يعود؟

أغلقت الباب، وأنزلت القفل.

2

فتح الدّكتور كيرشر عينيه. ثمّة شخصٌ في الغرفة. أصْغى. لا، لا أحد هنا سوى الدّكتور تِزيموند، الذي يصل إليه شخيره من سريره على الجانب الآخر. أبْعَد عنه الغطاء، صَلَّب ونهض. لقد آن الأوان، إنّه يوم المحكمة.

وفوق ذلك كلّه حَلم ثانيةً بعلاماتٍ مصريّةٍ، بجدارٍ طينيٍّ أصفر، عليه أناسٌ صغارٌ برؤوس كلاب، وأُسُودٌ ذاتُ أجنحةٍ، وفؤوسٌ، وسيوفٌ، وحرابٌ، وخطوطٌ متموّجةٌ متنوّعةٌ، ما من إنسانٍ يفهمها، المعرفة المرتبطة بها ضاعت، إلى أن يأتي رجُلٌ موهوبٌ، فيُعيد فكّ طلاسمها.

وهذا الرجل سيكون هو ذات يوم.

ظهْرُه يؤلمه مثل كلّ صباح. فراشُ كيس القشِّ المضطّرّ إلى النّوم عليه رقيقٌ، والأرضُ شديدة البرودة. لا يوجد في بيت الكاهن سوى سريرٍ واحدٍ، وعليه ينام مُرشده، حتّى الكاهن نفسه مضطّرٌّ إلى النّوم على الأرض في الغرفة المجاورة. على أيّة حالٍ، مُرشده لم يستيقظ هذه اللّيلة، كثيراً ما يصرخ في نومه، ويسحب –أحياناً- السّكّين المخبّأة تحت الوسادة، ظانّاً أنّ عليه

الدّفاع عن حياته، عندما يحدث هذا، يكون قد عاوده حُلمُ المؤامرة الكبرى آنذاك في إنكلترا، عندما كاد ينجح مع بعض الرّجال الشّجعان في تفجير الملك في الهواء. أخفقت محاولتهم، لكنّهم لمْ يتراجعوا، بحثوا طوال أيّامٍ عن الأميرة إليزابِيت؛ كي يخطفوها وينصّبوها على العرش بالقوّة، كان يُحتمل أن ينجحوا، ولو نجحوا لكانت الجزيرة لا تزال الآن في حضن الإيمان الحقّ. آنذاك عاش الدّكتور تِزيموند طوال أسابيع في الغابات، يقتات الجذور، ويشرب من الينابيع، كان الوحيد الذي نَجا وتمكّن من عبور البحر. لاحقاً سوف يُرسَم قدّيساً، ولكنْ ليلاً لا يجوز لأحدٍ أن ينام على مقربةٍ منه، فالسّكّين تحت وسادته دائماً، وفي أحلامه ينشط طُغاة بروتستانت.

ارتدى الدّكتور كيرشر معطفه، وغادر دار الكاهن. وقف مأخوذاً بشحوب الصّباح الباكر، الكنيسة على يمينه، وقبالته السّاحة الرّئيسة ذات البِرْكة، والزّيزفونة، والمنصّة التي بُنيت أمس، وإلى جانبها دورُ عائلات: تَمّْ، وهِنريش، وهاينرلينغ. بات الآن يعرف سكّان هذه القرية كلّهم، فلقد استجوبهم، واطّلع على أسرارهم. ثمّة ما يتحرّك على سطح دار هِنريش، فتراجع غريزيّاً إلى الوراء، ولكنْ قد تكون مجرّد قطّةٍ، هَمْهَم بدعاء حمايةٍ، وصَلَّبَ ثلاث مرّات: «ابتعدي أيّتها الرّوح الشّرّيرة، ارتدّي، أنا أقف تحت حماية

الرّبّ، والعذراء، والقدّيسين جميعهم»، ثمّ جلس. استند إلى جدار دار الكاهن منتظراً الشّمس بأسنانٍ تصطكّ برْداً.

لَحظَ أنّ هناك شخصاً يجلس إلى جانبه، لا بدَّ من أنّه قد اقترب بلا صوتٍ، وجلس من دون أن يُحْدِث صوتاً؛ إنّه المعلّم تيلمَن.

- «صباح الخير». هَمْهَم الدّكتور كيرشر وذُعِر. كانت هذه غلطة، والآن بات في وسع المعلّم تيلمَن أنْ يردَّ التّحيّة.

ولشدّة ارتياعه حدث ذلك: «صباح الخير».

تلفّت الدّكتور كيرشر في الاتّجاهات جميعها. لحُسْن الحظّ لا وجود لأحد، القرية مازالت نائمةً، ليس هناك من يراقبهما.

- «هذا البَرْد». قال المعلّم تيلمَن.

- «أجل». قال الدّكتور كيرشر؛ إذْ لا بدَّ للمرء من أن يقول شيئاً: «سيّئٌ».

- «ويزداد سوءاً سنةً تِلْو الأُخرى». قال المعلّم تيلمَن.

يصْمتان.

يعرف الدّكتور كيرشر أنّ الأفضل هو عدم الإجابة، لكنّ السُّكون ثقيلٌ، فتنحنح، وقال: «العالم يتّجه نحو نهايته».

- بَصق المعلّم تيلمَن على الأرض، ثمَّ سأل: «كم بقي؟».

- «نحو مئة سنة». أجاب الدّكتور كيرشر، وتلفّت حوله ثانيةً بعدم ارتياحٍ: «بعضهم يرى أقلّ من ذلك، فيما يعتقد آخرون أنّ المُدّة ستقارب المئة وعشرين سنةً».

سكت، وأحسَّ بكتلةٍ تقف في حلقه، يحدث له ذلك كلّما تكلّم عن القيامة. صلَّبَ، فصلَّب المعلّم تيلمَن بعده.

- «المسكين». فكّر الدّكتور كيرشر: «في واقع الأمر لا يحتاج أيُّ جلّادٍ إلى الخَشْية من يوم الحساب، مادام على المحكومين قبْل الإعدام أنْ يسامحوا جلّاديهم، لكنْ بين الحين والآخر هناك معاندون يرفضون، وقد يحدث أحياناً أن يلعن أحدهم جلّاده بأن يُرسله إلى وادي يوسُف في القُدس. الجميع يعرفون هذه اللّعنة: إنّي أطلبك إلى وادي يوسُف. والذي يقولها لجلّاده، إنّما يُحمِّله ذنب قتله، ويرفض أن يغفر له. هل مرَّ المعلّم تيلمَن بمثل هذه التجربة؟».

- أنت تتساءل عمّا إذا كنتُ أخاف من يوم الحساب؟

- لا!

- عمّا إنْ طلبني أحدهم إلى وادي يوسُف؟

- لا!

- «الكلّ يسأل نفسه هذا السّؤال. أتعرف؟ أنا لمْ أختر لنفسي هذا، فأنا ما أنا عليه؛ لأنَّ أبي كان ما كان عليه، وهو كان ذلك بسبب أبيه، وابني سوف يكون مثلي؛ لأنَّ ابن الجلّاد يصير جلّاداً». بَصق المعلّم تيلمَن ثانيةً: «ابني ولدٌ ناعمٌ، أُنْظُر إليه، هو مازال في الثّامنة، وودودٌ جدّاً، والقتل لا يناسبه، ولكنْ ليس أمامه خيار، وأنا أيضاً لم يكن يناسبني، وقد تعلّمته، وهو ليس سيّئاً أبداً».

شعر الدّكتور كيرشر الآن بقلقٍ حقيقيٍّ؛ لا يجوز بأيّ حالٍ من الأحوال أن يراه أحدٌ جالساً هنا، منسجماً، يتبادل أطراف الحديث مع الجلّاد.

في السّماء بدأ ينتشر ضياءٌ أبيضُ، وصار بالإمكان تمييز الألوان على جدران البيوت، حتّى المنصّة هناك أمام شجرة الزّيزفون صار من الممكن رؤيتها بوضوحٍ، وراءها تقف، كلطخةٍ غير واضحة المعالِم في الفجْر، عربةُ المُنشد، الذي وصل قبل يومين.

هكذا هو الحال دائماً: إذا كان هناك ما يستحقّ المشاهدة، يجتمع النّاس الجوّالون.

- «الحمد لله لعدم وجود حانةٍ في هذه القرية التّعِسة». قال المعلّم تيلمَن: «فلو كانت هنا حانة، لذهبت إليها مساءً، لكنّني سأجلس فيها وَحْدي، والجميع ينظرون نحوي من زوايا عيونهم ويتهامسون، وعلى الرّغم من أنّني أعرف ذلك مُسبقاً، أذهب إلى الحانة، وإلّا إلى أين سأذهب؟ كم أتوق إلى العودة إلى آيكْشتِت».

- هل تلقى هناك معاملةً أفضل؟

- «لا، لكنّها بلدتي. أن تُعامَل في بلدك على نحوٍ سيّئٍ أفضل من أن تُعامل على نحوٍ سيّئٍ في الغربة». رفع المعلّم تيلمَن ذراعيه، وتمطّى متثائباً.

انتفض الدّكتور كيرشر جانباً. كانت يَدُ الجلّاد على بُعْد أصابعَ فقط من كتفه، ولا يجوز أن يقع تلامُس، فمن يلمسه الجلّاد، ولو على نحوٍ عابرٍ، يفقد شرفه، ولكنْ لا يجوز بالطّبع استفزازه ضدّك، فإذا أغضبه المرء، قد يمسك به عَمْداً، غير آبهٍ بالعقوبة. لَعنَ الدّكتور كيرشر نفسه لطيبة قلبه، ما كان يجوز له أبداً أن يورّط نفسه في هذا الحديث.

لكنّ ما أراحه هو سماعه في تلك اللّحظة من الدّاخل السُّعال الجافّ لمُرشده، لقد استيقظ الدّكتور تزيموند، ومع إشارة اعتذارٍ نهض واقفاً.

ابتسم المعلّم تيلمَن ابتسامةً صفراء.

- «ليكُن الرّبُّ مُعيننا في هذا اليوم العظيم». قال الدّكتور كيرشر.

إلّا أنّ المعلّم تيلمَن لم يَحِرْ جواباً. دخل الدّكتور كيرشر إلى بيت الكاهن بسرعةٍ؛ كي يعاون مُرشده في لبس ثيابه.

بخطوةٍ منتظمةٍ، مُرتدياً روبَ القُضاة الأحمر، تحرّك الدّكتور تزيموند نحو المنصّة، فوقها توجد طاولةٌ عليها أكداسٌ من الأوراق مثقّلةٌ بأحجارٍ من نهر الطّاحون، كي لا تحمل الرّيح معها أيّاً من الأوراق. الشّمس تقترب من سمتها، ومتراقصاً يسقط شعاعها من خلال تاج الزّيزفونة. الجميع حاضرون: في المقدّمة أفراد عائلة شتيغر جميعهم، والحدّاد شتِللينغ مع زوجِه، والفلّاح برانتنر مع ذويه، وفي الخلف الخبّاز هولتس مع زوجِه وابنتيه، وأنسِلم ملكر مع أولاده، وزوجِه، وزوجِ أخيه، وأمّه العجوز، وحماته العجوز، وحماه العجوز، والعمّة، وإلى جانبها ماريا لوزر مع ابنتها الجميلة، ووراءهم آل هِنريش وهاينرلينغ مع

خدمهم جميعاً، وفي المؤخّرة الوجوه المدوّرة كالفئران لعائلة تَمّ، على مسافةٍ، جانباً، يقف المعلّم تيلمَن مستنداً إلى جِذْع الشّجرة، مُرتدياً رداءه البنّيّ، بوجهٍ شاحبٍ ومنتفخٍ، في الخلفيّة يقف المغنّي على عربته، التي يجرّها حمارٌ، وهو يُخربش في كُتيّبٍ.

يقفز الدّكتور تزيموند بخفّةٍ إلى المنصّة، ويقف وراء كرسيٍّ، والدّكتور كيرشر -على الرّغم من شبابه، وعلى نقيض مُرشده- يجدُ شيئاً من الصّعوبة في اعتلاء المنصّة العالية، كما أنّ روبه يُعيق حركته. بعد وصوله ينظر إليه الدّكتور تزيموند مطالباً بالبدْء، ويُدرك الدّكتور كيرشر أنّ عليه الآن أن يرفع صوته، ولكنّه فيما يُجيلُ النّظر حوله تَدهمه دوخةٌ، كان شعوره بغير الواقع قويّاً إلى درجةٍ دفعته إلى التّمسُّك بحافّة الطّاولة، إنّها ليست المرّة الأولى، وهي إحدى الأمور التي لا بدَّ له من كتمانها، فهو لم يتلقّ التّكريس الأدنى إلّا منذ وقتٍ قصيرٍ، والطّريق أمامه طويلةٌ حتّى يصير يسوعياً كامل العضويّة، وعضويّة جمعيّة يسوع لا تصحُّ إلّا لرجالٍ في أتمِّ الصّحّة جسديّاً وعقليّاً.

قبل أيّ شيءٍ آخر، لا يجوز لأحدٍ أن يعرف بإحساسه المُتكرّر كثيراً باختلاط الزّمن عليه، كأنْ يجد نفسه أحياناً في مكانٍ غريبٍ عنه ثانيةً، من دون أن يدري ما حدث بين المرّتين، ومؤخّراً، نسي كلّيّاً لمدّة ساعةٍ أنّه شابٌّ، معتقداً أنّه ما زال طفلاً يلعب على

الحشائش قُرْب منزل أُسْرته، كأنّ الخمس عشرة سنةً منذ ذاك الوقت، ودراسته الصّعبة في بادربورن، مجرّد تهيؤات فتى يتمنّى أن يكبر، ويصبح شابّاً أخيراً. ما أشدّ هشاشة العالم! كلّ ليلةٍ تقريباً يحلم بعلاماتٍ مصريّةٍ، وينمو على نحوٍ متزايدٍ قلقه الدّاخليّ، من ألّا يستيقظ ذات يومٍ من أحد أحلامه، بحيث يبقى أسيراً دائماً لجحيمٍ ملوّنٍ في مملكةٍ فرعونيّةٍ لا تعرف الرّبّ.

مسح عينيه بسرعةٍ. بيتر شْتيغر ولودفيغ شْتِللينغ، المعاونان، صعدا المنصّة بروبين أسْودين، وبعدهما صعد لودفيغ فون إش ناظر ورئيس مكتب محكمة المحافظة، الذي عليه النّطق بالحُكم ليصبح ساريَ المفعول. هناك بقعٌ شمسيّةٌ تتراقص على الحشيش والبِركة، على الرّغم من سطوع ضوء النّهار كان الجوُّ بارداً جدّاً، بحيث كانت الأنفاس تتحوّل إلى سُحب بخارٍ. «تاج الزّيزفونة». فكّر الدّكتور كيرشر. تاج الزّيزفونة كلمةٌ من النّوع الذي يمكن أن يتشبّث بالمرء، لكنْ لا يجوز لهذا أن يحدث الآن، لا يجوز أن يسمح بتشتيت ذهنه، يجب أن يوجّه طاقته كلّها إلى مراسم المحاكمة. ملك الزّيزفون، تاج الزّيزفونة، تاج الزّيزفون. لا! ليس الآن، لا يجوز الارتباك الآن، الجميع ينتظرون. بصفته أمين السّرّ عليه أن يفتتح المحاكمة، لا يمكن لسواه القيام بذلك، إنّها مهمّته، ولا بدَّ من إنجازها بأفضل صورةٍ، ولكي يهدّئ

نفسه أخذ ينظر في وجوه المتفرّجين في الأمام والمنتصف، لكنّه ما إن هدأ حتّى وقعت عيناه على صبيّ الطّحّان، كان يقف في المؤخّرة تماماً إلى جانب أمّه، كانت عيناه ضيّقتان، والخدّان أجوفين، والشّفتان بارزتين قليلاً، كأنّه على وشك أن يَصفر.

- «حاوِلْ أن تمحيه من ذهنك. لا يجوز أن تكون التّمارين الكثيرة التي شاركت فيها بلا فائدةٍ. يمكنك التّعامل مع العقل كما تعامل العينين، إنّهما تريان ما يوجد أمامهما، ولكنْ ما يوجَّهان نحوه تحدّده أنت بنفسك». رمشَ. «مجرّد بقعةٍ». فكَّر: «مجرّد ألوانٍ، مجرّد لعبة أضواءٍ. أنا لا أرى صبيّاً، بل أرى ضوءاً. لا أرى وجهاً، بل أرى ألواناً. ألواناً فقط، ضوءاً وظلالاً».

وفعلاً، فقد الصّبيّ أهمّيّته. عليه فقط ألّا ينظر إليه. لا يجوز لنظراتهما أن تلتقي. ومادام هذا لا يحدث، فكلّ شيءٍ عل ما يرام.

- «هل القاضي حاضر؟». سأل بصوتٍ مبحوحٍ.

- «القاضي حاضر». أجاب الدّكتور تزيموند.

- هل النّاظر حاضر؟

- «أنا هنا». أجاب لودفيغ فون إش غاضباً. في الأحوال الطّبيعيّة يكون هو مدير جلسة المحاكمة، لكنّ الأحوال هنا ليست طبيعيّةً.

- هل المعاون الأوّل حاضر؟

- «حاضر». قال شتيغر.

- والثّاني؟

صمْت. يلكز بيتر شتيغر لودفيغ شتِللينغ في جنبه، فيتلفت هذا حوله مستغرباً. يلكزه بيتر شتيغر ثانيةً.

- «نعم، حاضر». قال لودفيغ شتللينغ.

- «لقد اجتمعت المحكمة». قال الدّكتور كيرشر.

وسهواً نظر إلى المعلّم تيلمَن، كان متّكئاً على جذْع الشّجرة باسترخاءٍ تقريباً، يفرك لحيته ويبتسم، ولكنْ لِمَ؟ فيلتفت بنظره عنه، وقلبه يخفق؛ إذْ لا يجوز بأيّ حالٍ من الأحوال أن يتولّد انطباعٌ بوجود تفاهمٍ بينه وبين الجلّاد، فحوَّل نظره إلى المغنّي، سمعه أوّل أمسٍ يغنّي، كانت قيثارته سيّئة الدّوزان، وقوافيه مُستهلكةً، والفظائع التي يصفها في غنائه ليست فظيعةً إلى ذاك الحدّ: مَقتل طفلٍ على أيْدي البروتستانت في ماغدِبورغ، أغنيةٌ

ساخرةٌ بائسةٌ ضدّ أمير محافظة بفالتس، بقوافٍ متباعدة الجَرْس، وفكّر بانزعاجٍ في أنّ القصيدة التي سيغنّيها المغنّي عن هذه القضيّة هنا سوف يُذكر هو فيها أيضاً.

- «لقد اجتمعت المحكمة». سمع نفسه يُكرّر: «وقد الْتأمَ شملُها لتحكُم بالعدل، ولإعلان العدل أمام السُّكّان، الذين يجب أن يتقيّدوا بالحفاظ على الهدوء والسّلام، من بداية المحاكمة حتّى نهايتها، باسم الرّبّ». تنحنحَ، ثمّ صاح: «أحْضروا المُذْنبين!».

لفترةٍ هَيْمَن السُّكون، إلى درجة بات النّاسُ يسمعون الرّيح، والنّحل، وأصوات المواشي والدّوابّ كلّها، ثمّ انفتح بابُ إصْطبل بقرات برانتنر، وكان يُصْدر صريراً بسبب دعمه مؤخّراً بشيءٍ من الحديد، حتّى درفات النّوافذ ثُبّتت بالمسامير، والبقرات اللّواتي لم يعُد لهنَّ مكانٌ في الإصْطبل الآن، نُقِلْنَ إلى إصْطبل شتيغر، فوقع خلافٌ نتيجة الأمر؛ لأنَّ شتيغر طالب بتعويضٍ ماليٍّ لقاء ذلك، وبرانتنر قال: إنّه غير مسؤولٍ عمّا جرى. ليست الأمور سهلةً أبداً في حياة القرية.

وعندما يشاهد المرء المتَّهمين، قد يتراءى له أنّه لا ضرورة لأكثر ممّا هُما فيه، بَدَوا برأسيهما الحَليقين، اللّذَيْن تظهر عليهما دائماً عند حلاقة الشَّعر مُختلفُ النّتوءات والانبعاج، مثل أكثر النّاس

براءةً وضعفاً، أيديهما ملفوفةٌ بأربطةٍ سميكةٍ؛ كي لا يرى المرءُ أصابعهما المهروسة، وهناك على جبهتيهما، حيث شدّ المعلّم تيلمَن الحزام الجلديّ، أثار دماءٍ، وفكّر الدّكتور كيرشر: ما أسهل أن يغمر المرءَ الشّعور بالشّفقة عليهما، إلّا أنّه لا يجوز للمرء أن يصدّق المظهر،

فهؤلاء المُذنبون على ارتباطٍ بأقوى سُلطةٍ في العالَم السّاقط، وسيّدهم معهم في كلّ لحظةٍ؛ ولهذا فالأمر بالغُ الخطورة؛ إذْ يمكن للشّيطان في يوم المحاكمة أنْ يهجم، فيُظهِر قوّته عندها ويحرّرهم، ولا يمكن أنْ يَحول دون ذلك سوى شجاعة القاضي وطُهْره، ولطالما طالبه أساتذته في المحاضرات: لا تستهِن بأتباع الشّيطان! ولا تنسَ أن شفقتك هي سلاحهم، وأنّ في خدمتهم وسائل لا تخطر في بالك أبداً.

يفسحُ المتفرّجون المجال، فينشأ بينهم ممرٌّ، ويُقتادُ المُتّهمان إلى المنصّة: في المقدّمة العجوز هنّا كْرِل، ووراءها الطّحّان، كلاهما يمشي مَحنيّ الظّهر، ويولّدان الانطباع بأنّهما ذاهلان، ولا يتوضّح ما إذا كانا يعرفان أين هُما، وماذا يجري.

- «لا تستهنْ بهما». قال الدّكتور كيرشر لنفسه: «فهذا هو المهمُّ، ألّا تستخفَّ بهما».

جلس أعضاء المحكمة على كراسيّهم: في الوسط الدّكتور تزيموند، وإلى يمينه بيتر شتيغر، وإلى يساره لودفيغ شتِلليننغ، وإلى يسار شتلليننغ على مسافةٍ صغيرةٍ، يوجد كرسيٌّ له؛ لأنّ أمين سرّ المحكمة مسؤولٌ عن سَيْر المحاكمة بسلاسةٍ، من دون أن يكون عضواً في هيئتها.

- «هنًّا». قال الدّكتور تزيموند، وهو يرفع ورقةً بيَده: «هذا هو اعترافك».

بقيت صامتةً، شفتاها لم تتحرّكا، وعيناها بَدتا مُطفأتين، بَدت مثل غلافٍ فارغٍ، وجهها قناعٌ لا يلبسه أحدٌ، وذراعاها مُعلقتان في المفصلين بصورةٍ مغلوطةٍ. فكّر الدّكتور كيرشر في أنّ الأفضل هو عدم التّفكير في الأمر، لكنّه يفكّر في اللّحظة نفسها طبعاً بما فعله المعلّم تيلمَن بهاتين الذّراعين، لِتَبْدوا بهذا الشّكل المغلوط. الأفضل للمرء ألّا يتصوّر. فرك عينيه وتصوّر.

- «تصمتين». قال الدّكتور تزيموند: «إذنْ، سنقرأ كلماتك على الملأ من مَحْضر الاسْتجواب. إنّها على هذه الورقة. أنتِ قلتِ هذه الكلمات، هنًّا. والآن، على الجميع أن يسمعوها. الآن سينكشف كلّ شيءٍ». يبدو أنّ لكلماته صدى، كأنّها لُفِظتْ في قاعةٍ حجريّةٍ، وليس في الخارج تحت شجرة زيزفونٍ تلعب الرّيحُ بتاجها بلُطفٍ.

لا، ليس للمرّة الأولى يتوجّب على الدّكتور كيرشر أن يفكّر في مدى الحظّ الذي أصابه، وكم حاباه الرّبُّ لكون الدّكتور تزيموند قد اصْطفاه ليكون مساعداً له، فهو من طَرفه لمْ يقُم بأيّ شيءٍ يساعد على ذلك، لمْ يعرضْ نفسه عليه، ولمْ يشقّ طريقه إلى الأمام بمِنْكبَيْه، آنذاك عندما جاء الرّجُل الأسطوريُّ من فيينّا إلى بادربورن، ضيفاً على الأساتذة، ومسافراً، مَحطّ إعجابٍ وتقديرٍ، وشاهداً على العقيدة الصّحيحة، الذي وقف فجأةً في أثناء التّمرين في كنيسة الدّير، واتّجه نحوه قائلاً: سأسألك يا بُنيّ، أجبني بسرعةٍ، لا تفكّر، ما أريد أن أسمعه لا يمكنك تخمينه، قُل فقط ما هو صحيح: من يُحبُّ الرّبَّ أكثر، الملائكة الطّاهرون من الذّنوب أم الإنسان الذي أخطأ ويَندم؟ أجبني أسرَع: هل الملائكة من جوهر الرّبِّ، فهُم بذلك خالدون أم إنّهم مخلوقون مثلنا؟ أسرَع: والخطيئة، أهي من خَلق الرّبّ؟ وإذا كانت كذلك، هل يمكن أن يحبّها مثل سائر مخلوقاته؟ وإذا لا، كيف يمكن لعقاب المُخطئ أن يكون بلا نهايةٍ، وألمه بلا نهايةٍ، وكذلك عذابه في النّار؟ أجبْ بسُرعة!

ومضت ساعة على هذا الحال. استمع إلى أجوبةٍ عن أسئلةٍ متجدّدةٍ باستمرار، وعندما لم يعرف جواباً عن سؤالٍ، اختلق جواباً، وأحياناً مع شواهد ومصادر لدعمه. لقد كتب توما

الإكويني ما يزيد على مئة مُجلّدٍ، لا أحد يعرفها كلّها، وقد اعتمد دائماً على قدرته على الاختلاق، وهكذا تكلّم وتكلّم، كأنّ شخصاً آخر يتكلّم من خلاله، واستجمع طاقته كلّها، ولم يسمح لذاكرته أنْ تحجب عنه أجوبةً، أو جُمَلاً، أو أسماء، حتّى الأرقام كان قادراً على جمعها، وطرحها، وتقسيمها، من دون أن يأبه لخفقان قلبه، أو للدّوخة في رأسه، وطوال الوقت كان الأخ في العقيدة ينظر في وجهه بحِدّةٍ، إلى درجة أنْ يتخيّل أنّ الاستجواب مازال قائماً حتّى اليوم، وسيستمرّ إلى الأبد، كأنّ كلّ شيءٍ مُنذئذٍ حُلمٌ مستمرٌّ، ولكنْ أخيراً رجع الدّكتور تزيموند خطوةً إلى الوراء، وقال مُغمض العينين كمن يخاطب نفسه: «إنّي أحتاج إليك؛ لغتي الألمانيّة ليست جيّدةً، وعليك أن تساعدني. سأسافر عائداً إلى فييّنا، الواجب المقدّس يدعوني، وأنت ستأتي معي».

وهكذا مَضتْ سنةٌ حتّى الآن، وهُما يتنقّلان معاً. الطّريق إلى فييّنا سيكون بعيداً، إذا تخلّله كثيرٌ من مثل هذه الأمور المُلحّة، ورجُلٌ مثل الدّكتور تزيموند لا يمكن أن يتابع طريقه ببساطةٍ إذا اكتشف دسائس. في مدينة ليبشتات كان عليهما التّعزيم على شيطانٍ وطرده، ثمّ في بسّاو كان عليهما طَرْد كاهنٍ نسيَ شرفه، وقد التفّا حول مدينة بيلسِن؛ لأنّ البروتستانت الغاضبين جدّاً فيها، كان يُحتمل أن يعتقلوا عابرين من اليسوعيين، وهذا

الالتفاف أودى بهم إلى قريةٍ صغيرةٍ، انشغلا فيها مدّة نصف سنةٍ في اعتقالٍ، وتعذيبٍ، وإعدامِ ساحرةٍ حقيرةٍ، ثمّ وصل إليهم خبر إقامة مناظرةٍ في موضوع التّنّينولوجيا في مدينة بايرويت، وطبعاً كان يجب عليهما السّفر إليها، كي يَحولا دون استرسال إرهارد فون فِلتْس، أكبر منافسٍ للدّكتور، في كلامٍ فارغٍ عن نفسه من دون اعتراض؛ استغرق النقاش بين الاثنين سبعة أسابيع، وأربعة أيّامٍ، وثلاث ساعات، بعد ذلك أمِل بجوارحه كلّها أن يَصِلا أخيراً إلى مدينة القيصر، لكنّهما في أثناء اللّيلة التي باتا فيها في مجمع فيليبالدينوم في آيكشتِت، دعاهما المُطران الحاكم إلى مقابلته، وقال: «إنّ رجالي غارقون في النّوم يا دكتور تزيموند، النّواظر لا يبلّغون كفايةً عمّا يجري في القرى، والسَّحَرة يتكاثرون بازديادٍ، وما مِن أحدٍ يفعل شيئاً. أكاد لا أقدر على تمويل حلقتي الدّرسيّة اليسوعية؛ لأنّ سيّد الدّير يعارض ذلك. هلّا ساعدتماني؟ سأسمّيكما لجنة التّفتيش عن السَّحَرة، وأخوّلكما بتنفيذ العقوبات القصوى بالمُسيئين حيثما تجدانهم، أرجوكما ساعداني، وستحصلان على تفويضٍ كاملٍ».

لهذا السّبب تردّد الدّكتور كيرشر طوال ساعات العصر، عندما أدّى حوارٌ أجْراه مع صبيٍّ غريبٍ عجيبٍ إلى إثارة شكوكه بأنّ طريقهما سوف يتقاطع ثانيةً مع ساحرٍ. «لستُ مضطّرّاً إلى

الإبلاغ عنه». فكّر: «يمكنني الصَّمت، يمكنني النّسيان، فأنا في نهاية المطاف لم أكن مُلزماً بفتح حديثٍ مع الصّبيّ، كان الأمر مَحْض مُصادفةٍ»، ولكنْ في الوقت نفسه أدلى ضميره بصوته: «تكلم مع مرشدك؛ إذْ إنّ المُصادفات غير موجودة، ولا وجود إلّا لإرادة الرّبّ». وكما هو متوقّع، اتّخذ الدّكتور تزيموند قراره في ذاك العصر فوراً، أنّه لا بدَّ من زيارة الطّحّان، وبعدها كما هو متوقّع، اتّخذ كلّ شيءٍ مَجْراه المُعتاد. مضى عليهما عدّة أسابيع في هذه القرية، التي هجرها الرّبُّ، وفيينّا صارت أبعد ممّا كانت عليه في أيّ وقتٍ من الأوقات.

انتبه إلى أنّ الجميع ينظرون إليه، سوى المُتَّهَمَيْن اللّذَيْن ينظران إلى الأرض. لقد حدث الأمرُ مُجدّداً، كان غائباً، ليس في وسعه سوى أن يأمل بأنّ المدّة لم تطُل. تلفّت حوله بسرعةٍ، واستعاد نفسه. أمامه يوجد اعتراف هَنَّا كرِل، إنّه يعرف الخطّ، إنّه خطُّه، كتبه بنفسه، وعليه الآن تلاوته. مدّ يَده إلى الورقة بأصابع قلقةٍ، ولكنْ في لحظة لمسه إيّاها تماماً، هبّت نسمة ريحٍ، لكنّ الدّكتور كيرشر أمْسك بها، ولحُسْن الحظّ بالسُّرعة الكافية، باتت آمنةً في يَده. لا يستبعد لو طارت منه، لكان الشّيطان قد أظهر قوّته، فالهواء مملكته، وكان هذا سيلائمه تماماً: جَعْل المحكمة موضعَ سُخريةٍ.

في أثناء تلاوته اعتراف هَنَّا، عاد رغماً عنه ليفكّر في الاستجواب، بالغرفة المُعتمة في آخر دار الكاهن، التي كانت سابقاً مستودع المكانس، وصارت الآن غرفة استجواب، عمل فيها المعلّم تيلمَن والدكتور كيرشر معاً يوماً تِلْو الآخر، لاستخلاص الحقيقة من المرأة العجوز. الدّكتور تزيموند يتمتّع بروحٍ ودودةٍ لطيفةٍ، ويفضّل البقاء بعيداً عن الاستجواب الصّارم، إلّا أنّ قانون العقوبات الجسديّة في عهد القيصر كارل تجبر القاضي على الحضور عند كلّ تعذيبٍ أمرَ به، كما يشترط كتابة اعترافٍ. لا يجوز لأيّة قضيّةٍ أن تنتهي من دون اعتراف، ولا يجوز إصدار حُكْمٍ، إذا رفض المتّهمون الاعتراف بشيءٍ ما. صحيحٌ أنّ المحاكمة تجري في غرفةٍ مغلقةٍ، ولكنْ في يوم إعلان العقوبة، بعد التّصديق على الاعتراف علناً، يكون الشّعبُ كلّه موجوداً.

في أثناء تلاوة الدّكتور كيرشر تصدُر من حشْد الحضور صيحات رُعْبٍ، بعضهم يشهق، وبعضهم يهزّ رأسه، وبعضهم يكشّر عن أسنانه سخطاً وقرفاً. يرتجف صوته، وهو يسمع نفسه يتحدّث عن الطّيران اللّيليّ وعن الأجساد التي عُرّيَت، عن السّفر على متن الرّيح، عن سبت اللّيل العظيم، عن الدّم في القدور والأجساد العارية. أُنْظر! إنّها تتمرّغ وتتدحرج بلذّةٍ، التّيسُ العملاق بشبقٍ لا يشبع، إنّه يأخذك من الأمام ويأخذك من دُبُرٍ، والأغاني تصدح

بلغة العالم السُّفليّ. قلَب الدّكتور كيرشر الصّفحة، ووصل إلى اللّعنات: «لينزل البَرْد والبَرَد على الحقول، حتّى يخرب حصاد المؤمنين الأتقياء، وليُمضّ الجوعُ رؤوس الخاشعين، وليُصِب المرضُ والموتُ الضُّعفاء، والجائحةُ الأطفال». كاد يخذلهُ صوته عدّة مرّاتٍ، لكنّه كان يفكّر في واجبه المقدّس، ويُطالب نفسه بالانْضباط، وهو بحَمْد الرّبِّ مُستعدٌّ، لا شيء من هذه الأمور المُرعبة جديدٌ عليه، إنّه يعرف كلّ كلمةٍ، فهو لم يكتبها مرّةً واحدةً فقط، بلْ مرّاتٍ ومرّاتٍ، في الخارج، أمام باب الغرفة، فيما يتابع المعلّم تيلمَن الاستجواب في الدّاخل؛ ليستخرج كلّ ما هو مخبوء، ممّا لا بدَّ من الاعتراف به في كلّ قضيّة سِحْرٍ: «ألم تطيري أيضاً، هنَّا؟ السّاحرات كلّهنّ يَطِرْن، فلماذا تريدين استثناء نفسك؟ وماذا عن السّبت العظيم؟ ألم تُقبّلي الشّيطان، هنَّا؟ إذا اعترفتِ سوف تُغفَر لكِ خطيئتكِ، ولكنْ إذا بقيتِ صامتةً، فانظري إلى ما في يَد المعلّم تيلمَن، وهو سيستعمله».

- «حصل ذلك». تابع الدّكتور كيرشر تلاوة السُّطور الأخيرة: «بهذه الطّريقة قمتُ أنا، هنَّا كرِل، ابنة ليوبولدينا وفرانتس كرل، بنُكْران الرّبّ، وخُنْتُ الرّعيّة المسيحيّة، وألْحقتُ الضَّرر بالمواطنين، وبالكنيسة المقدّسة، وبسُلطة بلدي أيضاً. إنّي أعترف

بشعورٍ عميقٍ بالعار، وأقْبلُ العقوبة العادلة، وليكُن الرّبُّ في عَوني».

صمتَ. هناك ذبابةٌ تطنُّ في أُذُنه، تطير بقوسٍ، وتحطُّ على جبينه. أيطردها أم يتظاهر بعدم ملاحظتها؟ ما الذي يليق أكثر بهيبة المحكمة، وما هو الأقلّ مَدعاةً للضَّحك؟ ينظر بزاوية عينه إلى مُرشده، لكنّه لا يُرشده.

عوضاً عن ذلك ينحني الدّكتور تزيموند إلى الأمام، ينظر إلى هنَّا كرل ويسأل: «هل هذا اعترافكِ؟».

تومئ برأسها أنْ نعم، فتصدر سلاسل قيودها صليلاً.

- يجب أن تلفظي الكلمات، هنَّا.

- هذا اعترافي.

- فعلتِ ذلك كلّه؟.

- فعلتُ ذلك كلّه.

- ومن كان المُحرّض؟

تصمُت.

- هنّا، من كان مُحرّضك؟ مع مَن حضرتِ السّبت، مَن علّمك الطّيران؟

تصمُت.

- هنَّا؟

ترفع يدها، وتُشير إلى الطّحّان.

- يجب أن تلفظها، هنًّا.

- هو.

- ارفعي صوتكِ!

- إنّه هو.

يؤشّر الدكتور تزيموند بيَده، فيدفع الحارسُ الطّحّان إلى الأمام. الآن سيبدأ الجزءُ الرّئيسُ من القضيّة، العجوز هنّا ذكرت عرَضاً وحسْب، فلكلّ ساحرٍ أتباع دائماً؛ وعلى الرّغم من ذلك استغرق الأمر وقتاً، حتّى اعترفت زوجُ لودفيغ شتللينغ تحت التّهديد بالعقاب، أنّ وجع الرّوماتيزم لم يقضّ مَضجعها إلّا بعد شِجارها مع هنّا كرِل، وبعد أسبوعٍ آخر من الاستجوابات أيضاً، انتبهت ماغدا شتيغر وماريا لوزر إلى أنّ العاصفة لم تكنْ تحدث إلّا

عندما تزعُم هنّا كرل أنّها مريضةٌ جدّاً للذّهاب إلى الكنيسة. هنَّا نفسها لم تُنكر لوقتٍ طويلٍ، فما إنْ أراها المعلّم تيلمَن الأدوات حتّى بدأت تعترف بجرائمها، وعندما بدأ بشغله جدّيّاً وصل اعترافها إلى حدّه الأكمل.

- «كلاوس أولنشبيغل». رفع الدّكتور تزيموند بيَده ثلاثَ ورقاتٍ: «اعترافك».

رأى الدّكتور كيرشر الورقات بين يَدي مُرشده، وبدأ رأسه يؤلمه على الفَور. إنّه يحفظ غيباً كلّ جملةٍ فيه، فقد أعاد كتابته عدّة مرّاتٍ أمام الباب المُقفل لغرفة الاستجواب، الذي يستطيع المرءُ عبْره سماع كلّ شيءٍ.

- «أيُسمح لي أن أقول شيئاً؟». قال الطّحّان.

نظر إليه الدّكتور تزيموند مُستنكراً.

- «رجاءً». قال الطّحّان. حكّ الأثرَ الأحمرَ الذي خلّفه الحزامُ الجلديُّ على جبهته، فصلَّت السّلاسل.

- «ماذا؟». سأله الدّكتور تزيموند.

هكذا جرى الأمرُ طوال الوقت، لقد كرّر الدّكتور تزيموند عدّة مرّات أنّه لم تمرّ به مثل حالة هذا الطّحّان نهائيّاً، ومازال كلّ

شيءٍ غيرُ واضحٍ، على الرّغم من جهود المعلّم تيلمَن كلّها، وعلى الرّغم من النّصْل والإبرة، والملح والنّار، والحزام الجلديّ، والحذاء المبلول، وبرغي الإبهام، وأميرة المسامير. الجلّادُ قادرٌ دائماً على فكّ أيّ لسانٍ، ولكن ماذا بمقدوره أن يفعل مع رجُلٍ يحكي ويحكي، ولا يأبه أبداً بأن يناقض نفسه بنفسه، كأنّ أرسطو لم يكتب شيئاً عن المنطق؟ في البداية عَدَّ الدّكتور تزيموند الأمرَ حيلةً غادرةً، ثمّ انتبه إلى أنّه في كلام الطّحّان المُحيّر والمُربك توجد دائماً أجزاءٌ من حقائق، بلْ حتّى وجهات نظرٍ تثير الدّهشة.

- «لقد أمعنت التّفكير». قال كلاوس: «وأنا على وضوحٍ الآن بما يتعلّق بأخطائي، فأرجو المغفرة، أرجو الرّحمة».

- هل فعلتَ ما قالته هذه المرأة؟ هل ترأسْت سبْتَ السَّحَرة، هل فعلت ذلك؟

- «عَدَدتُ نفسي ذكيّاً». قال الطّحّان، ونظره موجّهٌ نحو الأرض: «بالغتُ في تقدير إمكاناتي. لقد جرْتُ على رأسي جدّاً، على عقلي الأحمق، وأنا آسف. أرجو الرّحمة».

- وماذا عن سِحْر الإيذاء؟ عن الحقول التي خربت؟ الصّقيع، المطر، هل كنت وراءها؟

- «لقد ساعدتُ المريض حسب الطّريقة القديمة. بعضهم لم أستطع مساعدته، الطُّرق القديمة لا يُعتمد عليها كلّيّاً، لقد بذلت جهدي دائماً، ولم يدفع لي أحدٌ إلّا بعد أن يتحسّن. لقد قرأت مستقبل الأشخاص، الذين أرادوا معرفته، من الماء ومن طيران الطّيور. قلتُ لابن عمّ بيتر شتيغر، ليس باول، بلْ الثاني، كارل، قلت له ألّا يتسلّق شجرة الزّان: لا تفعل ذلك ولو كان عليها كنز. فسألني ابن عمّ شتيغر: كنز على شجرة الزّان؟ فقلت له: لا تفعلها يا شتيغر. فقال كارل: إذا كان هناك كنز، فسأتسلّقها. فسقط عن الشّجرة، وتحطّم رأسه، ولا أجد حلًّا للأمر، على الرّغم من تفكيري فيه دائماً، فيما إذا كانت النّبوءة التي ما كانت لتتحقّق لو أنّي لم أنطقها، أتبقى نبوءةً أم شيئاً آخر».

- هل سمعت اعتراف السّاحرة؟

- إذا كان هناك كنز على شجرة الزّان، فهو ما زال هناك إذن.

- هل سمعت كلام السّاحرة؟

- وورقتا الدّردار الّلتان عثرت عليهما.

- ليس مرّةً أُخرى.

- لقد بَدتا كأنّهما ورقة واحدة.

- لا تعُد إلى الورقتين ثانيةً.

تعرّق كلاوس، وأخذ يتنفّس بصعوبةٍ. «المسألة أربكتني جدّاً». فكّر قليلاً، هزّ رأسه نفياً، حكّ رأسه الحليق، فصلّت السّلاسل: «أتسمح لي أن أريك الورقتين؟ لا بدَّ من أنّهما ما زالتا في الطّاحون، في السّقيفة، حيث كنت أُجْري أبحاثي السّخيفة. استدار وأشار بذراعه المقيّدة بالسّلاسل من فوق رؤوس المتفرّجين، وقال: «يستطيع ابني إحضارهما».

- «لم يعُد هناك في الطّاحون أشياء تخصّ السِّحر». قال الدّكتور تزيموند: «هناك الآن طحّانٌ جديدٌ، ولا أعتقد أنّه سيحافظ على مثل هذه الخُردة».

- «والكتب؟». سأل كلاوس بصوتٍ خافتٍ.

نظر الدّكتور كيرشر بقلقٍ إلى ذبابةٍ حطّت على الورقة بين يديه، أرْجُلها السّوداء الصّغيرة تتّبع مسار الحروف. هل يمكن أنّها تريد أن تقول له شيئاً؟ لكنّها تتحرّك بسرعةٍ كبيرةٍ، بحيث أنّ ما ترسمه لا يمكنه قراءته. كم لا يجوز لأيّ شيءٍ الآن أن يشتّت انتباهه!

- «أين كتبي؟». سأل كلاوس بصوتٍ منخفضٍ.

أعطى الدّكتور تزيموند مساعده إشارةً، فنهض الدّكتور كيرشر، وبدأ بقراءة اعتراف الطّحّان.

وعاد في أفكاره إلى التّحقيقات ثانيةً. الخادم سِب تكلّم طواعيةً على أنّه كثيراً ما وجد الطّحّان مستغرقاً في النّوم في عزّ النّهار، ومن دون شهادة أحدهم على حالات الغشْية هذه، لا يمكن اتّهام صاحبها بالسِّحر؛ إذْ إنّ هناك قواعد صارمة، إنّ خَدم الشّيطان يتركون أجسادهم وراءهم، ويطيرون بأرواحهم إلى بُلدانٍ بعيدةٍ، حتّى الهزّ، والصّياح، والرّفس لم تُفِد في إيقاظه. هذا ما قاله سِب في محضر التّحقيق، حتّى الكاهن أثقل في تهمة الطّحّان: «سألعنك، سأحرقك، سأصيبك بالأوجاع». كان يهتف، حالما يزعجه أحدهم في القرية كان يطالب القرية كلّها بطاعته، والجميع كانوا يخافون من غضبه، وذات يومٍ رأت زوجُ الخبّاز الشّياطين، الذين سلّطهم بعد هبوط الظّلام على حقل شتيغر، وحكت عن أشداقٍ، وأنيابٍ، ومخالبَ، وأعضاء جنسيّةٍ ضخمةٍ، وعن هيئات منتصف اللّيل اللّزجة، وبشقّ النّفس تمكّن الدّكتور كيرشر من تدوين ذلك، وبعد ذلك شَهدَ أربعة، خمسة، ستّة من سكّان القرية، ثمّ ثلاثة، ثمّ اثنان، ثمّ المزيد والمزيد، ووصفوا بالتّفصيل كيف سلّط الطّقس العاصفَ على حقولهم. إنّ سِحْر الإيذاء أكثر أهمّيّةً من حالات الغشْية، وإنْ لم يتوفّر شاهدٌ

عليه، فلا يمكن إدانة المتّهم إلّا بالهرطقة، وليس بالسِّحْر، وبُغية التّأكّد من عدم وجود خطأ، قام الدّكتور كيرشر طيلة أيّامٍ بتوضيح الحركات والكلمات للشّهود، الذين لا بدَّ من أنّهم قد رأوها، فرؤوسهم تعمل ببطءٍ، ولذلك يجب تكرار كلّ شيءٍ: لعنات الطّرد، والصِّيَغ القديمة، وعزائم الشّيطان؛ لكي يتذكّروا، وقد تبيّن لاحقاً فعلاً أنّهم جميعهم سمعوا الكلمات الصّحيحة، وأنّهم رأوا حركات تعزيم الشّيطان الصّحيحة، إلّا الخبّاز الذي استُجْوِبَ أيضاً، وفجأةً لم يعُد متأكّداً، لكنّ الدّكتور تزيموند أخذه جانباً، ثمّ سأله عمّا إذا كان يريد حقّاً حماية ساحرٍ، وعمّا إذا كانت حياته على درجةٍ من النّقاء، بحيث لا يخشى تحقيقاً دقيقاً معه، وعندها تذكّر الخبّاز أنّه رأى كلّ شيءٍ رآه الآخرون، وعند ذلك اكتمل كلّ شيءٍ لاقتياد الطّحّان عبْر الاستجواب الحادّ إلى الاعتراف.

- «لقد استنزلتُ البرَد على الحقول». تلا الدّكتور كيرشر: «وحفرتُ دوائري في الأرض، القوى تحتها، والشّياطين فوقها، وناديت سيّد الهواء، جلبتُ الهلاك للحقول، والصّقيع للأرض، والموت للحبوب، يُضاف إلى ذلك أنّي استحوذتُ على كتابٍ ممنوعٍ، باللّغة اللّاتينيّة...».

وعند ذلك لَحظَ رجُلاً غريباً فسكت. من أين أتى؟ لمْ يَره الدّكتور كيرشر، وهو يقترب، ولو كان قد اندسّ مُسبقاً بين جمهور المشاهدين، لِلَفت الانتباه حتماً بقبّعته ذات الأطراف العريضة، والياقة المخمليّة، والعصا الفضّيّة، ولكنْ ها هو يقف إلى جانب عربة المغنّي، ولكنْ ماذا لوْ كان هو وحْده مَن يراه؟ بدأ قلبه يخفق. إذا كان الرّجُل موجوداً بالنّسبة إليه فقط، وغير مرئيٍّ بالنّسبة إلى الآخرين، فماذا عندها؟

ولكن الآن، بما أنّ الغريب أخذ يتقدّم ببطءٍ إلى الأمام، والنّاس خَطوا جانباً ليدعوه يمرّ، تنهّد الدّكتور كيرشر بارتياح. لحية الرّجُل قصيرةٌ، عباءته من المخْمل، وهناك ريشةٌ منتصبةٌ على قبّعته اللّبّادية. نزع قبّعته بحركةٍ احتفاليّةٍ، وانحنى مُحيّياً.

- تحيّاتي لكم، أنا فاكلاف فان هاغ.

- نهض الدّكتور تزيموند، وانْحنى رادّاً التّحيّة، وقال: «لنا الشّرف، والسُّرور الكبير».

نهض الدّكتور كيرشر أيضاً، وانْحنى تحيّةً، ثمّ عاود الجُلوس. إنّه ليس الشّيطان إذن، بلْ مؤلّف الكتاب الشّهير عن تشكُّل الكريستال في كهوف النّوازل والصّواعد. كان الدّكتور كيرشر قد قرأه ذات يومٍ، ولم يبق منه في ذاكرته إلّا القليل. التفتَ نحو

الزّيزفونة متسائلاً: «الضوء يرفّ، كأنّ كلّ شيءٍ خداعٌ لا أكثر. ماذا يبغي هنا هذا المُختصّ بتشكُّل الكريستال؟».

- «أكتبُ بحثاً عن السِّحْر». قال الدّكتور فان هاغ، وهو يعتدل من انحناءته: «لقد انتشر خبر أنّكم في هذه القرية قد ضبطتم ساحراً. أرجو السّماح لي بالدّفاع عنه».

- سَرتْ هَمْهمةٌ بين المتفرّجين. تردّد الدّكتور تزيموند، ثمّ قال: «أنا واثقٌ من أنّ رجُلاً علّامةً مثلك لديه ما هو أفضل من هذا للاستفادة من وقته».

- هذا ممكن، لكنّني على الرّغم من ذلك موجودٌ هنا الآن، وأرجو منكم هذا المعروف.

- إنّ قانون العقوبات لا ينصُّ على وجود محامٍ عن المُذنب.

- لكنّه أيضاً لا يمنع الدّفاع عنه. أيّها السّيّد النّاظر، هل تسمح لي؟

- خاطب القاضي، وليس النّاظر، أيُّها الزّميل المُحترم، هو الذي سينطق بالحُكم، لكنّي مَن سيقضي به.

نظر الدّكتور فان هاغ إلى النّاظر، الذي كان شاحباً من الغضب، لكن ما قاله صحيح، فهو هنا ليس صاحب قرار. أمال

فان هاغ رأسه قليلاً، وخاطب الدّكتور تزيموند: «هناك الكثير من الأمثلة. القضايا بوجود مُحامٍ يزداد عددها باستمرارٍ. بعض المتّهمين لا يُحْسن الدّفاع عن نفسه، كما كان بالتّأكيد سيفعل لو كان يُجيد الكلام، على سبيل المثال: الكتاب الممنوع، الذي ذُكِر في الحال، ألم يُذكر أيضاً أنّه مكتوبٌ باللّاتينيّة؟»

- صحيح.

- هل قرأه الطّحّان؟

- يا إلهي! وكيف له أن يقرأه؟

ابتسم فان هاغ. نظر إلى الدّكتور تزيموند، ثمّ إلى الدّكتور كيرشر، ثمّ إلى الطّحّان، وعاد ثانيةً إلى الدّكتور تزيموند.

- «وماذا بعد؟». سأله الدّكتور تزيموند.

- إذا كان الكتاب مكتوباً باللّاتينية.

- نعم؟

- وإذا كان الطّحّان لا يتكلّم اللّغة اللّاتينيّة.

- نعم؟

بسط الدّكتور فان هاغ ذراعيه، وابتسم ثانيةً.

- «أيمكن أن أسأل شيئاً؟». سأل الطّحّان.

- الكتاب الذي لا يجوز للمرء امتلاكه -أيُّها الزّميل المُحترم- هو كتابٌ لا يجوز امتلاكه، وليس كتاباً لا تجوز قراءته فقط. لقد أكّدت محكمة التّفتيش المقدّسة على امتلاك الكتاب، وليس على معرفته. دكتور كيرشر، ما رأيك؟

بلعَ الدّكتور كيرشر ريقه، وتنحنح، ورمش، ثمّ قال: «الكتاب هو إمكانيّةٌ. إنّه جاهزٌ دائماً للكلام، حتّى مَن لا يفهم لغته يمكنه تقديمه لآخرين قادرين على قراءته؛ كي يؤدّي فعله الشّرّير عليهم، أو يمكنه تعلُّم اللّغة، وفي حال عدم وجود مَن يعلّمه إيّاها، فمن الممكن أن يجد سبيلاً ليتعلّمها بنفسه، وقد حصل هذا سابقاً، يمكن للمرء تحقيق ذلك بمجرّد تأمُّل الحروف، عن طريق تعداد تكرارها، عن طريق مراقبة نماذجها، فالعقل البشريّ جبّارٌ. بهذه الطّريقة تعلّم القدّيس زاغرافيوس في الصّحراء اللّغة العبرية، انطلاقاً من توقهِ وحسْب، لمعرفة كلمة الرّبِّ في لفظها الأصليّ، ويُحكى عن تاراس البيزنطيّ أنّه قد فهم هيروغليفيّة مصر، فقط عن طريق تأمُّلها طوال سنواتٍ، لكنّه مع الأسف لم يخلِّف لنا المفتاح، ولهذا علينا القيام بهذا العمل من جديد، لكنّ المهمّة سوف تُنجَز، وربّما قريباً، وعلينا ألّا ننسى، الإمكانيّة المُتاحة دائماً أنّ الشّيطان الذي يُفهم خَدمُه

الّلغات جميعها، قد يُهدي أحدَ أتباعه، بين ليلةٍ وضُحاها، القدرةَ على قراءة الكتاب؛ لهذه الأسباب كان تقدير الفهْم من أمر الرّبّ، وليس عباده، ذلك الرّبّ الذي سينظر يومَ الحساب في الأرواح. إنّ مهمّة القاضي الإنسان تنحصر في توضيح الظّروف البسيطة، وأكثرها بساطةً هو هذا: إذا كان الكتاب ممنوعاً، فلا يحقّ للمرء أن يملكه».

- «يُضاف إلى ذلك أنّ الوقت قد فات للقيام بالدّفاع». قال الدكتور تزيموند: «فالمحاكمة انتهت، ولم يبق سوى الحُكم، فالمتّهم قد اعترف».

- ولكن تحت التّعذيب طبعاً؟

- طبعاً، وإلّا لماذا يُفترض به أن يعترف؟ فمن دون تعذيبٍ لن يعترف أحدٌ بأيّ شيءٍ.

- أمّا تحت التّعذيب فالكلُّ يعترف.

- أجل، والشّكر للرّبّ.

- حتّى البريء.

- لكنّه ليس بريئاً، لدينا إفادات الآخرين، لدينا الكتاب.

- إفادات الآخرين، الذين كانوا سيتعرّضون إلى التّعذيب لو لم يُدْلوا بأقوالهم؟

- صمت الدّكتور تزيموند برهةً، ثمّ قال بصوتٍ خافتٍ: «أيُّها الزّميل المُحترم، من الطّبيعيّ أنّ الذي يمتنع عن الإفادة ضدّ ساحرٍ، يتعرّض هو نفسه إلى التّحقيق معه، وإلى الاتّهام. إلى أين سنصل إنْ لم نتصرّف بهذه الطّريقة؟».

- طيّب، سؤالٌ آخر: ما هو التّفسير الحقيقيُّ لغَشْية السّاحر؟ سابقاً كان يقال: إنّ المغشيّ عليهم يخالطون الشّيطان في الحلم، ولكنْ لا سُلطة للشّيطان في عالم الرّبّ، هذا مذكورٌ حتّى في كتاب انسيتورس(1)، ولهذا يجب على الشّيطان استغلال حالة النّوم، ليوحي إلى حلفائه بأوهامِ مَنْحِه إيّاهم لذّةً جامحةً؛ أمّا الآن، فيدين المرء السّاحر تماماً للأفعال، التي أعلن المرء سابقاً أنّها أوهامٌ منحهُ إيّاها الشّيطان، ويُبقي النّوم والأحلام الإيهاميّة لتثقيل الإدانة. الفعل الشّرّير الآن حقيقيٌّ أم مُتخيَّلٌ؟ إذْ لا يمكن أن يكون كلِيهما معاً، فهذا لا يُعقل أيُّها الزّميل المُحترم!

- بلْ هو معقولٌ بامتياز، أيُّها الزّميل المُحترم.

- فسِّرْه لي إذنْ.

- لن أسمح، أيُّها الزّميل المُحترم، بأن يُقلَّل من قيمة يوم النُّطق بالحُكم عن طريق الأقاويل والشّكوك.

- «أيحقُّ لي أن أطرح سؤالاً؟». قال الطّحّان.

- «وأنا أيضاً». قال بيتر شتيغر، وأصلح وضعيّة روبه: «لقد طال بنا الوقت، ألا يمكننا الاستراحة قليلاً؟ ضروع البقر ممتلئةٌ، إنّكم تسمعونها».

- «اعتقلوه». قال الدّكتور تِزيموند.

رجع الدّكتور فان هاغ خطوةً إلى الوراء، وحدَّق الحُرّاس إليه.

- «خذوه من هنا، وقيّدوه». قال الدّكتور تزيموند: «صحيحٌ أنّ قانون العقوبات يسمح بالدّفاع عن مُذنبٍ، لكنّه لا يقول في أيّ موضعٍ أنّ من اللّائق أن تملي نفسك مُحامياً لخادم شيطانٍ، وتزعج المحكمة بأسئلةٍ غبيّةٍ. ومع كلّ تقديري لزميلٍ باحثٍ، لا أستطيع الصَّبر على ذلك، وسوف نتوصّل بالتّحقيق الدّقيق إلى تبيان ما الذي يدفع رجُلاً ذا سمعةٍ كبيرةٍ إلى التّصرُّف على هذا النّحو».

لم يتحرّك أحدٌ من مكانه. نظر الدّكتور فان هاغ إلى الحُرّاس، الذين نظروا بدورهم إلى الدّكتور تزيموند.

- «ربّما التّعطُّش للمجد، وربّما ما هو أسوأ». قال الدّكتور تزيموند: «سنعرف ذلك».

سَرتْ ضحكةٌ بين المتفرّجين. رجع الدّكتور فان هاغ خطوةً أُخرى، ووضع يده على قبضة سيفه. كان بمقدوره فعلاً أن ينجو بنفسه، فالحُرّاس ليسوا خفيفي الحركة، ولا شجعاناً، لولا أنّ المعلّم تيلمَن تقدّمَه، وهو يهزّ رأسه.

لا حاجة لأكثر من ذلك، فالمعلّم تيلمن طويلٌ، عريضٌ، قويُّ البنْية، ووجهه يتغيّر كلّيّاً فجأةً عمّا كان عليه في الحال. ترك الدّكتور فان هاغ سيفه، فأمسك به أحد الحُرّاس من معصمه، وانتزع منه السّيف، ثمّ اقتاده إلى الإصطبل ذي الباب المُسلّح بالحديد.

- «إنّني أحتجّ». قال الدّكتور فان هاغ ماشياً مع الحارس من دون مقاومةٍ: «إذْ لا يجوز أن يُعامَل إنسانٌ ذو منزلةٍ بهذه الطّريقة».

- اِسمحْ لي أيُّها الزّميل المُحترم أن أعدك بأنّ منزلتك لن تُنسى.

في أثناء مَشيه استدار فان هاغ ثانيةً، فتح فمه، ولكنّه بَدا فجأةً كمن فقد عزمه.

لقد بوغِت تماماً. انفتح بابُ الإصطبل مع صريرٍ، وغاب مع الحارس داخله. مضت برهةٌ، ثمّ خرج الحارس، أغلق الباب وراءه، وأنزل القفل.

كان قلب الدّكتور كيرشر يخفق. لقد دوّخه الشّعور بالفخر. لم تكن هذه المرّة الأولى التي شارك فيها في رؤية مَن يقلّل من شأن حزْم مُرشده. لا بدَّ من سببٍ وجيهٍ لكونه النّاجي الوحيد من مؤامرة البارود، وليس ببساطةٍ يصير المرء أحد أشهر شهود عقيدة اليسوعيين. ما زال هناك أناس لا يعرفون مع مَن يتعاملون، لكنّهم يتوصّلون إلى معرفة ذلك بكلّ تأكيدٍ.

- «إنّه يوم المحاكمة الأكبر». قال الدّكتور تِزيموند مخاطباً بيتر شتيغر: «ليس هذا وقت حَلْب الأبقار. إذا كانت ضروع أبقارك تؤلمها، فإنّما هي تتألّم بسبب قضيّة الرّبّ».

- «فهمت». قال بيتر شتيغر.

- هل فهمتَ حقّاً؟

- نعم، فهمت حقّاً.

- وأنت أيُّها الطّحّان، لقد تَلونا اعترافك، ونريد الآن أن نسمع بصوتٍ عالٍ وواضحٍ: أصحيح هذا؟ هل فعلت ذلك؟ هل أنت نادم؟

ساد صمتٌ لم يُسمع خلاله سوى صوت الرّيح، وخُوار البقر. مرّت غيمةٌ حجبت الشّمس، ما أراح الدّكتور كيرشر من لعبة الأضواء في تاج الزّيزفونة، ولكنْ مقابل ذلك تُصْدر الأوراق والأغصان مع حركة الرّيح حفيفاً، وهمْساً، وهَسْهسةً، وصار الجوُّ بارداً، ومن المُحتمل أن تمطر مُجدّداً، حتّى إعدام هذا السّاحر لن يفيد شيئاً ضدّ الطّقس السّيّئ، فهناك الكثير من النّاس الأشرار، وهُم جميعهم يحملون ذنْب هذا البَرد، ورداءة المحاصيل، ونُدرة كلّ شيءٍ خلال السّنوات الأخيرة قبل نهاية العالم، لكنّ المرء يقوم بما في مقدوره، حتّى عندما يقاتل في مواقع خاسرة، يصبر المرء، يدافع عمّا بقي، وينتظر اليوم، يوم عودة الرّبّ المجيدة.

- «أيُّها الطّحّان». كرّر الدّكتور تزيموند: «يجب أن تقولها هنا على الملأ: أصحيحٌ هذا؟ هل فعلت ذلك؟».

- أيحقُّ لي أن أطرح سؤالاً؟

- لا، عليك أن تجيب وحسْب. أصحيحٌ هذا؟ هل فعلت ذلك؟

تلفّت الطّحّان حوله كمن لا يعرف أين هو موجود، ولكنْ حتّى هذه حيلة أيضاً، الدّكتور كيرشر يعرف تماماً أنّ على المرء عدم الوقوع في فخّها، فوراء هؤلاء النّاس التّائهين ظاهريّاً يختبئ الخصم القديم، مستعدّاً للقتل والتّدمير حيثما استطاع. لو أنّ الأغصان فقط تتوقّف عن حفيفها. فجأةً صار حفيف الأوراق أسوأ ممّا كانت عليه لعبة الأضواء ذات الوميض. ألا يمكن لخوار البقر أن يهدأ؟

وقف المعلّم تيلمَن إلى جانب الطّحّان، ووضع يده على كتفه مثل صديقٍ قديمٍ، نظر الطّحّان إليه، إنّه أقصر من الجلّاد، فنظراته ترتفع نحو الأعلى مثل طفلٍ. انحنى المعلّم تيلمَن، وهمسَ بشيءٍ في أذنه، أومأ الطّحّان برأسه كمن فَهِم. ساد بين الاثنين جوٌّ من الألفة أرْبكَ الدّكتور كيرشر، ربّما لأنّه لا ينتبه بتركيزٍ، ولأنّه ينظر في الاتّجاه الخاطئ، في عينيّ الصّبيّ تحديداً.

لقد اعتلى عربة المغنّي، إنّه واقفٌ عليها، فصار أعلى من الجميع، إنّه يقف على طرف العربة، والغريب في الأمر أنّه لا يقع. كيف يحافظ على توازنه على طرف العربة؟ لم يستطع الدّكتور كيرشر إلّا أنْ يبتسم بتشنُّجٍ، لكنّ الصّبيّ لم يبتسم بدوره كجوابٍ. لا إراديّاً، تساءل الدّكتور كيرشر في نفسه عمّا إذا كان الشّيطان قد مسَّ الصّبيّ أيضاً، ولكن في الاستجواب لم يظهر أيُّ مؤشّرٍ على

ذلك، الزّوجة بكت كثيراً، في حين انطوى الصّبيُّ على نفسه، لكنّهما قالا ما كان ضروريّاً، لكنّ الدكتور كيرشر فجأةً لم يعُد واثقاً، هل كان مُهملاً؟ إنّ حِيَل سيّد الهواء عديدةٌ ومتنوّعةٌ، ماذا إذا كان الطّحّان ليس السّاحر الأخطر؟ أحسّ الدّكتور كيرشر بارتيابٍ ينمو في نفسه.

- «هل فعلت ذلك؟». سأل الدّكتور تزيموند مُجدّداً.

تراجع الجلّاد إلى الوراء. الجميع يُصغون واقفين على أصابع أقدامهم، رافعين رؤوسهم، حتّى الرّيح هدأت قليلاً عندما أخذ كلاوس نفساً عميقاً كي يجيب أخيراً.

3

لم يكن يعرف أنّ مثل هذا الطّعام الشّهيّ موجود. لم يذُقْ مثل هذا طوال حياته: بدأ بحساء دجاج سميك مع خبز قمحٍ طازجٍ، ثمّ فخدة خَروفٍ مبهّرةٍ مع ملحٍ وفلفلٍ أيضاً، ثمّ قطعة فيليه من خنزيرٍ سمينٍ مع صلصة، وفي الختام معجّنات حلوة بالكرز ماتزال ساخنةً من الفرن، ومعها نبيذٌ أحمرُ قويٌّ يصعد إلى الرّأس مثل البخار. لا بدَّ من أنّهم قد أحضروا طاهياً من مكانٍ ما، وفيما يجلس كلاوس في الإصطبل إلى طاولته الصّغيرة يأكل ويحسُّ بامتلاء معدته بمأكولاتٍ ساخنةٍ وفاخرةٍ، فكَّر في أنّ مثل هذه الوجبة تُعدُّ في واقع الأمر سبباً كافياً يستحقّ أن يموت المرء من أجله.

كان يعتقد أن وجبة الجلّاد ترِد في الأمثال وحسْب، ولم يتصوّر أنّهم حقاً يحضِرون طاهياً لتحضير هذا الطّعام الشّهيّ خصّيصى، الذي لم يذُق المرء مثله في حياته كلّها. من الصّعب أن يمسك المرءُ اللّحم، وذراعاه مقيّدان بالسّلاسل، فالحديد يحكّ، والمعصمان مُجرّحان، لكنّ الأمر سيَّان في هذه اللّحظات، فالطّعْم لذيذٌ، كما أنّ اليَديْن عامّةً لم تعودا تؤلمانه كما قبل

أسبوع. المعلّم تيلمَن هو أيضاً معلّمٌ في أمور الشّفاء. كان لا بدَّ لكلاوس من الاعتراف من دون حسدٍ بأنّ الجلّاد يعرف أعشاباً، لم يسمع كلاوس بها قَطّ، لكنّ الإحساس لم يعُد بعْدُ إلى أصابعه المهروسة، ولهذا يتكرّر سقوط اللّحم من بين أصابعه على الأرض. أغمض عينيه، سمع أصوات نبش الدّجاج في الإصطبل المجاور، وسمع شخير الرّجُل ذي الثّياب الثّمينة، الذي أراد أن يكون محاميه، ويستلقي الآن على القشّ مقيّداً بالسّلاسل، وفيما كان يمضغ لحم الخنزير اللّذيذ، حاول أن يتخيّل أنّه لن يعرف أبداً كيف ستنتهي قضيّة هذا الرّجُل.

في ذاك الحين سيكون ميتاً، كما أنّه لن يعرف كيف سيكون حال الطّقس بعد غدٍ، أو ما إنْ كانت ستمطر ثانيةً غداً ليلاً، لكنّ الأمر سيكون سيّان، فمن يبالي بأمر المطر.

ومع ذلك يبقى الأمر مُستغرَباً؛ فأنت ما تزال تجلس هنا، وبإمكانك استدعاء الأرقام جميعها من واحدٍ إلى ألف، ولكنّك بعد غدٍ إمّا أن تكون جوهراً من هواءٍ، أو روحاً تعود إلى الدّنيا في إنسانٍ، أو حيوانٍ، من دون أن تتذكّر شيئاً عن الطّحّان الذي ما زلته، ولكنْ إذا كان المرء مجرّد ابن عُرْسٍ، أو دجاجةٍ، أو حتّى عصفور على غصنٍ، ولا تعرف حتى أنّك كنت ذات يومٍ طحّاناً، وانشغلت بالتّدقيق في مسار القمر. نعم، فيما تقفز من غصنٍ

إلى غصنٍ، ولا تهتمّ إلّا بالحبوب، وبتجنُّب الحدأة طبعاً، فعندها ما أهمّيّة أنّ المرء كان ذات يومٍ طحّاناً لم يعُد أحدٌ يعرف شيئاً عنه؟

خطر في باله أنّ المعلّم تيلمَن قال له: إنّ بإمكانه الحصول على المزيد متى شاء. قال: «نادِنا ببساطةٍ، أخبرنا، يمكنك أن تأكل بقَدْر ما تريد؛ لأنّك بعد هذه الوجبة لن تحصل على أيّ شيءٍ».

وبناءً على ذلك حاول كلاوس، نادى، نادى، وهو يمضغ؛ إذْ ما زال هناك لَحْمٌ في صحنه، وما زال هناك بعض المعجّنات أيضاً، ولكن إذا كان في وسع المرء الحصول على المزيد، فلِمَ الانتظار حتّى يأكل كلّ شيءٍ، والذين في الخارج قد يغيّرون رأيهم؟ نادى مرّةً ثانيةً، وفعلاً فُتح الباب.

- أيمكنني الحصول على المزيد؟

- من كلّ شيءٍ؟

- رجاءً، من كلّ شيءٍ.

خرج المعلّم تيلمَن صامتاً، وأخذ كلاوس بأكل المعجّنات، وفيما هو يمضغ الكتلة السّاخنة النّاعمة الحلوة، تبيّن له فجأةً أنّه كان جائعاً دائماً: نهاراً وليلاً، مساءً وصُبحاً، سوى أنّه ما عاد

يعرف أنّ هذا يُسمّى جوعاً، هذا الشّعور بعدم الاكتفاء، ضحالة كلّ شيءٍ، وَهَن الجسم الذي لا ينتهي، الذي يجعل الرّكبتين واليَدين متراخيةً، والرّأس مُرتبكاً. لم يكن هذا ضروريّاً، ما كان يجب أن يكون الأمر على هذه الحال، أكان السّبب هو الجوع فقط!

انفتح الباب، ودخل المعلّم تيلمَن حاملاً صينيّةً عليها صحاف، تنهّد كلاوس فرحاً، أساء المعلّم تيلمَن تفسير التّنهيدة، فوضع الصّينيّة، ووضع يده على كتف كلاوس، وقال: «ستمضي».

- «أعرف». قال كلاوس.

ستمضي بسرعةٍ كبيرةٍ. أنا أتقن عملي. أعدك بذلك.

- «شكراً». أجاب كلاوس.

- أحياناً يزعجني بعض المحكومين. في هذه الحالة لا تمضي بسرعةٍ صدّقني؛ أمّا أنت فإنّك لم تزعجني.

أومأ كلاوس برأسه شاكراً.

- زمننا هذا أفضل من الماضي؛ سابقاً كانوا يحرقونكم كلّكم، وهذا يستغرق وقتاً، وهو عمليّةٌ بشعةٌ؛ أمّا الشّنق فهو لا شيء، يمضي الأمر بسرعةٍ، تصعد إلى سقّالة الشّنق، وما إنْ تجهّز

نفسك حتّى تجد نفسك أمام الخالق. حَرْقُ الجثمان يأتي لاحقاً، لكنّك عندها تكون ميتاً ومنتهياً، ولن يزعجك الأمر، سوف ترى بنفسك.

- «طيّب». قال كلاوس.

تبادل الاثنان النّظرات، يبدو أنّ المعلّم تيلمَن لا يريد أن يغادر، وقد يعتقد المرءُ أنّ الوضع في الإصطبل يعجبه.

- «لستَ رجُلاً شرّيراً». قال المعلّم تيلمَن.

هزّ كلاوس كتفيه.

خرج المعلّم تيلمَن، وأغلق الباب وراءه على نحوٍ متكلّفٍ.

تابع كلاوس الأكل، وحاول مُجدّداً أن يتخيّل: البيوت في الخارج، الطّيور في السّماء، الغيوم، التّربة البنّيّة الخضراء والحشائش، الحقول وبيوت الخُلد المقبّبة في الرّبيع كلّها؛ لأنّك لن تتخلّص من حيوانات الخُلد، لا بالأعشاب، ولا بالتّعويذات، والمطر طبعاً، هذا كلّه سيتابع الحياة؛ أمّا هو فلا.

وهذا تحديداً ما لم يستطع تصوّره.

فكلّما رسم عالماً من دون كلاوس أولنشبيغل، هربت مخيّلته إلى رسمه كلاوس أولنشبيغل ذاك، الذي يُفترَض بها أن تحذفه،

ولكنْ في هيئةٍ خفيّةٍ، كعينٍ من دون جسمٍ، كشبح، ولكنّه عندما يفكّر فعليّاً بحذف نفسه كلّيّاً، يختفي العالم، الذي أراد تخيّله من دون كلاوس أولنشبيغل، ومهما كرّر المحاولة تبقى النّتيجة دائماً نفسها، فهل يجوز له أن يستنتج من ذلك أنّه في مأمن؟ أنّه لا يمكن أن يغيب؛ لأنّ العالم نفسه، أوّلاً وآخِراً، لا يجوز أن يختفي، ولأنّ العالم سيختفي إذا هو اختفى منه؟

مذاق لَحْم الخنزير لا يزال رائعاً؛ أمّا المعجّنات، حسبما انتبه في الحال، فإنّ المعلّم تيلمَن لم يجلب له المزيد منها، ولأنّ المعجّنات كانت الأطيب؛ حاول كلاوس ونادى ثانيةً.

- أيمكنني الحصول على مزيدٍ من المعجّنات؟

لم يُجِبْه المعلّم تيلمَن، وخرج. يمضغ كلاوس لَحْم الخنزير، فالآن بعد أن سكت الجوع، يلْحظ حقّاً مدى طيب مذاقه، يستمتع بطراوته وغناه، بدفئه وملوحته، وبحلاوته الخفيفة. نظر إلى جدار الإصطبل. إذا رسم المرء قبل منتصف اللّيل بقليلٍ مستطيلاً، وأضاف إليه بشيءٍ من الدّم دائرتين مزدوجتين على الأرض، ونادى ثلاث مرّاتٍ الاسم الثّالث الخفيّ للعليّ القدير، عندها سيظهر بابٌ، يمكن للمرء النّجاة عبْره، ولكنْ تبقى مشكلة الأغلال، فللخلاص منها يحتاج المرء إلى نقيع الكُنْباث؛

إذنْ، عليه أن يهرب بالأغلال، والبحث عن نبات الكنباث في الطّريق، لكنّ كلاوس مُنهكٌ، وجسمه يؤلمه، إضافةً إلى أنّ الآن ليس فصل الكنباث.

ثمّ إنّ من العسير البدء من جديدٍ في مكانٍ آخر. كان هذا ممكناً فيما مضى؛ أمّا الآن فقد كبُر، ولم تعُد لديه القدرة على معاودة العيش كخادم متنقّلٍ بلا مهنة، كمُياومٍ محتقرٍ على طرف إحدى القرى، كغريبٍ يتجنّبه الجميع. لن يكون بالإمكان العمل مُجدّداً كشافٍ؛ لأنّ هذا سيلفت الأنظار.

لا، الشّنق أسهل. وعلى فرض أنّ المرء بعد الموت سوف يتذكّر ما كان عليه سابقاً، فهذا سيدفع بالمرء في علم العالم عشر سنوات إلى الأمام، عشر سنواتٍ من البحث والاستقصاء، ومن المحتمل أن يفهم لاحقاً مسألة مدار القمر، وقد يفهم أيضاً، عند أيّة حبّةٍ تتوقّف الكومة عن كونها كومة، كما يحتمل أن يرى، ما الذي يجعل الورقة تختلف عن الأُخرى، مع أنّ الفارق الوحيد بينهما هو أنّهما اثنتان، وليستا ورقةً واحدةً. من المحتمل أنّ الأمر يتعلّق بالنّبيذ، وبالعذوبة الدّافئة، التي يخبرها كلاوس لأوّل مرّةٍ في حياته، أنّه لم يعُد يريد الهرب، ولْيبقَ الجدار حيثما هو.

يُرفع التّرباس، ويدخل المعلّم تيلمَن حاملاً معجّناتٍ، وقائلاً: «هذه آخر مرّةٍ وكفى، لن آتي مرّةً أُخرى». ربّت على كتف كلاوس، وهو يرغب في ذلك، ربّما لأنّه لا يجوز له أن يلمس النّاس خارج الإصطبل، ثمّ تثاءب، وخرج، وخبط الباب وراءه بقوّةٍ أيقظت الرّجُل النّائم.

اعتدل من استلقائه، تمطّى، نظر حوله في الاتّجاهات جميعها، ثمّ قال: «أين المرأة العجوز؟».

- «في الإصطبل الآخر». أجاب كلاوس: «لحُسْن الحظّ. إنّها تشكو باستمرارٍ، بصورةٍ لا تُحتمل».

- هاتِ نبيذاً.

نظر كلاوس إليه مرعوباً. أراد أن يجيبه أنّ هذا نبيذه، له وحده، وأنّه يستحقّه بكلّ جدارة؛ لأنّ عليه أن يموت من أجله، لكنّه أسِفٌ على الرّجُل، وعلى وضعه الصّعب، فمدَّ يده، وناوله إبريق النّبيذ، أخذه الرّجُل، وشرب جرعاتٍ كبيرةً. «كفى». أراد كلاوس أن يقول له، لن يبقى لي شيء، لكنّه لم يستطع أن يضنَّ به عليه، فهو رجُلٌ من النبلاء، ومثل هؤلاء لا يأمرهم المرء. سال النّبيذ على ذقنه، وسبّب بُقعاً على ياقته المخمليّة، ولكنّه لم يأبه للأمر، فإلى هذا الحدّ كان ظمأه.

أخيراً، وضع الإبريق من يده وقال: «يا إلهي! إنّه نبيذٌ جيّدٌ».

- «نعم نعم، جيّدٌ جدّاً». قال كلاوس، وتمنّى من كلّ قلبه ألّا يطلب الرّجُل المعجّنات أيضاً.

- الآن، بما أنّ أحداً لا يسمعنا، قُلْ لي الحقيقة: هل كنت مرتبطاً بالشّيطان؟

- لا أعرف، يا سيّدي.

- كيف يمكن للإنسان ألّا يعرف مثل هذا الأمر؟

أخذ كلاوس يفكّر. من الواضح أنّه قد ارتكب عملاً خاطئاً ما، برأسه الغبيّ هذا، وإلّا لما كان هنا. لقد استُجْوِب مُطوّلاً، وعلى نحوٍ مُكرّرٍ، وفي كلّ مرّةٍ بتعريضه إلى آلام مُبرّحةٍ، وكان عليه دائماً أن يحكي قصّته من جديد، وفي كلّ مرّةٍ كان ينقص شيءٌ، فكان يُجبر على إضافة شيءٍ ما، شيطانٍ آخر كان لا بدَّ من وصفه أيضاً، تعزيمٍ آخر، كتابٍ ممنوع آخر، حفل سبتٍ آخر، لكي يتركه المعلّم تيلمَن وشأنه، ثمّ كان عليه أن يكرّر هذه التّفاصيل الجديدة المرّة تِلْو الأُخرى، إلى درجة أنّه لم يعُد حقّاً يعرف، ما الذي كان مُجبراً على اختلاقه، وما الذي جرى فعلاً في حياته القصيرة، التي في كلّ الأحوال لم تكن مرتّبةً جيّداً، فكان مرّةً هنا، ومرّةً هناك، ثمّ في مكانٍ ثالثٍ، ثمّ وجد نفسه فجأةً بين غبار

الطّحين، والزّوجة لم تكن راضيةً، والخَدم لا يُبدون احتراماً له، وها هو الآن في الأغلال، وهذا كلّه جرى، تماماً مثلما يأكل الآن المعجّنات بسرعة، ثلاث، أو أربع لُقَمٍ، أو حتّى خمس لُقَمٍ إذا قلّل المرء الكمّيّة.

- «لا أعرف». قال مرّةً ثانيةً.

- «يا له من حادثٍ مُحرجٍ لعينٍ». قال الرّجُل، ونظر إلى المعجّنات.

مرعوباً أخذ كلاوس ما بقي كلّه، وبلعه من دون أن يمضغه، امتلأ بلعومه، فبلع مُجدّداً، وبكلّ ما يستطيع من قوّةٍ، نزلت اللّقمة إلى معدته، وهكذا انتهى موضوع الطّعام، وإلى الأبد.

- «سيّدي». قال كلاوس، ليُبْدي أنّه يعرف قول ما يليق: «ما الذي سيحصل معك الآن؟».

- «من الصّعب التّنبُّؤ. إذا دخل المرءُ السِّجن، فليس من السّهل الخروج منه. سينقلونني إلى المدينة، ثمّ سيحقّقون معي. سيتوجّب عليَّ أن أعترف بشيءٍ ما». تنهّد، وهو ينظر إلى يديه. من الجليّ أنّه يفكّر في الجلّاد؛ الجميع يعرف أنّه يبدأ بالأصابع.

- «سيّدي». كرّر كلاوس: «إذا تصوّرت كومة حبوب».

- ماذا؟

- وأخذ منها المرءُ دائماً حبّةً واحدةً فقط، ووضعها على الجانب الآخر.

- ماذا؟

- حبّةً واحدةً دائماً، فمتى لا تعود كومة؟

- بعد اثني عشر ألف حبّة.

حكّ كلاوس جبينه، فأصْدرت أغلاله صليلاً. تحسّس أثر الحزام الجلديّ على جبينه، لقد سبّب له آلاماً جهنّميةً، مازال يذكر كلّ ثانيةٍ وَلْوَل فيها وتوسّل، لكنّ المعلّم تيلمَن لم يُرخِ الحزام إلّا بعدما اختلق كلاوس سبتَ سَحرةٍ آخر ووصفه. «اثنا عشر ألفاً بالتّحديد؟».

- «طبعاً». قال الرّجُل: «أتعتقد أنّ في وسعي الحصول على وجبةٍ مثل هذه؟ لا بدَّ من بقاء شيءٍ عندهم. هذا كلّه حالة ظلمٍ كبيرٍ، لا يُفترض أن أكون هنا، أردتُ الدّفاع عنك فقط؛ لكي أكتب عن ذلك في كتابي. نظريّة الكريستال استُكمِلت وخُتمت، وأردتُ الانتقال إلى ميدان الحقوق، لكنّ حالتي لا علاقة لها بك أنت، ربّما كنتَ مرتبطاً بالشّيطان، ما أدْراني، ربّما كنت حقّاً متحالفاً معه، وربّما لا». صمتَ برهةً، ثمّ نادى المعلّم تيلمَن بصوتٍ آمرٍ.

- «لن يمر الأمر على خير». فكّر كلاوس، الذي صار يعرف الجلّاد إلى حدٍّ ما. تنهّد. كان بودّه الآن لو شَربَ بعض النّبيذ؛ كي لا يعاوده الحُزن، ولكن قيل له بوضوحٍ: أنْ لا مزيد.

رُفع ترباس الباب، ونظر المعلّم تيلمَن إلى الدّاخل.

- «أحْضِر لي من هذا اللّحم». قال الرّجُل، من دون أن ينظر إليه: «ونبيذاً. الإبريق فارغ».

- «هل ستموت أنت أيضاً غداً؟». سأل المعلّم تيلمَن.

- «هذا سوء فَهْمٍ». قال الرّجُل بصوتٍ مبحوحٍ، وتظاهر بأنّه يكلّم كلاوس، فالأولى به الكلام مع ساحرٍ محكومٍ بالإعدام، على الكلام مع جلّادٍ. وتابع: «كما أنّه حقارة ابنة كلب، ولا بدَّ من أن يكفِّر بعضهم عنها».

- «الذي سيبقى حيّاً غداً، لا يحصل على وجبة الجلّاد». قال المعلّم تيلمَن، ثمّ دخل، ووضع إحدى يديه على كتف كلاوس، وقال بصوتٍ خافتٍ: «اِسمع، غداً عندما تقف تحت حبْل المشنقة، لا تنسَ أنّ عليك أن تسامح الجميع».

هزّ كلاوس رأسه موافقاً.

- وعليك أن تصفح عن القضاة، وعنّي أنا أيضاً.

أغمض كلاوس عينيه. مازال يشعر بالنّبيذ، شعور دوخةٍ دافئٌ وناعمٌ.

- «بصوتٍ مرتفعٍ وواضحٍ». قال المعلّم تيلمَن.

تنهّد كلاوس.

- «هذا هو العرف». قال المعلّم تيلمَن: «هذا هو المُتَّبَع، المحكوم يصفح عن جلّاده بصوتٍ عالٍ وواضحٍ، بحيث يسمعه الجميع. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟».

هيمنت زوجُ كلاوس على تفكيره، قبْل قليلٍ كانت أغنيتا هنا، وكلّمته عبْر شقٍّ بين عوارض ألواح الجدار، همست له بشديد أسَفها؛ إذْ لم يكن أمامها من خيارٍ آخر، إلّا أن تقول لهم ما طالبوها به، وسألته إنْ كان في وسعه أن يغفر لها.

- «طبعاً». أجابها. إنّه يغفر كلّ شيءٍ، لكنّه أبقى لنفسه، ولم يقل لها إنّه لم يكن على بيّنةٍ ممّا كانت تتحدّث عنه، وإنّه لا مجال لعمل أيّ شيءٍ، فمنذ التّحقيقات لم يعُد بالإمكان الاعتماد على عقله كما في الماضي.

ثمّ عادت إلى البكاء ثانيةً، وتحدّثت عن حياتها الصّعبة، وعن الصّبيّ، الذي يسبّب لها القلق، ولا تعرف أين ستؤويه.

سرَّ كلاوس لسماعه أخبار الصّبيّ، فقد مرّت فترةٌ طويلةٌ لم يفكّر خلالها فيه، وهو في واقع الأمر يحبّه جدّاً، ولكنْ ثمّة ما هو غريبٌ عجيبٌ في هذا الصّبيّ، لا يستطيع المرء شرحه؛ إذْ يبدو أنّ الصّبيّ ليس مصنوعاً من المادة نفسها مثل النّاس الآخرين.

- «أنت مرتاح». قالت أغنيتا: «لا حاجة بك إلى أنْ تقلق حول أيّ شيءٍ؛ أمّا أنا فلا يمكنني البقاء هنا في القرية، إنّهم لا يسمحون بذلك، وأنا لم أذهب سابقاً إلى أيّ مكانٍ آخر، فماذا عليَّ أن أفعل؟».

- «نعم، هذا أكيد». قال لها، وهو مازال يفكّر بالصّبيّ: «ما تقولينه صحيح».

- ربّما بإمكاني الذّهاب إلى نسيبتي في بْفونتس. عمّي قال هذا قبل وفاته، إنّه سمع أنّ النسيبة تعيش الآن في بفونتس. ربّما كان الأمر صحيحاً.

- أنتِ لديك نسيبة؟

- إنّها زوجُ ابن عمّي، ابنة خالة فرانتس مِلكر. أنت لا تعرف العمّ، فقد مات عندما كنتُ طفلة، وإلّا إلى أين سأذهب؟

- لست أدري.

- وماذا عن الصّبيّ؟ أن تساعدني النّسيبة، فهذا مُحتملٌ إذا تذكّرتني، مَن يدري؟ وإذا ما زالت حيّةً؛ أمّا أن تساعد اثنين جائعين دفعةً واحدةً، فهذا كثير.

- نعم، اثنان كثير.

- قد أجد للصّبيّ عملاً، كأن يعمل مُياوماً، إنّه صغيرٌ، وشُغله لا يُرضي، ولكنْ قد يُدبّر الأمر. ماذا يمكنني غير ذلك؟ البقاء هنا ممنوعٌ عليّ.

- نعم، ممنوعٌ عليكِ.

- يا لكِ من دابّةٍ غبيّةٍ! أمركِ سهلٌ الآن. ولكنْ قلْ لي: هل أخرج للبحث عن نسيبتي؟ ربّما لم تكن في فونتس إطلاقاً. أنت تعرف دائماً كلّ شيء، قلْ لي، ماذا أفعل؟

في هذه اللّحظة، لحُسْن الحظّ، جاءت وجبة الجلّاد، فانسحبت أغنيتا، كي لا يراها الجلّاد؛ إذْ لا يحقُّ لأحدٍ تبادل الكلام مع محكومٍ، ثمّ إنّ النّبيذ والطّعام كانا على درجةٍ من الجودة، بحيث نُسي العويل نهائيّاً.

- «يا طحّان!». ناداه المعلّم تيلمَن: «هل تصغي إلى كلامي؟».

- «نعم نعم».

كانت يدُ المعلّم تيلمن ثقيلةً على كتف كلاوس: «يجب أن تنطق بها بصوتٍ عالٍ غداً، أنّك تسامحني، أتسمع؟ أمام الجميع، هل سمعت؟ هذا هو المتّبع».

أراد كلاوس أن يجيب، لكنّ رأسه لم يستطع البقاء مع الموضوع، خاصّةً أنّه كان مضطّراً الآن إلى معاودة التّفكير في الصّبيّ. رآه مؤخّراً يمارس لعبة خفّةٍ. حدث هذا بين جلسات التّحقيق، في وقت الفراغ، حينما لا يكون العالم سوى ألمٍ مُلِحّ. نظر حينها من خلال الشّقّ في الجدار، ورأى ابنه عابراً وهو يُطيِّر الأحجار الثّلاثة، ويتلقّاها على نحوٍ دورانيّ، كأنّها بلا ثقلٍ، كأنّ الأمر يحدث من نفسه. ناداه كلاوس باسمه؛ كي يحذّره، فمن يستطيع ذلك يجب أن يحْذر، فقد تُلصق به تهمة السِّحر أيضاً، لكنّ الصّبيّ لم يسمعه، ربّما لأنّ صوت كلاوس كان ضعيفاً جدّاً. صار الوضع الآن دائماً هكذا، وهو عاجزٌ عن فعل أيّ شيءٍ حياله، والسّبب يعود إلى التّحقيقات.

- «اِسمع». قال له المعلّم تيلمَن: «سوف لن ترسلني إلى وادي يوسُف».

- «لعنة المشرف على الموت هي أقوى اللّعنات». قال الرّجُل الجالس على القشّ: «إنها تلتصق بالرّوح، ولن تتمكّن من التّخلّص منها».

- لن تفعل ذلك يا طحّان، لن تلعن الجلّاد، أليس كذلك؟

- «لا». قال كلاوس: «لن أفعلها».

- أنت تعتقد ربّما أنّ الأمر سيَّان. تعتقد أنّك ستُشنق على كلّ حال، ولكنْ أنا مَن يقف معك على الدَّرج، أنا مَن سيضع حلقة الحبْل حول عنقك، وأشدّك من قدميك كي تنكسر الرّقبة، وإلا فسيطول الوقت.

- «هذا صحيح». قال الرّجُل الجالس على القشّ.

- سوف لن ترسلني إلى وادي يوسُف، ولن تلعنني، سوف تغفر للجلّاد، وفق ما هو معمولٌ به، أليس كذلك؟

- «نعم، سأفعل». أجاب كلاوس.

رفع المعلّم تيلمَن يده عن كتفه، وطبطب على عنقه بودّ: «سيّان عندي إن غفرت للقضاة أم لا، هذا ليس شأني، هذا يعود إليك أنت، حسب رغبتك».

فجأةً كان على كلاوس أن يبتسم. لا شكّ في أنّ الأمر ما زال يتعلّق بالنّبيذ، لكنّه يتعلّق أيضاً بأنّه صار على بيّنةٍ الآن من أنّه أخيراً سيكون بإمكانه اختبار المفتاح العظيم لـ«سَلامونيس»؛ إذْ لم يسبق قطّ أنْ أتيحت له الفرصة لذلك، لقد تعلّم الجُمَل الطّويلة والكثيرة من هُتْنر العجوز، حينذاك كان الأمر سهلاً بالنّسبة إليه، ومن المحتمل أن يعثر عليها الآن في ذاكرته. سوف يرون جميعهم، عندما يقف على درج المشنقة غداً، وفجأةً تتمزّق الأغلال كأنّها من ورق، وسيُبحلقون عندما يفرد ذراعيه ويطير عالياً في الهواء فوق وجوههم الغبيّة، فوق الغبيّ بيتر شتيغر، وزوجِه الأغبى، وأقربائه، والأطفال، والأجداد، كلّ واحد منهم أغبى من الثّاني، وفوق عائلة مِلكر، وهومريش، وهولتس، وتَمّ، والآخرين جميعهم، وسيبحلقون أكثر عندما لا يسقط، بلْ يتابع تحليقه، وكم سيفغرون أشداقهم! لمدّةٍ قصيرةٍ سيبقى يراهم، وهُم يصغرون، ثمّ يصيرون نقاطاً، ثمّ تصير القرية كلّها مجرّد لطخةٍ وسط الغابة الخضراء الدّاكنة، وإذا رفع رأسه فسيرى مخمل الغيوم الأبيض وسكّانه، بعضهم بأجنحةٍ،

وبعضهم من نارٍ بيضاء، بعضهم برأسين، أو ثلاثة، وهناك سيراه، سيّد الهواء، ملك الأرواح واللّهب. «ارحمني يا شيطاني العظيم، ضمَّني إلى ملكوتك، حرّرني». وفوراً سيسمع كلاوس جوابه: «أُنظر، أمامك بلادي. أُنظر ما أوسعها! وانظر ما أبعدها عمّا تحت! طِرْ معي».

ضحك كلاوس بصوتٍ عالٍ. رأى لبرهةٍ فئراناً مزدحمةً حول قدميه، أذناب بعضها مثل الأفاعي، وقرون استشعار بعضها مثل اليرقات، وخُيّل إليه كأنّه يشعر بعضّاتها، لكنّ الألم يدغدغه، ويكاد يكون ممتعاً، ثمّ رأى نفسه يطير ثانيةً: «كم أنا خفيفٌ عندما يسمح سيّدي بذلك! ولكن عليك أن تتذكّر الكلمات، لا يجوز أنْ تخطئ في أيٍّ منها، ولا أن تنقص أيّاً منها، وإلّا فإنّ مفتاح سلامونيس لن يفتح، وإلّا فإنّ الجهد سُدى؛ أمّا إذا وجدت الكلمات، فسوف يتساقط عنك كلّ شيءٍ: الأغلال الثّقيلة، البؤس، وحياة الطّحان من بردٍ وجوعٍ».

- «هذا من النّبيذ». قال المعلّم تيلمَن.

- «لن يطول سجني». قال الرّجُل من دون أن ينظر إليه: «وسيندم تِزيموند على ذلك».

- «لقد قال إنّه سيغفر لي». قال المعلّم تيلمَن: «لقد قال إنّه لن يلعنني».

- لا تخاطبني أنا.

- «قل إنْ كنتَ قد سمعته». قال له المعلّم تيلمَن: «وإلّا سأوجعك. هل قالها؟».

نظر كلاهما إلى الطّحّان، الذي أغمض عينيه، وسند رأسه إلى الجدار، ولم يتوقّف عن الضّحك.

- «نعم». قال الرّجُل: «لقد قالها».

4

لَحظت نِله فوراً أنّه ليس جيّداً، ولكنْ فقط عندما سمعت غوتفريد يغنّي أمام حشْد النّاس في ساحة السّوق أغنية الطّحّان الشّيطانيّ، تبيّن لها أنّهما قد تورّطا مع أسوأ منشدٍ على الإطلاق.

إنّه يغنّي بصوتٍ حادٍّ جدّاً، ويتنحنح أحياناً في منتصف بيت الشِّعر. عند الكلام يكون لصوته وقعٌ جيّدٌ، لكنّه عندما يغنّي يتكسّر صوته، ويصبح حادّاً. ما كان الصّوت وحْده سيكون بهذا السّوء، لو كان يطابقه مع النّغمات. حتّى الغناء النّشاز ما كان سيؤثّر بهذا السّوء، لو كان على الأقل يتقن العزف على القيثارة، فهو غالباً ما يضرب الوتر الخطأ، وينسى أحياناً تتمّة الأغنية، ولو كانت أشعاره أفضل، لكان ذلك كلّه مقبولاً، لكنّ القصيدة كانت تحكي عن الطّحّان الحقير، الذي كان يسوس القرية بالسّوط، وعن ألاعيبه السّحريّة وحيَله، ولكنْ على الرّغم من غناها بالحكايات المرعبة، والتّفاصيل الدّمويّة، حسب توقّعات المستمعين، إلّا أنّها كانت مشوّشةً، ويصعب جدّاً فهمها، إضافةً إلى أنّ القوافي كانت كسيحةً، إلى درجة إزعاج حتّى الأطفال.

وعلى الرّغم من ذلك كلّه كان النّاس يستمعون، فقدوم المغنّين الجوّالين كان أمراً نادراً، والقصص الشّعريّة ذات الأحداث

المرعبة عن محاكمات السَّحَرة يحبُّ النّاس سماعها، ولاسيّما إذا كانت ممتلئةً بالبؤس، ولكنْ بعد غناء أربعة مقاطع، كان في وسع نِله ملاحظة تغيُّر الوجوه، وعند وصوله إلى المقطع الرّابع عشر الأخير كان كثيرون قد غادروا، والآن، كان لا بدّ من حدوث شيءٍ ما لإنقاذ الوضع، والمأمول -فكّرت نِله- أن يكون عارفاً بضرورة ذلك، أن يملك الإحساس بذلك.

لكنّ غوتفريد أعاد غناء القصيدة من بدايتها.

لَحظ الانزعاج البادي على الوجوه، ونتيجة يأسه رفع عقيرته بالغناء، فصار صوته أشدّ حدّةً. التفتت نِله في اتّجاه تيل، كان يدير عينيه في محجريهما، ثمّ بسط ذراعيه بحركة خضوعٍ لأمر الرّبّ، وقفز بخفّةٍ كبيرةٍ إلى جانب المُنشد، وأخذ بالرّقص فوق العربة.

تحسّن كلُّ شيءٍ على الفَور. صحيحٌ أنّ غناء غوتفريد ما زال بالسّوء نفسه، ولكنْ فجأةً لم يعد هذا مهمّاً. كان تيل يرقص كمن تعلم الرّقص، كان يرقص كأنّ جسمه بلا وزنٍ، كأنّ لا متعة توازي الرّقص، فكان يقفز، ويلتفّ حول نفسه، ويقفز ثانيةً، كأنّه لم يفقد -في الحال- كلّ شيءٍ، وكان رقصه مُعدياً، بحيث بدأ

زوجٌ من الجمهور بالرّقص، وتبعه زوجٌ ثانٍ، وثالث، وهكذا، ثمّ بدأت قِطَع النّقود تتطاير نحو العربة وأخذت نِلِه بجمعها.

لَحظ غوتفريد ذلك، ونتيجة ارتياحه نجح في ضبط الإيقاع؛ كان رقص تيل على درجةٍ من التّفاني والحماسة، بحيث كادت نِلِه تنسى، في أثناء متابعتها له بنظرها، أنّ القصيدة تدور حول أبيه، طحّان تتماشى في القافية مع شيطان، وطالب مع قالب، ونيران مع فئران، واحتفال مع احتمال، وليل مع ليل، فهذه الكلمة الأخيرة تتكرّر كثيراً مع صفاتٍ مثل: مُظلم، أسْود، مسحور، وغيرها. منذ المقطع الخامس يصبح الموضوع هو المحاكمة: القُضاة الحازمون النّزيهون، رحمة الرّبّ، العقاب، الذي يحلّ في الختام بكلّ مُذنب، فيما الشّيطان يُعوّل إلى أنْ يفسد لَحْمه، والمشنقة التي يلفظ الطّحّان الشّرّير أنفاسه عليها أخيراً، فيما الشّيطان يُزمجر وحسْب، وتيل لا يتوقّف عن الرّقص، عبْر كلّ ما وَرَد في الحكاية، فهُم في حاجةٍ إلى قِطَع النّقود كي يأكلوا.

ما زالت تتخيّل نفسها كأنّها في حُلم، وأنّ هذه القرية ليست قريتها، وأنّ النّاس الذين يعيشون هنا لا تعرف وجوههم، وأنّ فيها بيوتاً لم تدخلها قطّ، ولم يُغنِّ لها أحدٌ في المهد أنّها ستغادر موطنها ذات يومٍ، لم يكن ثمّة تخطيطٌ للأمر، وتكاد تتوقّع أن تستيقظ لتجد نفسها في بيتها إلى جانب المَوقد الكبير، الذي

ينشر دفء الخبز في دفعاتٍ متتاليةٍ. البنات لا يغادرن إلى مكانٍ آخر، بل يبقين حيث وُلدن، هكذا كان الحال دائماً: أنت صغيرةٌ، ستمدّين يَد المساعدة في البيت، سوف تكبرين، وتساعدين الخادمات، ستبلغين سنّ الرُّشد وتتزوّجين أحد أبناء شتيغر إذا كنتِ جميلةً، أو أحد أقرباء آل شميد، أو إذا ساء حظّك من آل هاينرلينغ، ثمّ تُنجبين طفلاً، وأطفالاً آخرين، معظمهم يموتون، وتستمرّين في معاونة الخادمات، وتجلسين في الكنيسة في أحد الصّفوف الأماميّة إلى جانب زوجك، ووراء حماتك، ثمّ عندما تبلغين الأربعين، وعظام جسمك تؤلمك، وقد تساقطت أسنانك، ستجلسين في محلّ حماتك.

ولأنّها لم ترد لنفسها ذلك، ذهبت مع تيل.

كم يوماً مرّ على ذلك حتّى الآن؟ لم تستطع أن تقول، ففي الغابة يضطّرب الزّمن، لكنّها تتذكّر جيّداً كيف وقف تيل أمامها في المساء الذي تلى الإعدام، نحيلاً ومائلاً نوعاً ما، بين السّنابل المتماوجة في حقل شتيغر.

- «ماذا ستفعلان الآن أنت وأمُّك؟». سألته نله.

- أمّي تقول: عليَّ أن أعمل مُياوماً، وتقول إنّ الأمر سيكون صعباً؛ لأنّني صغيرٌ، وضعيفٌ، ولن أستطيع أن أعمل جيّداً.

- وستفعل ذلك؟

- لا، سأغادر.

- إلى أين؟

- بعيداً جدّاً.

- متى؟

- الآن. أحد اليسوعيين، الأصغر، نظر إليَّ بطريقةٍ غريبةٍ.

- ولكن لا يمكنك أن تذهب ببساطة.

- طبعاً يمكنني.

- وإذا اصطادوك؟ أنت وحْدك، وهُم كثيرون.

- ولكنْ لي قدمان؛ القاضي بروبِه، أو الحارس برُمحه الطّويل، فلا يملكان سوى أقدامهما أيضاً، لكلٍّ منهما قدمان مثلي لا أكثر، ولن يتمكّنا معاً من الرّكض أسرع منّا.

شعرتْ نِلِه فجأةً بتهيُّجٍ عجيبٍ، وبأنّ حَنجرتها قد رُبِطت، وقلبها يخفق، فسألته:

- لماذا تقول منّا؟

- لأنّك ستأتين معي.

- معك؟

- لهذا السّبب انتظرتك.

تعرف نِلِه أنّها لا يجب أن تفكّر في الأمر، وإلّا ستفقد شجاعتها، وإلّا ستبقى هنا، حسْبما هو مرسومٌ لها، لكنّ تيل مُحقٌّ؛ إذْ يمكن للمرء أن يغادر فعلاً، فهناك حيث يفكّر الجميع بأنّ على المرء أن يبقى، ليس ثمّة ما يدفع المرء حقيقةً للبقاء.

- «اذهبي إلى البيت الآن، وأحْضري ما تستطيعين حَمْله من الخبز». قال لها تيل.

- لا!

- ألن تأتي معي؟

- بل سآتي معك، لكنّني لن أذهب إلى البيت قبل ذلك.

- ولكن، الخبز!

- إذا رأيتُ أبي، وأمّي، والمَوقد، وأخواتي، فلنْ أغادر، بل سأبقى.

- نحتاج إلى خبز.

هزّت رأسها رافضةً. وحقّاً، فكّرت نِله وهي تجمع الآن قِطع النّقود في ساحة سوق قريةٍ غريبةٍ، لو أنّها عادت ثانيةً إلى المخبز لبقيت هناك، وسرعان ما كانت ستتزوّج أحد أبناء شتيغر، الأكبر ربّما، الذي ينقصه سنّان في واجهة فمه. ليس هناك سوى لحظات قليلة في الحياة، يكون فيها كلا الخيارين ممكناً، سواء كان هذا الطّريق أم ذاك. لحظات قليلة يستطيع الإنسان فيها أن يحسم قراره.

- «لا يمكننا أن نغادر من دون خبز». قال تيل: «وعلينا أيضاً الانتظار حتّى الصّباح. الغابة في اللّيل أنتِ لا تعرفينها، لمْ يسبق أنْ مررتِ بهذه التّجربة قطّ».

- «هل تخاف من الأرواح؟». قالت، وهي تعرف أنّها قد كسبت.

- «أنا لا أخاف». قال تيل.

- هيا بنا إذاً.

لنْ تنسى هذه اللّيلة طوال حياتها، وطوال حياتها لنْ تنسى الأضواء الضّاحكة المخادعة، وأصوات الظّلمة الحالكة، وطوال

حياتها لنْ تنسى أصوات حيوانات الغابة، ولا الوجه اللامع الذي ظهر أمامها للحظةٍ، ثمّ تلاشى فوراً، حتّى قبل أن تتأكّد من أنّها قد رأته أصلاً، وستفكّر طوال حياتها بالخوف، بقلبها الذي صار يخفق في حلقها، بنبض الدّم في أذنيها وبالهَمْهمة المتذمّرة الصّادرة عن الصّبيّ أمامها، الذي إمّا أنّه كان يكلّم نفسه، وإمّا يكلّم أرواح الغابة، وعندما انبلج الصّباح وجدا نفسيهما يرتجفان برْداً على طرف فسحةٍ موحلةٍ. ندى البكور يتساقط عن الأشجار، وهُما جائعان.

- كان الأفضل لو أنّكِ جلبتِ خبزاً.

- وبإمكاني أن أصفعك على وجهك.

عندما تابعا المشي في هواء الصّباح الرّطب البارد، بكى تيل قليلاً، وكانت نِله على وشك النّشيج. سيقانهما ثقيلة، الجوع لا يُحتمل، وتيل كان على حقّ، فمن دون خبزٍ سيموت الإنسان. صحيحٌ أنّ هناك توتاً برّيّاً، وجذوراً درنيّةً، ويفترض أنّ الحشيش قابلٌ للأكل أيضاً، لكنْ هذا لا يكفي، لا يُشبع، قد يكفي في الصّيف، ولكنْ ليس في هذا البرْد.

وفجأةً، سَمعا خلفهما أصوات طقطقةٍ، وصرير عربةٍ. تواريا في الدُّغل إلى أنْ رأيا أنّها عربة المغنّي الجوّال فقط. قفز تيل من الدُّغل، ووقف في منتصف الدّرب.

- «أها». قال المغنّي: «ابن الطّحّان!».

- أتأخذنا معك؟

- ولماذا؟

- من ناحيةٍ لأنّنا سنموت إنْ لم تفعل، ومن ناحيةٍ أُخرى لأنّنا سنساعدك. ألا تريد مَن تتحدّث إليه؟

- «من المُحتمل أنّهم بدأوا يبحثون عنك». قال المغني.

- وهذا سببٌ آخر أم إنّك تريد أن يمسكوا بي؟

- اركبا.

شرح لهما غوتفريد الأمور الأكثر أهمّيّةً: مَن يرحل مع المغنّي الجوّال يُعدُّ من الشّعب الجوّال، لا تحميه جمعيّةٌ مهنيّةٌ، ولا أحد من أولي الأمر والسُّلطة، فإذا كنتَ في مدينةٍ، واندلع فيها حريقٌ، فاهرب فوراً؛ لأنّ سكّانها سيعتقدون أنّك الذي تسبّب في الحريق، وإذا كنت في قريةٍ، وسُرِق شيءٌ ما، فاهرُب أيضاً، وإذا هاجمك قُطّاعُ الطُّرق، فأعْطهم كلّ شيءٍ، فهُم غالباً لا يأخذون

منك شيئاً، وإنّما يطلبون منك غناء قصيدةٍ، فغنِّ لهم بأفضل ما تستطيع؛ لأنّ قُطّاع الطُّرق يرقصون عادةً أفضل من سكّان القرى البُلداء. أبْقِ أذنيك دائماً مفتوحتين كي تعرف متى سينعقد السّوق، وأين، فإنْ لم يكن هناك سوق، فلن يسمحوا لك بالدُّخول إلى قُراهم. في يوم السّوق يجتمع النّاس من الأطراف معاً، ويريدون أنْ يرقصوا، وأنْ يسمعوا الأغاني، وعندها تكون عقدة صرر نقودهم مرتخيةً.

- هل مات أبي؟

- نعم، مات.

- هل رأيت ذلك؟

- طبعاً رأيته، فلهذا السّبب كنتُ هناك. غفر للقضاة أوّلاً حسْبما هو مُتّبعٌ، ثمّ للجلّاد، ثمّ صعد درجات المشنقة، ثمّ وضعت حلقة الحبْل حول عنقه، ثمّ أخذ يُهمهم، لكنّني كنت أقف بعيداً في الخلف، فلمْ أفهمه.

- ثم؟

- مضى الأمر مثلما يمضي عادةً.

- لقد مات إذاً؟

- يا فتى، عندما يتدلّى أحدهم من حبل المشنقة، فما الذي سيحدث غير الموت؟ طبعاً مات، وإلّا ماذا تظن؟

- هل مضى الأمر بسرعة؟

صمت غوتفريد برهةً، قبل أن يقول: «نعم، بسرعةٍ كبيرةٍ».

سارت بهم العربة مدّةً من دون كلام. لم تعُد الأشجار متقاربةً جدّاً، ومن بين أوراق تيجانها صارت تسقط حزمٌ من أشعّة الشّمس، ومن بين حشائش الفسحات أخذ يتصاعد بخارٌ شفيفٌ، وامتلأ الهواء بالحشرات والطّيور.

- «كيف يصير المرء مُغنّياً؟». سألت نِلِه أخيراً.

- يتعلّمه المرء. أنا تعلّمته من معلّمٍ، علّمني كلّ شيء. لا بدَّ من أنّكما سمعتما به، إنّه غيرهارد فوغتلاند.

- لا.

- أصله من ترير.

هزّ تيل كتفيه.

- نشيد الابتهال العظيم بمناسبة حملة الأمير إرنست ضدّ السُّلطان الغادر.

تيل

- ماذا؟!

- هذا أشهر أناشيده، نشيد الابتهال العظيم بمناسبة حملة الأمير إرنست ضدّ السُّلطان الغادر. أحقّاً لا تعرفانها؟ هل أغنّيها لكما؟

أومأت نِله برأسها، وهكذا تعرّفا لأوّل مرّةٍ على موهبة غوتفريد البائسة، ونشيد الابتهال العظيم بمناسبة حملة الأمير إرنست ضدّ السُّلطان الغادر، تتألّف من ثلاثة وثلاثين مقطعاً، وعلى الرّغم من ضعف قدرات غوتفريد، لكنّه كان يتمتّع بذاكرةٍ ممتازةٍ، ولم ينسَ أيّ مقطعٍ منها.

وهكذا سارت بهم العربة مدّةً طويلةً. المغنّي يغنّي، الحمار ينهق بين الحين والآخر، والعجلات تطقطق وتصرّ، كأنّها تتبادل أطراف الحديث فيما بينها. رأت نِله من زاوية عينها أنّ دموع تيل تسيل على خدّيه. كان قد أمال رأسه جانباً كي لا يلْحظ أحدٌ ذلك.

وعندما أنهى غوتفريد نشيده، أعاد غناءه ثانيةً، ثمّ غنّى لهما قصيدة رعبٍ عن الأمير الجميل فريدريش وأشراف بوهيميا، وغنّى بعد ذلك عن التّنّين كوفر الشّرّير والفارس روبرت، ثمّ عن ملك فرنسا الحقير وعدوّه ملك إسبانيا العظيم، وبعد ذلك حكى

لهما عن أشياء من حياته، أبوه كان جلّاداً؛ أيْ: كان يُفترضُ به أن يصير جلّاداً أيضاً، لكنّه هرب.

- «مثلنا». قالت نِله.

- كثيرون يفعلونها، أكثر ممّا تعتقدون! من أجل حياةٍ صالحةٍ، يُفترض بالمرء البقاء في مسقط رأسه، لكنّ البلد ممتلئةٌ بأناسٍ لم يجدوا في مسقط رأسهم ما يبقيهم هناك، وهؤلاء ليس لديهم من يحميهم، لكنّهم أحرارٌ، ليسوا مُجبرين على شنق أحد. ليسوا مُجبرين على قتل أحد.

- «ليسوا مُجبرين على الزّواج بابن شتيغر». قالت نله.

- «ليسوا مُجبرين على أن يعملوا مُياومين». قال الصّبيّ.

ثمّ علِما كيف جَرت الأمور بين غوتفريد ومعلّمه. كثيراً ما ضربه فوغتلاند، وغالباً ما رفسه، كما عضّه مرّةً في أذنه؛ لأنّه لم يعزف الأصوات الصّحيحة، ولأنّه بأصابعه الثّخينة لم يتمكّن من إتقان العزف على القيثارة، ومرّةً قال له فوغتلاند: أيُّها الغبيُّ المسكين، لم تُرِد أن تصير جلّاداً، لكنّك الآن ستعذّب النّاس بموسيقاك أضعافاً مضاعفةً، إلّا أنّ فوغتلاند لمْ يطرده، وهكذا تعلّم شيئاً فشيئاً حتّى صار أفضل، قال غوتفريد بفخر: «إلى أن صار هو نفسه معلّماً في نهاية المطاف». غير أنّه اكتشف أنّ النّاس عامّةً

يريدون أن يسمعوا عن الإعدامات، في كلّ مكانٍ، وفي كلّ وقتٍ. الإعدامات تهمُّ الجميع، وما من أحدٍ لا يبالي بها.

- صرتُ خبيراً بأنواع الإعدام: كيف يجب إمساك السّيف، كيف يجب ربط عُقدة الحبْل، كيف يجب ترتيب خشب المحرقة، وما هي أفضل المواضع لاستعمال الملقط الكاوي، بتُّ أعرف كلّ شيءٍ عن هذه الأمور. ربّما كانت القوافي عند مغنّين آخرين أكثر انسجاماً؛ أمّا أنا، فأعرف الجلّاد الذي يتقن عمله من الذي لا يتقنه، وقصائدي الوصفيّة هي الأكثر دقّةً.

عندما هبط الظّلام أوقدوا ناراً، وتقاسم غوتفريد زوّادته معهما، أرغفة خبزٍ مجفّفٍ، عرفت نِله فوراً أنّها من صنع أبيها، وسرعان ما دمعت عيناها، فعند رؤيتها الأرغفة ذات الصّليب المضغوط في وسطها والأطراف المفتّتة، تبيّن لها أنّها والصّبيّ في وضعٍ واحدٍ؛ هو لن يرى أباه بعد؛ لأنّه مات، وهي لن ترى أباها ثانيةً؛ لأنّها لا تستطيع العودة، كلاهما بات الآن يتيم الأب، لكنّ اللّحظة عبرت بسرعةٍ، نظرت إلى النّار، وشعرت بنفسها فجأةً حرّةً تماماً، كأنّها ستحلّق في الهواء.

اللّيلة الثّانية في الغابة لم تكن بمثل سوء الأولى، لقد اعتادوا الأصوات، إضافةً إلى الدّفء المنبعث من الجَمْر، كما أعطاهما

المغنّي بطّانيةً سميكةً. وعند النّوم لَحظت نلِه أنّ تيل إلى جانبها مازال صاحياً، ومتيقّظاً، ويفكّر بإمعانٍ، تكاد تشعر به، ولم تجرُؤ على الالتفات برأسها نَحوه.

- «أحدهم، الذي يحمل ناراً». قال بصوتٍ خافتٍ.

- لم تعرف ما إنْ كان يكلّمها، فسألته: «هل أنت مريض؟».

بدا محموماً. التصقت به، وكان الدّفء يشعُّ منه موجات موجات، ما يولِّد الارتياح، ويُبعد البرد، وهكذا نامت بعد قليلٍ، وحلمت بساحة معركةٍ، وبآلاف البشر الذين يزحفون على أرضٍ كثيرة التّلال، وعندها بدأ قصف المدافع، وعندما استيقظت كان الوقت صباحاً، والسّماء تمطر مُجدّداً.

كان المغنّي يجلس محنيَّ الظَّهر تحت بطانيّته، في يُسراه لوح تقويم صغير، وفي يُمناه قلمٌ حجريّ. كان يكتب بحروفٍ صغيرةٍ جدّاً تكاد لا تُقرأ؛ إذْ ليس لديه سوى هذا التّقويم، والورقُ غالٍ.

- «نظمُ القصيدة هو أصعب ما في الأمر». قال غوتفريد: «أتعرفان كلمةً توافق كلمة وغْد في القافية؟».

لكنّه انتهى أخيراً من نظم قصيدة الطّحّان الشّرّير، وها هُم الآن في ساحة القرية، غوتفريد يغنّي، وتيل يرقص مع لحنه بخفّةٍ وأناقةٍ فاجأت حتّى نِله.

ثمّة عرباتٌ أُخرى واقفةٌ هنا، على الطّرف المقابل من ساحة السّوق تقف عربة بائع الأقمشة، وإلى جانبها هناك اثنان من مُجلِّخي المقصّات والسّكاكين، وإلى جانبهما بائع فواكه، ثمّ مصلّح قدور، ثمّ مجلّخ آخر، ثمّ شافٍ يمتلك ترياقاً يمكنه أن يشفي أيَّ مرضٍ، ثمّ بائع فواكه، ثمّ بائع منكِّهات، ثمّ شافٍ آخر لا يملك -مع الأسف- ترياقاً، لكنّه يمتلك عيناً ثاقبةً، ثمّ مجلّخ رابع، وحلّاق ذقون، وهؤلاء جميعهم ينتمون إلى الشَّعب الجوّال من الحرفيّين. مَن يسرقهم، أو يقتلهم لا يُلاحَق، هذا هو ثمن الحرّيّة.

على طرف السّاحة يقف أيضاً شخصان مُريبان، وهُما من النّاس غير الشّرفاء، موسيقيّان يعزفان على النّاي، والقربة، والكمان. إنّهما يقفان بعيداً، ولكنْ يتراءى لنِله كأنّهما يضحكان بغمزٍ، ويهمسان لبعضهما نكاتاً عن غوتفريد. إلى جانبهما يجلس الحكواتي، يسهل التّعرُّف إليه من طاقيّته الصّفراء، وصدريّته الزّرقاء، وكذلك من اللّافتة التي يعلّقها حول عنقه، وقد كتب عليها بحروفٍ كبيرةٍ: حكواتي، فالرّواة الشّعبيّون هُم الوحيدون الذين يعلّقون لافتةً، وهذا أمرٌ سخيفٌ في واقع الأمر؛ لأنّ

جمهوره يتألّف من أناسٍ لا يعرفون القراءة. الموسيقيّون يُعرفون من آلاتهم، والتّجار من بضاعتهم، ولكنْ للتّعرُّف إلى الحكواتي لا بدَّ من لافتةٍ، إضافةً إلى هؤلاء هناك الرّجُل قصير القامة الذي يُعرَف عن بُعدٍ من خلال ملابس المشعوذين: صدريّة ملوّنة، بنطال منفوخ، وياقة من الفَرْو، وبابتسامةٍ صفراويّةٍ ينظر هو أيضاً إلى عربة غوتفريد، ابتسامة تحمل ما هو أسوأ من السُّخرية، وعندما لَحظ أنّ نِله تنظر إليه رفع أحد حاجبيه عالياً، ومدّ لسانه من زاوية فمه، ورمش.

كان غوتفريد قد وصل للمرّة الثّانية إلى المقطع الثّاني عشر من نشيده، ففكّر قليلاً، ثمّ بدأ المرّة الثّالثة من جديد. أعطى تيل إشارةً إلى نِله، فنهضت واقفةً. بالطّبع، سبق لها أن رقصت في حفلات القرية، عندما يأتي الموسيقيّون، ويقفز الفتيان والفتيات فوق النّار، وكثيراً ما رقصت مع الخادمات أيضاً، هكذا ببساطةٍ، من دون موسيقا، في استراحات العمل، لكنّها لم ترقص سابقاً أمام جمهور.

ولكنْ في أثناء دورانها في هذا الاتّجاه أوّلاً، ثمّ في الاتّجاه المعاكس، لَحظت أنّه لا فرق بين الحالين، كلّ ما عليها هو أن تتبّع حركات تيل، فكلّما صفّق بيديه صفّقت هي أيضاً، وعندما يرفع قدمه اليمنى، ترفع قدمها اليمنى، واليسرى عندما يرفع اليسرى، بتأخُّرٍ

طفيفٍ في البداية، ثمّ بانسجامٍ معه، كأنّها تعرف مُسبقاً حركته التّالية، كأنّهما ليسا شخصين، إنّما صارا في الرّقص شخصاً واحداً، وفجأةً انقلب تيل رأساً على عَقب، وأخذ يرقص على يديه، وأخذت هي تدور حوله، وتدور، وتدور، وتدور، حتّى تحوّلت ساحة القرية إلى خربشاتٍ ملوّنة. اعتراها شعورٌ بدوخةٍ، لكنّها قاومته مركّزةً نظرها على الفراغ، وسرعان ما شعرت بتحسُّنٍ، محافظةً على توازنها من دون أن تتمايل، فيما هي تفتل وتدور.

ارتبكت لحظةً عندما تضخّمت الموسيقا، واغتنت الأصوات، ثمّ أدركت أنّ الموسيقيَّيْن قد اقتربا وشاركا بآلاتهما، وغوتفريد الذي لم يستطع مجاراتهما أنزل قيثارته مُحتاراً، ما أدّى أخيراً إلى انضباط الإيقاع. صفّق النّاس، وتقافزت قِطَع النّقود على خشب العربة. وقف تيل ثانيةً على قدميه، وتوقّفت نِلِه عن الدّوران قاهرةً الشُّعور بالدّوخة، وشاهدته، وهو يُخرج حبلاً. من أين أتى به بهذه السُّرعة؟ ويعقده إلى طرف العربة، ثمّ رماه ليتدحرج بعيداً عنه. أمسك أحدهم به، ولم تستطع التّعرّف إليه؛ لأنّ كلّ شيءٍ مازال يتمايل أمامها، وثبته هذا الشخص في مكانٍ ما، وفجأةً ارتقى تيل الحبْل، وقفز إلى الأمام، وإلى الخلف، وانحنى مُحيّياً، فتطاير المزيد من قطع النّقود إلى العربة، وبأسرع من

قدرة غوتفريد على جمعها. أخيراً، قفز تيل عن الحبْل، وأمسك يدها، عزفت الموسيقا فقرة الختام، وأدّى تيل مع نِلِه تحيّة الجمهور، الذي صفّق وأطلق صيحات الإعجاب، ورمى لهما بائع الفواكه تفّاحاً، فأمسكت نِلِه واحدةً وقضمتها، فهي لم تأكل تفّاحاً منذ زمنٍ بعيدٍ، وتيل الواقف إلى جانبها أمسك الثّانية، والثّالثة، والرّابعة، وأخذ يطيِّرهم في الهواء حوله، فتصاعدت صيحات الإعجاب ثانيةً من الجمهور.

عندما هبط المساء جلسوا على الأرض، وأنصتوا إلى الحكواتي، الذي حكى عن الملك فريدريش المسكين في براغ، الذي لم يدم حُكمه أطول من شتاء، إلى أنْ طرده جيش القيصر القويّ، فخضعت له المدينة ذات الكبرياء، التي لن تجد نقاهةً من بعْد. كان يسرد في جُملٍ طويلةٍ، وبلحنٍ متمايلٍ جميلٍ، من دون أن يحرّك يديه. بالصّوت وحْده تمكّن من شدّ الانتباه بحيث لم يرغب المستمع برفع نظره عنه، وأكّد على أنّ كلّ ما رواه حقيقيّ، وأنّ حتّى المختلق منه حقيقيّ، ونِلِه التي لم تفهم ما يعني ذلك صفّقت.

خربش غوتفريد في تقويمه. «لم يكن قد علم». قال هامساً: «أنّ الملك فريدريش قد عُزل مرّةً ثانيةً، وعليه الآن أنْ يعيد صياغة قصيدته عنه».

على يمين نلِه يدوزن عازف الكمان آلته بعينين مغمضتين من شدّة التّركيز. «لقد صرنا منهم». فكّرت نلِه: «صرنا من الجوّالين».

ضغط أحدهم على كتفها بإصبعه، فتلفتّت حولها.

وراءها كان يجلس المُشعوذ، لم يعُد شابّاً، ووجهه شديد الاحمرار. هاينريش تَم كان له مثل هذا الوجه الأحمر قبل وفاته بقليل، حتّى عيني المشعوذ تخالطهما حُمرةٌ، لكنّهما حادّتان، ويقظتان، وذكيّتان، وغير ودودتين.

- «أنتما الاثنان». قال بصوتٍ خافتٍ.

وعندها التفت الصّبيُّ أيضاً.

- أتريدان الذّهاب معي؟

- «نعم». قال الصّبيُّ من دون تردُّد.

حَمْلقت نِله فيه غير فاهمة. ألم يريدا مرافقة غوتفريد، الذي عاملهما بطيبةٍ، وأعطاهما طعاماً، وأخرجهما من الغابة؟ غوتفريد الذي يحتاج إليهما جدّاً؟

- «أنا في حاجةٍ إلى اثنين مثلكما». قال المشعوذ: «سأعلّمكما كلّ شيءٍ».

- «لكنّنا نرافقه». وأشارت نِله إلى غوتفريد، الذي كانت شفتاه تتحرّكان، فيما يخربش على لوح التّقويم. انكسر القلم الحجريّ في يَده، فلَعن بصوتٍ خافتٍ، وتابع الخربشة.

- «معه لن تحقّقا شيئاً مهمّاً». قال المشعوذ.

- «لكنّنا لا نعرفك». قالت نِله.

- «أنا بيرمين». قال المشعوذ: «الآن صرتما تعرفاني».

- أنا اسمي تيل، وهذه اسمها نِله.

- لن أسأل مرّةً ثانيةً. إذا لم تكونا واثقين من رغبتكما سأنسى طلبي وأغادر، وعندها يمكنكما المتابعة معه.

- «سنأتي معك». قال الصّبيّ.

مد بيرمين يده، فصافحه تيل. ضحك بيرمين بصوتٍ خافتٍ، فانشدّت شفتاه، وفي طرف فمه ظهر ثانيةً لسانه السّميك المُبلّل. لا تريد نِلِه أن ترحل معه، فمدّ بيرمين يده إليها.

لم تتحرّك. وراءها كان الحكواتي يروي قصّة هروب ملك الشّتاء من المدينة المحترقة، لقد صار الآن عِبْئاً على أمراء أوروبا البروتستانت، ارتحل عبْر البلد مع حاشيته السّخيفة، وهو مازال يرتدي المعطف الأرجواني، كأنّه أحد العظماء، ولكنّ الأطفال يضحكون منه، وحكماء الرّجال يسفحون الدّموع؛ لأنّهم يرون فيه وهَنَ العَظَمة كلّها.

والآن انتبه غوتفريد أيضاً. نظر إلى يَد المشعوذ الممدودة بجبينٍ مقطّبٍ.

- «هيّا!». قال الصّبيُّ لنِلِه: «صافحيه».

ولكن لماذا يُفترض بها أن تفعل ما يفعله تيل؟ هل هربت من أبيها لتطيع أوامر تيل؟ بماذا تدين له، ولأيّ سببٍ يُفترض به أن يقرّر؟

- «ما الأمر؟». سأل غوتفريد: «ما الذي يجري هنا، ما معنى هذا؟».

مازالت يد بيرمين ممدودةً، كما أنّ تعبير ضحكته لم يتغيّر، كأنّ لا معنى لتردُّدها، كأنّه يعرف مسبقاً كيف سيكون قرارها.

- «سألتُ ما معنى هذا؟». كرّر غوتفريد.

يد بيرمين ملحمة وطريّة، ونِله لا ترغب في أنْ تلمسها. صحيحٌ طبعاً أنّ غوتفريد لا يتقن الكثير، لكنّه كان طيّب المعاملة تجاههما، وهي لم تحبّ هذا الشّخص، يبدو مريباً، ومن ناحيةٍ أُخرى صحيحٌ أنّ غوتفريد لن يعلّمهما شيئاً.

من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخرى، وبيرمين يغمز بعينه، كأنّه يقرأ أفكارها.

هزّ تيل رأسه بنفاد صبرٍ، وقال: «هيّا نِله!».

ما كان عليها سوى أنْ تمدَّ ساعدها.

تسوزْمَرْزْهاوزِن

عندما ألّف الكونت البدين سيرة حياته، خلال السّنوات الأولى من القرن الثّامن عشر، وكان قد تقدّم به العُمر جدّاً، وهو يعاني مرض النّقرس، ومرض الزُّهري، وتسمُّم الزّئبق؛ بسبب معالجته مرض الزُّهري به، كتبَ أنّه ما كان له أن يعرف ما ينتظره، عندما كلّفه صاحب الجلالة في آخر سنةٍ من الحرب، بالرّحيل بحثاً عن المُهرّج الشَّهير.

آنذاك، لم يكن مارتين فون فولكِنشتاين قد بلغ الخامسة والعشرين بعد، لكنّه على الرّغم من ذلك كان بديناً، وبِعَدِّهِ خلفاً لأوزفالد، مغنّي العاشقين، فقد ترعرعِ في بلاط فيينّا، ووالده كان ذات يومٍ مدير الخزينة في عهد القيصر ماتياس، وجَدّه كان حامل المفاتيح الثّاني للقيصر رودولف الذي جُنّ. مَن عرف مارتين فون فولكنشتاين أحبّه؛ كان مُحاطاً بهالةٍ ناصعةٍ من الثّقة والودّ، لا يعجزان أمام أيّ ظلمٍ، حتّى القيصر نفسه أبدى له حُظوته عدّة مرّاتٍ، وقد فهمها أيضاً كدليل حُظوةٍ عندما استدعاه رئيس المكتب السّرّي الكونت تراوتْمانزْدورف إليه ليخبره بأنّه قد بلغ سمع القيصر أنّ أشهر مُهرّجٍ في الإمبراطوريّة قد وجد لنفسه ملجأً في دير آندِكْس، الذي دُمّر نصفه في الحرب، ولقد رأى الإنسان الكثير جدّاً من الأشياء تتداعى،

وسمح مضطرّاً بتدمير الكثير جدّاً من الأشياء، كما مُحِقت أشياء لا تقدَّر بثمنٍ؛ أمّا أن يتلف رجُلٌ مثل تيل أولنشبيغل فهذا لا يجوز، سواء كان بروتستانتاً أم كاثوليكاً، فما هو في حقيقة الأمر، لا أحد يعرف على ما يبدو.

- «أهنّئك أيُّها الشّاب». قال تراوتمانزدورف: «انتهز الفرصة، فمن يدري ما ينتج عن هذا الأمر أيضاً».

ثمّ هكذا جاء في وصف الكونت البدين بعد أكثر من خمسين سنة، مدَّ له تراوتمانزدورف يَده في القفّاز؛ ليقبّلها حسْب تعليمات مدير مراسم البلاط، وهذا هو ما جرى تماماً، من دون اختلاق أيّ شيءٍ، على الرّغم من وَلعه بالاختلاق، إنْ ظهرت فجوات في ذاكرته، وهذه كانت كثيرةً، فقد مرَّ عُمر إنسانٍ على الأحداث التي كان يكتب عنها.

«وفي اليوم التّالي مباشرةً، انطلقنا على جيادنا». كتبَ: «كنتُ طيّب المزاج، ممتلئاً بالأمل، لكنّني لم أخلُ من هواجس ثقيلةٍ أيضاً، فقد بدت لي الرّحلة، من دون أن أدرك سبباً لذلك، كأنّها ستكون لقاءً مع قدَري، وعلى الرّغم من ذلك كنت شديد الفضول لأنْ أقابل أخيراً وجهاً لوجْهِ الإله مارس الأحمر».

أمّا فيما يتعلّق بالسُّرعة في الانطلاق، فليست صحيحةً، ففي واقع الأمر مرَّ قبلها أكثر من أسبوعٍ؛ إذْ كان عليه كتابة رسائل، يذكر فيها على ماذا هو مُقدِم، وكان عليه أن يودِّع عدّة أشخاصٍ، وأنْ يزور والديه، وأن يحصل على بركة المُطران، وأراد أن يخرج مع أصدقائه ليشربوا، وأراد زيارة أحبّ عاهرةٍ إلى قلبه من عاهرات البلاط، الغيداء أغلايا، التي تذكّرها بعد عشرات السّنين نادماً، لعدم اطّلاعه على عمق روحها، وكان عليه طبعاً اختيار المرافقين المناسبين، اختار ثلاثة رجالٍ مُجرَّبين قتاليّاً من كتيبة التّنّين في قلعة لوبْكوفيتس، إضافةً إلى سكرتيرٍ من البلاط يُدعى كارل فون دودِر، سبق أنْ شاهد المُهرّج الشّهير قبل عشرين سنة في ساحة سوقٍ قُرب نويلِنغبْاخ، حيث قام حسب عادته بمعاملة امرأةٍ من الجمهور بأسلوبٍ مُسيءٍ، ما أدّى بعد ذلك إلى معركةٍ بين الجمهور حاميةٍ بالسّكاكين، أبهجت الذين لمْ يُصابوا بأذى طبعاً، فهكذا كان الحال دائماً عندما يُقدِّم عُروضه: بعضهم يتأذّى؛ أمّا النّاجون، فكانت حصّتهم من التّسلية والاستمتاع كبيرة. في بادئ الأمر رفض السّكرتير التّكليف بالمرافقة، فناقشَ، ورَجا، وتوسّل، وتحجّج بقرفه المتجذّر من العنف، وسوء الطّقس، إلّا أنّ هذا كلّه لم ينفعه شيئاً، فالأوامر هي الأوامر، وعليه أن يرضخ. إذن، بعد ما يزيد على أسبوعٍ من

صدور الأمر القيصريّ انطلق الكونت السّمين من العاصمة ومقرّ الحكومة فيينّا في اتّجاه الغرب.

وفي سيرته الذّاتيّة المدبّجة بأسلوب موضة سنوات شبابه؛ أيْ: بالزّخارف العلميّة، والتّزيينات اللّغويّة، يَصف الكونت البدين، في جُملٍ وجدت طريقها إلى الكتب المدرسيّة؛ بسبب فنّيّتها النّموذجيّة، ركوبَ الجياد المتهادي عبر غابة فيينّا الخضراء: «عند مِلْك بلغنا زرقة الدّانوب العريض، وأمضينا في أسقفيّتها الرّائعة ليلةً أرحنا فيها رؤوسنا المُتعبة على وسائد طريّة».

وهذا أيضاً غير دقيق، فقد أقاموا في واقع الأمر في الأسقفيّة طوال شهر؛ إذْ كان عمُّه هو المسؤول، وهكذا أكلوا طعاماً فاخراً، وناموا بارتياح. وكارل فون دودِر المهتمّ طوال حياته بالخيمياء غرق في المكتبة في كتاب الحكيم العلّامة أثناسيوس كيرشر، في حين لعب فرسان التّنّين بالورق مع الإخوة الرُّهبان، الذين لم يكرَّسوا بعد؛ أمّا الكونت البدين فأنجز مع عمّه بعض الجولات الشّطرنجيّة، التي بلغت درجةً ساميةً من الإتقان، لم تتكرّر في حياته، إلى حدٍّ أنْ بدا له لاحقاً أنّ الأحداث والتّجارب التي خاضها في هذه المهمّة قد خنقت موهبته الشّطرنجيّة، ولكن خلال الأسبوع الرّابع من إقامتهم بَلَغتهُ رسالةٌ من الكونت تراوتمانزدورف، تتصوّر أنّه قد وصل إلى هدفه، وتسأله إنْ كان

قد وجد المُهرّج، أولنشبيغل في آندِكس، ومتى يتوقّع عودة فريق المهمّة.

بارَكهُ عمُّه مودِّعاً، وأهداه الرّئيس قارورة زيتٍ مُقدّس. تابع الفريق مجرى الدّانوب حتّى بوشلارن، لينعطف هناك في اتّجاه الجنوب الغربي.

في بداية رحلتهم كانوا يقابلون دوماً تيّاراً مستمرّاً من تجّارٍ، وعلماء، ورهبانٍ، ومسافرين من الأنواع جميعها؛ أمّا الآن، فقد بَدت الأرض خاليةً، حتّى حالة الطّقس لم تعُد لطيفةً. كانت الرّيح الباردة تهبُّ على نحوٍ متتالٍ، أغصان الأشجار عارية، ومُعظم الحقول مُهملة بَوار. النّاس القليلون الذين رأوهم كانوا متقدّمين في السّنّ: نساءً منحنياتٍ على آبارٍ، وشيوخاً عجافاً جالسين أمام أكواخٍ، ووجوهاً غائرة الخدود على طرفيّ الدّرب، وليس ثمّة ما يدلّ على ما إذا كان هؤلاء النّاس يستريحون وحسْب أم ينتظرون بالأحرى نهايتهم على طرفيّ الدّرب.

بعد ذلك، عندما خاطبهم الكونت كارل فون دودِر، انحصر كلامه فقط في الكتاب الذي طالعه في مكتبة الدّير، وهو «الفنّ العظيم حول الضّوء والظّلّ». يكاد يدوخ القارئ، كمن ينظر إلى قاع الاستغراق في العلم، ولا فكرة لديه عن مكان وجود الشّباب

على الإطلاق، ولكنّه إنْ جازف بتكهُّنٍ لقال: إنّ كلّ قادرٍ على الرّكض قد هرب، ومنذ مدّةٍ طويلةٍ؛ أمّا في ذاك الكتاب، فقد كان الحديث يدور دائماً حول عدسات، وعن كيفيّة تكبير الأشياء، ثمّ عالج موضوع الملائكة، وشكلها ولونها، وكذلك الموسيقا وهارمونيّة الأجواء، كما عالج الكتاب موضوع اللّغة المصريّة، إنّه حقاً لكتابٌ فريدٌ جداً.

وهذه الجُملة الأخيرة استعملها الكونت البدين حرفيّاً في سيرة حياته، ولكن لأنّ الأمور اختلطت عليه، فقد زعم في سيرته أنّه هو الذي قرأ كتاب «الفن العظيم حول الضّوء والظّل»، وذلك في أثناء الرّحلة، فوصف حمله الكتاب معه في محفظة السّرج، غير أنّ ملاحظات القُرّاء كشفت لاحقاً بموضوعيّةٍ ساخرةٍ، أنّه لم يحمل بيديه هذا الكتاب هائلَ الحجم على الإطلاق، وبكلّ سذاجةٍ وصف الكونت البدين، كيف كان في أُمسياتٍ متتاليةٍ قرب نارٍ ضعيفةٍ، يدرس توصيفات كيرشر التي لا تُنسى، للضّوء، والعدسات، والملائكة، علماً بأنّ الأفكار الدّقيقة للعلّامة الكبير بَدت له كتناقضٍ فريدٍ مع ازدياد قفر وخراب الأرض التي يتقدّمون فيها.

وعندما بلغوا ألتهايم اشتدّت حدّة الرّيح، ما اضطرّهم إلى ارتداء معاطفهم المبطّنة، وإنزال القلانس حتّى أسفل الجبين، وفي

رانسْهوفِن صَحا الطّقس ثانيةً، فتابعوا غياب الشّمس من دار مزرعةٍ مهجورةٍ، ولم يروا إنساناً في طول المنطقة وعرضها، عدا إوزّةٍ هاربةٍ من أحدهم على ما يبدو، وواقفةٍ شبه منتّفةٍ إلى جانب بئر.

تمطّى الكونت البدين وتثاءب. كانت الأرض كثيرة التّلال، لكنّهم لم يروا أيّة شجرةٍ، فقد حُطِبت كلّها. سمعوا دويّاً بعيداً.

- «عجبي!». قال الكونت البدين: «هذا ما كان ينقصنا، عاصفةٌ رعديّةٌ».

ضحك فرسان التّنّين.

فَهِم الكونت البدين، وأخبرهم مُرتبكاً بأنّه قد تعرّف صوت الدّويّ، فصار الوضع أكثر

إحراجاً، فتابع إنّه أراد أن يمزح.

راقبتهم الإوزّة بعينيْ إوزّةٍ حائرةٍ في أمرهم، صارت تفتح منقارها وتغلقه. لقَّم الفارس فرانتس كيرنباور طبنَّجته وأطلق، وعلى الرّغم من أنّ الكونت البدين سيرى بأمّ عينيه أموراً كثيرةً فيما بعد، فإنّه لم ينسَ طوال حياته الرُّعب الذي هزّه من داخله عندما انفجر رأس الإوزّة. ثمّة ما لم يستوعبه في الأمر: سرعة

حدوثه، كيف تحوّل من لحظةٍ إلى أُخرى رأسٌ صغيرٌ ثابتٌ إلى نثارٍ، وإلى لا شيء، وكيف ترنّح الطّائر بضع خطواتٍ، ثمّ هَوت الكتلة البيضاء في بِركة دَمٍ آخذةٍ بالاتّساع، وفيما دَعك عينيه، وحاول أن يتنفّس بهدوءٍ؛ كي لا يُغمى عليه، اتّخذ قراره بأنّ من واجبه نسيان الأمر، لكنّه لم ينسَ طبعاً، وبعد نصف قرنٍ، عندما جلس لكتابة سيرة حياته، وتذكّر هذه الرّحلة، كان رأس الإوزّة المتناثر هو ما طغى بوضوحه على الأمور الأُخرى كلّها، وفي كتابٍ نزيهٍ كلّيّاً كان يُفترض به أن يروي تجربته، لكنّه لم يتغلّب على نفسه، وأخذ القصّة معه إلى القبر، وبالتّالي لم يدرِ أحدٌ بمدى القرف الذي لا يوصف، الذي انتابه عندما شارك في رؤية فرسان التّنّين، وهُم يهيّؤون الطّائر لطعام العشاء، فأزالوا الرّيش بمرح، وجرَّحوا، ومزّقوا، واستخلصوا الجسم، وشوَوهُ على النّار.

في تلك اللّيلة نام الكونت البدين نوماً مضطّرباً. الرّيح كانت تعوي عبر فتحات النّوافذ، وهو يرتعد من البَرد، فيما الفارس كيرنباور يشخر. نكزه الفارس الآخر شتِفان بورنر، أو ربّما كونراد بورنر، إذ كانا أخوين، والكونت البدين كان كثيراً ما يخلِطُ بينهما، إلى درجة أنّهما لاحقاً في سيرته الذّاتيّة اندمجا في شخصيّةٍ واحدةٍ، لكنّ شخيره لم يتوقّف، بلْ ارتفعت وتيرته.

في الصّباح، ركبوا جيادهم، وتابعوا الرّحلة، وجدوا قرية ماركِل مدمّرةً كلّيّاً: جدران مثقَّبة، ودعامات وعوارض خشبيّة مخلَّعة، دبش وحجارة على الطّريق، إلى جانب البركة المُتّسخة بعضُ المُسنّين الذين شحذوا منهم طعاماً. العدوّ كان هنا، وأخذ كلّ شيءٍ، والقليل الذي تمكّن المرء من أنْ يُخبّئه أخذه الصّديق؛ أيْ: جنود الأمير النّاخب، وما إنْ غادر هؤلاء حتّى عاد العدوّ ليأخذ أقلّ القليل الذي تمكّنوا من إخفائه عن جنود الأمير النّاخب.

- «أيَّ عدوٍّ تَعنون؟». سأل الكونت البدين: «السّويديّين أم الفرنسيّين؟».

- «لا فرق». قال المسنّون الجائعون جدّاً.

تردّد الكونت البدين قليلاً، ثمّ أمر فريقه بمتابعة المسير.

وعلّق كارل فون دودِر بأنّ عدم ترك شيءٍ للجائعين كان موقفاً صائباً، فالزّوّادة غير كافيةٍ، وعليهم تنفيذ مهمّةٍ بتكليفٍ من المقام الأعلى، وليس في وسع الإنسان مساعدة كلّ امرئٍ، فهذه لا يقدر عليها سوى الرّبّ، الذي لا شكّ في أنّه سيشمل هؤلاء المسيحيّين في رحمته غير المتناهية.

كانت الحقول جميعها مهجورةً، ولون بعضها رمادياً نتيجة الحرائق الكبيرة، وكانت التّلال مطأطئةً تحت سماءٍ ثقيلةٍ كالرّصاص. في البعيد لاحَت أعمدة دخانٍ أمام الأفق.

الحلُّ الأفضل كان في رأي كارل فون دودر هو المسير جنوباً، متجاوزين ألتوتينغ، وبولّلينغ، وتوسلينغ، بعيداً عن الطّريق العامّ عبر الحقول، فمن لمْ يهرب من القرى حتّى الآن، سيكون مسلّحاً، ومُرتاباً بالآخرين، ومجموعة من راكبي الجياد مثلنا، إذا قصدت دخول قريةٍ، يمكن إطلاق النّار عليها من المخابئ من دون أيّة صعوبة.

- «حسناً». قال الكونت البدين الذي لم يفهم كيف لسكرتيرٍ من البلاط القيصريّ أن يمتلك مثل هذه التّصوّرات الدّقيقة فجأةً حول كيفيّة التّصرُّف في منطقةٍ مشتعلةٍ بالحرب: «موافق».

- «إذا حالفنا الحظّ، ولم نقابل جنوداً». قال كارل فون دودر: «فسنصل إلى أندِكس في يومين».

أومأ الكونت البدين، وحاول أن يتصوّر أنّ أحدهم قد يطلق النّار عليه جدّيّاً، أنْ يسدّد من الأفق، وعبر السّنابل عليه، على مارتين فون فولكنشتاين، الذي لم يرتكب سوءاً حتّى الآن، برصاصةٍ حقيقيّةٍ من الفولاذ. حنى رأسه، وألقى نظرةً على

جسمه، ظهرُه يؤلمه، ومَقعدتهُ مجرحّةٌ من الرّكوب عدّة أيّامٍ على السّرج. تلمّس كرشه، وتخيّل رصاصةً، فكّر برأس الإوزّة المتناثر، وفكّر أيضاً بسِحر المعدن، الذي كتب عنه أثناسيوس كيرشر في كتابه، عن المغناطيس: إذا وضع المرء في جيبه حجر مغناطيسٍ بقوّةٍ كافيةٍ، فيمكن للحجر أن يجذب الرّصاصة، ويجعل الرّجُل غير قابلٍ للجرح، فهذا هو ما جرّبه العالمُ الأسطوريُّ بنفسه، لكنّ ما يؤسَف له هو أنّ الأحجار المغناطيسيّة من هذا القبيل نادرةٌ جدّاً، وباهظة الثّمن.

عندما حاول بعد نصف قرنٍ أن يعيد تركيب فقرات هذه الرّحلة، اختلطت عليه زمنيّاً بسبب تقدُّمه في السّنّ، ولستر ذلك، يوجد في هذا الموضع من السّيرة منعطفٌ ورديٌّ، بطول سبع عشرة صفحةً ونصف، حول الرّوح الرّفاقيّة بين الرّجال في مواجهة الخطر، وهُم يعرفون أنّ هذا الخطر تحديداً، إمّا سيقتلهم، وإمّا سيربطهم بأواصر صداقةٍ مدى الحياة. حقّق هذا المقطع من السّيرة شهرةً، بصرفِ النّظر عن واقع أنّه كان مُلفّقاً، ففي حقيقة الأمر لم يصبح أيٌّ من الرّجال صديقاً له، وهذا، أو ذاك الحوار بينه وبين سكرتير البلاط القيصري، بقيت منه شذرات في ذاكرته عند تدوين السّيرة؛ أمّا فيما يتعلّق بفرسان التّنّين، فلم يتذكّر حتّى أسماءهم، ناهيك عن وجوههم، لكنّه

تذكّر أنّه كان لأحدهما قبّعة ذات أطرافٍ عريضةٍ، ومزيّنةٍ بطاقة أرياشٍ رماديّةٍ وحمراء. كان أكثر ما رآه أمامه دروبٌ موحلةٌ بين الحقول، وأحسّ كأنّ الأمر كان بالأمس، نقرات المطر على قلنسوته، ومعطفه الذي بات ثقيلاً من المطر، وقد أدرك حينذاك أنّه لم يسبق أن عرف بللاً أكثر من ذاك، وأنّه لا يمكن لشيءٍ أن يبتلّ أكثر.

قبل وقتٍ قريبٍ كانت توجد غابات هنا، لكنّه في أثناء ركوبه جواده، مع آلام ظهره، ومقعدته المُجرّحة، وتفكيره بالأمر، لَحظ أنّ هذه المعرفة لا تعني له شيئاً. لم تبدُ له الحرب كفعلٍ من صُنع الإنسان، بلْ كالريح والمطر، كالبحر ومنحدرات صقلّيّة العميقة، التي رآها في طفولته. هذه الحرب كانت أكبر منه سنّاً، أحياناً تتّسع، وأحياناً تنكمش، توغّلت هنا وهناك، دمّرت الشّمال، وانعطفت نحو الغرب، مدّت ذراعاً إلى الشّرق، وذراعاً نحو الجنوب، ثمّ ألقتْ بكلّ ثقلها متدحرجةً في الجنوب، لتعاود البقاء مدّةً في الشّمال، وطبيعيٌّ أنّ الكونت البدين كان يعرف أناساً ما زالوا يتذكّرون الزّمن السّابق لها، وفي مقدّمتهم أبوه، الذي كان ينتظر الموت في مقرّ العائلة الرّيفيّ رودِن إغ في التيرول بمزاجٍ جيّدٍ على الرّغم من سُعاله، مثلما انتظره الكونت البدين بعد ستّين سنة تقريباً، وهو يسعل ويكتب، في المقرّ نفسه، وعلى

الطّاولة الحجريّة نفسها. ذات يومٍ تحدّث أبوه مع القائد العسكريّ ألبرِشت فون فالنشتاين، حينها شكا الرّجُل العظيم والغامض من طقس فيينّا الرّطب، فأجابه الوالد بأنّ الإنسان يعتاد عليه، فردَّ عليه فالنشتاين بأنّه لا يريد، ولن يعتاد على هذا الطّقس الحقير، وقد أراد الوالد أنْ يعلّق بجملةٍ بالغة الحكمة، لكنّ فالنشتاين كان قد التفت عنه بفظاظةٍ، وما كان يفوت شهرٌ من دون أن يجد الوالد فرصةً لذِكْر ذلك، كما لم ينسَ قطّ ذِكْر أنّه قد التقى قبل بضع سنين بالأمير النّاخب فريدريش سيّئ الحظّ، الذي قبِل بعد ذلك بفترةٍ قصيرةٍ تاج بوهيميا، وأطلق عنان الحرب الكبرى، كي يُطرَدَ بعد شتاءٍ واحدٍ بمهانةٍ عن عرشه، وليفطس أخيراً على حافّة أحد الطّرق، من دون أن يجد قبراً.

في تلك اللّيلة لم يجد الفريق ملجأً، افترشوا معاً حقلاً قاحلاً، وغطّوا أنفسهم بمعاطفهم المبلولة. كان المطر غزيراً جدّاً ليتمكّنوا من إيقاد نار. لم يسبق للكونت البدين أنْ شعر بمثل هذا البؤس؛ معطفه المبلول الذي ازداد بللاً حتّى غرق إلى حدٍّ لا يوصف، والطّين الطّريّ الذي غرق فيه جسمه تدريجيّاً أكثر فأكثر. هل يمكن للوحل أن يبتلع إنساناً هكذا ببساطة؟ حاول أن

يعتدل جالساً، لكنّه لم يستطع، بدا أنّ الوحل قد ثبّتَه، وتمسّك به.

في وقتٍ ما توقّف هطْل المطر، فجمع فرانتس كِرنباور بعض الأغصان وهو يسعل، وأخذ يقدح حَجرَيّ النّار ببعضهما، المرّة تلو الأُخرى، إلى أن تتطاير الشّرر أخيراً، ثمّ انهمك لفترةٍ بَدت كالأبد في النّفخ في الخشب، وهَمْهمة تعاويذ سحريّة إلى أن ارتفع لهبٌ صغيرٌ في الظّلام، وامتدّت الأيدي الرّاجفة فوق الدّفء.

جفلت الجياد، وأخذت تصْهل. نهض أحد الأخوين واقفاً، لم يستطع الكونت البدين أن يميّز أيّهما، لكنّه رأى الطّبنجة جاهزةً في يده، وجعلت النّارُ ظلّيهما يتراقصان.

- «ذئاب». همس كارل فون دودر.

حدّقوا جميعهم في عتمة اللّيل، وفجأةً انتاب الكونت البدين شعورٌ بأنّ هذا كلّه لا بدّ من أن يكون حُلماً، وشديد الوطأة إلى درجة أنْ بدا له حتّى في الذّاكرة كحُلمٍ استيقظ منه في الحال، في وضَح الصّباح، جافّاً من المطر، ومكتفياً من النّوم. لا يمكن للأمور أن تكون قد جرت على هذا النّحو، ولكنّه عوضاً عن أن يُجهِد ذاكرته، أقحم اثنتي عشرة صفحةً من الجُمل المزهّرة

والمورقة عن والدته، معظمها كان مُختلقاً أيضاً، فقد مزج شخصيّة أمّه البعيدة قاسية القلب مع شخصيّة مُربّيته المفضّلة، التي كانت تعامله بنعومةٍ لم يجدها عند أيّ إنسانٍ آخر، ربّما سوى لدى العاهرة الغيداء الجميلة أغلايا، وعندما عاد إلى الرّحلة بعد الذّكرى الطّويلة والمُلفّقة، كان الفريق قد تجاوز هار وبايربرون، ووراء الكونت البدين كان فرسان التّنّين يتحادثون حول التّعويذات السّحريّة التي تحمي المرء من الرّصاص الطّائش.

- «ضدّ رصاصةٍ دقيقة التّصويب لا يمكنك أن تفعل أيّ شيء». قال فرانتس كِرنباور.

- «إلّا إذا عرف المرء تعويذةً قويّةً حقّاً». قال كونراد بورنر: «إحدى التّعويذات السّرّيّة جدّاً، فهذه في وسعها أن تقيك حتّى من طلقات المدافع، رأيت هذا بعينَيّ قرب أوغسبورغ؛ أحدهم إلى جانبي استعمل واحدةً من هذه، ظننته قد مات، لكنّه نهض ثانيةً، كأنّ شيئاً لم يحدث. التّعويذة لم أسمعها منه على نحوٍ صحيحٍ، مع الأسف الشّديد».

- «نعم، بواحدةٍ من هذا النّوع الأمر ممكن بواحدةٍ من باهظات الثّمن؛ أمّا العاديّة التي تُشترى من سوق الأحد، فهي لا تنفع في شيءٍ». قال فرانتس كِرّنباور.

- «كنت أعرف شخصاً كان يقاتل مع السُّويديّين، وكانت معه تميمة». قال شتِفان بورنر: «نجا بها أوّلاً من معارك ماغدِبورغ، ثمّ من معارك لوتسِن، ثم سكِرَ حتّى مات».

- «والتّميمة، مَن حصل عليها، أين هي؟». سأل فرانتس كِرّنباور.

- «صحيح، لو نعرف!». تنهّد شتِفان بورنر: «لو يمتلكها المرء لاختلف كلّ شيءٍ».

- «نعم». قال فرانتس كِرّنباور متأثّراً: «لو يمتلكها المرء!»

قرب هار وجدوا أوّل ميت. لا شكّ في أنّه قد مضى عليه وقتٌ هناك، فثيابه كانت مُغطّاةً بطبقةٍ من التّراب، وشَعره مجدولاً مع الحشائش. كان مُلقى بوجهه إلى الأرض، وكانت ساقاه متباعدتين، وحافي القدمين.

- «هذا أمرٌ عاديٌّ». قال كونراد بورنر: «فلا أحد يترك الجزمة لجثّة، وسيّئ الحظّ قد يُقتَل بسبب جزمته فقط». حملت الرّيح معها قطرات مطرٍ صغيرةً باردةً. كان هناك حولهم أجذام

أشجار، مئات منها، هنا حُطِبت غابة بكاملها. عبروا قريةً محروقةً بكاملها حتّى حجارة الأساسات، وهناك رأوا كومة جُثث. التفت الكونت البدين عنها، لكنّه عاد فنظر إليها، شاهد وجوهاً مسودّةً، وجذعاً بذراعٍ واحدةٍ، ويداً منكمشةً مثل مخالبٍ، ومحجَريْ عينين خاويتين فوق فمٍ فاغرٍ، وشاهد شيئاً بَدا مثل كيسٍ، لكنّه كان بقايا جسم، وكان في الهواء رائحة واخزة.

عند أواخر العصر وصلوا إلى قريةٍ، كان لا يزال فيها بعض النّاس. «نعم، أولنشبيغل موجودٌ في الدّير». قالت امرأةٌ عجوزٌ: «لا يزال حيّاً». وعندما قابلوا قبيل المغيب رجُلاً بثيابٍ رثّةٍ جدّاً يجرُّ عربةً مع فتى صغيرٍ، تلقّوا منهما المعلومة نفسها. «إنّه في الدير». قال الرّجُل، ورفع نظره لما فوق جواد الكونت البدين: «تابِعوا في اتّجاه الغرب، وبعد أن تتجاوزوا البحيرة لن تخطئوا الدّير. هل مع السّادة بعض الطّعام لي ولابني؟».

مدّ الكونت البدين يَده إلى محفظة سرْجِه، وأعطاه قطعة لَحمٍ مُقدّدٍ كانت آخر ما في زوّادته، وكان يعرف أنّ ما فعله خطأ، لكنّه لم يستطع غير ذلك، فقد أشفق جدّاً على الفتى، وعلى الرّغم من شعوره بالخَدر سأل: «لماذا تجرّان العربة؟».

- إنّها كلّ ما نملك.

- «لكنّها فارغة». قال الكونت البدين.

- إلّا أنّها كلُّ ما نملك.

للمرّة الثّانية ناموا في حقلٍ مكشوفٍ، ولم يوقدوا ناراً من باب الحيطة. شعر الكونت البدين ببردٍ شديدٍ، لكنّ السّماء على الأقلّ لم تُمطر، والأرض كانت صلبةً. بعد منتصف اللّيل بقليلٍ سمعوا من الجوار صوت طلقتين، فأصْغيا السّمع. مع أوّل خيوط الفجر أقسم كارل فون دودر أنّه رأى ذئباً، كان يراقبهم من مسافةٍ غير بعيدةٍ، نهضوا بسرعةٍ، وتابعوا ركوبهم.

صادفوا امرأةً، لم يكن من الممكن معرفة ما إن كانت مُسنّةً أم إنّ الحياة قد قَستْ عليها. كان وجهها ممتلئاً بالأخاديد، وظهْرُها شديدَ الانحناء. «نعم، إنّه لا يزال هناك في الدّير». قالت، ولمْ تكد تذكر المهرّج الشّهير حتّى ابتسمت. هكذا كان الحال دائماً، كتب الكونت البدين بعد خمسين سنة، بدا أنّ الجميع يعرفون مكان وجوده، كلّ مَن ذكرنا له اسمه، دلّنا على المكان وأرشدنا إلى الطّريق، وفي البلد التي باتت قفراً، كان السّؤال عن مكان إقامته يجد مدخلاً إلى كلّ روحٍ ما زالت باقيةً.

نحو الظُهر قابلوا جنوداً، في البداية مجموعة من الرمَّاحين بهيئاتٍ متوحّشة، ولحى شعثاء. كانت جروح بعضهم مفتوحةً،

وبعضهم الآخر يحمل أكياساً ممتلئةً بالغنائم. كانت تغطّيهم روائح عَرقٍ، ومرضٍ، ودماءٍ مثل سحابةٍ مرافقةٍ، وكانوا ينظرون بعيونٍ صغيرةٍ عدائيّةٍ، تبعتهم عرباتٌ ذاتُ خيامٍ يجلس فيها نساؤهم وأطفالهم، وامرأتان تحملان رضيعين، ولاحقاً كتب الكونت البدين: «لم نرَ سوى خراب الأجسام، من دون أن نستطيع التّمييز بين صديقٍ وعدوٍّ؛ لأنّهم لم يرتدوا أيّة شارات ميدانٍ».

بعد الرّمّاحين جاء أكثر من عشرة خيَّالةٍ.

- «أنا في خدمتكم». قال أحدهم، الذي كان قائدهم على ما يبدو: «إلى أين طريقكم؟».

- «إلى الدّير». قال الكونت البدين.

- نحن قادمون من هناك. لا يوجد هناك أيُّ طعام.

- نحن لا نبحث عن طعامٍ، بلْ عن تيل أولنشبيغل.

- نعم، إنّه هناك. لقد رأيناه، لكنّنا اضطّررنا إلى الهرب، عندما وصلت القوّات القيصريّة.

شَحُبَ وجه الكونت البدين.

- لا تخافوا، لن نصيبكم بأذى. أنا اسمي هانس كلوبْمِس من هامبورغ. كنت ذات يومٍ قيصريّاً أيضاً، وقد أعود، مَن يدري؟ المرتزق يمارس مهنةً لا تختلف عن مهنة النّجّار، أو الخبّاز. الجيش هو طائفتي المهنيّة، هناك في العربة تركب زوجي وأطفالي، من واجبي أنْ أُعيلهم. في الوقت الحاضر لا يدفع الفرنسيّون شيئاً، لكنّهم عندما يدفعون، سيكون المبلغ أكبر ممّا يدفع القيصر. في فستفاليا يتفاوض السّادة الكبار حول السّلام، إذا توقّفت الحرب، سنحصل جميعنا على راتبنا المعلّق، هذا موضوعٌ يمكن للمرء أن يعتمد عليه؛ إذْ إن لم نحصل على الرّاتب سنرفض الذّهاب إلى بيوتنا، والسّادة الكبار يخافون من هذا. جيادكم جميلة.

- «شكراً». قال الكونت البدين.

- «أنا في حاجةٍ ماسّةٍ إليها». قال هانس كلوبْمِس.

التفتَ الكونت البدين قلقاً إلى فرسان التّنّين.

- «من أين جئتم؟». سأل هانس كلوبمس.

- «من فيينا». قال الكونت البدين بصوتٍ فيه بُحّة.

- «كنت مرّةً على وشك أنْ أدخل فيينا». قال الخيَّال على يمين كلوبمس.

- «ماذا، حقاً؟». سأله كلوبمس: «كنت في فيينا؟».

- على وشك فقط، لكنّني لم أصل إليها.

- ماذا جرى؟

- لم يجرِ أيّ شيء، لم أصل إليها.

- «ابتعِدوا عن شتارنْبرغ». قال كلوبمس: «الأفضل هو أن تمشوا جنوباً، وتتجاوزوا غاوتينغ، ثمّ تتوجّهوا نحو هِرْشينغ، ومن هناك إلى الدّير، فالطّريق ما زال متاحاً للمُشاة الجوّالين، ولكنْ أسرعوا، فالمارشال الفرنسيّ تورين، والمارشال البروسي فرانغِل تجاوزا نهر الدّانوب، وقريباً سيحمى وطيس المعركة».

- «نحن لسنا مُشاةً جوّالين». قال كارل فون دودر: «انتظروا، وسَتَرون».

لم يكن ثمّة ضرورة لإعطاء أمرٍ، ولا لمشاورةٍ؛ جميعهم دفعةً واحدةً نخسوا جيادهم بالمهاميز فانطلقت. انحنى الكونت البدين على عنق جواده، وتمسّك بالرّسن، وبعُرف الجواد في الوقت نفسه، رأى التّربة تتناثر تحت حوافر الجواد، وتناهت إليه

صيحاتٌ من ورائه، وسمع صوت طلقةٍ، وقاوم غواية أن يلتفت برأسه.

أسْرِعوا، وأسْرِعوا، وأسْرِعوا، وأسْرِعوا، وبقوا مُسرعين. صارت آلام ظهره لا تُحتمل، ولم يعُد هناك قوّة في ساقيه، ولم يجرؤ على الالتفات إلى الوراء. كان فرانتس كِرّنباور إلى جانبه، وأمامه كارل فون دودر وكونراد بورنر، ووراءه شتِفان بورنر.

وأخيراً توقّفوا، كان البخار يتصاعد من أجسام الجياد من شدّة التّعرُّق. كاد يُغمى على الكونت البدين، وانزلق عن سَرجه، فسنده كرنباور، وساعده على التّرجُّل. الجنود لم يلحقوا بهم. بدأت السّماء تثلج، امتلأ الهواء بندفٍ بيضاءَ رماديّةٍ، وعندما أمسك واحدةً بين أصابعه أدرك أنّها من رماد.

ربّت كارل فون دودر على عنق جواده، ثمّ قال: «اتّجهوا جنوباً قال كلوبمس متجاوزين غاوتينغ، ثمّ في اتّجاه هرشينغ. الجياد عطشى، في حاجةٍ إلى ماء».

عاودوا الرّكوب. مشوا بصمتٍ عبْر الرّماد المتساقط، لم يقابلوا أحداً في الطّريق، وعند أواخر العصر شاهدوا فوقهم بُرج الدّير.

هنا يقوم مارتين فون فولكنشتاين في سيرته بقفزةٍ، فلا يذكر شيئاً عن المُنحدر الشّديد وراء هِرشينغ، الذي لم يكن سهلاً قطّ

على الجياد نزوله، كما لا يأتي على ذِكْر عمارة الدّير المُخرّب نصفها تقريباً، ولا يصف القساوسة، هذا يعود بطبيعة الحال إلى وضع ذاكرته، ويعود أكثر ربّما إلى القلق العصبيّ الذي انتابه عند الكتابة، وهكذا يجده القُرّاء بعد سطرين مُرتبكَيْن جالساً مقابل رئيس الدّير في ساعات الصّباح الباكر من اليوم التّالي.

- «جلسا على كرسيّين بلا مسندَيْن في صالةٍ خاويةٍ، فقطع الأثاث كانت قد سُرقت، أو هُشِّمت، أو أوقدت للتّدفئة، وكان هناك سجّادٌ جداريٌّ أيضاً». قال رئيس الدّير: «وشمعداناتٌ فضّيّةٌ، وصليبٌ ضخمٌ من الذّهب هناك فوق قوس الباب؛ أمّا الآن، فكان مصدرُ الإضاءة

سراجاً وحيداً. كان كلام الأب فريزنْئغر موضوعيّاً وموجزاً، وعلى الرّغم من ذلك تكرّر إغماض عينيّ الكونت البدين عدّة مرّاتٍ، وينتفض صاحياً مُجدّداً، ليتبيّن له فحسْب أنّ الأب النّاحل كان مستمرّاً في الكلام. كان الكونت البدين يفضّل لو يرتاح، لكنّ رئيس الدّير أراد أن يحكي عن السّنوات الأخيرة، أراد أن يُعلِم مبعوث القيصر بدقّةٍ بما مرّ به الدّير، والكونت البدين الذي

دوَّن سيرته في عهد ليوبولد الأوّل، وفي أثناء هذه المدّة قد اختلطت عليه بصورةٍ متزايدةٍ الأشياء، والنّاس، والتّواريخ، كان يفترض به أنْ يتذكّر جيّداً الأب فريزنئغر، وأنْ يحسده على ذاكرته التي لا تخطئ أبداً».

كتبَ أنّ السّنوات القاسية لم تؤثّر قطّ على ذهن رئيس الدّير، وكانت عيناه ثاقبتين ويقظتين، وكلماته منتقاةً بعنايةٍ، وجُمله طويلةً وجيّدةَ الرّبط، إلّا أنّ الصّدق لم يكن كلّ شيء، فكثرة الأحداث التي مرّ بها الدّير لم تتشكّل عنده في صِيغ قصصٍ، ولهذا كان من الصّعب متابعة ما يسرد. كثيراً ما هاجم جنودٌ الدير: القوات القيصريّة أخذت منه ما احتاجت إليه، بعد ذلك جاءت القوّات البروتستانتيّة، وأخذت ما تحتاج إليه، ثمّ انسحبت القوّات البروتستانتيّة، وعادت القوّات القيصريّة، وأخذت منه ما تحتاج إليه من بهائمَ، وأخشابٍ، وجزمات، ثمّ انسحبت القوّات القيصريّة، لكنّها خلّفت وراءها مجموعة حمايةٍ، ثمّ جاء مرتزقة السَّلب والنّهب الذين لا يتبعون إلى أيّ جيشٍ، فطردتهم مجموعة الحماية، أو هُم الذين طردوها، أحد الاحتمالين، أو ربّما بالتّتالي، والكونت البدين لم يكن واثقاً، ثمّ إنّ كلا الحالين سواء؛ لأنّ مجموعة الحماية انسحبت أيضاً، ثمّ جاء إمّا السّويديّون، وإمّا القيصريّون ليأخذوا ما يحتاجون إليه من

حيواناتٍ، وأخشاب، وثياب، وفي المقدّمة الجزمات طبعاً، هذا إذا بقي ثمّة جزمات، مثلما أنّ الخشب قد انتهى. في الشّتاء التّالي التجأ فلّاحو القرى المحيطة والمجاورة إلى الدّير، فامتلأت الغرف جميعها حتّى أصغر دهليز، بسبب الجوع، والآبار الملوّثة، والبرد، والذّئاب!

- ذئاب؟

- «صارت الذّئاب تتسلّل إلى البيوت». روى رئيس الدّير: «ليلاً في بداية الأمر، ثمّ في وضح النّهار أيضاً، فالنّاس هربوا إلى الغابات، وقتلوا هناك صغار الحيوانات، وأكلوها، ثمّ حطّبوا الأشجار كي لا يموتوا من البرد، نتيجة ذلك، وفي مواجهة الجوع، فقدت الذّئاب الخوف والخشية كلّها من الاحتكاك بالبشر، فدخلت القرى مثل كوابيس حيّة، مثل وحوش الرُّعب في الحكايات القديمة. ظهرت بعيونٍ جائعةٍ في غرف البيوت والإصطبلات من دون أدنى خوفٍ من البشر، أو من شوكة الدريس، وفي أيّام الشّتاء الأسوأ وجدت الذّئاب طريقها إلى الدّير، أحدها هاجم امرأةً تحمل رضيعها، وانتزع الطفل منها.

لا، هذا بالتّحديد لم يحدث، والأب فريزنْئِغَر لم يتحدّث إلّا عن الخوف على صغار الأطفال، ولكنْ لسببٍ ما، كان لتصوُّرِ رضيعٍ

يفترسه ذئبٌ أمام عينيْ أمّه تأثيرٌ مهولٌ على الكونت البدين، الذي صار عنده في ذلك الوقت خمسة أحفاد، وثلاثة أحفادِ أحفادٍ، إلى حدّ الظّنّ بأنّ رئيس الدّير قد روى له هذا أيضاً، ولهذا فقد غلّف باعتذاراتٍ بليغةٍ، أنّ من حقّه ألّا يخفي عن القارئ وصف مشهدٍ بالغ القسوة، ممتلئٍ بصراخ الألم، والفزع، وزمجرة الذّئب، والأنياب الحادّة، والدّم.

- «وهكذا»، تابع رئيس الدّير كلامه بصوته الهادئ: «سارت الأمور من يومٍ إلى آخر، ومن سنةٍ إلى سنةٍ. كثيرٌ من الجوع، كثيرٌ من المرض، تناوبت الجيوش علينا، وفرق السَّلب والنَّهب. لقد فقد البلد شعبه، واختفت الغابات، وأُحْرِقت القرى، وهرب البشر، الرّبُّ وحْده يعرف إلى أين. في السّنة الأخيرة هاجرت حتّى الذّئاب». انحنى إلى الأمام، ووضع يده على كتف الكونت البدين وسأله عمّا إذا كان قادراً على حفظ ما رواه له كلّه.

- «كلّه». قال الكونت البدين.

- «من المهمّ». قال رئيس الدّير: «أنْ يعلم البلاط بما جرى، أنّ الأمير النّاخب في بافاريا بصفته القائد الأعلى للجيش القيصريّ، لا يهتمّ إلّا بالصّورة العامّة، وليس بالتّفاصيل. كثيراً ما جرت مناشدته لتقديم العون، أمّا في واقع الأمر، فإنّ قوّاته قد عاثت

فساداً في البلد أكثر من القوّات السّويديّة، وفقط عندما يبقي المرء هذا في الذّاكرة، يكون لكلّ هذه المعاناة معنى».

أومأ الكونت البدين برأسه.

نظر رئيس الدّير في وجهه باهتمام، ثمّ قال كأنّه قد قرأ أفكار الرّجُل قبالته: «الأمر في حاجةٍ إلى موقفٍ، وانضباطٍ، وإرادةٍ داخليّةٍ. إنّ خير الدّير يقع على كاهله، ونجاة الإخوة الرُّهبان».

صلَّب رئيس الدّير، فصلَّب الكونت البدين أيضاً.

وهذا يساعد كثيراً، ومدَّ رئيس الدّير يده إلى قَلْبَة ردائه الدّاخليّ، فرأى الكونت البدين بفزعٍ واستياءٍ كهلوسات الحمّى نسيجاً من الخيش، وفيه أشواك معدنيّة، وشظايا زجاجٍ عليها دَمٌ جافّ.

- «يعتاد المرء ذلك». قال رئيس الدّير: «السّنوات الأولى كانت الأسوأ، فكان يخلع أحياناً قميص الكفّارة، ويبرّد بالماء أعلى جذعه المتقيّح، لكنّه خجل بعدئذٍ من ضعف ذاته، والرّبُّ منحه القوّة المرّة تِلو الأُخرى لأنْ يلبسه مُجدّداً. كانت هناك لحظات يجنُّ فيها الألم بصورةٍ لا تُحتمل، كاد معها يفقد عقله، لكنّ الصّلاة ساعدته، والعادة ساعدته، وصار جلده أثخن، ومنذ السّنة الرّابعة تحوّل الألم الدّائم إلى صديقٍ له».

- «في تلك اللّحظة يبدو أنَّ النُّعاس قد غلبه». هكذا كتب الكونت البدين لاحقاً: «فعندما تثاءب، ودعك عينيه، واحتاج إلى بضع لحظاتٍ كي يتذكّر أين كان، وجد شخصاً آخر يجلس قبالته».

كان رجُلاً نحيفاً بخدّين أجوفين، وندبةٍ تمتدّ من منبت شَعره، نزولاً إلى جذر أنفه. كان يلبس رداء رُهبان، وعلى الرّغم من ذلك بدا واضحاً -حتّى إنْ لم يستطع المرء أن يحدّد لماذا- أنّه لم يكن راهباً. لم يسبق للكونت البدين قطّ أنْ رأى مثل هاتين العينين، ولاحقاً، عندما وصف الحوار، لمْ يعرف يقيناً ما إنْ جرت فعلاً هذه المحادثة، حسْبما أخبر عنها عبر السّنوات أصدقاء، ومعارف، وغرباء، لكنّه فضَّل أن يبقي على الصّيغة التي سمعها منه كثيرٌ من النّاس، على أنْ يتخلّى عنها.

- «ها أنت ذا أخيراً». قال الرّجُل: «لقد انتظرتُك طويلاً».

- هل أنت تيل أولنشبيغل؟

- لا بدّ من أنّه أحدنا. هل جئت لتأخذني؟

- بتكليفٍ من القيصر.

- أيّ قيصر؟ يوجد كثيرٌ منهم.

- لا، لا يوجد! مِمَّ تضحك؟

- لا أضحك من القيصر، بلْ أضحك منك. كيف يمكنك أن تكون سميناً بهذا الشّكل؟ ليس هناك ما يمكن أن يؤكل، فكيف تسمن؟

- «سدّ فمك!». قال الكونت البدين، وغضب في الوقت نفسه؛ إذْ لم يخطر في باله تعليقٌ ذكيّ، وعلى الرّغم من أنّه قد فكّر طوال حياته في جوابٍ أفضل، ووجد عدّة أجوبة، لكنّه لم يَجِد في أيٍّ من تقاريره عن هذه الجُملة المُخزية، فقد بدا أنّه كان يصادق على حقيقة ذاكرته، فهل يمكن للمرء أن يختلق ما يسيء إلى نفسه بهذا الشّكل؟

- وإلّا ستضربني؟ لكنّك لن تفعل ذلك. أنت ليّنُ العَريكة. أنت ناعمٌ، وطريٌّ، ولطيفٌ. ما يجري هنا لا يناسبك.

- الحرب لا تناسبني؟

- لا، إنّها لا تناسبك.

- لكنّها تناسبك أنت؟

- نعم، تناسبني.

- هل ستأتي معنا طواعيةً، أم علينا أن نجبرك؟

- طبعاً سآتي. هنا لم يعُد يوجد ما يؤكل، هنا يتداعى كلُّ شيءٍ، ورئيس الدّير لن يحتمل طويلاً، ولهذا أرسلت في طلبك.

- أنت لم ترسل في طلبي.

- أنا أرسلت في طلبك، يا كتلة عجينٍ سمينة.

- لقد سمع جلالته...

- إذن، لماذا سمعت الجلالة بذلك، يا ذا الكرش العملاقة؟ الجلالة الصّغيرة، الجلالة الغبيّة ذات التّاج الذّهبيّ، على العرش الذّهبيّ، سمعت عنّي لأنّي أنا مَن أرسل في طلبكم، ولا تضربني؛ إذ يحقّ لي أن أقول ذلك، وأنت تعرف حرّيّة المهرّجين، فإنْ أنا لم أصف الجلالة بالغباء، فمن الذي سيفعلها؟ لا بدَّ من أن يفعلها أحدهم. أنت لا يجوز لك ذلك.

وابتسم أولنشبيغل ابتسامةً صفراويّةً، كانت ابتسامةً مرعبةً، شرّيرةً، وساخرةً، ولمّا لم يعد يعرف الكونت البدين، كيف استمرّ الحديث بينهما، لجأ إلى استعمال نحو دستةٍ من الجُمل لوصف هذه الابتسامة، تَلتها صفحةٌ كاملةٌ في إطراء النّوم الطّويل، والعميق، والمُشبِع، والممتع، الذي حظي به على أرض إحدى غرف شخصيّات الدّير المهمّة حتّى ظهيرة اليوم التّالي: مورفيوس، يا ربَّ الرّاحة الودود، يا مانح السّلام، يا مولّد الفرح، أيّها الحارس

المبارك للنّسيان اللّيليّ في هذه اللّيلة، حين احتجتُ إليك أكثر من أيّ وقتٍ آخر، كنت هنا في عوني إلى أنْ صحوت، مستعيداً شبابي، سعيداً ومباركاً تقريباً.

وهذه العبارة الأخيرة لا تعكس مشاعر الكونت الشّاب، بقدْر ما تعكس الشّكوك الدّينيّة لدى الشّيخ، التي عبّر عنها في موضعٍ آخر بكلماتٍ مؤثّرة. ونتيجة الخجل، على النّقيض من ذلك، تكتّم على تفصيلٍ، ما زال يدفع حُمرة الخجل إلى خدّيه على الرّغم من فارق خمسين سنة؛ إذْ إنّه عندما اجتمعوا بعد الظُّهر بقليلٍ في حوش الدّير لتوديع رئيس الدّير وثلاثة رُهبانٍ عَصَرهم الجوع حتّى بدوا أقرب إلى الأشباح منهم إلى البشر، خطر في بالهم فجأةً أنّهم نسوا أن يحضروا معهم جواداً إضافيّاً ليركبه أولنشبيغل في طريق العودة.

في واقع الأمر، لم يفكّر أيٌّ منهم ماذا سيركب الرّجُل، الذي عليهم الرُّجوع به إلى فيينّا، فهنا طبعاً لا يوجد جيادٌ للبيع، ولا للاستعارة، ولا حتّى حمار؛ لقد أكل النّاس الحيوانات جميعها، أو أنّها هربت.

- «إذاً، سيركب خلفي». قال فرانتس كِرنباور.

- «هذا لا يعجبني». قال أولنشبيغل، الذي بدا في رداء الرُّهبان أشدّ نحولاً في ضوء النّهار، كان واقفاً، محنيّ الظَّهر، خدّاه مجوّفين، وعيناه غائرتين في محجريهما: «القيصر صديقي. أريد جواداً لي وحْدي».

- «سأكسر أسنانك». قال كِرنباور بهدوء: «وسأكسر أنفك أيضاً. سأفعل ذلك، انظر في عيني. أنت تعرف أنّي سأفعلها».

رفع أولنشبيغل نظره إليه للحظات مفكّراً، ثمّ ركب على السّرج وراء كِرنباور.

وضع كارل فون دودر يُمناه على كتف الكونت البدين، وهمس له: «هذا ليس هو».

- عفواً، ما قصدك؟

- هذا ليس هو.

- مَن الذي ليس مَن؟

- أظنّ أن هذا ليس الذي رأيته.

- ماذا؟

- آنذاك في ساحة السّوق. لا حيلة لي في الأمر. أظنّ أنّه ليس هو.

نظر الكونت البدين لحظةً طويلةً إلى وجه السّكرتير، ثمّ سأله: «هل أنت متأكّد؟»

- ليس تماماً. رأيته قبل سنواتٍ عديدةٍ، وكان على حبْلٍ فوقي، فكيف يمكن للمرء أن يكون متأكّداً!

- «دعنا ننهي الكلام في الموضوع». قال الكونت البدين.

باركهم رئيس الدّير بيدين ترتجفان، ونصحهم أن يتجنّبوا المدن، فمونيخ مدينة مقرّ الأمير النّاخب أغلقت بواباتها بسبب تدفّق طالبي المساعدة عليها، فلا يحقُّ لأحدٍ دخولها، شوارعها امتلأت بالجائعين، وآبارها تلوّثت، والحال في نورنبِرغ مشابهة، حيث عسكر البروتستانت. يقال إنّ المارشالين فرانغِل وتورين قادمان مع وحداتٍ قتاليّةٍ من جهة الشّمال الغربي، فالأفضل لتجنّبهم هو القيام بالتفافةٍ واسعةٍ في اتّجاه الشّمال الشّرقي، والمرور بين آوغسبورغ وإنغولشتات، وقرب روتّنبورغ يمكن للمرء التّوجّه في خطٍّ مستقيمٍ نحو الشّرق، ومن هناك يبقى الطّريق سالكاً نحو شمال النّمسا. صمت رئيس الدّير، وحكَّ صدره، بدت الحركة عاديّةً ظاهريّاً، ولكنْ الآن، بعد أن عرف الكونت البدين بأمر قميص الكفّارة، لم يستطع تحمُّل مرآها. هناك شائعات حول أنّ الطّرفين يدبّران لخوض معركةٍ، قبل إعلان

وقْف القتال في فستفاليا، وكلّ طرفٍ يرمي إلى تحسين وضعه قبل ذلك.

- «شكراً جزيلاً». قال الكونت البدين، الذي لم يكد يفهم شيئاً، فالجغرافيا لم تكن ميدانه قَطّ. في مكتبة أبيه كان هناك عدّة مجلّدات من تأليف ماتِّيوس ميريان بعنوان: «طبوغرافية جرمانيا»، قلَّب بضع مرّاتٍ في صفحاتها، فاقشعرَّ بدنه. لأي غرض على المرء حفظ هذا كلّه؟ ما الدّاعي لزيارة هذه الأمكنة كلّها إذا كان بوسع المرء البقاء في الوسط، في مركز العالم، في فيينا؟

- «رافقك الرّبّ». قال رئيس الدّير لأولنشبيغل.

- «اِبق برفقة الرّبّ». أجابه المهرّج من على الجواد. كان قد لفّ ذراعيه حول كِرّنباوم، وبدا شديد النّحول والضّعف، بحيث يصعب تصوُّر كيف سيثبت على ظهر الجواد.

- «ذات يومٍ وقفتَ عند بوّابتنا، آويناك، ولم نسألك عن عقيدتك. بقيت هنا أكثر من سنةٍ، وها أنت تغادر ثانيةً». قال رئيس الدّير.

- «كلام جميل». قال أولنشبيغل.

رسم رئيس الدّير الصّليب. أراد المشعوذ رسمه من بَعْده، لكنّه اضطّرب على ما يبدو، فتشابك ذراعاه، ولم تجد يداه طريقهما إلى حيث كان يجب. استدار رئيس الدّير، واضطّرّ الكونت البدين إلى كتم ضحكةٍ دَهَمته. قام راهبان بفتح البوّابة.

لم يقطعوا مسافةً كبيرةً حتّى فاجأهم وابلٌ قصير المدّة لم يرَ الكونت البدين مثيلاً له

سابقاً، فأسرعوا بالتّكوُّر تحت جيادهم. كان المطر يهطل دلاءً، وبقوّةٍ من حولهم، كأنّ أبواب السّماء قد فُتحت.

- «وماذا إنْ لم يكن المهرّج أولنشبيغل؟». همس كارل فون دودر، فأجاب الكونت البدين بأنّه: «إنْ لم يكن التّمييز بين شيئين ممكناً، فهما شيءٌ واحد، إمّا أنّ هذا الرّجُل هو أولنشبيغل الذي بحث عن ملجأ في دير أندِكس، وإمّا أنّ الأمر يتعلّق برجُلٍ بحث عن ملجأ في الدّير وسمَّى نفسه أولنشبيغل. الرّبُّ أعلم، وما دام لا يتدخّل، فلا فارق بين الاثنين».

عند ذلك سمعوا أصوات طلقاتٍ قريبةٍ، فركبوا جيادهم بسرعةٍ، ونخسوها بالمهاميز، وانطلقوا عبر الحقل القاحل. ثقل تنفُّس الكونت البدين، وبات يصفر، وآلمه ظَهْره. كانت قطرات

المطر تصفع وجهه، وبدا له الوقت أبديّاً حتّى شدّ فرسان التّنّين أعنَّة جيادهم.

ترجّل بساقين مضطّربتين، وربّت على عنق جواده، الذي رفع شفتيه وأخذ يلهث. إلى يسارهم رأوا نهراً صغيراً، وعلى ضفّته الأُخرى ترتفع الأرض إلى غابةٍ، لم يرَ الكونت البدين مثيلاً لها منذ مِلْك.

- «لا بدَّ من أنْ تكون هذه غابة شْترايتهايم». قال كارل فون دودر.

- «لقد ابتعدنا جدّاً إذاً نحو الشّمال». قال فرانتس كِرنباور.

- «يستحيل أن تكون هذه غابة شترايتهايمر». قال شتِفان بورنر.

- «بلْ هي بالتّأكيد». قال كارل فون دودر.

- «يستحيل!». أجاب بورنر.

وفي تلك اللّحظة سمعوا موسيقا. أوقفوا تنفّسهم، وأنصتوا: أبواقٌ، وطبولٌ، وموسيقا عسكريّة مَرحة، تحرِّك الأقدام. لَحظ الكونت البدين أنّ كتفيه تحرّكا مع الإيقاع.

- «لنبتعد من هنا». قال كونراد بورنر.

- «ليس على الجياد». همس كارل فون دودر: «إلى الغابة!».

- «بحذر». قال الكونت البدين ليحافظ على الأقلّ على مظهر أنّه صاحب الأمر هنا: «يجب حماية أولنشبيغل».

- «يا لَكُم من مغفّلين مساكين!». قال الرّجُل النّاحل بوداعةٍ: «يا بقر، أنا مَن يجب أن يحميكم».

ما إنْ دخلوا حتّى أظلّتهم ذُرى الأشجار. لَحظ الكونت البدين تأبّي جواده، لكنّه شد قبضته على العنان، وربّت على منخري الجواد الرّطبين، فطاوعه الجواد، وسرعان ما اشتدّت كثافة الدُّغل، فاستلّ فرسان التّنّين سيوفهم ليشقّوا لهم طريقاً.

أنصتوا ثانيةً. سمعوا طنيناً غامضاً. ما مصدره، ما هويّته؟ تدريجيّاً أدرك الكونت البدين أنّها كانت أصواتاً لا تحصى، مزيجاً من غناءٍ، وهتافاتٍ، وكلامٍ من حناجر عديدةٍ. أحسَّ بخوف جواده، فربّت على عُرْفه، فشَخر الجواد.

لاحقاً، لم يعُد قادراً على تحديد طول المدّة التي مشوها في الغابة، فزعم أنّها ساعتان، كتب لاحقاً: «والأصوات وراءنا تخافتت تدريجيّاً، إلى أنْ حاصرتنا السّكينة الصّاخبة للغابة من أصوات الطّيور، وتكسُّر الأغصان، مع همْس الرّيح في ذُرى الأشجار».

- «يجب أن نتّجه نحو الشّرق». قال كارل فون دودر: «نحو آوغسبورغ».

- «لكنّ رئيس الدّير قال: إنّ المدن لا تسمح لأحدٍ بدخولها». قال الكونت البدين.

- «لكنّنا رُسل القيصر». أجاب كارل فون دودر.

انتبه الكونت البدين إلى أنّه لا يحمل أيّة ورقةٍ، أيّة هوّيةٍ، أيَّ كتاب تكليفٍ، أيّة وثيقة مهما كانت. إنّه لم يسأل عنها، ولم يطلبها، ومن الواضح أنّ لا أحدَ في إدارة البلاط قد شعر بمسؤوليّة تزويده بها.

- «أين الشّرق؟». سأل فرانتس كِرنباور.

أشار شتِفان بورنر إلى جهةٍ ما.

- «هذا الجنوب». علّق أخوه.

- «يا لكُم من أغبياء!». قال أولنشبيغل مسروراً: «أنتم أقزام بُلهاء، ولا تعرفون شيئاً على الإطلاق. الغرب هو حيث نحن، وبالتّالي فإنّ الشّرق في كلّ مكان».

استعدّ كرنباور ليضربه، لكنّ أولنشبيغل انحنى بسرعةٍ وخفّةٍ لم يتوقّعهما أحدٌ منه، وقفز إلى وراء جذع شجرةٍ. لحق به كرنباور، لكنّ أولنشبيغل انزلق مثل شبحٍ من وراء الجِذع، واختفى وراء جِذعٍ آخر، وغاب عن الأنظار.

- «لن تمسك بي». سمعوه يقول ضاحكاً: «أنا أعرف الغابة، لقد صرت من عفاريت الغابة منذ كنت صبيّاً صغيراً».

- «عفريت غابة؟». سأله الكونت البدين بقلق.

- «عفريت غابةٍ أبيض». خرج أولنشبيغل من الدّغل ضاحكاً، وأضاف: «تابعٌ للشّيطان العظيم».

توقّفوا لاستراحةٍ. كادت زوّاداتهم تنفد، قضمت الجياد أشياء من لحاء الشّجر، تناوبوا على الشُّرب من قربة البيرة المخفّفة، جرعةٌ لكلٍّ منهم، وعندما وصل الدّور إلى الكونت البدين كانت قد فرغت.

تابعوا الطّريق مُتعبين. صارت الغابة أقلّ ازدحاماً بالشّجر، واتّسعت الفراغات ما بينها، كما خفَّ اكتظاظ الأدغال، وصار ممكناً أن تسير الجياد من دون شقّ الطّريق لها بالسّيوف. انتبه

الكونت البدين إلى غياب أصوات الطّيور، فلا عصافير، ولا شحارير، ولا غربان، فركبوا الجياد، وخرجوا من الغابة.

- «يا إلهي!». قال كارل فون دودر.

- «يا ربّ الرّحمة!». قال شتفان بورنر.

- «يا عذراء، يا مقدّسة!». قال فرانتس كرنباور.

عندما حاول الكونت البدين لاحقاً أن يصف ما شاهدوه، تبيّن له أنّه غير قادرٍ على ذلك؛ لأنّه فاق إمكاناته بصفته كاتباً، مثلما فاق إمكاناته بصفته إنساناً عاقلاً، حتّى على بُعدٍ زمنيٍّ يعادل نصف قرنٍ لم يجد لديه القدرة على استيعابه في جُملٍ تحمل معانٍ حقيقيّة. من الطّبيعي -على الرّغم من ذلك- أنّه قد وصف المنظر، الذي كان أحد أهمّ لحظات حياته، والظّرف الذي جعل منه أحد شهود عَيان المعركة الأخيرة في حرب الثّلاثين سنة، حدّد منذ الآن هويّته، وفكرة النّاس عنه. السّيّد كبير مدراء البلاط شهِدَ معركة تْسوزْمرْزْهاوزِن، صار يقال منذئذٍ كلّما عُرِّفَ به، ما جعله يعلّق بتواضعٍ رتيبٍ: «دعونا من ذلك، فمن العسير على الإنسان أن يُحسن الكلام عنها».

وما كان له وقع الكليشيهات، كان الحقيقة. كان عسيراً على الإنسان أن يُحسن الكلام عنها. هو في الأحوال كلّها لم يستطع،

فمن لحظة خروجه على جواده من مرتفع الغابة، ورؤيته على الجانب الآخر من النّهر الجاري في السّفح، جيشَ القيصر المنتشر امتداداً حتّى الأفق بخنادق مواقع المدفعيّة، ومراكز الفرسان، وحشود الرمَّاحة، منظّمة في تشكيلاتٍ مئويّةٍ، تراءت له رماحها مثل غابةٍ ثانيةٍ، خُيِّل إليه أنّه يعايش شيئاً لا ينتمي إلى الواقع، فأن يحتشد هذا العدد الهائل من البشر، وأن ينتظموا في تشكيلاتٍ قتاليّةٍ، بدا على درجة من الثّقل، بحيث اختلّ توازن كلّ شيءٍ، فكان على الكونت البدين أن يتمسّك بعُرف جواده؛ كي لا يسقط عنه.

ثمّ تبيّن له أنّ ما يشهده أمام عينيه لم يكن جيش القيصر وحسْب، فإلى يمينهم هناك منحدرٌ شديدٌ، وفي أسفله هناك شارعٌ عريضٌ، تتحرّك عليه -بصمتٍ، ومن دون موسيقا، بحيث لا يسمع المرء سوى وقْع الحوافر على الحجارة- وحدات فرسان التّاجين المُتّحدَيْن لفرنسا والسّويد، صفّاً وراء الآخر في اتجّاه جسرٍ صغيرٍ واحد.

وفي تلك اللّحظة تحوّل هذا الجسر تحديداً، الذي بدا في الحال في غاية المتانة، إلى سحابةٍ صغيرةٍ. كاد الكونت البدين يبتسم لهذه الحيلة السّحريّة. تصاعد دخانٌ أبيضُ، واختفى الجسر، وبعد أنْ ذهبت الرّيح بالدُّخان وصل إليهم صوت الانفجار. «ما

أجمل هذا!». فكّر الكونت البدين، وخجل من نفسه فوراً، ثمّ عاود التّفكير ثانيةً، كمن يعاند: «حقاً كان ذلك جميلاً».

- «لنهرب من هنا». صاح كارل فون دودر.

فات الوقت، لقد جرفهم الزّمن معه مثل شلّال. هناك على الطّرف الآخر من النّهر تصاعدت سُحبٌ صغيرةٌ بالعشرات، بيضاء وبرّاقة. «إنّها مدافعنا». فكّر الكونت البدين: «نعم، إنّها مدفعيّة قيصرنا». ولكنْ قبل أن يصل بالفكرة إلى نهايتها، تصاعدت من هناك حيث يتمركز الفرسان المزيد من السُّحب الصّغيرة، ولكنْ بأعدادٍ لا تحصى، كانت للحظةٍ متفرّقةً عن بعضها بوضوحٍ، ثمّ امتزجت في سحابةٍ واحدةٍ، وعندها تقدّم الدَّويّ، وسمع الكونت البدين انفجار القذائف، التي رأى -في الحال- دخانها، وكان ما رآه بعد ذلك هو كيف تحرَّك فرسان العدوّ، الذين كانوا متّجهين باستمرارٍ نحو النّهر، لينفّذوا أعجب حيلةٍ فنّيّةٍ، فقد انفتحت فجأةً في صفوفهم دروب: أحدها هنا، ثمّ ثانٍ إلى جانبه، ثمّ ثالث على مسافةٍ، وفيما هو يجهد عينيه كي يفهم ما رآه سمع صوتاً لم يسبق له أن سمع مثله قطّ، صراخاً من الهواء. رمى فرانتس كِرنباور نفسه عن جواده، ونظر إليه الكونت البدين مدهوشاً لمرآه يتدحرج عبر الحشائش، وتساءل عمّا إذا كان من الأفضل له أن يفعل الشّيء نفسه، لكنّ الجواد

كان عالياً، والأرض ممتلئةً بأحجارٍ قاسيةٍ، وعندها سبقه كارل فون دودر، لكنّه لم يقفز في اتّجاهٍ واحدٍ، إنّما في اتّجاهين، كأنّه لم يلحق أن يقرّر، فلبّى الاحتمالين في آنٍ واحد.

في بداية الأمر فكّر الكونت البدين أنّه لا شكّ يحلم، لكنّه رأى بعدئذٍ أنّ كارل فون دودر موجودٌ فعلاً في مكانين: القسم الأوّل إلى يمين الجواد، والقسم الثّاني إلى يساره، وما زال يتحرّك. انتاب الكونت البدين تقزّزٌ هائلٌ، وفوق ذلك كلّه خطرت في باله الإوزّة، التي قتلها كِرنباور قبل بضعة أيّام؛ فكّر برؤية رأسها يتناثر، وفَهم أنّه لهذا السّبب كان مرعوباً، فذاك الحادث تنبّأ بهذا الحادث، بعكس تيّار الزّمن. خلال ذلك بات سؤاله: أيجب عليه رمي نفسه عن جواده؟ غير ضروريّ؛ فجواده قد استلقى، هكذا بكلّ بساطةٍ، وعندما خبطَ الأرض جانبيّاً لَحظ أنّها بدأت تمطر من جديد، لكنّه لم يكن المطر العاديّ، لم يكن ماءً ما جعل التّربة تتناثر، إنّما مقارع دريس غير مرئيّةٍ تفلح التُّربة. رأى فرانتس كرنباور يزحف على بطنه، رأى حدوة جوادٍ على الحشيش، لكنّه لم يرَ الجواد الخاصّ بها، رأى كونراد بورنر يسقط على المنحدر ممتطياً جواده، ورأى أن الدخان الآن يبتلع صفوف جنود القيصر على الجانب الآخر من النّهر، الذين كان يراهم في الحال بكلّ وضوحٍ، فاختفوا، إلّا في موضعٍ واحدٍ حيث

دفعت الرّيح الدّخان بعيداً، وأفسحت المجال لرؤية الرمَّاحين، الذين نهضوا الآن دفعةً واحدةً واقفين، وتقهقروا برماحٍ منتصبةٍ كأنّهم رجُلٌ واحدٌ. كيف تمكّنوا من توقيت تطابق حركاتهم معاً؟ من الجليّ أنّهم تراجعوا أمام تقدُّم سلاح الخيَّالة، الذي أخذ يقترب الآن عبر النّهر، والنّهر بَدا كأنّه يغلي، الخيل تنتصب واقفةً، والفرسان يسقطون، لكنّ غيرهم يبلغون الضّفّة الثّانية، مياه النّهر اصطبغت بالأحمر، والرمَّاحة المتراجعون اختفوا تحت الدّخان.

تلفتّ حوله، كانت الحشائش ساكنةً. نهض الكونت البدين واقفاً، طاوعته ساقاه، لكنّه فقد الإحساس بيده اليمنى، وعندما رفعها أمام عينيه، لَحظ نقص إصبع. عدّها من جديد، أربعة أصابع فقط، ثمّة خطأ ما، ينقصه إصبعٌ بالفعل، يُفترضُ أن يكونوا خمسةً، لكنّهم كانوا أربعةً فقط. بصق دماً على الأرض. يجب أن يرجع إلى الغابة، فهناك فقط تتوفّر حماية، فقط في...

تراكبت أشكالٌ على بعضها، وظهرت مساحاتٌ لونيّةٌ، وفيما اتّضح للكونت البدين أنّه قد أُغمي عليه، واستعاد وعيه في الحال، استحوذت عليه ذكرى مؤلمة، مستيقظة من العدم: فكّر بفتاةٍ أحبّها، وهو في التّاسعة عشرة من عمره؛ آنذاك سخرَت منه، ولكنّها تعود الآن، ومعرفة أنّهما لن يلتقيا ملأت بالحزن

كيانه كلّه. رأى السّماء فوقه، بعيدةً وممتلئةً بسُحبٍ صغيرةٍ مُنسّلة النّسيج. أحدهم انحنى فوقه، إنّه لا يعرفه، بلْ يعرفه، يعرفه جيّداً.

- هيّا قف!

رمش الكونت البدين.

تحمّى أولنشبيغل، وصفعه على وجهه.

نهض الكونت البدين واقفاً. كان خدُّه يؤلمه، وكانت يده تؤلمه أكثر، وأشدّ ما كان يؤلمه هو إصبعه النّاقص. هناك على الأرض يرى ما تبقى من كارل فون دودر، وإلى جانبه جوادان، وبعدهما كونراد بورنر الميت. في البعيد كان هناك ضبابٌ تضيئه التماعات بروقٍ. مازال الخيّالة يتقدّمون، يظهر انفراجٌ بينهم، ثمّ يزول، لا بدَّ من أن يكون هذا من تأثير المدفعيّة الثّقيلة. على النّهر يزدحم الخيّالة، ويعيقون بعضهم بعضاً، ويلوّحون بالسّياط. الخيول تطرطش في الماء، الرّجال يتصايحون، وقد لَحظ هذا من حركات أفواههم فقط، لكنّه لم يستطع أن يسمعهم. كان النّهر ممتلئاً بالخيول وبالرّجال، غالبيتهم كانت تصل إلى الضّفّة، وتغيب في الدّخان.

تحرّك أولنشبيغل، فتبعه الكونت البدين. كانت الغابة على بُعد خطواتٍ فقط. بدأ أولنشبيغل يركض، فركض الكونت البدين وراءه.

إلى جانبه تطاير الحشيش. سمع الصّرخة ثانيةً، زاعقةً إلى جانبه، ثمّة ما ارتطم وتدحرج صارخاً إلى النّهر. «كيف يعيش الإنسان؟». فكَّرَ: «كيف يحتمل، عندما يكون الهواء ممتلئاً بالمعدن؟». في هذه اللّحظة قذف أولنشبيغل ذراعيه أمامه، ورمى نفسه بصدره على المرج.

انحنى الكونت البدين فوقه. كان أولنشبيغل مرميّاً بلا حراكٍ، وقد تمزّق رداؤه من جهة ظَهره، وتدفّق الدَّم، وسرعان ما تشكّلت بركةٌ حوله. ارتدّ الكونت البدين عنه، وانطلق راكضاً، لكنّه تعثّر وسقط. جمع قواه، ونهض واقفاً، وتابع الرّكض، أحدهم كان يركض إلى جانبه، تطاير الحشيش ثانيةً من القذائف. لماذا يطلقونها إلى هنا، وليس نحو العدوّ، لماذا يحيدون كثيراً عن الهدف، ومن الذي يركض هنا إلى جانبه؟ التفت الكونت البدين برأسه، إنّه أولنشبيغل.

- «لا تتوقّف». فحَّ أولنشبيغل.

ركضا إلى داخل الغابة، خنقت الأشجار أصوات الدّويّ. أراد الكونت البدين أن يتوقّف، كان يحسُّ بوخزٍ في قلبه، لكنّ أولنشبيغل أمسك به وسحبه معه إلى عُمق الدُّغل، وهناك أقْعيا، أنْصتا برهةً إلى القذائف. بحذرٍ خلع أولنشبيغل الرّداء الممزّق. ألقى الكونت البدين نظرةً على ظهره، كان القميص ملطّخاً بالدَّم، لكنّه لم يرَ أيّ جرحٍ.

- «إنّي لا أفهم هذا». قال الكونت البدين.

- «يجب أن تضمّد يدك». ومزّق أولنشبيغل من ردائه شريطاً لفَّ به ذراع الكونت البدين، وعلّقها في عنقه.

منذ ذلك الحين حَدَسَ بأنّ هذا كلّه لا بدَّ من الإخبار عنه بطريقةٍ مختلفةٍ، في كتابه ذات يوم. لن ينجح في أيّة طريقةٍ وصفيّةٍ؛ لأنّ كلّ شيءٍ سيتوارى، والجُمل التي سيتمكّن من تشكيلها لن تناسب الصّور التي في ذاكرته.

وفعليّاً: هذا الذي جرى لم يظهر حتّى في أحلامه، ولكنْ أحياناً فقط، كان يتعرّف في أحداثٍ مغايرةٍ تماماً إلى أصداء بعيدةٍ لتلك الّلحظات، عندما وقع في منطقة تبادل النّيران هناك، على طرف غابة شترايتهايمر، قرب تسوزمرزهاوزن.

بعد الأحداث بسنواتٍ قام باستجواب الكونت غرونْسفِلد التّعِس، الذي أمر أمير بافاريا النّاخب من دون تردُّدٍ باعتقاله بعد الهزيمة مباشرةً. كان مكدوداً، وفاقد الأسنان، ويسعل باستمرار، عندما اعترف له الذي كان حينذاك قائد القوّات البافاريّة بالأسماء والأماكن، ووصف قوّة الوحدات المختلفة، ورسم خطط الزّحف والهجوم، بحيث نجح الكونت البدين نوعاً ما في أنْ يحدّد لنفسه أين كان، وماذا أصابه ورفاقه، ومع ذلك خذلته الجُمل، وهكذا سرق غيرها.

وجد في روايةٍ محبوبةٍ وصفاً نال إعجابه، فإنْ ضغط عليه النّاس ليصف لهم المذبحة الأخيرة في الحرب الألمانيّة الكبرى، كان يروي لهم ما قرأه في رواية الكاتب غريمِّلزهاوزن «سيمبليسيسيموس». لم يكن هذا ملائماً تماماً؛ لأنّه يتعلّق هناك بمعركة فيتْشتوك، غير أنّ هذا لم يزعج أحداً، ولا أحد سأل عن الأمر، لكنْ ما لم يكن في وسع الكونت البدين أنْ يعرفه، هو أنّ غريملزهاوزن الذي عايش المعركة بنفسه، لم يستطع هو أيضاً أن يصفها، وسرق عوضاً عن ذلك الجُمل التي ترجمها مارتين أوبيتس من روايةٍ إنجليزيّةٍ، لم يخض مؤلّفها أيّة معركةٍ في حياته.

في كتابه بعدئذٍ روى الكونت البدين باختصار عن تلك اللّيلة في الغابة، التي جرى فيها لسان المهرّج، فحكى له عن المدّة التي أمضاها في بلاط ملك الشّتاء في دِن هاغ، ثمّ عن حادثة طمْره قبل ذلك بثلاث سنواتٍ في أثناء حصار برون. بدأ الأمر بأنّه استخفّ بآمر المدينة، وبسبب ملحوظةٍ عن وجهه، عاقبه هذا بوضعه مع جنود الطّليعة المكلّفين بحفر نفقٍ صغيرٍ في سور المدينة المحاصرة، ثمّ انهار النّفق على وحدته، ما تسبّب في هذه النّدبة على جبينه، وانحصر في الظّلام، في أسفل السّور، فلا مخرج، ولا هواء، إلى أنْ جاء الإنقاذ العجيب. «كانت قصّةً مجنونةً لا تُصدَّق». كتب الكونت البدين. لكنّ الظّرف، الذي جعله يغيّر الموضوع بعدها مباشرةً، دور التّطرّق إلى كيف جرى الإنقاذ العجيب من تحت سور برون، تسبّب لاحقاً في حيرة وغضب كثيرٍ من القُرّاء.

في كلّ الأحوال كان أولنشبيغل راوياً جيّداً، أفضل من رئيس الدّير، وحتّى أفضل من الكونت البدين، الذي جاءت الحكايات لتلهيه عن الألم المُلحّ في يده. «لا تقلق». قال له المهرّج: «في هذه اللّيلة سوف تجد الذّئاب ما يكفيها لتأكل».

انطلقا مع انبلاج الفجر، فتجنّبا ميدان المعركة، الذي كانت الرّيح تحمل رائحته، الأمر الذي لم يستطع الكونت البدين أن

يتصوّره قطّ، ومشيا متجاوزين شليبسْ هايم، وهاينهوفن، وأوتمارزهاوزن، فأولنشبيغل كان يعرف المنطقة، وكان هادئاً، ورصيناً، ولم يعُد يوجّه أيّة إهانةٍ إلى الكونت البدين.

وجَدا أنّ الأراضي الخاوية قد امتلأت بالنّاس، فجاء الفلّاحون يجرّون متاعهم على عرباتٍ أطرافها تشبه السّلالم، والجنود المشتّتون يبحثون عن وحداتهم وعائلاتهم، والمُصابون يجلسون على جوانب الطّرقات، بضمادات بدائيّة مؤقّتة، وهُم يحدّقون أمامهم بلا حراك. تركا وراءهما إلى الغرب مدينة أوبرهاوزن المحترقة، ووصلا إلى آوغسبورغ، حيث تجمّع ما تبقّى من جيش القيصر، وبعد الهزيمة لم يعُد هذا الجيش كبيراً.

كانت رائحة معسكر الجيش قبل المدينة أشدّ فساداً من رائحة ميدان المعركة. كان الجوّ أشبه ما يكون برؤى الجحيم، بالأجسام المشوّهة، والوجوه المتقيّحة، والمتقرّحة، والأشداق الفاغرة، والجراح المفتوحة، وأكوام الخراء، فانطبع كالوسم في ذاكرة الكونت البدين. «لن أكون بعد هذا ما كنت عليه قبله». فكّر، وهُما يشقّان طريقهما إلى بوّابة المدينة، و: «إنّها مجرّد صور، لا يمكنها أن تؤثّر فيّ، ولن تمسّني، مجرّد صور». وتصوّر نفسه شخصاً آخر غير مرئيّ، يمشي إلى جانبهما، ولا يُفترض به أنْ يرى ما رآه هو.

عند العصر بلغا بوّابة المدينة، بقلقٍ عرَّف الكونت البدين الحرّاس إلى نفسيهما، وامتلأ دهشةً عندما صدّقوا ما قاله، وسمحوا لهما بالدّخول من دون تردُّد.

ملوك في الشتاء

1

كان الوقت نوفمبر/تشرين الثّاني. كان مخزون النّبيذ قد انتهى، وبما أنّ البئر في الحديقة كانت ملوّثةً، فإنّهم لم يشربوا سوى الحليب، وبما أنّهم غير قادرين على تحمُّل تكاليف الشّموع، فحاشية البلاط بكاملها كانت تهجع عقب المغيب إلى النّوم. لم تكن الأوضاع جيّدةً، وعلى الرّغم من ذلك كان هناك أمراء، يريدون الموت من أجل ليز. مؤخّراً كان أحدهم هنا في دِن هاغ، كريستيان فون براونْشفايغ، وقد وعدها بأنْ يخيط على رايته القتاليّة: من أجل الرب ومن أجلكِ بالفرنسيّة، وبعد ذلك، هذا ما أقسم لها عليه بحماسةٍ، أراد أن ينتصر في سبيلها، أو يموت. كان بطلاً منفعلاً، إلى درجة أنّ تأثّره باندفاعه جعل الدّمع يتغرغر في عينيه، فربّت فريدريش على كتفه مهدّئاً، ومنحته هي منديلها، فعاد إلى سكب الدّمع من جديد، إلى هذا الحدّ غمرته فكرة أنْ يمتلك منديلاً من أثرها. أسبغت عليه مباركتها الملكيّة، فخطا على دربه مضطّرب المشاعر.

من الطّبيعيّ أنّه لن ينجح، لا من أجل الرّبّ، ولا من أجلها. جنود هذا الأمير قلّة، ونقوده كذلك قليلة، كما أنّه لم يكن ذكيّاً

كفاية، فللتغلّب على فالنشتاين يحتاج الأمر إلى بطلٍ من عيارٍ مختلفٍ، من ضرب ملك السّويد مثلاً، الذي هجم مؤخّراً على المملكة مثل عاصفةٍ رعديّةٍ، وانتصر حتى الآن في المعارك جميعها. هذا مَن كان يُفترض بها أن تتزوجّه آنذاك، حسب مخطّطات البابا، لكنّه لم يرغب بها.

مضى على ذلك نحو عشرين سنة، حينما تزوجّت عوضاً عنه فريدريش المسكين، نحو عشرين سنة ألمانية، دوّامة من الأحداث، والوجوه، والضّجيج، والطّقس الرّديء، والطّعام الأسوأ، والمسرح الأكثر بؤساً.

كان أكثر ما افتقدته هو المسرح الجيّد، ومنذ البداية، أكثر من الطّعام اللّذيذ. في الإمارات الألمانيّة لم يعرفوا المسرح الحقيقيّ، بلْ كان هناك ممثّلون كوميديّون، بائسون، جوّالون تحت المطر، يصرخون، وينطّون، ويضرطون، ويضرب بعضهم بعضاً، ربّما تعلّق الأمر باللّغة الخرقاء؛ لم تكن هذه اللّغة تليق بمسرحٍ، بلْ هي مزيجٌ من أصوات التّأوّه، والشّخرات القاسية، كانت لغةً ذات وقْع، كأنّ أحدهم يكافح ضدّ الاختناق، أو كبقرةٍ مصابةٍ بنوبة سُعال، أو كما عندما تسيل البيرة من منخري شاربها. ماذا في وسع الشّاعر أن يفعل بمثل هذه اللّغة؟ ولقد حاولت أن تقرأ الأدب الألماني، قرأت مرّة لأوبيتس هذا، ومرّةً أُخرى لكاتبٍ آخر،

لكنّها نسيت الاسم؛ لم تستطع أن تحفظ أسماء أشخاص يسمّون أنفسهم دائماً وأبداً كراوتْباخر، أو إنغلكريمر، أو كارغْهولتسْشتاينْغرومْبل، وعندما يكون المرء قد ترعرع على قراءة تْشوسَر، كما أهداها جون دُنٌّ قصيدةً، لقد سمَّاها «عروس العنقاء الجميلة»، «ومن عينيكِ ستستمدّ جميع الطّيور الخفيفة بهجتها الصّاخبة». عند ذلك، ومع الاحترام كلّه، لا يسع المرء أن يضغط على نفسه ويقول: إنّ هذا الثّغاء الألمانيّ يستحقّ أيّ اهتمام.

كثيراً ما كانت تعود بأفكارها إلى مسرح البلاط في وايتهول. فكّرت بلفتات الممثّلين الصّغيرة، بالجُمل الطّويلة، بإيقاعاتها المتبدّلة باستمرار كالموسيقا، سريعةً ومُجلجلة تارةً، وطويلةً متهادية التّأرجُح تارةً أُخرى، متسائلةً تارةً، وآمرةً بحتة تارةً أُخرى. في كلّ مرّةٍ تذهب إلى البلاط الإنجليزيّ لزيارة والديها، كانت تقام هناك عروضٌ مسرحيّةٌ. يقف أناسٌ على الخشبة، ويمثّلون، لكنّها فهمت فوراً أنّ هذا ليس حقيقيّاً، وأنّ التّمثيل أيضاً لم يكن أكثر من قناع، فالمسرح نفسه ليس مزيّفاً، لا، وكلّ شيءٍ عداه كان تكلّفاً، وتنكُّراً، وخزعبلات، كلّ ما لم يكن مسرحاً كان زيفاً. على الخشبة كان النّاس هُم أنفسهم، حقيقيّين تماماً، وشفّافين كلّيّاً.

ليس هناك في الحياة الواقعيّة مَن يقول مونولوجات. كلّ شخصٍ يحتفظ بأفكاره لنفسه، وعندها لا يمكن للمرء قراءة الوجوه، عندها يُجرجر كلّ فردٍ وزْن أسراره الميت. لا أحد يقف وحْده في غرفته، ويتحدّث بصوتٍ عالٍ عمّا يريده ويخشاه، ولكنّ بوربَيج عندما يفعل ذلك على الخشبة، بصوته ذي الصّرير، وأصابعه النّحيلة جدّاً، مرفوعة بمستوى عينيه، كان يُخيَّل إلى المرء أنّه ليس من الطّبيعيّ أنْ يخفي الجميع ما يدور في ذواتهم. ويا للكلمات التي كان يستعملها! كلمات غنيّةً، نادرةً، لمَّاعةً مثل أقمشةٍ ثمينةٍ، وجُملٍ مكتملة التّركيب، كما لا يستطيع المرء قطّ أن يصوغ مثلها. «هكذا يجب أن يكون الأمر». يقول المسرح للمشاهد: «هكذا يجب أن تتكلّم، وتتصرّف، وتشعر، فهكذا يكون الإنسان حقيقيّاً».

عندما ينتهي العرض، ويتلاشى التّصفيق، يعود الممثّلون إلى حالة البؤس والحقارة. في أثناء أداء التّحيّة كانوا واقفين مثل شموعٍ مُطفأةٍ، ثمّ تقدّموا مع انحناءةٍ شديدةٍ: ألاين، وكِمْب، وبوربَيج العظيم نفسه، لتقبيل يد الوالد، وإذا سأل الوالد عن شيءٍ ما، كانوا يجيبون مثل أناسٍ تعاندهم اللّغة، فلا يصيغون جُملاً واضحةً. وجْهُ بوربيج كان شمعيّاً ومُتعباً، وفقدت يداه،

الأقرب إلى البشاعة، ما كان خاصّاً على الخشبة كلّه. ما أسرع ما فارقته روح الخفّة، إنّه لأمرٌ لا يُصدّق!

تلك الرّوح ظهرت بنفسها في إحدى المسرحيّات، التي قدّموها بمناسبة يوم جميع القدّيسين. كانت تحكي عن دوقٍ عجوزٍ في جزيرةٍ سحريّةٍ، كان يصطاد أعداءه، فقط ليعفو عنهم فجأةً. حينذاك لم تستطع أنْ تفهم لماذا اتّخذ موقف الرّحمة، وإذا فكّرت اليوم بالأمر، فإنّها ما زالت لا تفهم. إذا حصل أنْ وقع في قبضتها فالنشتاين، أو القيصر، فستتصرّف حيالهما على نحوٍ مغاير! في خاتمة المسرحيّة قام الدّوق ببساطةٍ بتسريح روحه الخدوم، كي تتمكّن من الاندماج في السّحاب، والأثير، ونور الشّمس، وزرقة البحر، فيما بقي هو مثل كيس طحينٍ قديمٍ، مثل ممثّلٍ ذابلٍ اعتذر قبل قليل عن عدم الأداء؛ لأنّه لم يعُد لديه نصّ. الذي لعب الدّور كان مدير (فرقة رجال الملك) بنفسه، لم يكن أحد الممثّلين الكبار، ليس كِمب، وحتماً ليس بوربيج، وقد لوحظ عليه، أنّه يلاقي صعوبةً في حفظ النّصّ، الذي لم يكن كاتبه شخصاً آخر سواه. بعد العرض قبَّل يدها بشفتين رطبتين، وبما أنّها قد نُبّهت إلى ضرورة أن تطرح سؤالاً ما في مثل هذه المواقف، فقد استفسرت منه عمّا إذا كان لديه أولاد.

- عندي بنتان، وابن واحدٌ، لكنّه مات.

انتظرت، فقد كان على الوالد الآن أن يقول شيئاً، إلّا أنّه بقي صامتاً. نظر مدير الفرقة إليها، نظرت هي إليه، بدأ قلبها يخفق. الحاضرون جميعهم في القاعة انتظروا، السّادة جميعهم بياقاتهم الحريريّة، والسّيّدات جميعهنّ بأكاليل رؤوسهنّ، ومراوح أيديهنّ نظروا إليها. هكذا كان الوالد دائماً، عندما يعتمد المرء عليه، يتركه وحْده. تنحنحت كي تكسب وقتاً، لكنّ المرء لا يكسب إلّا القليل من الوقت بالنّحنحة. لا يمكن للمرء أنْ يُطيل النّحنحة، فهي تكاد لا تفيد للخطوة التّالية.

فقالت إنّها آسفةٌ جدّاً لسماعها بوفاة ابنه. الرّبّ يأخذ فجأةً مثلما يعطي، امتحاناته للبشر غامضةٌ، لكنّها حكيمةٌ، وإذا اجتزناها بكفاءةٍ فإنّها تجعلنا أقوى.

لمدّة طَرْفة عين أحسّت بفخرٍ بنفسها. على المرء أن ينجح في مثل هذا الموقف أوّلاً، وعلى مرأى من الحاشية كلّها ثانياً، ولتحقيق ذلك لا بدَّ من أن يتمتّع المرء بتربيةٍ جيّدةٍ، وأن يكون حاضر البديهة.

ابتسم مدير الفرقة، وحنى رأسه قليلاً، وفجأةً انتابها إحساسٌ بأنّها قد أحرجت نفسها بطريقةٍ يصعب وصفها. أحسّت بحُمرة

الخجل تصبغ وجهها، ولأنّها خجلت من ذلك فقد ازدادت احمراراً. تنحنحت ثانيةً، وسألته عن اسم ابنه، لا لأنّ هذا كان يهمُّها، ولكنْ لم يخطر في بالها شيءٌ آخر.

فأجابها بصوتٍ خافتٍ.

- «حقّاً؟». سألته مدهوشةً: «هملت؟».

- «همنِت». أخذ شهيقاً عميقاً، ثمّ قال متفكّراً، كأنّما يخاطب نفسه: إنّه في حقيقة الأمر لا يعرف ما إن كان قد اجتاز اختبار الرّبّ بكفاءة، حسْبما تظنّ فيه خيراً، إلّا أنّه في لحظةٍ كهذه، حين يحظى بسعادة رؤية المستقبل في هذا الوجه البريء، فإنّه واثقٌ من أنّ حياةً دفعه تيّارُها ليصبّ في مثل هذا البحر، ما كان يمكن أن تكون هي الأسوأ، ولهذا فإنّه، مدعوماً بهذه اللّحظة من النّعمة، مصمّمٌ على قبول عذابِ وجهدِ ما مضى من حياته كلّه، وما سيأتي بكلّ رضاً.

في بادئ الأمر لم يخطر في بالها أيُّ ردّ.

وأخيراً قال والدها: «إنّ هذا كلامٌ جيّدٌ وجميلٌ، لكنّ المستقبل تغطّيه ظلالٌ، فهناك الكثير من السَّحرة أكثر من أيّ وقتٍ مضى. فرنسا غدّارة، والوحدة الفتيّة بين إنجلترا واسكوتلندا لم تخض

أيّة تجربةٍ بعد، والشّؤم يتربّص في كلّ مكانٍ، لكنّ السَّحرة هُم الأسوأ».

فأجاب مدير الفرقة: «بأنّ الشّؤم في حالة تربُّصٍ دائمةٍ، فهذه هي طبيعته، إلّا أنّ يد الحاكم العظيم تردعه، مثلما توقف الرّيح ثقل الغيوم، قبل أن تتحوّل هذه إلى مطرٍ ناعم».

والآن جاء دور الوالد؛ إذْ لم يخطر في باله أيُّ ردّ، وكان هذا مُسلّياً، لأنّه قلّما يحدث. نظر الوالد إلى المدير، فيما نظر الجميع إلى الوالد، لم يقل أحدٌ شيئاً، وطال الصَّمت.

أخيراً، التفت الوالد عن المدير، هكذا ببساطةٍ من دون أيّة كلمة، وهو كثيراً ما يفعلها، فقد كانت هذه إحدى حيَله لإرباك الآخرين، فكانوا يفكّرون عادةً طوال أسابيع بالخطأ الذي بدر منهم، وبما إذا كانوا قد فقدوا الحُظوة. ولكنْ يبدو أنّ المدير قد كشف الحيلة، فتراجع منحنياً، وابتعد، وعلى وجهه ابتسامةٌ طفيفة.

- «أتعتقدين يا ليز أنّك من نوعٍ أفضل؟». سألها مهرّجها عندما حكت له عن ذلك: «أنكِ رأيت أكثر، وتعرفين أكثر، وأنّك من بلدٍ أفضل منّا؟».

- «نعم، أعتقد ذلك». أجابته.

- وهل تعتقدين أنّ والدك سوف ينقذك؟ قادماً على رأس جيش؟

- لا، لم أعد أعتقد ذلك.

- بلْ ما زلتِ تعتقدين ذلك. أنتِ ما زلتِ تظنّين أنّه سيظهر ذات يومٍ، ويعيدك إلى منزلتكِ كملكة.

- لكنّني ملكة.

فضحك ضحكةً خبيثةً، وكان عليها أن تبلع ريقها، وأن تمنع نفسها عن البكاء، وأن تتذكّر أنّ هذه تحديداً هي مهمّته: أن يقول لها ما لا يجرؤ على قوله الآخرون. هذا هو مُسوّغُ وجود المهرّجين، حتّى إنْ لم يرغب المرء في أن يكون لديه مهرّجون، يُفترض به أن يسمح بوجود واحد، فمن دون مهرّج البلاط، لا يكون البلاط بلاطاً، وبما أنّها وفريدريش لم يعودا يملكان بلداً، فبلاطهما على الأقل يجب أن يكون على ما يرام.

كان الحال مع هذا المهرّج غريباً، أحسَّت بذلك فوراً، حينذاك، عندما ظهر في الشّتاء الماضي، في الأيّام شديدة البرودة، وعندما كانت الحياة أشدَّ فقراً من المعتاد، وقف الاثنان فجأةً أمام بابها: الشّابُّ النّحيل ذو الصّدريّة الملوّنة، والمرأة الطّويلة.

كان الإرهاق والرّثاثة باديين عليهما، كانا مريضين من السّفر، ومن مخاطر البراري، ولكنْ عندما رقصا أمامها أحسَّت بانسجامٍ بينهما، وبتجاوب الصّوتين والجسمين، على نحوٍ لم يمرّ بها منذ أن غادرت إنجلترا، ثمّ بدأ بألعاب الخفّة، وعزفت هي على النّاي، ثمّ مثّلا معاً مسرحيّةً تدور حول وصيٍّ وقاصِر، فتظاهرت بموتها، وعندما وجدها بلا حياةٍ قتل نفسه حزناً عليها، وعندما صَحت، ورأت ما رأت، هالها الأمر، فأخذت سكّينه لتنهي بها حياتها أيضاً. كانت ليز تعرف القصّة من إحدى مسرحيّات «فرقة رجال الملك»، ونتيجة تأثّرها بذكرى شيءٍ كان رائعاً ذات يومٍ من حياتها، سألتهما إن كانا يرغبان في البقاء، وأضافت: «ليس لدينا مهرّج قصرٍ بعد».

كفاتحةٍ لعمله لديها أهداها صورةً. لا، لم تكن صورةً، بلْ قطعة قماشٍ بيضاءَ من دون أيّ شيءٍ عليها، وقال لها: «مُري بصُنع إطارٍ لها، يا ليز الصّغيرة، وعلّقيها. أرِها للآخرين». لم يكن يملك الحقّ في مخاطبتها بهذه الصّيغة، لكنّه كحدٍّ أدنى لفظ اسمها بطريقةٍ صحيحةٍ، بما في ذلك الزّاي الإنجليزيّة، لقد لفظها كأنّه كان هناك: «أرِها أيضاً لزوجك، هذه الصّورة الجميلة، دعي الملك المسكين يراها، والآخرين جميعهم أيضاً».

فعلت ليز ذلك. كان لديها لوحة منظر طبيعي أخضر، لم تكن تحبُّها، فأمرت بانتزاعها من إطارها، ووضع القماشة البيضاء في مكانها، ثمّ علَّق المهرّج اللّوحة في القاعة الكبيرة، التي سمَّتها وفريدريش قاعة العرش.

- إنّها لوحةٌ سحريّةٌ يا ليز الصّغيرة. كلّ مَن وِلِد من دون زواجٍ لا يمكنه أن يراها، ومَن كان غبيّاً لا يراها، مَن سرق ذهباً لا يراها. كلّ مَن ينوي سوءاً، وكلّ من لا يوثق به، وكلّ مُذنبٍ خطيرٍ، أو لصّ مواشٍ، أو عاطل بلا جدوى فإنّه لا يراها، بالنّسبة إلى هؤلاء اللّوحة غير موجودة.

فكان لا بدَّ لها من أن تضحك.

- لا، حقّاً، يا ليز الصّغيرة، أخبري النّاس بذلك! أولاد الزّنى، والأغبياء، واللّصوص، والمذنبون، وأصحاب النّوايا السّيّئة، هؤلاء كلّهم لا يرون شيئاً، لا السّماء الزّرقاء، ولا القصر، ولا المرأة الرّائعة المسبلة شعرها الذّهبيّ على الشُّرفة، ولا الملاك الذي وراءها. قولي لهم ذلك، وسترين ما سيحدث.

وما حدث، ما زال يدهشها حتّى اليوم، وكلّ يوم، ولن يتوقّف أبداً عن إدهاشها. وقف الزّائرون حيارى أمام الصّورة البيضاء، ولم يعرفوا ما عليهم أن يقولوا، فقد كان الأمر معقّداً. لقد فهموا

طبعاً أنّه لا يوجد شيء هناك، لكنّهم لم يكونوا واثقين من أنّ ليز تفهمه أيضاً، وبناءً على ذلك كان مُحتملاً، إنْ قال لها أحدهم إنّه لا يرى شيئاً هناك، أنْ تعدّه ابن زنى، أو لصّاً، أو غبيّاً، أو... كانوا جميعهم مضطّربين ومُبلبلي الفِكر. هل كانت الّلوحة مسحورةً، أو هل احتال أحدهم على ليز، أم إنّها هي التي تخدع الجميع؟ وحالُ أنّ الكلّ تقريباً، الذين زاروا خلال هذه المدّة بلاطَ ملوك الشّتاء، كانوا إمّا أولاد زنى، وإمّا أغبياء، أو لصوصاً، أو يضمرون نوايا سيّئةً؛ لم يجعل المسألة أسهل.

على كلّ حال، كثيرٌ من الزّوّار توقّفوا عن الزّيارة. سابقاً كان يأتي أناسٌ كي يروا ليز وفريدريش عَياناً، وقد أتى بعضهم أيضاً ليقدّموا وعوداً، فحتّى وإنْ لم يعُد أحدٌ يؤمن بأنّ فريدريش سيعود إلى حُكم بوهيميا ذات يومٍ، لكنّ الأمر ليس مستحيلاً، فأنْ يعد المرء بشيءٍ ما، لا يكلّف إلّا القليل؛ وما دام الحاكم معزولاً، فلا ضرورة للوفاء بالوعد؛ أمّا إذا جلس على العرش مُجدّداً، فسيتذكّر أولئك الذين دعموه في الأيّام السّوداء، لكنّهما ما عادا يتلقّيان مؤخّراً أيّ شيءٍ غير الوعود، لم يعُد أحدٌ يقدّم لهما هدايا ذات قيمة، قابلة للتّحويل إلى نقود.

أرَت ليز قطعة القماش البيضاء لكريستيان فون براونشفايغ أيضاً بوجهٍ لا مُبالٍ، وشرحت له أنّ الأغبياء، والأنذال، وأبناء

الزّنى لا يستطيعون رؤية اللّوحة الرّائعة، ثمّ تابعت بمتعةٍ هائلةٍ سيلان دموع مُحِبها، وهو يعاود النّظر بحيرةٍ المرّة تِلو الأُخرى إلى البياض الذي يقابل بسُخريةٍ وخواءٍ عاطفته الحماسيّة.

- «إنّها أفضل هديّةٍ تلقّيتها من أحدٍ على الإطلاق». قالت ليز لمهرّجها.

- هذا لن يعادل الكثير، يا ليز الصّغيرة.

- جون دُنّ أهداني قصيدةً، سَمّاني فيها عروس العنقاء الجميلة...

- هناك مَن دفع له يا ليز الصّغيرة، وكان سيصفك بسمكةٍ فاسدةٍ، إذا دُفع له مالٌ لقاء ذلك. ماذا تعتقدين أنّي سأسمّيكِ إنْ دفعتِ لي أكثر!

- وتلقّيت من القيصر عقداً من الزُّمرُّد، وتاجاً من ملك فرنسا.

- هل لي أن أراه؟

لم تُجِرْ جواباً.

- هل اضطّررتِ إلى بيعه؟

بقيت صامتةً.

- ومن يكون شون تُن هذا؟ وماذا تكون الفرقاء الجميلة؟

بقيت صامتةً.

- هل اضطّررتِ إلى إعطاء تاجك لتاجر الرّهونات؟ ومن يرتدي عقد القيصر الآن يا ليز الصّغيرة؟

حتّى ملكها فريدريش المسكين لمْ يجرؤ على قول شيءٍ بشأن الصّورة، وعندما أوضحت له مع ابتسامةٍ ساخرةٍ أنّ الأمر يتعلّق بمزاحٍ فحسب، وأنّ الصّورة ليست مسحورةً، أومأ برأسه فقط، وشملها بنظرةٍ غير واثقةٍ.

كانت تعرف طوال الوقت أنّه ليس من الأذكياء. كان هذا جليّاً منذ البداية، ولكنْ عندما يتعلّق الأمر برجُلٍ في مقامه، لا يعود هذا مهمّاً، فالأمير لا يفعل شيئاً، وإذا كان ذكاؤه باهراً، فسيعدُّ الأمر مُخلًّا بالشّرف تقريباً. من واجب الرّعيّة أن تكون ذكيّةً؛ أمّا هو، فكان نفسه، وهذا يكفي، ولا ضرورة للمزيد.

هكذا رُتّبت الدّنيا، هناك بعض النّاس الحقيقيّين، وهناك البقيّة: جيشٌ من الظّلال، جيشٌ من الأشخاص في الخلفيّة، شعبٌ من النّمل يزدحم على وجه الأرض، والمشترك بينهم هو أنّ ثمّة ما ينقصهم، كانوا يولدون ويموتون، كانوا مثل بقعٍ مرفرفةٍ

حيّةٍ، تنشأ منها أسرابٌ طائرة، إذا اختفى أحدها، يكاد ذلك لا يُلْحظ؛ أمّا البشر المهمّون فكانوا قلّة.

وكون زوجها فريدريش المسكين ليس من الأذكياء، وضعيف البنية فوق ذلك، مع مَيلٍ إلى الشّكوى من آلام المعدة، وآلام الأذنين، تبدّى منذ مجيئه إلى لندن، وهو في السّادسة عشرة من عمره، بمعطفٍ من فراء القاقم الأبيض، وبرفقة حاشيةٍ من أربعمئة رجُل، ولقد جاء لأنّ الخُطّاب الآخرين قد انسحبوا، أو لأنّهم في اللّحظة الحاسمة لمْ يُعلنوا طلب يدها؛ جاء أوّل رفضٍ من ملك السُّويد الشّاب، ثمّ من موريتس أمير أورانج، ثمّ من أُتّْو أمير هِسِّن، ثمّ ظهرت فترةً من الزّمن الخطّة بالغة الجنون لتزويجها من أمير بيمونت، الذي لم يملك مالاً، لكنّه كان ابن أخ ملك إسبانيا، حلمُ الوالد القديم للصّلح مع إسبانيا، لكنّ الإسبان بقوا مرتابين، وفجأةً لم يعُد هناك سوى فريدريش الأمير النّاخب الألماني، ومستقبله العظيم، وطوال شهور بقي مستشار إمارة بفالتس في لندن لإجراء المفاوضات، إلى أن اتّفقوا على: أربعين ألف باوند، دوطة من البابا تُدفع لألمانيا، ومقابلها تَدفع إمارة بفالتس سنويّاً عشرة آلافٍ للندن.

بعد توقيع الاتّفاقيّة سافر فريدريش إلى لندن، وهو جامدٌ تماماً من عدم الشّعور بالأمان، وتلعثم فوراً من بداية كلمة التّحية

التي أراد توجيهها، وأدرك الحضور بؤس معرفته بالفرنسيّة، وقبْل أن يتضخّم الإحراج اقترب منه الوالد بسرعةٍ وعانقه، ثمّ قام الشّابّ المسكين بتقبيلها وفق البروتوكول بشفتين مدبّبتين وجافّتين.

قاما في اليوم التّالي بنزهةٍ نهريّةٍ بأكبر قوارب البلاط، والدتها فقط لم ترغب في الإبحار معهم؛ لأنّ أمير بفالتس في رأيها ليس من مقامهم، وقد حاول مستشار بفالتس بالاعتماد على شهاداتٍ مرتجلةٍ من رجال القانون في بلاطه، أن يزعُم أمامها بأنّ الأمير النّاخب يعادل الملك مرتبةً، لكنّ الجميع كانوا يعرفون أنّ هذا كلامٌ فارغٌ تماماً، فلا يكون ملكاً إلّا مَن كان ملكاً.

في أثناء النّزهة النّهريّة استند فريدريش إلى حاجز القارب محاولاً التّمويه على معاناته من الدُّوار. كانت عيناه طفوليّتين تماماً، لكنّه كان ينتصب في وقفته حسب تعليمات أفضل معلّمي البلاط. «من المؤكّد أنّك مُبارزٌ جيّدٌ بالسّيف». فكّرت ليز: «ولستَ بشعاً، فلا تقلق». كان بودها أن تهمس له: «فأنا الآن معك».

والآن، بعد هذه السّنوات كلّها، ما زال قادراً على الوقوف بصورةٍ مُتقنةٍ، على الرّغم من كلّ ما حدث، وعلى الرّغم من إذلاله،

وتحقيره، وجعله محطّ سُخرية أوروبّا، لا يزال بمقدوره الوقوف منتصباً كما في الأيّام السّابقة، مميلاً رأسه قليلاً إلى الخلف، ورافعاً ذقنه، وشابكاً ذراعيه وراء ظهره، ومازال محتفظاً بعيني البقر الجميلتين.

إنّها تُكنُّ ودّاً كبيراً لملكها المسكين، وليس في وسعها غير ذلك. لقد أمضت معه هذه السّنوات كلّها، وأنْجبت له من الأطفال أكثر من قدرتها على تعدادهم. أطلق عليه النّاس اسم ملك الشّتاء، وعليها ملكة الشّتاء، وكان مصيراهما مرتبطين الواحد بالآخر بلا قابليّةٍ للفصام. في أثناء نزهة نهر التيمز آنذاك لمْ تَحْدِسْ بشيءٍ من هذا، بلْ فكّرت وحسب، أنّ عليها أن تعلّم الفتى المسكين بعض الأمور؛ إذْ عندما يكون اثنان متزوّجين معاً، فلا بدّ من أن يتحادثا معاً أيضاً، لكنّ الأمر سيكون صعباً مع هذا الفتى؛ إذْ لا فكرة لديه عن أيّ شيءٍ.

لا شكّ في أنّه كان مبهوراً تماماً، بعيداً إلى هذا الحدّ عن قصره في هايدلبرغ، وبعيداً عن أبقار الوطن، وعن المنازل المدبّبة، والنّاس الألمان، ولأوّل مرّةٍ في مدينةٍ كبيرةٍ، وليقف هناك مباشرةً أمام هؤلاء السّادة والسيّدات الماكرين والماكرات كلّهم، الذين يوحون بالخوف، وفوق ذلك كلّه أمام والدها، الذي يخيف الجميع في كلّ الأحوال.

مساءً، بعد نزهة القارب جرى بينها وبين أبيها أطول محادثة في حياتها. كانت بالكاد تعرف أباها، فهي لمْ تعش عنده، إنّما ترعرعت عند اللّورد هارينغتُن في دير كومبي، فالعائلات الأرستقراطيّة لا تقوم بتربية أطفالها بنفسها. في أحلامها كان أبوها ظلًّا، صورةً في لوحات، شخصيّةً تظهر في حكايات، سيّد المملكتين: إنجلترا واسكتلندا، متعقّب السَّحَرة الكفّار، مصْدر رُعبِ إسبانيا، الابن البروتستانتيّ للملكة الكاثوليكيّة مقطوعة الرّأس. عندما يقابله المرء، يُدهش في كلّ مرّةٍ من أنّ له هذا الأنف الطّويل، والجيبين المنتفخين تحت عينيه. بدت عيناه دائماً كأنّه ينظر إلى داخل نفسه ويفكّر، فيُشعِر الآخر دائماً بأنّه قد أخطأ في كلامه، لكنّه يفعل ذلك متعمّداً، وقد عوَّد نفسه على ذلك.

كان الأمر بالنّسبة إليها أوّل حوار حقيقيّ: «كيف حالك، يا ابنتي الحبيبة؟». هكذا كان يجري الحوار عادةً، عندما تأتي إلى وايت هول. «شكراً، أنا على خير ما يرام، يا والدي الحبيب». «أمّك وأنا سعيدان لرؤيتك بخير»، «ليس بقدر سعادتي لرؤيتكما بوافر الصّحّة، يا والدي الحبيب». كانت تسمّيه في فكرها بابا، لكنّها لم تجرؤ أبداً على مخاطبته به.

في هذا المساء جلسا معاً وحْدهما لأوّل مرّة. الوالد واقفٌ عند النّافذة، ويداه وراء ظهره. مضت برهةٌ طويلةٌ من دون أن يقول شيئاً، ولأنّها لم تعرف ما يُفترض بها أن تقول، صمتت أيضاً.

- «هذا الأخرق أمامه مستقبلٌ عظيم». قال أخيراً.

وعاد إلى صمْته. تناول شيئاً من المَرْمر عن الرّفّ، تفحّصه، وأعاده إلى مكانه.

- «هناك ثلاثة أمراء ناخبين بروتستانت». قال بصوتٍ خافتٍ جدّاً، ما اضطرّها إلى الانحناء لتسمعه: «وأمير بفالتس؛ أي الذي يخصّك، هو الأعلى مرتبةً، هو رأس الاتّحاد البروتستانتي في المملكة. قيصرها مريض، وقريباً سيقام في فرانكفورت انتخاب قيصرٍ جديد. إذا قوي طرفنا حتّى ذلك الحين...». ونظر إليها متفحّصاً. كانت عيناه بالغتي الصِّغَر، وشديدتي العُمق في محجريهما، ما يوحي إلى الطّرف الثّاني أنّه لا ينظر إليه على الإطلاق.

- «قيصر كالفيني؟». سألته.

- «لا يمكن. غير وارد. إنّما أميرٌ ناخبٌ كان كالفينيّاً، ووجد طريقه إلى الكاثوليكيّة، مثل هنري فرنسا، الذي صار كاثوليكيّاً أو..». وربّت بحركةٍ خفيفةٍ على صدره: «مثلما تحوّلنا نحن إلى

بروتستانت. آل هابسبورغ يفقدون نفوذهم، إسبانيا تكاد تفقد هولندا كلّها، أشراف بوهيميا انتزعوا التّسامح الدّيني لأنفسهم بالضّغط على القيصر»، وصمت مُجدّداً، ثمّ سألها: «ولكنْ هل أعجبَكِ؟».

جاء السّؤال مفاجئاً جدّاً، بحيث لم تدرِ بماذا تجيب، فأمالت رأسها مع ابتسامةٍ. هذه اللّفتة تنجح غالباً، ترضي الطرف الآخر، من دون أن يقدّم المرء التزاماً بشيءٍ مُحدّدٍ، لكنّها مع الوالد لمْ تنجح.

- «ثمّة مخاطرة». قال: «أنت لم تعرفي خالتي، العذراء، التّنّين العجوز. عندما كنتُ فتيّاً، لم يخطر في بال أحدٍ أنّي سأخْلفها. لقد أمرت بقطع رأس أمّي، ولم تحبّني كثيراً، وفكّر النّاس في أنّها ستأمر بقتلي أنا أيضاً، لكنّ هذا لم يحدث. كانت إشبينتك في العماد، أنتِ تحملين اسمها، لكنّها لم تأتِ إلى العماد، وكان هذا علامةً على نفورها منّا، وعلى الرّغم من ذلك خلفتُها على العرش. ما كان أحدٌ ليظنّ بأنّها ستسمح بأن يخلفها ملكٌ من آل ستوارت، حتّى أنا لم أفكّر في ذلك. أنا سأموت قبل نهاية السّنة، هكذا كنت أفكّر كلّ سنة، ثمّ في نهاية كلّ سنةٍ كنت لا أزال حيّاً، وها أنا هنا، فيما هي تتفسّخ في القبر. إذاً، لا تخشي المخاطرة، ليز، ولا تنسي أبداً أنّ الفتى المسكين سوف يفعل ما تقولينه أنت

له. إنّه ليس ندّاً لكِ». فكّر، ثمّ أضاف من دون أيّ رابط: «البارود تحت البرلمان، ليز. كان يمكن أن نموت كلّنا، لكنّنا لا نزال هنا».

كان هذا أطول خطابٍ سَمعته يلقيه في حياتها. انتظرت، ولكنْ عوضاً عن أن يتابع كلامه، شبك يديه ثانيةً وراء ظهره، وغادر القاعة من دون أيّة كلمة.

بقيت وحْدها. نظرت من النّافذة، التي كان في الحال ينظر منها، كأنّها بذلك ستفهم أباها على نحوٍ أفضل، وفكّرت في البارود. لمْ يمضِ على الواقعة أكثر من ثماني سنوات، عندما حاول القتلة اغتيال أبيها وأمها، وجعل البلد كاثوليكيّاً ثانيةً. في عُمق الّليل هزّها الّلورد هارينغتُن، وأيقظها قائلاً: «إنّهم قادمون».

لمْ تدرِ للوهلة الأولى أين كانت، وعمَّ يتكلّم، وعندما انحسر ضباب النّوم تدريجيّاً عن وعيها، لمْ يخطر في بالها سوى شيءٍ واحدٍ: أنّ من غير الّلائق أبداً أنْ يوجد هذا الرّجُل في غرفة نومها، فلم يسبق أبداً أنْ حدث مثل هذا.

- هل يريدون قتلي؟

- بلْ أسوأ. عليكِ أوّلاً تبديل إيمانك، ثمّ سيُجلسونكِ على العرش.

ثمّ سافروا ليلةً، ونهاراً، وليلةً أُخرى. جلست ليز إلى جانب وصيفتها في عربة سفرٍ كانت تهتزّ بكثرة، إلى درجة أنْ استفرغت من النّافذة عدّة مرّات. وراء العربة كان هناك ستّة خيَّالةٍ مُسلّحين، وعلى رأسهم اللّورد هارينغتن. عندما استراحوا في الصّباح الباكر، شرح لها هامساً أنّه هو نفسه لا يعرف شيئاً تقريباً، فقد وصل رسولٌ، وأخبرهم أنّ عُصبةً من القَتلة بقيادة رجُلٍ من اليسوعيين يبحثون عن حفيدة ماريا ستوارت، يريدون اختطافها وتنصيبها ملكةً، وأنّ أباها ربّما قد مات، وكذلك أمّها.

- ولكنْ لا يوجد يسوعيون في إنجلترا. خالة أبي طاردتهم كلّهم!

- «ما زال هناك قلّة منهم متوارين عن الأنظار. أشدّهم خطراً اسمه تزيموند، نحن نبحث عنه منذ مدّةٍ طويلةٍ، لكنّه ينجو في كلّ مرّةٍ، وهو الآن يبحث عنكِ». نهض اللّورد هارينغتن واقفاً، وهو يئنّ، فهو لم يعُد شابّاً، ولم يكن من السّهل عليه امتطاء جوادٍ لساعاتٍ طويلة. «يجب أن نتابع».

ثمّ اختبأوا في دارٍ صغيرةٍ قُرب كوفنتري، ولم يُسمح لليز بمغادرة غرفتها. لم يكن معها سوى دميةٍ واحدةٍ، ولا كتب، ومنذ اليوم الثّاني كان الانتظار يشكّل عذاباً حقيقيّاً، إلى درجة أنّها فضّلت تزيموند اليسوعي على السَّأم في الغرفة: الدّيوان نفسه طوال

الوقت والبلاطات نفسها، التي قامت بتعدادها كذا مرّة، وحفظت أنّ البلاطة الثّالثة من الصّفّ الثّاني محسوبة من جهة النّافذة، كانت غير ثابتةٍ، مثل السّابعة من الصّفّ السّادس، ثمّ السّرير والمبولة، التي كان أحد الخيّالة يفرغها في الخارج مرّتين يوميّاً، ثمّ الشّمعة، التي لم يُسمح لها بإشعالها، كي لا يُرى ضوؤها عبر النّافذة، وعلى الكرسيّ المُجاور للسّرير تجلس الوصيفة، التي حكت لها حتّى الآن قصّة حياتها كاملةً ثلاث مرّات، لمْ يرِد فيها أيُّ حدثٍ مُثير، ولا يمكن لليسوعي أن يكون بهذا السّوء، فهو لا يريد أن يؤذيها، بلْ أن يجعلها ملكة.

صاحبة السّموّ الملكيّ تفهم الأمر على نحوٍ خاطئ». قال هارينغتن: «إذْ إنّكِ لن تكوني حرّةً؛ سيتوجّب عليكِ أن تفعلي ما يأمر به بابا الكاثوليك».

- والآن يتوجّب عليَّ أن أفعل ما تأمرون أنتم به.

- صحيح، ولاحقاً ستكونين شاكرةً لي.

في ذلك الوقت كان الخطر الذي يُهدّدهم قد زال، من دون أن يكون لأحدهم علم بذلك، وقد عُثرَ على البارود تحت البرلمان، قبْل أنْ يتمكّن المتآمرون من إشعال فتيله، كما نَجا والداها من دون أيّ أذى، واعتُقلَ الكاثوليكيّون، وبات الخاطفون مطاردين

يختفون في الغابات، ونتيجة جهلهم بالأمر بقيت ليز سبعة أيّامٍ أبديّةٍ في هذه الغرفة مع البلاطتين غير الثّابتتين، سبعة أيّامٍ إلى جانب الوصيفة التي تحكي لها عن حياتها الخالية من الإثارة، سبعة أيّامٍ من دون كتبٍ، سبعة أيّام مع دُميةٍ واحدةٍ، بدأت تكرهها منذ اليوم الثّالث أكثر ممّا ستكره اليسوعي طوال حياتها.

ولمْ تدر كذلك أنّ والدها خلال هذه المدّة قد اهتمّ بنفسه بموضوع المتآمرين، فلم يستدعِ فقط أفضل الجلّادين في مملكتَيْه، بلْ أيضاً ثلاثة خبراء بالألم من بلاد فارس، إضافةً إلى خبير حاكم الصّين الأشهر في التّعذيب، وأمر بأن يستعملوا مع المساجين أنواع التّعذيب كلّها، التي يمكن لإنسانٍ أن يُنزلها بأناسٍ آخرين، إضافةً إلى ابتكار أشكال تعذيبٍ لم تخطر في بال أحدٍ من قبل، ووجِّهت الأوامر إلى جميع المختصّين، للتّفكير بآلات تعذيبٍ أدقّ، وأشنع، وأفظع ممّا حلم به أشهر رسّامي الجحيم، وكان الشّرط الوحيد ألّا يؤدّي استعمالها إلى انطفاء شعلة الحياة، وألّا تؤدّي إلى الجنون، وفي نهاية المطاف كان على المتآمرين الإقرار بأسماء شركائهم، ثمّ حصلوا على ما يكفي من الوقت ليطلبوا العفو من الرّبّ، وليعبّروا عن ندمهم، فالوالد كان مسيحيّاً طيّباً طبعاً.

وخلال ذلك أرسل القصر مئةً من الخيّالة لحماية ليز، لكنّ مخبأهم كان من الجودة بحيث تاهت عنه فرقة الخيّالة مثل عُصبة اليسوعيين، وهكذا امتدّت الأيّام، ثمّ مرَّ المزيد من الأيّام، ثمّ المزيد مثلها، إلى أنْ توقّف الملل والسّأم فجأةً، وخُيِّل إلى ليز في غرفتها كأنّها الآن قد بدأت تفهم شيئاً من جوهر الزّمن، ممّا لم تستوعبه سابقاً؛ إذْ ليس ثمّة ما انقضى، إنّما كلّ شيءٍ كان. كلّ شيءٍ بقي. حتى إذا تغيّرت الأشياء، فقد كان هذا يجري دائماً في الوقت نفسه، الآن، الذي لا يتبدّل.

في أثناء رحلات الهروب اللاحقة، كانت غالباً ما تفكّر بهذا الهروب. بعد الهزيمة على الجبل الأبيض بَدا لها كأنّها قد حضَّرت نفسها مبكّراً، كأنّها معتادةٌ على الهروب منذ بداية عمرها. «اجمعوا الحرير». صاحت: «اتركوا أدوات الطّعام، ويفضَّل أن تأخذوا الأقمشة، فهي ذات قيمةٍ أكبر في الطّريق، وبالنّسبة إلى اللّوحات، خذوا الإسبانيّة، ودعوا البوهيميّة هنا، فالإسبان يرسمون أفضل»، وقالت لزوجها فريدريش المسكين: «لا تشغل بالك كثيراً بالأمر. يهرب المرء، يتوارى لفترةٍ في المخبأ، ثمّ يعود».

فآنذاك، قُرب كوفنتري، كان الحال كذلك. وصل إليهم في وقتٍ ما خبر أنّ الخطر قد أُزيل، ووصلوا في الوقت المناسب تماماً إلى لندن للمشاركة في القدّاس الكبير لتقديم الشّكر للرّبّ. كانت

الشّوارع بين وِسْتمينْستر وواينهول مزدحمةً بالمحتفلين، ثمّ قدّمت (فرقة رجال الملك) مسرحيّةً، كتبها المدير لهذه المناسبة خاصّةً، وهي تحكي عن ملكٍ اسْكوتلنديٍّ قتله شرّير، رجُلٌ بروحٍ مظلمةٍ، وبتحريضٍ من السَّحَرة، الذين يكذبون بأنْ يقولوا الحقيقة. كانت مسرحيّةً مكفهرّةً ممتلئةً بالنّار، والدّم، وقوّة السِّحر، وعندما انتهت عرفت ليز أنّها لا تريد مشاهدتها ثانيةً على الإطلاق، على الرّغم من أنّها كانت أفضل مسرحيّة في حياتها.

إلّا أنّ زوجها المسكين الغبيّ لم يرغب في أنْ يُصغي إليها، حينذاك، على طريق الهروب من براغ. كان في غاية الانزعاج لخسارة جيشه وعرشه، وأخذ يُهَمهم مكرِّراً أنّ قبوله عرش بوهيميا كان غلطةً. كلّ مَن كان يعوَّل عليهم، كانوا قد قالوا له إنّها غلطة، جميعهم، وكرّروا ذلك، لكنّه بغبائه أصغى إلى الأشخاص الخطأ.

وكان بهذا يقصدها هي طبعاً.

- «لقد أصغيتُ إلى أراء خاطئة!». كرّرها ثانيةً، وبصوتٍ مسموعٍ بما يكفي هذه المرّة لتفهمه، بينما كانت العَربة -الأقلّ لفتاً للنّظر ممّا معهم- تغادر براغ.

وعندها أدركت أنّه لنْ يغفر لها، لكنّه على الرّغم من ذلك سيستمرّ في حبّها، مثلما تحبّه. إنّ جوهر الزّواج لا يكمن فقط في وجود الأولاد، بلْ أيضاً في الجروح جميعها التي ألحقها كلٌّ منهما بالآخر، وفي الأخطاء جميعها التي ارتكباها معاً، وفي الأمور جميعها التي استنكرها أحدهما من الآخر إلى الأبد. إنّه لن يغفر لها أنّها دفعته إلى قبول التّاج، مثلما أنّها لن تغفر له كونه منذ البداية غبيّاً جدّاً بالنّسبة إليها. كان كلّ شيءٍ سيكون أبسط، لو كان أذكى قليلاً فقط، وأسرع بديهةً. ظنّت بادئ الأمر أنّ في وسعها تغيير ذلك، لكنّها أدركت بعدئذٍ أنّ ما من شيءٍ يمكن فعله بهذا الشّأن، والألم الذي نتج من ذلك، لم يتلاشَ كلّيّاً بعد، وفي كلّ مرّةٍ يدخل مكاناً بخطواته الثّابتة، التي أتقنها بالتّدريب، أو عندما تنظر في وجهه الجميل، تحسُّ فوراً مع الحُبّ بوخزةٍ صغيرةٍ.

رفعت السّتارة، ونظرت من نافذة العربة. براغ: عاصمة العالم الثّانية، مركز العلم والثّقافة، المقرّ القديم للقيصر، فينيسيا الشّرق. على الرّغم من هبوط المساء كان في وسع المرء رؤية معالم قصر هرادشين تضيئها انعكاسات ما لا يحصى من ألسنة اللّهب.

- «سوف نعود». قالت، علماً بأنّها لم تعُد تصدّق ذلك، لكنّها كانت تعرف أنّ الهروب لا يمكن احتماله، إلّا إذا تشبّث المرء بوعدٍ: «أنت ملك بوهيميا، هذه مشيئة الرّبّ. سوف تعود».

وعلى الرّغم من سوء الحال، كان هناك في تلك اللّحظة ما أعجبها؛ لقد ذكّرتها بالمسرح: بالهَرْج والمَرْج على صعيد الدّولة، وتاج يتنقّل من رأسٍ إلى رأسٍ، وخسارة معركةٍ كبيرةٍ، وما كان ينقص هو المونولوج.

فحتّى على هذا الصّعيد أخفق فريدريش؛ إذْ إنّه عندما ودَّع بسرعةٍ أفراد الحاشية، شاحبي الوجوه من القلق، كانت تلك لحظة مناسبة لإلقاء خُطبةٍ، كان عليه أنْ يعتلي طاولةً ويخطب، وكان أحدهم سينتبه، وكان آخر سيدوّن في أثناء خطابه ليُتناقَلَ بعدئذٍ. خطبة مدوّية كانت ستخلّده، ولكنْ لم يخطر في باله شيءٌ طبعاً، بلْ هَمْهم بشيءٍ غير مفهوم، وعقبها مباشرةً خرج وإيّاها من الباب إلى الطّريق إلى المنفى، والأشراف البوهيميّون جميعهم، الذين لم تستطع قطّ لفظ أسمائهم بصورةٍ صحيحةٍ. فرشفيتشكي، برتشكاترت، وتشركاتر جميعها التي كان يهمسها في أذنها في الاستقبالات معلّم القصر المسؤول عن اللّغة التشيكيّة، التي لم يكن في وسعها أن تُعيد لفظها، هؤلاء كلّهم لن يعيشوا مطلع السّنة الجديدة، فالقيصر لا يحتمل المزاح.

- «لا بأس». هَمستْ داخل العَربة، من دون أن تعنيها، فالبؤس كان مهيمناً. «لا بأس، لا بأس، لا بأس!».

- ما كان يجوز لي قبول هذا التّاج اللّعين.

- لا بأس!

- أصغيت إلى الأشخاص الخطأ.

- حسناً، لا بأس!

- «هل هناك مجال للعودة؟». سأل همساً: «تغيير ما حدث بطريقةٍ ما، أيمكن؟ نستعين بمنجّمٍ؟ لا بدَّ من أن ينجح بمعونة النّجوم، ما رأيكِ؟».

- «نعم، هذا مُحتمل». أجابته من دون أن تعرف ما أراد أن يقول، وما أثار استغرابها هو أنّها عندما تلمّست وجهه المُبلّل بالدّموع، خطرت في بالها ليلة دخلتها، لم تكن تعرف شيئاً، ولم يخطر في بال أحدٍ أنّ من المهمّ شرح الأمر للأميرة، ولكنْ من الجليّ أنّ هناك مَن قال له إنّ الأمر بسيطٌ جدّاً، على الرّجُل أن يأخذ المرأة، ستكون خجولةً ومتمنّعةً في البداية، لكنّها بعدئذٍ ستفهم، على الرّجُل أن يأخذها بقوّةٍ وإصرارٍ كما العدوّ في ساحة المعركة، ويبدو أنّه أراد التّقيُّد بهذه النّصيحة، ولكنْ عندما

أمسك بها فجأةً، فكّرت في أنّه قد جُنَّ، وبما أنّه كان أقصر منها بطول رأسٍ، نفضته عنها قائلةً: «دعك من هذا الهراء!». حاول مرّةً ثانيةً، فدفعته عنها بشدّة، بحيث اصطدم بمنضدة الطعام، وسقط دورقٌ فتحطّم، وبقيت ليز تذكر طوال حياتها بتلات الوَرْد الثّلاث، وهي تسبح في بركة الماء المسفوح على البلاط المرصَّع، مثل سفنٍ صغيرةٍ. كانت البتلات ثلاث، ما زالت تعرف ذلك بدقّة.

نهض فريدريش، وحاول من جديد.

ولمّا لَحظت أنّها أقوى منه، فإنّها لم تطلب النّجدة، بل ثبّتت معصميه فقط. لم يتمكّن من التّخلّص من قبضتيها. شدّ لاهثاً، فأمسكت به لاهثةً، وهُما يحدّقان في عينيْ بعضهما برُعب.

- «كفَّ عن هذا». قالت.

فأخذ يبكي.

وكما في العربة لاحقاً، همست: «لا بأس، لا بأس، حسناً، لا باس!». وجلست على طرف السّرير، وأخذت تربّت على رأسه.

أمسك بها، وحاول للمرّة الأخيرة مادّاً يده إلى صدرها. صَفعتهُ، فتخلّى عن المحاولة مرتاحاً لذلك. قبّلته على خدّه، فتنهّد، ثمّ تكوّر على نفسه تحت الغطاء، بحيث غاب رأسه أيضاً، ونام فوراً.

ولكنْ بعد أسبوعين تلاقيا لإنجاب ابنهما الأوّل.

كان طفلاً ودوداً، يقظاً، كأنّه مُحاطٌ بهالةٍ، كانت عيناه مضيئتين، وصوته جليّاً، وكان جميلاً مثل أبيه، وذكيّاً مثل ليز، التي ما زالت تذكر بوضوحٍ حصانه الهزّاز، والقصر الصّغير، الذي كان يبنيه بقطعٍ صغيرةٍ من الخشب، وكيف كان يغنّي بصوتٍ ثابتٍ وحادٍّ أغانٍ إنجليزيّةً وفق توجيهاتها. كان في الخامسة عشرة من عُمره عندما غرق تحت قاربِ عبَّارةٍ مُنقلب. سبق أنْ مات لها أطفال، ولكنْ لا أحدَ منهم تأخّر بهذا الشّكل. عندما كانوا صغاراً، كان المرء يتوقّع موتهم يوميّاً تقريباً؛ أمّا هذا فقد اعتادت وجوده طوال خمسة عشر عاماً، لقد ترعرع أمام عينيها، ثمّ فجأةً رحل. كانت تفكّر فيه طوال الوقت، ودائماً في اللّحظات التي علق فيها تحت العبّارة المُنقلبة، وإذا تمكّنت لفترةٍ قصيرةٍ من عدم التّفكير فيه، كان يأتيها في الحُلم بوضوحٍ أشدّ.

لكنّها في ليلة الدّخلة لم تكن تعرف شيئاً عن هذا، ولا لاحقاً في العربة عندما هَربا من براغ، الآن فقط عرفت، في الدّار قُرب دِن هاغ، التي سمّوها مقرّهم، على الرّغم من أنّ الدّار كانت قصراً من طابقين فقط: في الأسفل توجد غرفة المعيشة التي سمّوها صالة الاستقبال، وأحياناً صالة العرش أيضاً، وهناك المطبخ الذي سمّوه قسم الخدم، وإلى جانبه يوجد البناء المُلحق الصَّغير

الذي سمّوه الإصطبلات، ثمّ غرفة نومهم في الطّابق الأوّل التي سمّوها غرف المعيشة. هناك حديقة أمام الدّار سمّوها الحديقة، مُحاطةٌ بسياجٍ نباتيٍّ، قلّما قُلِّم.

لمْ يسبق لها أنْ عرفت قطّ عدد الأشخاص المقيمين عندهم، كان هناك وصيفات، وطبّاخ، وكان هناك الكونت هودِنيتس، وهو غبيٌّ عجوزٌ هرب معهم من براغ، وعيّنه فريدريش فجأةً مستشاراً، وهناك جنائنيٌّ يقوم بأعمال الإصْطبلات، الأمر الذي لا يعني شيئاً؛ إذْ نادراً ما توفّرت حيوانات في الإصْطبل، وكان هناك خادم يعلن أسماء الضّيوف بصوتٍ عالٍ، ويقدّم بعدها الطّعام على المائدة. لفت نظرها مرّةً أنّ الخادم والطّبّاخ لا يشبهان بعضهما فقط، حسبما كانت تظنّ، بلْ هُما الشّخص نفسه، فكيف لم تلحظ ذلك قبلها؟ الخَدم كانوا ينامون في قِسْم الخَدم، عدا الطّباخ الذي ينام في الرُّدهة، والجنائنيّ الذي ينام مع زوجِه في صالة العرش، هذا إذا كانت زوجَهُ؛ إذْ إنّ ليز لم تكن واثقةً، فلا يليق بملكةٍ أن تشغل بالها بمثل هذه الأمور، لكنّ المرأة كانت ممتلئة الجسم، ولطيفةً، ويُعتمد عليها كجليسة أطفال؛ أمّا نِلِه والمهرّج فكانا ينامان في الدّهليز، وربّما لم يناما على الإطلاق، فليز لم تشاهدهما نائمين قطّ. لم تكن إدارة

الشّؤون الماليّة للدّار نقطة قوّةٍ لديها، فعهدت بذلك إلى معلّم الأولاد، الذي كان يطبخ أيضاً.

- «أيمكنني أخذ المهرّج معي إلى ماينتس؟». سألها فريدريش.

- ما حاجتك بالمهرّج؟

فشرح لها بأسلوبه المُرتبك أنّ عليه هناك أن يظهر كحاكم، والمهرّج جزءٌ من الحاشية.

- إذا كنت تعتقد أنّ هذا سيخدمك، فلا بأس.

وهكذا سافروا: زوجها، والمهرّج، والكونت هودِنيتس، والتحق بهم الطّبّاخ أيضاً، كي لا تبدو الحاشية هزيلةً. رأتهم يبتعدون تحت سماء نوفمبر/تشرين الثّاني الرّماديّة. تابعتهم بنظرها من النّافذة حتّى غابوا. انقضى بعض الوقت، وكانت حركة الأشجار تكاد لا تُلحظ. سوى ذلك لم يتحرّك شيء.

جلست كعادتها في مكانها المفضّل بين النّافذة والمدفأة، التي لم توقد فيها أيّ نارٍ منذ مدّةٍ طويلة. كان بودّها أن تطلب من الوصيفة بطانيّةً ثانيةً، لكنّ الوصيفة هربت أوّل أمس. سيجدون واحدةً جديدةً. هناك دائماً عائلات بورجوازيّة تريد لبناتها أنْ تخدمن ملكة، وإن كانت ملكةً مَثارَ سُخريةٍ، يتداول

النّاس فيما بينهم صورها المُضحكة. يقال في البلدان الكاثوليكيّة: إنّها ضاجعت أشراف براغ كلّهم، كانت تعرف ذلك منذ وقتٍ طويلٍ، ولم تستطع فعل شيءٍ لمقاومته سوى أن يكون سلوكها ملكيّاً، وودوداً، ووقوراً على نحوٍ خاصّ. لقد أهْدر القيصر دَم فريدريش وليز، ومَن أراد قتلهما، يجوز له ذلك، من دون أن يتعرّض للحرمان من بَركة الكنيسة من قِبَل أيّ كاهنٍ.

بدأت السّماء تثلج. أغمضت عينيها، وأخذت تصْفر لحناً لنفسها. أطلق النّاس على زوجها المسكين اسم ملك الشّتاء، ولكنْ عندما يشتدُّ البَرد، كان يرتجف على نحوٍ رهيب. قريباً سيصل ارتفاع الثّلج في الحديقة إلى الرُّكبة، ولن يقوم أحدٌ برفع الثّلج عن الدَّرب، حتّى الجنائنيّ قد هرب. ستكتب إلى كريستيان فون براونشفأيغ راجيةً إيّاه من أجل الرّبّ، ومن أجل العذراء أنْ يرسل إليها بعض الرّجال لرفع الثّلج.

فكّرت باليوم الذي غيّر كلّ شيء. باليوم الذي وصلت فيه الرّسالة، ومعها الشُّؤم. تلك التّواقيع كلّها الممطوطة الخطّ، وكلّها أسماءٌ عسيرة اللّفظ، الواحد مثل الآخر، أسْياد لم يسبق لها أنْ سمعت بأيٍّ منهم، يعرضون على الأمير النّاخب فريدريش تاج بوهيميا. ما عادوا يريدون ملكهم القديم، الذي يجسّد في الاتّحاد الكاثوليكيّ القيصر أيضاً؛ يريدون أن يكون حاكمهم

الجديد بروتستانتيّاً، وللمُصادقة على قرارهم قاموا برَمْي مُحافظي المدن البوهيميّة التّابعين للقيصر من نافذة قصر براغ.

لكنّهم سقطوا في كومةٍ كبيرةٍ من الخراء، فنجوا. تحت نوافذ القصور هناك دائماً الكثير من الخراء، وهذا راجع إلى العدد الكبير من المَباول التي لا بدَّ من تفريغها يوميّاً، لكنّ السُّخف في الموضوع هو أنّ اليسوعيين في البلد كلّها قد قالوا في عِظاتهم: إنّ ملاكاً قد تلقّى المحافظين، وأوصلهم إلى الأرض بنعومة.

ما إنْ وصلت الرّسالة حتّى كتب فريدريش إلى والدها في لندن يستشيره، فأجابه مع البريد السّريع: «يا صهري العزيز، لا تفعلها بأيّ حالٍ من الأحوال».

ثمّ سأل فريدريش أمراء الاتّحاد البروتستانتيّ، وتقاطر المُراسلون طوال أيّامٍ، رجالٌ لاهثون على جِيادٍ يتصاعد منها البخار بسبب الجَرْي، وفي كلّ رسالةٍ كان الجواب نفسه: «لا تكنْ غبيّاً يا سموّ الأمير النّاخب، لا تفعلها!».

سأل فريدريش كلّ مَن تمكّن مِن الوصول إليه، وكان يُسوّغ طوال الوقت أنّه لا بدَّ من التّفكير بالأمر بكلّ دقّة. إنّ بوهيميا ليست جُزءاً من أرض المملكة، وبالتّالي حسْب رأي خبراء قانونٍ

مهمّين، فإنّ قبول التّاج ليس انتهاكاً لقَسَم التّبعيّة إلى جلالة القيصر.

- «لا تفعلها!». كتب الوالد من لندن ثانيةً.

وعندها فقط سأل فريدريش ليز. كانت تنتظر ذلك، وكانت مستعدّةً له.

كان ذلك في وقتٍ متأخّرٍ مساءً، وكانا في غرفة النّوم، مُحاطَيْن بلهب شموعٍ منتصبةٍ بلا حراكٍ في الهواء، فبمثل هذا الهدوء لا تشتعل سوى أغلى الشّموع.

- «لا تكنْ غبيّاً!». قالت هي أيضاً، وتركت لحظةً طويلةً تمرّ، ثمّ أضافت: «كم مرّة يُعرضُ تاجٌ على أحدهم؟».

كانت تلك هي اللّحظة التي غيّرت حياتها، اللّحظة التي لم يغفرها لها قطّ، وكان عليها أنْ تراها طوال حياتها ماثلةً أمامها: سريرهما ذو الأعمدة الأربعة المزدان بشعار سُلالة فيتِلزْباخ (الملكيّة المضادّة) على واجهة مظلّته، ولهب الشّموع المنعكسة على الدّورق فوق البوفيه، واللّوحة الضّخمة على الجدار التي تمثّل امرأةً مع كلبٍ صغير، ولم تعُد تذكر لاحقاً اسم مَن رسمها؛ إذْ كان الأمر سيّان أيضاً، فهي لم تأخذها معها إلى براغ؛ لقد ضاعت.

- كم مرّة يُعرض تاجٌ على أحدهم؟ كم مرّة يحدث أن يكون قبولك إيّاه عملاً يرضي الرّبّ؟ لقد مُنِحَ البروتستانت في بوهيميا صكَّ التّسامح، ثمّ سُحِبَ منهم، فالطّوق حولهم يزداد ضيقاً. أنت الوحيد القادر على مساعدتهم.

وفجأةً، خُيِّل إليها أنّ غرفة النّوم هذه، ذات السّرير رُّباعيّ الأعمدة، واللّوحة الضّخمة، والدّورق، هي خشبة مسرح، كأنّها تخاطب صالةً ممتلئةً بمشاهدين مشدودين إليها بصمت. خطر في بالها مدير الفرقة، والسُّلطة السِّحريّة لجُمَله المُهيمنة على الجوّ؛ تهيّأ لها أنّ هذه الجُمل تحيط بظلال كُتّاب تاريخ المستقبل، وأنّها ليست هي التي تتكلّم، إنّما ممثّلةٌ ستظهر لاحقاً في مسرحيةٍ تعالج هذه اللّحظة، وستكون مهمّة الممثّلة لعبَ دور الأميرة إليزابِيت ستوارت. موضوع المسرحيّة سيكون مستقبل المسيحيّة، ومملكة وقيصر، فإذا أقنعت زوجها، سيتّخذ العالم مساراً مُعيَّناً، وإذا لم تقنعه، فسيتّخذ مساراً مُختلفاً.

نهضت واقفةً، مشت بخطواتٍ ثابتةٍ ذهاباً وإياباً، وألْقتْ المونولوج خاصّتها.

تكلّمت عن الرّبّ، وعن واجباتٍ، تحدّثت عن إيمان النّاس البسطاء، وعن إيمان الحكماء، تكلّمت عن كالين الذي علَّم

البشر جميعهم ألّا يستخفّوا بالحياة، بلْ أن يعدّوها امتحاناً، يمكن للمرء كلّ يومٍ أنْ يُخفق فيه، فإذا أخفق حقّاً، فسيُعدُّ مُخفقاً أبديّاً، وتحدثت عن أنّ على المرء مواجهة المجازفات بفخرٍ وجُرأة، وتحدّثت عن يوليوس قيصر، الذي اجتاز نهر روبيكوني قائلاً: «النّرد في الهواء الآن».

- يوليوس قيصر؟

- دعني أنْهي كلامي!

- لكنّي لنْ أكون يوليوس قيصر، سأكون عدوّه. في أفضل الحالات سأكون بروتوس. القيصر هو يوليوس قيصر!

- في هذا التّشبيه أنت قيصر.

- القيصر هو يوليوس قيصر، ليز. القيصر اسمه قيصر! إنّها الكلمة نفسها.

- «ربّما هي الكلمة نفسها». قالت: «لكنّ هذا لا يغيّر شيئاً من أنّ يوليوس قيصر في هذا التّشبيه ليس القيصر، حتّى لو كان اسمه قيصر، إنّما هو الرّجُل الذي اجتاز نهر روبيكوني، ورمى النّرْد في الهواء، فإذا نظر المرءُ إلى الأمر بهذه الطّريقة، يكون سيزار عندها

هو فريدريش؛ لأنّه هو سوف يهزم أعداءه، وليس القيصر في فييِنّا، حتى لو حمل لقب قيصر!».

- لكنّ يوليوس قيصر لمْ يهزم أعداءه، بلْ أعداؤه قاموا بطعنه!

- يستطيع أيُّ شخصٍ أن يطعن أيَّ شخصٍ، وهذا لا يعني شيئاً، لكنّ أعداءه طواهم النّسيان، فيما اسمه لا يزال حيّاً.

- نعم، وهل تعرفين أين؟ في كلمة قيصر.

- عندما تكون أنت ملك بوهيميا، وأنا ملكة، فسيُرسل البابا لنا نجدةً، وعندما يرى اتّحاد الأمراء البروتستانتيّين أنّ الإنجليز يحمون براغ، فسيتكاتفون معنا. تاج بوهيميا هو القطرة التي جعلت المحيط يفيض.

- البرميل! القطرة التي تجعل البرميل يفيض؛ أمّا قطرةٌ في المحيط فتدلُّ على ما لا جدوى منه. أنت تقصدين قطرة في برميل.

- لا علاقة لهذا باللّغة الألمانيّة، هذا منطق.

وعندها نفدَ صبرها، وصرخت أنّ عليه أنْ يسكت ويُصغي، فهَمْهم اعتذاراً وسَكت، فكرّرت كلّ شيءٍ ثانيةً: روبيكوني، النّرْد،

الرّبّ معنا، ولحظت بفخرٍ عند التّكرار الثّالث أنّ وقْع الكلام كان أفضل؛ إذْ إنّها الآن قد ربطت الجُمل الصّحيحة مع بعضها.

- هل سيرسل أبوكِ جنوداً؟

نظرت في عينيه. كانت هذه هي اللّحظة، كلّ شيءٍ كان الآن مرتبطاً بها: ما سيحدث منذ الآن كلّه، القرون القادمة كلّها، المستقبل غير النّهائيّ كلّه، كلّ شيءٍ كان متعلّقاً بجوابها.

- إنّه أبي، ولن يخذلني.

وعلى الرّغم من علمها بأنّها ستكرّر هذا الحوار نفسه غداً، وبعد غدٍ أيضاً، فإنّها كانت تعرف أيضاً أنّ القرار قد حُسِم، وأنّها سوف تُتوَّج في كاتدرائيّة براغ، وأنّها سوف تملك مسرح بلاطٍ يمثّل فيه أفضل ممثّلي العالم.

تنهّدت. مع الأسف، لمْ تستطع أنْ تحقّق ذلك، لمْ يكفها الوقت، فكّرت بين النّافذة والمدفأة الباردة، وهي تشاهد نُدف الثّلج تتساقط: ذلك الشّتاء الوحيد لم يكفِ، فتأسيس مسرح بلاطٍ يحتاج إلى سنواتٍ، لكنّ تتويجهما معاً على كلّ حالٍ كان على درجةٍ من الرِّفعة، حسْبما تخيّلته لنفسها، وجلبت بعد ذلك أفضل فنّاني بوهيميا، ومورافيا، وإنجلترا، وجلست أمامهم

ليرسموها، وتناولت طعامها من صحونٍ ذهبيّةٍ، ونظمت لنفسها مواكب عبْر المدينة في محفّةٍ حملها شبابٌ يرتدون أزياء الملائكة.

في أثناء ذلك، أرسل فريدريش رسائل إلى البابا: «القيصر سوف يأتي، يا والدي الحبيب، لا شكّ في أنّه سيأتي، إنّنا في حاجةٍ إلى حماية».

فأجاب الوالد متمنّياً لهم القوّة والمِنعة، واستنزل عليهم بركات الرّبّ، وقدَّم إليهم نصائح تتعلّق بالصّحّة، وبديكور قاعة العرش، وممارسة الحكم، كما أكّد لهم حُبّه الأبديّ، ووعدهم بأن يكون جاهزاً دائماً من أجلهم.

إلّا أنّه لمْ يُرسل جنوداً.

وأخيراً، عندما كتب فريدريش إليه متوسّلاً، أنّه في حاجةٍ إلى مساعدةٍ، من أجل الرّبّ والمسيح، أجابه جيمز السّادس: بأنّه لن تمرّ ولو لحظة واحدة لا يكون فيها أولاده الأحبّة مركز آماله كلّها، وحرصه عليهم.

ولكنْ بما أنّه لمْ يُرسلْ جنوداً، فإنّ الاتّحاد البروتستانتيّ لمْ يُرسلْ جنوداً أيضاً، وهكذا لمْ يتبقّ أمامهما سوى جيش بوهيميا، الذي تجمَّع أمام المدينة بكامل زينته وأسلحته.

من قصر هرادشين رأته يسير بمشيةٍ نظاميّةٍ، وأدْركت برُعبٍ باردٍ أنّ هذه الحِراب اللّامعة، هذه السّيوف، والرّماح الفأسيّة ليست مجرّد أشياءٍ لمّاعة، إنّما هي نصالٌ، إنّها سكاكين مسنونة لغرضٍ واحدٍ لا غير: لذبح لحمٍ بشريٍّ، لاختراق جِلْدٍ بشريٍّ، ولتفتيت عظامٍ بشريّةٍ، والبشر الذين يمشون هناك تحت، مشيةً نظاميّةً جميلةً، سيستعملون هذه السّكاكين الطّويلة ليطعنوا بها وجوه بشرٍ آخرين، وسيتلقّون هُم أنفسهم طعناتٍ في بطونهم وأعناقهم، وكثيرون منهم ستصيبهم قذائفُ فولاذيّةٌ مصبوبةٌ، تطير بسرعةٍ خارقةٍ، فتقتلع رؤوساً، وتمزّق أطرافاً، وتخترق بطوناً، ومئات من دلاء الدَّم، التي ما زالت تجري في عروق هؤلاء الرّجال، سُرعان ما لنْ تبقى هناك، بلْ ستتطاير، وتسيل، وتتسرّب أخيراً في التّراب: ماذا تفعل التّربة بهذه الدّماء كلّها، أيغسلها المطر أم هي سمادٌ يجعل نباتاتٍ مُعيّنةً تنمو؟ أحد الأطباء قال لها: إنَّ المَني الأخير للميتين يؤدّي إلى توليد اللفّاح الدّرنيّ الصّغير، الذي يشبه هيئة البشر، درنات تصرخ مثل الرُضَّع عندما ينتزعها الإنسان من التّربة.

وعرفت ليز فجأةً أنّ هذا الجيش سوف يخسر المعركة. عرفت ذلك بيقينٍ جعلها تدوخ: لم يسبق لها قطّ أنْ رأت المستقبل، ولم تنجح في ذلك لاحقاً، ولكنْ في هذه اللّحظة لمْ يكن الأمر حَدْساً،

بلْ يقيناً جليّاً: هؤلاء الرّجال سوف يموتون، كلّهم تقريباً، عدا الكُسحان، والذين ببساطةٍ سيهربون من القتال، وبعدها ستهرب مع فريدريش والأطفال في اتّجاه الغرب، وسيعيشون حياة منفىً طويلة؛ حتّى إلى هايدلبرغ لن يتمكّنوا من العودة، لأنّ القيصر لن يسمح بذلك.

وهذا هو ما جرى تماماً.

وأخذوا يتنقّلون من بلاطٍ بروتستانتيٍّ إلى آخر، مع تقلُّصٍ مستمرٍّ لحاشيتهم، وتناقصٍ مستمرٍّ لمالهم، يلاحقهم ظلُّ هدْرِ دَمهما، وتجريدهما من حصانة الأمراء، فابن عمّ فريدريش الكاثوليكي في بافاريا صار بمشيئة القيصر أميراً ناخباً بدل فريدريش، وبموجب أحكام الثّور الذّهبيّ (القانون القيصري القديم) لم يكن يجوز للقيصر اتّخاذ هذا الإجراء، ولكنْ مَن الذي سيمنعه، فقادة الجيش القيصريّ كسبوا المعارك جميعها. كان في وسع الوالد مساعدتهما، وقد كتب لهما –فعلاً بانتظامٍ- رسائل ممتلئةً بالتّعاطف والقلق، وبأجمل أسلوبٍ، لكنّه لم يُرسلْ جنوداً، كما نصحهما بعدم القدوم إلى إنجلترا، فالوضع غير ملائمٍ؛ بسبب المفاوضات الجارية مع إسبانيا، وعلى كلّ حال هناك قوّات إسبانيّة حاليّاً في إمارة بفالتس، بقصد متابعة الحرب من هناك ضدّ هولندا: «فانتظروا يا أبنائي، الرّبُّ مع

المنصفين، والسّعادة من نصيب الشُّرفاء، ولا تفقدوا التّفاؤل. ما من يومٍ يمرُّ من دون أن يصلّي أبوكم جيمز السّادس من أجلكم».

واستمرّ القيصر في كسْب المعارك الواحدة تِلو الأُخرى، فهزم الاتّحاد البروتستانتيّ، وهزم ملك الدّنمارك، وبدا مُحتملاً لأوّل مرّةٍ أنْ تزول البروتستانتيّة من دنيا الرّبّ.

لكنْ بعدئذٍ جاء ملك السُّويد غوستاف أدولف، الذي لم يشأ الزّواج من ليز، وانتصر على القيصر. ربح المعارك كلّها، وهو يعسكر الآن في مقرّ الشّتاء قُرب ماينتس، وبعد تردُّدٍ طويلٍ كتب إليه فريدريش بتدفّقٍ حيويٍّ، وذيّل الخطاب بختمه الملكيّ، وبعد شهرين فقط وصلت رسالة إلى دِن هاغ وعليها أيضاً ختْمٌ ملكيٌّ كبير: «يسرّنا أنْ نعلم أنّكم بخير، ونأمل أن تزورونا».

لم يكن الوقت ملائماً، كان فريدريش مزكوماً، وظهره يؤلمه، ولكنْ لم يكن هناك سوى إنسانٍ واحدٍ يمكنه أنْ يعيدهم إلى إمارة بفالتس، وربّما إلى براغ أيضاً، وعندما يوجّه هذا دعوةً، فلا بدَّ من تلبيتها.

- أيجب عليَّ حقاً؟

- نعم، فريتس(2).

- ولكنْ لا يحقّ له أن يأمرني.

- طبعاً لا.

- أنا ملكٌ مثله.

- طبعاً فريتس.

- فهل يجب أن أذهب؟

- نعم، فريتس.

وهكذا انطلق فريدريش مع المهرّج، والطّبّاخ، وهودِنيتس، وكان حقّاً قد آن الأوان لأنْ تتغيّر الأمور، فأوّل أمس كان طعام الغداء هريس الحبوب وخبزاً للعشاء، وأمْس كان الخبز طعام الغداء، ولا شيء للعشاء. لقد سئمت من مجلس برلمان المملكة الهولنديّة، الذي لم يعُد يعطيهم مالاً يكفي للعيش.

رمشتْ بعينيها إلى دوّامة الثّلج. لقد اشتدّ البَرد. «ها أنا ذا أجلس هنا». فكرَت: «ملكة بوهيميا، أميرة بفالتس النّاخبة، ابنة ملك إنجلترا، ابنة أخ ملك الدّنمارك، الحفيدة غير المباشرة للملكة العذراء إليزابيت، حفيدة ماريا ملكة اسكوتلندا، ولا أستطيع توفير حطبٍ لمدفأتي».

لَحظت أنّ نِله تقف إلى جانبها. فاجأها ذلك للحظةٍ، فلماذا لم تذهب مع زوجها، هذا إذا كان زوجها فعلاً؟

أدّت نِله التّحيّة بثَنْي رُكبتها، ثمّ وضعت مقدّمة حذاء قدمها اليُمنى أمام اليسرى، وبسطتْ ذراعيها، وباعدت بين أصابع يديها.

- «لا رقص اليوم». قالت لها ليز: «اليوم سوف نتحادث».

أومأت نِله برأسها بطاعةٍ.

- سوف نحكي. أنا لكِ، وأنتِ لي. ماذا تريدين أن تعرفي؟

- مدام؟

كانت نِله تبدو مهمَلةً نوعاً ما، وكانت لها تلك البنية الجسديّة الغليظة، وملامح الوجه الخشنة، الخاصّة بطبقتها الوضيعة، ومع ذلك كانت جميلةً، بعينين داكنتين يقظتين، وشَعرٍ حريريٍّ، ووركين مُنحنيين، لكنّ ذقنها كان عريضاً جدّاً، وشفتاها مكتنزتين جدّاً.

- «ماذا تريدين أن تعرفي؟». كرّرت ليز. شَعرت بوخزةٍ في صدرها، نصف خوفٍ، ونصف إثارةٍ: «اسألي ما تشائين».

- هذا لا يليق بي، مدام.

- عندما آمرُ أنا بذلك، يصبح لائقاً بكِ.

- أنا لا يزعجني أنْ يضحك النّاس منّي ومن تيل، فهذه هي مهنتنا.

- هذا ليس سؤالاً.

- السّؤال هو: هل يؤلمك يا صاحبة الجلالة؟

- إنّي لا أفهمك.

ابتسمت نِله.

- لقد قرّرتِ أن تسأليني عن شيءٍ لا أفهمه، كما تريدين، أنا أعطيتك جواباً، والآن جاء دوري. هل المهرّج زوجك؟

- لا، مدام.

- كيف لا؟

- هل يحتاج الأمر إلى سبب؟

- نعم، هذا الأمر يحتاج فعلاً إلى سبب.

- لقد هربنا معاً. أبوه حُكم عليه بالإعدام على أنه ساحر، وأنا لم أُرِد البقاء، لم أرِد الزّواج من عائلة شتيغر، لهذا هربت معه.

- لماذا لم تريدي الزّواج؟

- قذارةٌ دائمة، مدام، ومساءً لا توجد إضاءة؛ الشّموع غاليةٌ جدّاً، فيجلس المرء في العتمة، ويأكل هريس الحبوب، وابن شتيغر ما كنت أطيقه.

- وماذا عن تيل؟

- كما قلت لكِ: إنّه ليس زوجي.

- «الآن دورك ثانيةً لتسألي». قالت ليز.

- هل يكون الحال سيّئاً عندما لا يملك المرء شيئاً؟

- كيف لي أن أعرف ذلك، أخبريني أنت؟

- «ليس سهلاً». قالت نِله: «بلا حمايةٍ، بلا وطنٍ عبْر البلاد، لا بيت يحمي من الرّيح. الآن عندي بيت».

- وإذا صرفتكِ تفقدينه. إذنْ: لقد هربتما معاً، ولكنْ لماذا تيل ليس زوجك؟

- أخذَنا مُغنٍ جوّالٌ معه. في ساحة السّوق التالية التقينا لاعبَ خفّةٍ اسمه بيرمين، ومنه تعلّمنا المهنة، لكنّه كان نذلاً، ولم يعطنا كفايتنا من الطّعام، وكان يضربنا. توجّهنا نحو الشّمال بعيداً

عن الحرب، وكِدنا نصلُ إلى البحر، لكنّ السُّويديّين نزلوا على شاطئنا، فتجنّبناهم بالتّوجُّه نحو الغرب.

- أنتِ، وتيل، وبيرمين؟

- عندها كنّا قد عُدنا نحن الاثنان وحْدنا.

- هل هربتما من بيرمين؟

- تيل قتله. أيجوز لي أن أسأل مجدّداً، مدام؟

صمتت ليز برهةً. ألمانيّةُ نِله فلّاحيّةٌ وغريبةٌ، وقد تكون فهمت شيئاً من كلامها على نحوٍ خاطئ. «نعم». قالت بعدئذٍ: «يجوز لكِ أن تسألي مُجدّداً».

- كم خادمة كان عندك سابقاً؟

- حسْب عقْد زواجي كان عدد اللّواتي يقُمن على خدمتي وحْدي ثلاثاً وأربعين، منهنّ ستّ وصيفاتٍ خاصّاتٍ من طبقة الأشراف، وكان لكلّ واحدةٍ منهنّ أربع وصيفات.

- واليوم؟

- الآن جاء دوري. لماذا تيل ليس رجُلكِ؟ ألا تحبّينه؟

- إنّه مثل أخٍ وأبوين. إنّه كلّ ما أملك، وأنا كل ما يملك.

- لكنّكِ لا تريدينه كرجُلك؟

- هل جاء دوري، مدام؟

- نعم، جاء دوركِ.

- هل أردته أنت ليكون رجُلك، مدام؟

- مَن؟

- صاحب الجلالة. هل أرادت جلالتكِ جلالته كرجُل، عندما تزوجتِ جلالتكِ به؟

- هذا شيءٌ مختلفٌ، يا بنت.

- لماذا؟

- كان الأمر من شؤون الدّولة؛ أبي ووزيرا خارجية البلدين أجروا مفاوضاتٍ استغرقت شهوراً، ولهذا السّبب أردته حتّى قبْل أن أراه.

- وعندما رأيته، جلالتك؟

- «عندها أردته فعليّاً». قالت ليز مقطّبةً جبينها، فهذه المحادثة لم تعد تعجبها.

- وجلالته سيّدٌ ملوكيٌّ جدّاً.

حدّقت ليز إلى وجهها بجِدّة.

فأجابت نِله على نظرتها بعينين مفتوحتين بكلّ اتّساعهما. كان من الصّعب معرفة ما إنْ كانت نِله تسْخر منها.

- «بإمكانكِ أن ترقصي الآن». قالت ليز.

ثنتْ نِله رُكبتها تحيّةً، ثمّ بدأت ترقص. أخذ حذاؤها يطقطق على الأرضيّة الخشبيّة، وذراعاها يتماوجان، وكتفاها يدوران، وشعرها يطير. كانت إحدى أصعب الرّقصات حسْب الموضة الأكثر جدّةً، وقد أدّتها نِله برشاقةٍ أنيقةٍ، وشَعرت ليز بالنّدم لعدم وجود موسيقيّين لديها.

أغمضت عينيها مُصغيةً إلى طقطقة حذاء نِله، وهي تفكّر بما يجب عليها أن تبيعه قريباً. ما زالت هناك بعض اللّوحات الفنّيّة، من بينها بورتريه لها رسمه ذلك الرّجُل الودود القادم من دِلفت، ولوحة القزم المغرور ذي الشّارب الضّخم، الذي كان يهزّ ريشته بكلّ فخامةٍ، لكنّها وجدت لوحته خرقاء، غير أنّها من الممكن أن تكون ذات قيمةٍ كبيرة. سبق لها أن باعت صيغتها، ولكنْ لا يزال هناك تاج وعقدان، أو ثلاثة، لم يكن الوضع ميؤوساً منه.

توقّفت الطّقطقة، فتحت ليز عينيها. وجدت نفسها وحيدةً في الغرفة. متى غادرت نِله؟ وكيف سمحت لنفسها بالخروج؟ لا يحقّ لأحدٍ الانسحاب من نفسه في حضور أحد الحُكّام، من دون أن يُؤذن له بذلك.

نظرت إلى الخارج. على المرج تراكمت طبقةٌ سميكةٌ من الثّلج، كما مالت أغصان الأشجار، ولكنْ ألم ينزل الثّلج قبل حين فقط؟ لكنّها لم تعُد واثقةً، كم طال جلوسها على هذا الكرسيّ قُرب المدفأة الباردة والنّافذة، وعلى ركبتيها الغطاء المرتوق. هل كانت نِله قبل قليلٍ فقط هنا أم مضى وقتٌ على ذلك؟ وما عدد الذين رافقوا فريدريش إلى ماينتس، ومن بقي عندها؟

حاولت أن تعدَّهم: الطّبّاخ معه، والمهرّج أيضاً، والوصيفة الثّانية التمست إجازة أسبوعٍ لتزور والديها المريضين، ومن المُحتمل ألّا تعود. ربّما لا يزال أحد في المطبخ، وربّما لا، من أين لها أن تعرف ذلك، فهي لم تدخل قطّ إلى المطبخ، وكان هناك حارسٌ ليليٌّ أيضاً، هكذا خمّنت، ولكنْ بما أنّها ليلاً لا تغادر غرفة نومها، فإنّها لم تره قطّ. ساقي النّبيذ؟ كان رجُلاً لطيفاً متقدّماً في السّنّ، راقياً جدّاً، وأنيقاً، ولكنْ فجأةً خُيّل إليها أنّه غائبٌ منذ مدّةٍ طويلةٍ، فإمّا أنّه قد بقي في براغ، وإمّا مات في الطّريق من منفى إلى آخر، مثلما مات والدها من دون أن تراه مرّةً ثانيةً،

وفجأةً، استلم أخوها الحكم في لندن، وهي تكاد لا تعرفه، ومنه تحديداً لا تتوقّع أيّ شيءٍ تُجاهها.

أصغتْ، هناك صوت خشخشةٍ من الغرفة المجاورة، لكنّها عندما أوقفت تنفّسها لتسمع على نحوٍ أفضل، لم تتمكّن من تمييز أيّ صوت. كان السّكون تامّاً.

- أهناك أحد؟

لمْ يُجبها أحد.

هناك جَرسٌ في مكانٍ ما، إذا قرعته يأتيها أحدهم، هكذا كان الأمر دائماً، وهكذا يجب أن يكون، طوال عمرها كان الأمر كذلك، ولكنْ أين هو هذا الجَرس؟

يُحتمل أنْ يتغيّر كلُّ شيءٍ قريباً، عندما يتّفق غوستاف أدولف وفريدريش؛ يعني الرّجُل الذي كادت أن تتزوجه، والرّجُل الذي تزوّجته فعليّاً، عندها سترجع الاحتفالات إلى براغ، وسيمكنهم العودة إلى القصر المنيف، في نهاية الشّتاء، عندما تبدأ الحرب من جديد، فهكذا كان الأمر كلّ سنة: عندما يهطل الثّلج، تأخذ الحرب استراحةً، وعندما تعود الطّيور، وتظهر براعم الزّهور، ويتحوّل الثّلج إلى جداول، تندلع الحربُ مُجدّداً.

تيل
ثمّة رجلٌ يقف في الغرفة.

هذا مُستغربٌ؛ أوّلاً: لأنّها لم تقرع الجرس، وثانياً: لأنّها لم يسبق أن رأت هذا الرّجُل. للحظةٍ تساءلت في نفسها عمّا إذا كان يُفترض بها أن تخاف، فالقَتلة المأجورون ماكرون، قادرون على التّسلّل إلى أيّ مكان، فلا يأمن المرءُ على نفسه في أيّ مخبأ، لكنّ هذا الرّجُل لم يبدُ خطيراً، كما أنّه انحنى مُحيّياً حسْبما يليق، ثمّ قال شيئاً بَدا مُستغرباً جدّاً من قاتل:

- مدام، الحمار اختفى.

- أيُّ حمار، ومن يكون حضرته؟

- من يكون الحمار؟

- «لا، مَن يكون حضرته!.. مَن سيكون..أنت؟». وأشارت إليه، لكنّ الغبيّ لم يفهم: «مَن أنت؟».

تكلّم مُدّةً. كان صعباً عليها أنْ تفهمه، فلغتها الألمانيّة ما زالت غير جيّدة، ولغته الألمانيّة كانت خشنةً جدّاً. تدريجيّاً بدأت تستوعب أنّه يحاول أن يشرح لها أنّه المسؤول عن الإصْطبل، وأنّ المهرّج

بعد عودته مباشرةً أخذه معه، الحمار ونِله، هي أخذها أيضاً معه؛ ثلاثتهم رحلوا معاً.

- حمارٌ واحدٌ فقط؟ سائر الحيوانات لا تزال موجودة؟

أجابها، لم تفهم، أجابها مرّةً ثانيةً، ففهمت أنّه لا يوجد حيواناتٌ أُخرى، وأنّ الإصْطبل الآن فارغ؛ لهذا السّبب يقف بين يديها، لأنّه يحتاج إلى مهمّةٍ أُخرى.

- ولكنْ كيف عاد المهرّج وحْده، ماذا عن صاحب الجلالة؟ هل عاد صاحب الجلالة أيضاً؟

- «المهرّج فقط عاد». قال الرّجُل الذي لم يعُد ناظر اصْطبلات، لخلوّها من الحيوانات: «ثمّ ذهب مرّةً أُخرى مع المرأة والحمار، لكنّه ترك الرّسالة هنا».

- رسالة؟ أرني!

مدَّ الرّجُل يده إلى جيب بنطاله الأيمن، ثمّ إلى الأيسر، حكَّ جبينه، مدَّ يده ثانيةً إلى الجيب الأيمن، عثرَ على ورقةٍ مطويّةٍ. «إنّه آسفٌ بسبب الحمار». قال الرّجُل: «كان حيواناً ذكيّاً غير عاديّ، ولمْ يكن يحقّ للمهرّج أن يأخذه. لقد حاول منعه، لكنّ المهرّج أوقعه في مقلبٍ مقرفٍ، وحَرِجٍ جدّاً، ولا يريد الكلام عنه».

فردَت ليز الورقة المطويّة، التي كانت مثنيّة الزّوايا، وعليها بُقع. كانت الحروف مثل لطخٍ سوداء، لكنّ ليز تعرّفت الخطّ من النّظرة الأولى.

للحظةٍ، قرأت الرّسالة خلالها بسرعةٍ بجزءٍ من عقلها، ولكنْ ليس بالجزء الثّاني بعد، كانت على وشْك أن تمزّقها وتنسى ببساطةٍ أنّها تلقّتها، ولكنْ من الطّبيعيّ أنّ هذا لا يمكن. جمعت قواها، وكوّرت قبضتيها، وقرأت.

2

لمْ يكن يحقّ لغوستاف أدولف أن يتركه ينتظر، ليس فقط لأنّ هذا لا ينتمي إلى السّلوك الرّاقي، لا، بلْ حرفيّاً لا يحقّ له. طريقة التّعامل مع شخصيّةٍ ملكيّةٍ أُخرى ليست كيفيّةً، بلْ هناك قواعدُ صارمةٌ، ثمّ إنّ تاج سُلالة فنتْسِل أقدم من تاج السُّويد، وبوهيميا هي البلد الأقدم والأغنى، وبناءً على ذلك يتمتّع حاكم بوهيميا بميزة الأقدميّة مقابل ملك السُّويد، ناهيك عن أنّ الأمير النّاخب يتمتّع أيضاً بمرتبة ملك، وقد سبق لبلاط بفالتس أنْ أصدر تقريرَ خبرةٍ بهذا الخصوص، وهذا ثابتٌ بالأدلّة. صحيحٌ أنّ القيصر قد أهْدر دَمه، لكنّ ملك السُّويد أعلن الحرب على هذا القيصر، ثمّ إنّ الاتّحاد البروتستانتيّ لم يقبل قطّ بسَحب رُتبة النّاخب، ومن هنا كان على ملك السُّويد أنْ يعامله كأميرٍ ناخبٍ، وبصفته هذه فإنّه يوازيه مرتبةً، توازياً في مرتبة الأمير عامّةً، وإذا أراد المرءُ استعمال حقّ أقدميّة السُّلالة، فإنّ آل بفالتس لا شكّ أقدم من آل فاسا، فعلى أيّ وجهٍ قلب المرء المشكلة، ليس من حقّ غوستاف أدولف أن يتركه ينتظر.

أصاب الملكَ صداعٌ، صار يتنفّس بصعوبةٍ. لم يكن متهيّئاً لرائحة المعسكر. كان يعرف أنّه لا مجال للنّظافة هنا، عندما يعسكر في مكانٍ واحدٍ آلاف الجنود مع ملحقاتهم ومؤونتهم،

وتذكّر رائحة جيشه الذي قاده أمام براغ، قبل أن يختفي، تشربه الأرض، ويتطاير كالدّخان، لكنّ الرّائحة هناك لم تكن كما هنا، ولم يتصوّر أن تكون على هذا النّحو. لقد شمّوا رائحة المعسكر حتّى قبْل أن يصبح في مدى النّظر، كشعورٍ مسبقٍ بحدّة ومرارة مُعلّقٍ فوق الأرض المفرغة من سكّانها.

- «يا إلهي، ما أكره هذه الرائحة!». قال الملك.

- «سيّئة». أجاب المهرّج: «سيّئة، سيّئة، سيّئة، عليك بالاغتسال يا ملك الشّتاء».

الطّبّاخ والجنود الأربعة، الذين زوّده بهم عن غير رضاً البرلمان الهولنديّ، ضحكوا ببلاهةٍ، وفكّر الملك للحظةٍ بما إذا كان سيسمح بذلك، ولكنْ هذه هي مهمّة المهرّج في نهاية المطاف، ومَن كان ملكاً عليه القبول بذلك. صحيحٌ أنّ العالم يعاملك باحترام، ولكنْ يجوز لهذا المهرّج أن يقول كلّ شيء.

- «على الملك أن يغتسل». قال الطّبّاخ.

- «أن يغسل قدميه». قال أحد الجنود.

نظر الملك إلى الكونت هودِنيتس الذي يمتطي جواده إلى جانبه، ولكنْ بما أنّ وجه الكونت بقي جامداً، كان بوسع الملك التّظاهر بأنّه لم يسمع.

- «وخلف أذنيه أيضاً». قال جنديٌّ آخر، وثانيةً ضحك الكلّ عدا الكونت والمهرّج.

لمْ يدرِ الملك كيف عليه أنْ يتصرّف. كان الصّواب أن يوجّه ضربةً إلى الشّابّ الوقح، لكنّه كان متوعّكاً، يسعل منذ أيّام، وماذا إذا ردَّ هذا الشّابُّ الضّربة بمثلها؟ فالجنديُّ في الواقع يخضع للبرلمان وليس له، ومن ناحيةٍ أُخرى لا يجوز أن يسمح لأناسٍ أن يهينوه، وهُم ليسوا من المهرّجين خاصّته.

ثمّ رأوا المعسكر من ذروة هضبةٍ، ونسي الملك غضبه، وتوقّف الجنود عن التّفكير في السُّخرية منه. بَدا المعسكر مثل مدينةٍ بيضاء تتهادى مع الرّيح أمامهم في السّهل، مدينة تدبُّ حركةٌ خفيفةٌ بين بيوتها، ذهاباً وإياباً كانزلاقٍ متماوجٍ، وبعد تدقيق النّظر يدرك المشاهد أنّ المدينة تتشكّل من خيام.

كلّما اقتربوا اشتدّت الرّائحة، التي كانت تنهش العيون، تطعن الصّدور، وتتسرّب عبْر النّسيج، في حال حمى المرء وجهه بقطعة قماش. ضيَّق الملك عينيه، وأحسَّ بالاختناق. حاول أن يأخذ

أنفاساً قصيرةً، ولكنْ دونما فائدة، لا نجاة من الرّائحة، بل إنّها تضيّق الخناق عليه. لَحظ أنَّ الكونت هودِنيتس يعاني مثله، وأنَّ الجنود يضغطون أيديهم أمام وجوههم.

كان الطّبّاخ شاحباً كالموتى، حتّى المهرّج زال عن وجهه تعبير المشاغبة.

كانت طبقة الأرض السّطحيّة مقلوبةً، غرقت فيها قوائم الجياد، وأخذت تخوض كما في مستنقعٍ عميق. القاذورات تكوَّمت على جانبيّ الدّرب بلونٍ بنّيٍّ داكنٍ، حاول الملك أنْ يقنع نفسه بأنّ هذا ليس ما توقّعه، لكنّه كان يعرف أنّه هو تماماً: براز مئة ألف إنسان.

لكنّها لم تكن رائحة خراءٍ وحسْب، بلْ أيضاً رائحة جروحٍ، وأورامٍ، وعرقٍ، والأمراض التي عرفتها البشريّة كلّها. رمش الملك بعينيه. تراءى له كأنّ في مقدور المرء حتّى أن يرى الرّائحة، كتكاثفٍ للهواء، أصفر وسامّ.

- إلى أين؟

سدّت طريقهم مجموعةٌ من الفرسان، رجالٌ طوال القامة، يبدون منضبطين، يرتدون خوذاتٍ، ودروعاً جلديّةً صدريّةً، لم يرَ الملك مثيلاً لها منذ أيّامه في براغ. نظر إلى الكونت هودنيتس،

نظر الكونت هودنيتس إلى الجنود، نظر الجنود إلى الملك. لا بدَّ لأحدٍ ما من أن ينطق، أنْ يعلن عنه.

- «جلالة ملك بوهيميا، وسموّ أمير بفالتس النّاخب». قال الملك بنفسه أخيراً: «في الطّريق لمقابلة سيّدكم الأعلى».

- «أين جلالة ملك بوهيميا؟». سأل أحد الفرسان. كان يتكلّم بلهجة سكسونيا، فاستعاد الملك في ذاكرته أنّ قلّةً من السّويديّين فحسْب تقاتل على الجانب السّويديّ، وأنَّ الجيش الدّنماركيّ لا يضمُّ إلّا ما نَدر من الدّنماركيّين، وحينذاك، قُرب براغ، لمْ يضمّ الجيشُ إلّا بضع مئاتٍ من التشيكيّين.

- «هنا». قال الملك.

نظر إليه الفارس ضاحكاً.

- أنا هو صاحب الجلالة، أنا هو.

فابتسم الفرسان الآخرون ابتساماتٍ ساخرة.

- «ما الدّاعي للضّحك؟». سأل الملك: «معنا إذنُ مرورٍ، ودعوة ملك السُّويد. خذوني إليه فوراً».

- «لا بأس». قال الفارس.

- إنّي لا أسمح بأيّة وقاحةٍ». قال الملك.

- حسناً، تعال معنا ببساطةٍ إذن، يا صاحب الجلالة.

ثم قادهم الفارس من الدّوائر الخارجيّة للمعسكر في اتّجاه الدّاخل، وفيما كانت رائحة النّتن والعفونة منتشرةً كالوباء، بحيث يكاد يظنّ المرء معها أنّها لا يمكن أن تشتدّ أكثر، مرّوا بجانب عربات المؤونة ذات الخيام: انتصبت عرائش العربات عالياً في الهواء، جيادٌ مريضةٌ مستلقيةٌ على الأرض، أطفالٌ يلعبون في الوحل، نساءٌ يُرضعْن أطفالهنّ، أو يغسلْنَ ثياباً في براميل ممتلئةٍ بمياهٍ بنّية اللّون، كانت هاته عرائس الجنود المأجورات، وبينهنّ أيضاً زوجاتٌ مرافقاتٌ لأزواجهنّ من الجنود المُرتزقة، فمن كانت لديه عائلة، كان يجرُّها معه إلى الحرب، وإلّا فأين سيتركها؟

وقعت عينا الملك على منظرٍ شنيع. لم يتعرّف في البداية ماهيّته التي قاومت التّحليل بادئ الأمر، ولكنْ عندما يدقّق المرء النّظر تترتّب الأجزاء، ويفهم الإنسان، فأبعد الملك عينيه بسرعةٍ، وسمع الكونت هودِنيتس إلى جانبه يئنّ متأوّهاً.

كانوا أطفالاً موتى، لا يتجاوز عُمر أيٍّ منهم سّتّ سنوات، ومعظمهم لم يتجاوزوا السّنة. كانوا مكوّمين فوق بعضهم بعضاً،

وقد حالت ألوانهم، بشَعرٍ أشقرَ، وبُنّيٍّ، وأحمرَ، وبتدقيق النّظر يمكن رؤية العيون التي ما زالت مفتوحة. كانوا نحو أربعين طفلاً، وربّما أكثر، وكان الهواء أسْود من كثرة الذُّباب، وعندما تجاوزوه أحسَّ الملك بدافعٍ مُلحٍّ إلى أنْ يلتفت إليه، فعلى الرّغم من عدم رغبته في أن يراه، أراد أن يراه، لكنّه قاوم.

كانوا الآن في داخل المعسكر، عند الجنود. كانت الخيمة تجاور الأُخرى، الرّجال جالسون حول النّار يشوون لحماً، ويلعبون الورق، وينامون على الأرض، ويشربون. كان المنظر يكاد يكون طبيعيّاً لولا كثرة المرضى: مرضى على الطّين، ومرضى على أكياس قشٍّ، ومرضى على عربات، ليس جرحى فقط، بلْ رجالٌ بأورامٍ، رجالٌ بانتفاخاتٍ في الوجوه، رجالٌ بعيونٍ دامعةٍ، وأفواهٍ يسيل لعابها، كثيرٌ منهم كانوا مستلقين متكوّرين بلا حراكٍ، بحيث لا يستطيع المرء التّأكّد ممّا إذا كانوا ميّتين أم يُحتَضرون.

الرّائحة تُحتمل؛ ضغط الملك ومرافقوه أيديهم على أنوفهم، حاول الجميع ألّا يتنفّسوها إلّا مضطّرين عندما يلتقطون الهواء من وراء أكفّهم. شَعَر الملك بالاختناق ثانيةً، شدّ قواه كلّها، لكنّ الشّعور بالاختناق تصاعد، إلى أنْ اضطّرّ إلى التّقيّؤ من فوق جواده، وبعدها فوراً تقيّأ الكونت هودِنيتس، والطّبّاخ، ثمّ أحد الجنود الهولنديّين.

- «هل انتهيت؟». سأل الفارس السّكسوني.

- «تقصد، يا صاحب الجلالة». قال المهرّج.

- «يا صاحب الجلالة». قال الفارس.

- «لقد انتهى». قال المهرّج.

عندما تابعوا المسير أغمض الملك عينيه، ساعده هذا نوعاً ما، فتنشُّق الرّائحة خفَّ فعلاً عندما توقّفت الرُّؤية، لكنّها ما زالت جاثمةً بثِقل. سمع أحدهم يقول شيئاً، ثمّ سمع هتافات، ثمّ سمع ضحكاً من الجهات جميعها، لكنّه لم يُبالِ؛ فليسخروا منه. كلّ ما أراده هو عدم تحمُّل المزيد من هذه الرّائحة.

وهكذا، بعينين مغمضتين، أوصله الفارس إلى الخيمة الملكيّة، في مركز المعسكر، المحروسة من قِبَل دزّينةٍ من السّويديّين بكامل عتادهم، إنّهم حرسُ الملك الشّخصيّ، بمهمّة ردْع الجنود المتذمّرين، فالتّاج السُّويديّ كثيراً ما كان يتأخّر في دفع أجور المُرتزقة، حتّى عندما يكسب المرء المعارك جميعها، ويأخذ ما تقدّمه البلد المهزومة كلّه، لم تكن الحرب تجارةً تعوّض أكلافها.

- «أحضرتُ معي مَلكاً». قال الفارس السّكسوني الذي قادهم.

ضحك الحُرّاس.

سمع الملك جنود مرافقته يشاركون في الضّحك، فقال بالصّوت الآمر الأكثر حدّة: «كونت هودنيتس، ضع حدّاً لهذا السّلوك الوقح!».

- «أمرك، يا صاحب الجلالة». همهم الكونت، والعجيب أنّ المفعول قد تحقّق، وخرس الخنازير الأغبياء.

ترجّل الملكُ عن جواده، أحسَّ بدوخةٍ، انحنى قليلاً، وأخذ يسعل لبرهةٍ. سحب أحد الحُرّاس قماش باب الخيمة جانباً، ودخل الملك ومرافقوه.

كان هذا قبْل نصفِ أبديّةٍ؛ ساعتان وربّما ثلاث ساعات، وهُم ينتظرون على كراسٍ واطئةٍ من دون مساند، ولم يعُد الملك يعرف كيف عليه أن يستمرّ في غضّ النّظر عن ظرفٍ تركه ينتظر هنا؛ ولكنْ كان لا بدّ له من أن يغضّ النّظر حتماً، وإلّا لكان عليه النّهوض والمغادرة، ولكنْ ما من أحدٍ غير هذا الملك السُّويديّ يمكنه أنْ يُعيده إلى براغ. هل يتعلّق الأمر بأنّ هذا الرّجُل كان يريد أن يتزوّج ليز؟ لقد كتب إليها عشرات الرّسائل، وأقسم على حبّه لها ما لا يُحصى من المرّات، وأرسل إليها بورتريه وجهه عدّة

مرّاتٍ، لكنّها لم تقبل به. هذا هو الأمر إذن، هذا هو انتقامه التّافه.

على كلّ حال، ربّما تكون حاجته إلى الاقتصاص قد لُبِّيت الآن، وربّما كان هذا مؤشّراً حسناً، ربّما كان معنى الانتظار أنّ غوستاف أدولف سيساعده. فرك عينيه، وكالعادة كلّما كان قلقاً أحسَّ بيديه ناعمتين، وبحريقٍ في معدته، لا يطفئه أيٌّ شراب أعشاب. حينذاك، في أثناء المعركة قرب براغ، اشتدَّ هذا الحريق إلى حدّ أنّه بسبب مغْصهِ اضطّرّ إلى الانسحاب من المعركة، وهناك في القصر، مُحاطاً بخَدمه، وبرجال الحاشية، انتظر نهاية المعركة، وكانت أسوأ ساعةٍ في حياته حتّى ذلك الحين، غير أنّ ما جاء بعدها كلّه، كلّ ساعةٍ، وكلّ لحظةٍ، كانت أسوأ بما لا يقاس.

سمع نفسه يزفر متنهّداً. الرّيح في الخارج جعلت قماش الخيمة يُطقطق، وسمع أصوات رجالٍ من الخارج، ووصلت إليه صيحةٌ من مكانٍ ما، إمّا من جريحٍ، وإمّا من رجُلٍ يقتله الطّاعون، فالمرضى بالطّاعون كانوا في المعسكرات جميعها، كان أمراً مسكوتاً عنه، فلا أحد كان يرغب في التّفكير بأنّه ليس ثمّة ما يمكن أن يكافَح به.

- «تيل». قال الملك.

- «ملك؟». سأل المهرّج.

- افعل شيئاً.

- هل تشعر بالوقت يطول؟

بقي الملك ساكتاً.

- لأنّه تركك تنتظر كلّ هذا الوقت؛ لأنّه يعاملك مثل جزّار حيواناته، مثل حلّاقه، مثل منظّف كرسيّ مرحاضه، لهذا تشعر بالملل، وعليَّ أن أسلّيك بشيءٍ ما، صح؟

بقي الملك ساكتاً.

- «سأسلّيك بكلّ سرور». قال المهرّج، وانحنى إلى الأمام: «انظر في عينيّ».

نظر الملك إلى المهرّج متشكّكاً، الشّفتان المدبّبتان، الذّقن الرّفيع، الصّدّارة المُبرقعة، الطّاقية المصنوعة من فرو العِجْل، وكان قد سأله مرّةً، لماذا يرتدي هذه التّشكيلة، ألأنّه يريد التّنكّر كحيوانٍ؟ فأجابه المهرّج: «لا، بلْ كإنسان».

ثمّ استجاب، ونظر في عينيّ المهرّج، رمشَ. كان الموقف مزعجاً، فهو غير مُعتادٍ على تحمُّل نظرة شخصٍ آخر، لكنْ كلّ شيءٍ كان أفضل من الاضطّرار إلى الكلام عن أنّ السُّويديّ يجعله ينتظر، وهو قد طلب إلى المهرّج في واقع الأمر أنْ يسلّيه، وها هو يزداد فضولاً الآن لمعرفة ما يُضمره. كبت رغبته في إغماض عينيه، ونظر في عينيّ المهرّج.

خطرتْ في باله قطعة القماش البيضاء، كانت معلّقةً في قاعة العرش، وفرح بها كثيراً بادئ الأمر. «قل للنّاس إنّ الأغبياء لن يروا الصّورة، لا يراها إلّا السّادة الأشراف. قل لهم ببساطةٍ، وسوف ترى العجب!». كان الأمر مُضحكاً جدّاً، كيف تظاهر الزّوّار، وأخذوا ينظرون إلى الصّورة نظرة الخبراء، ويهزّون برؤوسهم موافقين. إنّهم لم يزعموا طبعاً أنّهم يرون الصّورة فعليّاً، لمْ يكن أيٌّ منهم أخْرقَ إلى هذا الحدّ، وكان جليّاً لجميعهم تقريباً أنّ الإطار المعلّق لا يضمُّ سوى قطعة قماشٍ بيضاء، إلّا أنّهم لم يكونوا واثقين أوّل الأمر من عدم تدخُّل سِحرٍ ما في الأمر، ولم يعرفوا ثانياً ما إذا كانت ليز وهو يؤمنان بذلك كاحتمال، وأنْ يرتاب ملكٌ في غبائك، أو في كونك وَضيعَ المَنْبت. كان في نهاية المطاف بسوء أنْ تكون غبيّاً نفسه، أو وضيع المَنْبت.

حتّى ليز لمْ تقُل شيئاً، حتّى هي، زوجُه الرّائعة الجميلة، ولكنْ ليست ذكيّةً في الآونة الأخيرة، نظرت إلى اللّوحة وصمتتْ، حتّى هي لم تكن واثقةً، طبعاً لا، فهي ليست سوى امرأة.

أراد أنْ يفاتحها في الموضوع. أراد أن يقول لها: «ليز، دَعْك من هذا العَبث، لا تحاولي خداعي». لكنّه فجأةً لمْ يجرؤ؛ إذْ إنّه لو كانت تعتقد بذلك، ولو قليلاً، وإذا كانت تفكّر في أنّ قطعة القماش مسحورةٌ، فكيف ستفكّر فيه هو؟

وإذا تكلّمت مع أُناسٍ آخرين عن الموضوع؟ لنفترض أنّها قالت لهم: «صاحب الجلالة، زوجي، الملك، لمْ يرَ صورةً في اللّوحة»، فكيف سيكون موقفه؟ سيكون موقفه هشّاً جدّاً، كان ملكاً بلا بلدٍ، مُطارداً، مُضطّرّاً إلى الاعتماد بالكامل على كيفيّة تفكير الآخرين به، فماذا يفعل إذا انتشر بين النّاس خبر أنّ في قاعة عرشه توجد صورةٌ مسحورةٌ، لا يراها إلّا السّادة الأشراف؛ أمّا هو، فلا يستطيع رؤيتها؟ طبعاً لم يكن هناك صورة، كان الأمر مزحةً من المهرّج؛ أمّا الآن، وقد عُلّقت قطعة القماش الأبيض هناك، فقد نشرت سُلطتها، وقد لَحظ الملك برُعبٍ أنّه لم يعُد قادراً على رفعها من مكانها، ولا على قول أيّ شيءٍ بشأنها، فلم يستطع الزّعم بأنّ هناك لوحة مرسومة، حيث لا توجد لوحة؛ إذْ إنّه لم يكن هناك من سبيلٍ أكثر تأكيداً لإثبات أنّه أحمق، ولا أنْ

يقول إنّ قطعة القماش بيضاء؛ إذْ إنّه لو اعتقد الآخرون بوجود صورةٍ مسحورةٍ معلّقةٍ هناك، وبمقدور سُلطتها كشف الأغبياء وذوي المنبت الواطئ، فهذا وحْده كافٍ لإحراجه تماماً. لم يكن قادراً حتّى على إخبار زوجِه المسكينة الحبيبة محدودة التّفكير عن الأمر، كان الأمر بالغ التّعقيد، وهذا كلّه فعله به المهرّج.

كم مضى عل المهرّج الآن وهو يحدّق إلى عينيه؟ تساءل في نفسه عمّا ينويه هذا الشّاب. كانت عينا تيل زرقاوين تماماً، فاتحتين، مائيّتين تقريباً، وبَدتا أضعف من أن تُضيئا ذاتيّاً، وفي وسط المُقلتين هناك ثقبان، ووراءهما هناك، ماذا؟ كان وراءهما تيل، وراءهما كانت روح المهرّج، ما كانه.

عاودت الملكَ الرّغبةُ في أن يُغمض عينيه، لكنّه صمد أمام نظرة تيل. كان جليّاً بالنّسبة إليه أنّ ما يجري على هذا الطّرف يجري مثله على الطّرف الثّاني؛ فمثلما يرى هو داخل المهرّج، يرى المهرّج داخله.

وعلى نحوٍ غير ملائمٍ البتّة خطرت في باله حالة نظره لأوّل مرّةٍ في عيني زوجِه، مساءً بعد زواجهما. كم كانت خجولةً! كم كانت مرعوبةً! وضعت يديها أمام الكورسيه، عندما أراد أن يفكّ رباطه، ثمّ رفعت نظرها إلى الأعلى، ورأى وجهها في ضوء الشّموع،

لأوّل مرّةٍ عن قُرب، وحَدسَ عندها كيف يكون المرء متّحداً حقّاً بالآخر، لكنّه عندما مدَّ ذراعيه كي يجذبها إليه، اصْطدم بدَورق ماء الوَرْد الموضوع على منضدة السّرير، وأدّى صليل الشّظايا إلى كسْر السِّحر؛ البِرْكة على أرضيّة خشب الأبْنوس ما زال يراها أمامه، وعليها تتحرّك مثل سُفنٍ صغيرةٍ أوراقُ الوَرد، كانت خمسَ ورقاتٍ. مازال يذكر ذلك بدقّة.

ثمّ أخذت تبكي. من الواضح ألّا أحدَ قد شرح لها ما يجب أنْ يجري في ليلة الدُّخلة، وهكذا أحْجم عن المتابعة؛ إذْ على الرّغم من أنّ من الضّروري أن يكون الملك قويّاً، فقد كان في المقام الأوّل وديعاً، وهكذا ناما بجانب بعضهما مثل الإخوة.

في غرفة نومٍ أُخرى، في الوطن هايدلبرغ تشاورا لاحقاً فيما بينهما حول القرار الحاسم. اللّيلة تِلو الأُخرى، والمرّة تِلو الأُخرى، تردّدتْ، وماطلتْ، وارتأتْ عدم القبول، كأسلوب النّساء المعروف منذ القديم، وكان عليه كلّ مرّةٍ أن يشرح لها من جديد، أنّ مثل هذا العرْض لا يتحقّق من دون مشيئة الرّبّ، وأنّ على الإنسان أن يُذْعن لقَدَره، لكنّ القيصر حذّرهما المرّة تِلو الأُخرى، فماذا عن غضبه؟ ما من عاقلٍ يتمرّد على القيصر. فأوضح لها بكلّ صبرٍ ما بيَّنه له بصورةٍ مقنعةٍ خبراء القانون لديه: من أنّ قبول

تاج بوهيميا لا يُعدُّ انتهاكاً لسلام الدّولة؛ لأنّ بوهيميا لا تتبع للدّولة.

وهكذا أقنعها في نهاية المَطاف، مثلما أقنع الآخرين جميعهم. لقد أوضح لها أنّ عرش بوهيميا مِن حقّ مَن يريده أشرافُ بوهيميا ملكاً عليهم، ولهذا السّبب غادرا هايدلبرغ،

وتوطّنا بوهيميا، وهو لن ينسى طوال حياته يوم التّتويج، والكاتدرائيّة الهائلة، وفرقة الكورال الضّخمة، وحتّى اليوم لا يزال صداها يتردّد في صدره: «أنت الآن ملكٌ يا فريتس. أنت أحد العظماء».

- «لا تغمض عينيك». قال المهرج.

- «لم أغمضهما». قال الملك.

- «اُسْكت». قال المهرّج، وتساءل الملك في نفسه، ما إذا كان سيسمح له بالتّمادي، بصَرف النّظر الآن عن حرّيّة المهرّجين، لقد تمادى جدّاً.

- «ماذا بشأن الحمار؟». سأل كي يزعج المهرّج: «هل تعلم شيئاً؟».

- «إنّه يتكلّم مثل واعظٍ تقريباً». أجاب المهرّج.

- «وماذا يقول؟». سأل الملك: «ماذا تعلم حتّى الآن؟».

كان قبل شهرين قد تحدّث في حضور المهرّج عن طيور الشّرق العجيبة، التي تستطيع بناء جُملٍ كاملةٍ، بحيث يُخيّل إلى السّامع أنّ هناك أناساً يخاطبونه. لقد قرأ عنها في كتاب أثَناسيوس كيرشر عن عالم طيور الرّبّ، ومنذئذٍ لم تفارقه فكرة الطّيور النّاطقة.

لكنّ المهرّج قال حينها: إنّ تعليم طيرٍ الكلام لا يتطلّب الكثير، وإذا كان المرء ماهراً نوعاً ما، ففي وسعه أن يجعل أيّ حيوانٍ يثرثر، فالحيوانات أذكى من البشر، ولهذا فإنّها تتصرّف بصمتٍ، فهي حريصةٌ على عدم التّورُّط في متاعب عند كلّ هراءٍ، ولكنْ ما إنْ يقدّم المرءُ للحيوان مُسوّغاتٍ مقنعةً، يتخلّى الحيوان عن صمته، وهو جاهزٌ لتقديم البرهان على ذلك في أيّ وقت، لقاء وجبةٍ جيّدةٍ.

- وجبة جيّدة؟

- «ليس له شخصيّاً». يؤكّد المهرّج: «وإنّما للحيوان، وذلك بأنْ يضع الإنسان للحيوان مرّات متتالية طعاماً في كتاب، بصبرٍ وعزيمةٍ، نتيجة النّهم سيُقلِّب الحيوان صفحات الكتاب، فيحصل بذلك على مزيدٍ ومزيدٍ من لغة البشر، وبعد شهرين يحصل المرء على النّتائج».

- مع أيّ حيوان؟

- يمكن تجريبها مع أيّ حيوان، ولكنْ لا يجوز أن يكون صغيراً جدّاً، وإلّا لن يسمع المرءُ صوته. لنْ ينجح المرءُ مع الدّيدان، والحشرات لا تنفع لأنّها ستطير قبْل أنْ تنهي جُملةً إلى آخرها، القطط تعترض دائماً، وطيور الشّرق الملوّنة، كالتي يصفها السّيّد اليسوعيّ الحكيم، غير متوفّرةٍ هنا. إذن: يتبقّى الكلاب، والجياد، والحمير.

- لمْ يعُد لدينا جياد، والكلب هرب.

- غير مأسوفٍ عليه، ولكنْ هناك الحمار في الإصْطبل. أحتاج إلى سنة، ثمّ سأستطيع جعله...

- شهرين.

تيل

- هذا ليس وقتاً طويلاً.

وبشيءٍ من الخُبث ذكّر الملك المهرّج بأنّه في الحال قد تحدّث عن شهرين، وهذا هو الوقت الذي سيحصل عليه لا أكثر، وإنْ لم تظهر نتائج بعد الشّهرين، فليستعدّ لحفلة ضَرب فلقةٍ من العيار الإنجيليّ.

- «لكنّني أحتاج إلى طعامٍ؛ لوضعه في الكتاب». أجاب المهرّج بصوتٍ يكاد يُسمَع:

«وبسخاء».

كان الملك في واقع الأمر يعرف أنّ ما يتوفّر لديهم من طعامٍ كان قليلاً دائماً، لكنّه نظر إلى القماشة البيضاء التَّعِسة على الجدار، ووافق لمهرّجه، الذي احتلّ منذ مدّةٍ حيّزاً واسعاً من عقله، عندما كان سليماً، وقال له بفرحٍ مُسبقٍ غادِر: «يمكنه أنْ يأخذ من الطّعام بقدْر ما يحتاج لتجربته، إذا كان الحمار سينطق بعد شهرين».

في واقع الأمر حافظ المهرّج على المظهر، فكلّ يومٍ كان يأخذ شوفاناً، وزبدةً، وطاساً من هريس الحبوب، إضافةً إلى كتابٍ، ويختفي في الإصْطبل. ذات يومٍ غلب الفضولُ الملك، وعلى الرّغم من قواعد اللّياقة كلّها ذهب ليرى بنفسه، فوجد المهرّج جالساً

على الأرض، والكتاب مفتوحٌ على رُكبتيه، فيما يحدّق الحمار إلى جانبه بطيبةٍ في لا شيء.

- «الأمور تتقدّم على خير ما يرام». أكّد له المهرّج فوراً: «فلقد انتهيا من حرفي الياء والألف، وبعد غدٍ على أبعد تقديرٍ يكون الحرف التّالي قد حُفِظ». ثمّ ضحك معاتباً، والملك الذي خجل من اهتمامه بهذا الهُراء كلّه، انسحب من دون أيّة كلمة؛ كي يلتفت إلى شؤون دولته، ما عنى في ذلك الواقع المُحزن، أنّه دبَّج إلى حميّه في لندن التماساً جديداً من أجل الدّعم العسكريّ، والتماساً جديداً آخر من أجل العون الماليّ إلى البرلمان الهولنديّ، وكالعادة من دون أمل.

- «إذنْ، ماذا يقول الآن؟». كرّر الملك ناظراً في عيني المهرّج: «ماذا تعلّم الحمار حتّى الآن؟».

- نطْقُ الحمار سليمٌ، لكنّه يتكلّم من دون معنى مُحدّد. ما يعرفه قليل، فهو لم يرَ شيئاً من الدّنيا، أعْطِهِ مزيداً من الوقت.

- ولا يوم أكثر من المُتّفق عليه.

ضحك المهرّج هازئاً، ثمّ قال: «في عيني، أيُّها الملك، انظر في عيني، وقل الآن للجميع ما تراه».

تنحنح الملك ليُجيب، لكنْ صعُبَ عليه الكلام. هناك عتمةٌ، ثمّة ألوانٌ وأشكالٌ تتداخل في بعضها بعضاً، رأى نفسه ثانيةً واقفاً أمام العائلة الإنجليزيّة: الملك جيمز الشّاحب، حميِّه مُهاب الجانب، حماته الدّنماركيّة الملكة آنّا، وقد جمّدها الغرور، وعروسِه، التي لم يجرؤ على النّظر إليها، ثمّ حدثت زوبعةٌ، وتقلُّبٌ شديدٌ، ثمّ تراجعت حدّتهما، ولم يعُد يعرف أين كان.

دَهَمه السُّعال، وعندما تنفّس مُجدّداً وجد نفسه مُلقى على الأرض. ثمّة رجالٌ يحيطون به، لكنّ رؤيته لهم مشوّشة، كان هناك شيء أبيض فوقهم، إنّه قماش الخيمة المُثبت بأوتادٍ طويلةٍ، ويتماوج بتأثير الرّيح. تعرَّف الآن إلى الكونت هودِنيتس ضاغطاً على صدره قبّعته ذات الرّيش، ووجهه مُغضَّنٌ من القلق، وإلى جانبه المهرّج، ثمّ الطّبّاخ، ثمّ أحد الجنود، إلى جانبه شابٌّ يرتدي الزّيّ العسكريّ السُّويديّ، وهو يبتسم ابتسامةً عريضةً. هل أُغمي عليه؟

مدَّ الملك فريدريش يَده، أمسكها الكونت هودنيتس، وساعده على النّهوض على قدميه. ترنّح، وارتخت رُكبتاه، أمسك به الطّبّاخ من الجانب الآخر حتّى وقف. نعم، كان مُغمىً عليه. في اللّحظة الأكثر إحراجاً، في خيمة غوستاف أدولف، الذي يتوجّب

عليه أنْ يقنعه بقوّةٍ ودهاءٍ أنّ مصيرَيْهما مُترابطان، فإذا به يتداعى مثل امرأةٍ في مِشَدٍّ ضيّق.

- «أيُّها السّادة». سمع نفسه يقول: «صفّقوا للمهرّج».

لَحظ أنّ صدّارة قميصه قد اتّسخت، والياقة، والسُّترة، والنّياشين على صدره. هل دنّس نفسه أيضاً؟

- «صفّقوا لتيل أولنشبيغل». قال: «يا لها من حيلةٍ بارعةٍ، حركة رائعة!». أمسك بأذن

المهرّج، أحسَّ بها طريّةً، ومُدبّبةً، وغير مُريحة، فأفلتها: «ولكنْ انتبه لنفسك، كي لا نسلّمك إلى اليسوعيّ، فما فعلته يقارب السِّحر، يا لها من حيلة!».

صمت المهرّج؛ أمّا ابتسامته فانحرفت، ومالت على وجهه، وكالعادة لم يجد الملك تفسيراً لهذا التّعبير.

- «إنّه ساحرٌ، مُهرّجي. أحْضروا ماءً، نظّفوا لي لباسي، لا تقفوا عاطلين». ضحك الملك مُعذَّباً.

انْهمك الكونت هودنيتس في تنظيف صدّارة قميص الملك بقطعة قماشٍ؛ وفي أثناء المسح والفرك تأرْجح وجهه كثير التّجاعيد كثيراً قرب وجه الملك.

- «على المرء أن يحذر مع هذا الشّخص». قال الملك: «أسرِعْ بالتّنظيف، هودنيتس. يجب على المرء أنْ يحذر منه. ما كاد ينظر في عيني حتّى سقطتُ، يا له من ساحر، يا لها من حيلة!».

- «أنت سقطت من نفسك». قال المهرّج.

- «عليك أن تعلّمني هذه الحيلة». قال الملك: «حالما يتعلّم الحمار الكلام، أريد أن أتعلّم هذه الحيلة أيضاً».

- «أنت تعلّم حماراً الكلام؟». سأل أحد الجنود الهولنديّين.

- إذا كان واحدٌ مثلك قادراً على الكلام، والملك الغبيّ لا يتوقّف عن الكلام، فلماذا يُفترض بحمارٍ ألّا يتكلم؟

كان بودّ الملك أن يصفع المهرّج، لكنّه شعر أنّه شديد الضّعف لهذا الجهد، فشارك الجنود ضحكهم، فداخ ثانيةً، لكنّ الطّبّاخ سنده.

وتماماً في هذه اللّحظة غير المناسبة أبداً، رفع أحدهم الحجاب القماشيّ المؤدّي إلى الخيمة الملاصقة، وخرج رجُلٌ بالزّينة الحمراء لكبار موظّفي البلاط، وراز الملكَ بنظرةٍ فضوليّةٍ متعالية.

- صاحب الجلالة مستعدٌّ لاستقبالك.

- «أخيراً». قال الملك.

- «كيف؟». سأل الموظّف الكبير: «ماذا قلت؟».

- «لقد أزِفَ الوقت». قال الملك.

- هذا الكلام لا يليق في رُدهة استقبال صاحب الجلالة.

- «لا تخاطبني يا هذا!». ودفعه الملك، فأبْعده، ودخل بخطوةٍ ثابتةٍ إلى الخيمة الملاصقة الواسعة.

رأى طاولة خرائط، ورأى سريراً غير مُرتّب، ورأى عظاماً معضوضةً، وتفّاحاً مقضوماً على الأرض، ورأى رجُلاً قصيراً بديناً، برأسٍ مدوَّر، وأنفٍ مدوَّر، وكِرشٍ مدوَّر، ولحيةٍ شعثاء، وشعر رأسٍ خفيفٍ، وعينين صغيرتين ماكرتين. تقدّم من فريدريش، وأمسكه من ذراعه بيَدٍ، وضربه بالأُخرى على صدره بكلّ قوّةٍ، كاد فريدريش يسقط معها، لو لم يجذبه الرّجُل القصير إليه ويعانقه.

- «الصّديق العزيز». قال: «الصّديق القديم العزيز الطّيّب!».

- «أخي». لهث فريدريش.

كانت رائحة غوستاف أدولف شديدةً، وقوّته تثير الدَّهشة. دفع عنه فريدريش، ورازه من فوق إلى تحت.

- «يسعدني أنْ نتعارف أخيراً يا أخي العزيز». قال الملك فريدريش. ولَحظ أنّ لقب الأخ لمْ يُعجب غوستاف، ما أكّد له تخوّفاته: السُّويديّ لا يعدّهُ مماثلاً ونداً له.

- «بعد هذه السّنوات كلّها!». كرّر فريدريش بكلّ ما يمكنه من وقار: «بعد الرّسائل والرُّسل كلّهم، أخيراً وجهاً لوجه».

- «وأنا سعيدٌ أيضاً». قال غوستاف أدولف: «كيف حالك، كيف تعيل نفسك؟ كيف وضعك الماليّ؟ ألديك ما يكفي لتأكل؟».

احتاج فريدريش إلى لحظاتٍ ليُدرك أنّ غوستاف قد غيَّر صيغة الخطاب الرّسميّ إلى صيغة رفْع الكُلفة. هل حصل ذلك فعلاً؟ قد يتعلّق الأمر بسوء ألمانيّة هذا الرّجُل، أو ربّما بعادةٍ سويديّةٍ غريبة.

- «إنَّ عبْء مستقبل المسيحيّة يرزح ثقيلاً على كاهلي». قال فريدريش: «كما على...». كاد يقول: كاهلكم، لكنّه استدرك: «كاهلك أيضاً».

- «نعم، هذا صحيح». قال غوستاف: «أتريد أن تشرب شيئاً؟».

فكَّر فريدريش: فكرة شُرب النّبيذ سبّبت له الغثيان، ولكنْ قد لا يكون الرّفضُ موقفاً ذكيّاً.

- «هذا حَسنٌ». قال غوستاف، وكوَّر قبضته، وفيما كان فريدريش يأمل بأن لا يوجّهها إليه، أصابته.

لم يعُد فريدريش قادراً على التّنفُّس. ناوله غوستاف قَدح نبيذٍ، أخذه فريدريش وشرب، كان مذاق النّبيذ مُقرفاً.

- «إنّه نبيذٌ رديء». قال غوستاف: «وجدناه في أحد الأقبية، لا خيار أمامنا، هكذا هي الحرب».

- «أعتقد أنّه فاسدٌ». قال فريدريش.

- «نبيذٌ فاسدٌ أفضل من لا نبيذ». قال غوستاف: «ما بغيتك يا صديقي، ما سبب مجيئك؟».

نظر فريدريش إلى الوجه المُلتحي المدوّر الماكر. هذا هو إذن، منقذ المسيحيّة البروتستانتيّة، الأمل الكبير، وهذا ما كانه هو ذات يومٍ، فكيف حدث أنْ استحال إلى كتلة الشّحم هذه، مع بقايا الطّعام في لحيتها؟

- «نحن نكسب». قال غوستاف: «ألهذا السّبب جئت؟ لأنّنا نكسب في كلّ مواجهة؟ هناك في الشّمال انتصرنا عليهم، ثمّ خلال التّقدُّم، وبعد ذلك في الجنوب في بافاريا. في كلّ مرّةٍ انتصرنا؛ لأنّهم ضعفاء، ويعوزهم النّظام، لأنّهم لا يعرفون كيف

يجب تدريب الجنود؛ أمّا أنا، فأعرف. كيف وضع جنودك، أقصد كيف كان الوضع عندما كان لديك جنود، هل كانوا يحبّونك، جنودك، هناك قرب براغ، قبل أن يقتلهم القيصر؟ بالأمس فقط قطعت أُذُنَيْ رجُلٍ أراد الفرار مع خزنة الجيش».

ضحك فريدريش مُرتبكاً.

- حقّاً، لقد فعلتها، ليست مسألةً صعبةً، تمسك بالأُذُن، ثمّ تقطعها، مثل هذا الفعل يُتناقَلُ بسرعة. الجنود يجدون الأمر مُسلّياً؛ لأنّه يحدث لشخصٍ آخر، لكنّهم في الوقت نفسه يحذرون من محاولةٍ مماثلةٍ في المستقبل. السُّويديّون في جيشي نادرون، غالبيّته من الألمان، وبعض الفنلنديّين، والاسْكوتلنديّين، والإيرلنديين، وما لا أدري. كلّهم يحبّونني، ولهذا نكسب. أتريد أن تحارب معي؟ ألهذا جئت؟

- تنحنح فريدريش، ثمّ قال: «براغ».

- ما بها براغ؟ اشرب يا رجُل!

لكنّ فريدريش نظر إلى القدح بقرفٍ: «أنا أحتاج إلى دعمك، يا أخي. أعطني جيشاً، وعندها ستسقط براغ».

- أنا لا أحتاج إلى براغ.

- مقرّ القيصر القديم، إذا أعدنا تجهيزه للإيمان الحقّ، فسيكون رمزاً عظيماً!

- لستُ في حاجةٍ إلى رموز. دائماً كان لدينا رموزٌ جيّدةٌ، وأقوالٌ جيّدةٌ، وكتبٌ جيّدةٌ، وتراتيل جيّدة، نحن البروتستانت، لكنّنا خسرنا في ساحة المعركة، فكان كلّ شيءٍ بلا جدوى. أنا في حاجةٍ إلى انتصارات، يجب أن أنتصر في المعركة على فالنْشتاين. هل سبق أن قابلتَه، هل تعرفه؟

هزَّ فريدريش برأسه نفياً.

- «أحتاج إلى تقارير. إنّي أفكّر به طوال الوقت، أحياناً أحلم به». ومشى إلى الطّرف الآخر من الخيمة، انثنى فوق صندوقٍ، ونبش فيه، ثمّ أخرج تمثالاً من الشّمع ورفعه عالياً: «هكذا يبدو الرّجُل! فرديناند، هذا هو، أنظرُ إليه دائماً، وأقول في داخلي: سوف أنتصر عليك، أنت ماكر، أنا أشدّ مكراً، أنت قويّ، أنا أقوى، جنودك يحبّونك، جنودي يحبّونني أكثر، أنت الشّيطان إلى جانبك؛ أمّا أنا، فالرّبُّ معي. إنّي أقول له هذا كلّ يوم. أحياناً يجيبني».

- يجيبك؟

- «لديه قوى شيطانيّة. طبعاً يُجيب»، وبسحنةٍ كالحةٍ أشار غوستاف إلى الوجه الأبيض للتّمثال الشّمعيّ: «عندها يتحرّك فمه، ويسْخر منّي. له صوتٌ خافتٌ؛ لأنّه صغير الحَجم، لكنّني أفهم كلّ ما يقول. يدعوني: سويديّ غبيّ، مؤخّرة السُّويد، حيوان قوطيّ، ويقول: إنّي لا أُجيد القراءة، أنا أجيد القراءة! أتريدني أن أريك؟ أنا أقرأ بثلاث لُغات، سوف أهزم هذا الخنزير، سوف أقطع أذنيه، سأقصّ أصابعه، سوف أحرقه».

- «هذه الحرب بدأت في براغ». قال فريدريش: «وفقط عندما نستعيد براغ...».

- «لنْ نفعل». قال غوستاف: «الأمر محسومٌ، ولنْ نعاود مناقشته». جلس على كرسيٍّ، شرب من قَدحه، ونظر إلى فريدريش بعينين مبلّلتين لامعتين: «ولكنْ إمارة بفالتس».

- ماذا عن إمارة بفالتس؟

- يجب أن تستعيدها.

احتاج فريدريش إلى لحظةٍ كي يستوعب ما سمعه، ثمّ قال مستعيداً صيغة الخطاب الرّسمي: «أخي العزيز، هل ستساعدونني على استعادة أرضي؟».

- القوّات الإسبانيّة موجودةٌ في بفالتس، هذا لا يجوز، يجب أن تخرج. إمّا أن يطردهم فالنشتاين، وإمّا أنْ أقتلهم أنا. عليهم ألّا يغترّوا بأنفسهم، ربّما لديهم كتيبة المُشاة التي لا تُقهر بتشكيل المستطيل، ولكنْ أتعرف؟ إنّهم ليسوا على هذه الدّرجة من المِنعة، ولسوف أنتصر عليهم.

- «أخي العزيز». وأمسك فريدريش يَد غوستاف، الذي نهض واقفاً فوراً، وضغط أصابع يد فريدريش بشدّةٍ معاً، إلى درجة أنْ اضطرّ فريدريش إلى كبت صرخة ألمٍ، ثمّ وضع يده على كتفه، وجذبه إليه. تعانقا، واستمرّا في العناق، وطال العناق، إلى أنْ تلاشى تأثُّر فريدريش العاطفيّ. أخيراً، فكّ غوستاف حالة العناق، وأخذ يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً.

- بعد أن يذوب الثّلج سنتقدّم عبْر بافاريا، وفي الوقت نفسه من فوق لنشكّل كمّاشةً نضغط عليهم بها، ثمّ نتقدّم نحو هايدلبرغ، ونطردهم منها. إذا سارت الأمور على ما يرام، قد لا نحتاج إلى خوض معركةٍ كبيرةٍ، وحالما نسيطر على إمارة بفالتس أعطيك إيّاها كإقطاعيّة، وعندها سيعضّ القيصر قفاه.

- كإقطاعيّة؟

- نعم، وإلّا كيف؟

- تريدون إعطائي بفالتس كإقطاعيّة؟ إمارتي بحقّ الإرث؟

- نعم.

- هذا لا يجوز!

- طبعاً يجوز.

- أنتم لا تملكون إمارة بفالتس.

- عندما أستولي عليها تصبح ملكي.

- ظننتُ أنّك دخلت ألمانيا في سبيل الرّبّ، وقضيّة الإيمان الحقّ!

- تستحقُّ صفعةً الآن، طبعاً في سبيل ذلك! ماذا تظنّ إذنْ أيُّها الفأر، أيُّها الخنزير الصَّغير، يا سلمونية! ولكنّني أريد نصيبي من ذلك. إذا أعطيتك بفالتس هكذا ببساطةٍ، علامَ أحصل أنا؟

- أتريدون مالاً؟

- أريد مالاً أيضاً، ولكنْ ليس مالاً فقط.

- سأوفّر لكم دعم إنجلترا.

- بسبب زوجِك؟ لمْ يُفدك هذا في شيءٍ حتّى الآن. تركك تقف تحت المطر. هل تظنّني غبيّاً؟ هل أبدو لك مثل مَن يفكّر: الآن سيأتي الإنجليز راكضين، لمجرّد أنّك ناديتهم؟

- إذا استعدتُ إمارة بفالتس سأستعيد منزلتي بصفتي رأس الجناح البروتستانتيّ في دولة ألمانيا، وبناءً على ذلك سيأتون.

- لن تكون رأساً لأيّ شيءٍ في المستقبل.

- كيف يمكنكم أن...

- اهدأ يا مسكين واسمع. لقد لعبتَ بمبلغٍ طائلٍ، أسلوبٌ جيّدٌ، يُعجبني، لكنّك خسرت، وعلى هامش خسارتك تسبّبتَ في هذه الحرب المجنونة كلّها. يمكن لمثل هذا أن يحدث؛ بعضهم يلعب بمبلغٍ طائلٍ ويربح، مثلي أنا. بلدٌ صغيرٌ، وجيشٌ صغيرٌ، هناك في الدّولة الألمانيّة يبدو أنّ القضيّة البروتستانتيّة خاسرة، ومَن الذي نصحني بالمراهنة على ورقةٍ واحدةٍ، أنْ أجمع الجيش، وأنْ أغزو ألمانيا؟ الجميع أثنوني عن ذلك. لا تفعلها! دعْك منها، لا يمكنك أنْ تربح، لكنّي قريباً سأكون في فيينّا، وسأقطع أذني فالنشتاين، والقيصر سيركع على ركبتيه أمامي، وسوف أقول: أتريد أن تبقى قيصراً؟ إذنْ، افعل ما يقوله لك غوستاف أدولف، ولكنْ كان يمكن للأمور أن تنتهي بشكلٍ مختلفٍ، كان

يمكن أن أموت، كان يمكن أن أجلس في قاربٍ، وأجذّف باكياً عبر بحر البلطيق إلى السُّويد. لا يفيد في شيءٍ أن تكون رجُلاً بكلّ معنى الكلمة، قويّاً، وذكيّاً، ولا تخاف، فعلى الرّغم من ذلك يمكن للمرء أن يخسر، كما يمكن للمرء أن يكون مثلك أنت ويربح على الرّغم من ذلك. كلّ شيءٍ ممكن. أنا جازفت وربحت، أنت جازفت وخسرت، وماذا كان عليك أن تفعل بعد ذلك؟ نعم، كان يمكن أن تشنق نفسك، لكنّ هذا الحلّ ليس لأيّ إنسان، إضافةً إلى أنّه في نهاية المطاف خطيئة أيضاً، ولهذا السّبب أنت هنا؛ لأنّ عليك أن تفعل شيئاً ما. إذنْ، تكتب رسائلَ، وتلتمس وتضع شروطاً، وتحضر مقابلات، وتحكي، وتفاوض، كأنّك ما زلت تمثّل شيئاً، لكنّك لا تمثّل أيّ شيء! إنجلترا لن ترسل لك جيشاً، والاتّحاد البروتستانتيّ لن يأتي لنجدتك، وإخوتك في ألمانيا تخلّوا عنك، ولا يوجد إلّا شخصٌ واحدٌ يمكنه أن يسترجع لك إمارة بفالتس، وهو أنا، وأنا سأعطيك إيّاها كإقطاعيّةٍ مأجورةٍ إذا ركعتَ أمامي، وأقسمتَ على التّبعيّة لي بصفتي سيّدك. إذنْ، ما موقفك يا فريدريش؟ ماذا قرّرت؟

شَبكَ غوستاف أدولف ذراعيه على صدره، ونظر في وجه فريدريش، ولحيته الشّعثاء ترتجف، وصدره يصعد ويهبط. كان فريدريش يسمع تنفّسه بوضوح.

- «أحتاج إلى وقتٍ للتّفكير». قال فريدريش بجهد.

ضحك غوستاف أدولف.

- «إنّكم لا تتوقّعون أنْ...». تنحنح فريدريش، ولمْ يعرف كيف عليه أنْ يُنهي الجُملة. فرك جبهته، توسّل لنفسه ألّا يفقد وَعْيه ثانيةً، وتحديداً ليس الآن، ولا بأيّ حالٍ من الأحوال الآن، وكرّر الجُملة من أوّلها: «إنّكم لا تتوقّعون أنْ أتّخذ مثل هذا القرار من دون أنْ...».

- «هذا هو تماماً ما أتوقّعه. عندما جمعت جنرالاتي لكي نتدخّل في الحرب، على السّرّاء والضّرّاء، أتعتقد أنّي قلّبتُ الأمر على وجوهه كافّة إلى الأبد؟ أتظنّ أنّي شاورتُ امرأتي في الموضوع؟ أتعتقد أنّي صلّيتُ قبل ذلك؟ بلْ قلتُ إنّي سأحسم الأمر الآن، وحَسمته، وعَقِب ذلك مباشرةً لم أعد أعرف الأسباب، لكنّها لم تعُد مهمّةً؛ لأنّ الأمر قد حُسم! وهكذا اجتمع الجنرالات من حولي وهتفوا: «يعيش الملك»، وقلت: «إنّي أسد منتصف اللّيل». هكذا خطرت في بالي، ونقر بإصبعه على جبينه: «مثل هذا يأتي ببساطة. لم أفكّر في شيءٍ، وفجأةً تأتيني الفكرة. أسد منتصف اللّيل! هذا أنا. إذنْ، قُل للأسد: نعم، أو لا، ولكن لا تسرق وقتي».

- عائلتي تمتلك السّيادة على إمارة بفالتس النّاخبة، وكذلك الولاءَ الكامل لدولة ألمانيا منذ...

- وأنت ترى أنّك لا تستطيع أنْ تكون الأوّل في عائلتك، الذي يحصل على إمارة بفالتس من السُّويديّ كإقطاعيّةٍ مأجورةٍ، لكنّك سترى أنّني لست شخصاً سيّئاً، سأفرض عليك ضريبةً معتدلةً، وإذا لم يكن لديك رغبة بالحضور إلى السُّويد بمناسبة عيد ميلادي، أرسلْ مستشارك. لن أوذيك. خذ يدي، صافحني، لا تكن حذاءً!

- «لا تكن حذاء؟». لم يكن الملك فريدريش متأكّداً ممّا سمع. أين تعلّم هذا الرّجُل الألمانية؟

مدَّ غوستاف ذراعه، ويَده الصَّغيرة المكتنزة باللّحم كانت تحوم أمام صدر فريدريش. لم يكن عليه سوى أنْ يصافحها، ليرى ثانيةً قصر هايدلبرغ، الهضابَ، والنّهرَ، وحبالَ أشعّة الشّمس الرّفيعة السّاقطة على الأروقة من خلال أوراق اللّبلاب، والقاعات التي نشأ وترعرع فيها. وسيكون في وسع ليز أنْ تحيا من جديد، حسْبما يليق، بما يكفي من الوصيفات، ومفارش الأسِرّة النّاعمة، والحرير، والشّموع الطّبيعيّة التي لا يتراقص لهبها،

والخَدم المطيعين العارفين بأسلوب مخاطبة صاحبة الجلالة. سيكون في وسعه العودة. سيكون كالسّابق.

- «لا». قال الملك فريدريش.

أمال غوستاف رأسه كأنّه أساء السَّمع.

- أنا ملك بوهيميا. أنا أمير بفالتس النّاخب. أنا لا آخذ ما يخصّني من أحدٍ كإقطاعيّةٍ مأجورةٍ، أُسْرتي أعرق من أُسْرتكم، ولا يجوز لكم غوستاف أدولف فاسا أنْ تخاطبني بهذا الأسلوب، ولا أنْ تقدّم إليَّ هذا العرض الدّنيء.

- «يا للهول!». قال غوستاف.

التفت فريدريش عنه.

- انتظر!

وفريدريش الذي كان في طريقه إلى المَخرج توقّف. كان عارفاً أنّه بهذا قد خرب مفعول الموقف كلّه، وعلى الرّغم من ذلك لمْ يستطع سوى التّوقُّف. برقَ في داخله شعاع أملٍ، ولم يسمح بأن يُخنَق، فمن المُحتمل أنْ تكون صلابة موقفه قد أثّرت في هذا الرّجُل إلى درجة أنّه سيقدّم له عرضاً جديداً. قد يقول في نفسه: «إنّك رجُلٌ بكلّ معنى الكلمة، وقد خدعت نفسي بك! ولكنْ لا».

فكّر الملك: «هُراء»، ومع ذلك بقي واقفاً والتفت، وكره نفسه لهذه الخطوة.

- «إنّك فعلاً رجُلٌ بكلّ معنى الكلمة». قال غوستاف أدولف.

بلع الملك لعابه.

- «لقد خدعت نفسي بك!». قال غوستاف أدولف.

كبت الملك سُعالاً مفاجئاً، وشعر بألمٍ في صدره، شعر بدوخة.

- «إذنْ، اذهب برفقة الرّبّ». قال غوستاف أدولف.

- ماذا؟

لَكمهُ غوستاف في أعلى ذراعه: «بلاغتك مؤثّرة، يمكنك أنْ تفخر بذلك، والآن، أرني عرض كتفيك، فعليّ أنْ أكسب حرباً».

- «لا شيء آخر؟». سأل فريدريش بصوتٍ مكبوت: «هذه كلمتك الأخيرة، هذا كلّ شيءٍ، اذهب برفقة الرّبّ؟».

- «أنا لست في حاجةٍ إليك. إمارة بفالتس سأحصل عليها بطريقةٍ ما، ويحتمل أن تدعمني إنجلترا في وقتٍ أبْكر، إنْ لم تكن أنت إلى جانبي، فأنت تذكّرها بالعار القديم، وبالمعركة الخاسرة قُرب براغ. الأفضل بالنّسبة إليَّ ألّا نتّفق، وهو أفضل لك أيضاً، فهكذا

تحافظ على كرامتك. تعال!». ووضع ذراعه على كتف الملك، قاده إلى المَخرج، ورفع ستارة الباب جانباً.

عندما دخلا خيمة الانتظار، وقف الجميع. خلع الكونت هودنيتس قبّعته وانحنى انحناءةً عميقةً، فيما انتصب الجنود مشدودي القامة.

- «ومن يكون هذا؟». سأل غوستاف.

احتاج فريدريش إلى لحظةٍ حتّى أدْرك أنّ غوستاف يقصد المهرّج.

- «أنت تعجبني». قال غوستاف.

- «أنت لا تعجبني». قال المهرّج.

- «إنّه مُضحك، أحتاج إلى مثله». قال غوستاف.

- «وأنا أيضاً أجدك مضحكاً». قال المهرّج.

- «ماذا تريد مقابله؟». سأل غوستاف فريدريش.

- «لا أنصح بذلك، أنا أجلب النّحس». قال المهرج.

- أحقّاً؟

- انظر بنفسك مع مَن جئتُ أنا. انظر كيف سارت أموره.

نظر غوستاف برهةً طويلةً إلى فريدريش، الذي ردَّ نظرته بمثلها إلى أنْ دَهمه السُّعال، الذي كان يكبته طوال الوقت.

- «اذهبوا». قال غوستاف: «اذهبوا بسرعة، انقلعوا، أسرعوا. لا أريد وجودكم في المعسكر بعد الآن»، وارتدّ إلى خيمته، كمن شعر بخوفٍ مفاجئ.

نزلت ستارة الباب وراءه واختفى.

مسح الملك الدُّموع، التي دفعها السُّعال إلى عينيه. آلمته رقبته. خلع قبّعته، وحكَّ رأسه، وحاول أنْ يستوعب ما جرى.

هذا هو ما جرى: لقد قُضي الأمر، لنْ يرى موطنه بعد الآن ثانيةً، وإلى براغ لن يعود أيضاً، سوف يموت في المنفى.

- «هيّا بنا». قال الملك.

- «ما النتيجة؟». سأل الكونت هودنيتس: «إلامَ توصّلتم؟».

- «فيما بعد». قال الملك.

وعلى الرّغم من كلّ شيءٍ شعر بارتياحٍ عندما بات المعسكر وراءهم أخيراً. تحسّن الهواء، والسّماء فوقهم كانت عاليةً وزرقاء، وفي البعيد شكّلت التّلال أقواساً. سأله الكونت هودنيتس مرّتين

أُخرَيَيْن عمّا نتج عن المشاورة، وعن احتمال العودة إلى براغ، ولكنْ عندما لمْ يتلقّ جواباً توقّف عن السُّؤال.

سعل الملك. سأل نفسه عمّا إذا كان ما حدث قد جرى حقّاً: هذا الرّجُل السّمين ذو اليدين المكتنزتين باللّحم، والأشياء الرّهيبة التي قالها، والعرض الذي قدَّمه، وأردتُ أن أقبله بكلّ قوّةٍ، ولكنْ كان عليَّ أن أرفضه، لماذا رفضته في الواقع؟ سأل نفسه فجأةً. لم يعُد يدري، الأسباب التي كانت إلزاميّةً جدّاً قبْل قليلٍ تحلّلت في الضّباب، حتّى كان في وسعه رؤية هذا الضّباب الذي يملأ الهواء بزرقته، ويجعل التّلال تفقد ملامحها.

سمع المهرّج يحكي أشياءَ من حياته، وتهيّأ له فجأةً كأنّ المهرّج يحكي، لكنّه من داخله، كأنّه ليس ممتطياً الجواد إلى جانبه، بلْ إنّه محمومٌ في رأسه. جزءٌ من نفسه لم يكن يريد معرفته على الإطلاق؛ أغمض عينيه.

حكى المهرّج عن هروبه مع أخته، وعن والدهما الذي أُعْدِم حَرقاً بتهمة السِّحر، وعن أمّهما التي رحلت مع فارسٍ إلى بلاد المشرق، ربّما إلى القدس، أو إلى أرض الفُرْس البعيدة، ومَن ذا الذي يريد أنْ يعرف أصلاً.

- «ولكنّها ليست أختك أبداً». سمع الملكُ الطّباخَ يقول.

لكنّ المهرّج تابع كلامه عن تجواله مع أخته في بادئ الأمر مع مُغنٍّ جوّالٍ رديء، كان طيّباً تُجاههما، وبعد ذلك مع لاعبِ خفّةٍ تعلّم هو منه ما يعرفه كلّه، كان كوميديّاً عالي المستوى، وبهلواناً جيّداً، لكنّه كان ممثّلاً بارعاً، إلّا أنّه كان في المقام الأوّل إنساناً سيّئا ولئيماً، إلى درجة أنّ أخته نِله ظنّته الشّيطان نفسه، لكنّهما فَهِما بعد حينٍ أنّ كلّ مُشعوذٍ من هذا القبيل هو شيطانٌ جُزئيّاً، وحيوانٌ جُزئيّاً، مع شيءٍ قليل من البراءة، وعندما أدركا ذلك، كانا قد صارا في غنى عن خبرات ببيرمين، هكذا كان اسمه، وعندما تجدّد سوء معاملته لهما خاصّةً، طبخت له نِلِه طبق فِطر، بقي مذاقه على لسانه طويلاً، أو بالأحرى نسيه فوراً، فقد فطس على إثره: حفنتان من الفطور الكويزيّة، مع قطعةٍ من الفِطر الأحمر المُنقّط، مع قطعةٍ من فطر الدّرن الأسْود، لا حاجة إلى أكثر من ذلك، إلّا أنّ فنّ الطّبخ يكمن في أخذ الفِطر الأحْمر المنقّط والدّرني الأسْود معاً، صحيحٌ أنّ كلًّا منهما قاتل وَحْده، لكنّ مذاق كلٍّ منهما وَحْده مُرٌّ، يلفت الانتباه؛ أمّا بطبخهما معاً فتتّحد النّكهتان، وتولّدان حلاوةً ناعمةً، لا تثير أيّة ريبة.

- «أيعني هذا أنّكما قتلتماه؟». سأل أحد الجنود.

- «ليس هو». قال المهرّج: «بلْ أخته، فهو لا يقوى على قتل ذبابة». وضَحك بمرحٍ. لم يكن أمامهما خيار، فقد كان الرّجُل شرّيراً إلى درجة عدم التّخلّص منه حتّى بموته؛ إذْ بقيت روحه تلاحقهما فترةً طويلةً حيثما ذهبا، صارت تضحك وراءهما في الغابة ليلاً، وتظهر لهما في المنامات، وتعرض عليهما صفقات.

- أيّ نوعٍ من الصّفقات؟

صمتَ المهرّج، وعندما فتح الملك عينيه لَحظ تساقط نُدف الثّلج من حولهم. أخذ شهيقًا عميقاً، وتحلّلت ذكرى نتانة المعسكر. لحس شفتيه، وهو يتذكّر، فكّر بغوستاف أدولف فدَهمه السُّعال ثانيةً. هل يسيرون بعكس الاتّجاه؟ لم يعُد يبدو له الأمر مُستغرباً، المهمّ هو ألّا يعودوا إلى المعسكر النّتن، ليس ثانيةً تحت أعْيُن هؤلاء الجنود، وإلى ملك السُّويد، الذي لم يفوِّت أيّة فرصةٍ ليَسْخر منه. المروج من حولهم عَلتها طبقةٌ من البياض الرّقيق، وعلى جذوع الأشجار المقطوعة -الجيش المتقدّم أسقط الأشجار كافةً- تشكّلت أكوامُ ثلج. سَند رأسه إلى قفا عُنقه، كانت السّماء تتلألأ بنُدف الثّلج. تذكّر تتويجه، فكّر في الخمسمئة مُغنٍّ، وفي الجوقة ثُمانيّة الأصوات، تذكّر ليز في معطف الجواهر.

انْقضت ساعاتٌ، وربّما أيّامٌ، إلى أنْ عاد إلى الزّمن الحاضر، كانت الأرض على كلّ حالٍ قد تغيّرت ثانيةً، كان الثّلج على درجةٍ من الكثافة، بحيث كانت الجياد تجد صعوبةً في التّقدُّم؛ كانت ترفع حوافرها بحَذر، وتضعها بتروٍّ على الثّلج العالي، والرّيح الباردة كانت تسوط وجهه. عندما تلفّت حوله، وهو يسعل، انتبه إلى أنّ الجنود الهولنديّين لم يعودوا موجودين. الكونت هودنيتس، والطّبّاخ، والمهرّج، كانوا فقط من يرافقه.

- «أين الجنود؟». سأل، لكنّ الآخرين لم يأبهوا له. كرّر السُّؤال بصوتٍ أعلى، فنظر إليه الغرّاف هودنيتس حائراً، ضيَّق عينيه، وعاد لينظر إلى الأمام في وجه الرّيح.

- «لا بدَّ من أنّهم قد هربوا». فكّر الملك: «لديّ الجيش الذي أستحقّه». قال، ثمّ أضاف، وهو يسعل: «مهرّجي، وطبّاخي، ومستشار بلاطي، الذي لم يعُد موجوداً، جيشي الهوائيّ، آخر أتباعي المخلصين!».

- «أمرك». قال المهرّج، الذي سمعه على ما يبدو، على الرّغم من الرّيح: «الآن ودائماً. هل أنت مريضٌ أيُّها الملك؟».

تبيّن للملك بنوعٍ من الارتياح، أنّ ما قاله المهرّج صحيح؛ لهذا إذنْ هذا السُّعال، والدّوخة، وشعوره بالضّعف أمام السُّويديّ،

هذا هو سبب الارتباك. كان مريضاً! وبدا ذلك على درجةٍ كبيرةٍ من المعقوليّة، ما دفعه إلى الضّحك.

- «نعم». قال مسروراً: «إنّي مريض!».

وفيما انحنى إلى الأمام كي يسْعُل، فكّر لسببٍ ما بحميِّه وحماته، لقد عرف منذ الّلحظات الأولى أنّه لم يحظَ بإعجابهما، لكنّه هزمهما بأناقته، وبسلوكه الفروسيّ، بصفائه الألمانيّ، وبقوّته الدّاخليّة.

وفكّر في ابنه البِكْر، في الفتى الجميل الذي أحبَّه الجميع. «إذا لم أرجع أنا». كان قد قال للطّفل: «فستعود أنت إلى الإمارة، وإلى أشراف سُلالتنا»، لكنّ العبَّارة انقلبت، وغرق الفتى، وهو الآن عند الرّبّ الإله، حيث سأكون أنا أيضاً قريباً، فكّر الملك، ولمس جبهته السّاخنة: «في المجد الأبديّ».

أدار رأسه جانباً، وصحّح وضْع المخدّة. أحسَّ بأنفاسه ساخنةً، فجذب الغطاء فوق رأسه، كان الغطاء متّسخاً، ورائحته ليست حَسنة. كم عدد الذين ناموا في هذا السّرير يا تُرى؟

دفع الغطاء عنه، ونظر حوله، من الواضح أنّه في غرفة نُزُل، هناك دورقٌ على الطّاولة، وتبنٌ على الأرض، ونافذةٌ واحدةٌ بزجاجٍ

سميك، وفي الخارج يُدوِّم الثّلج. على كرسيٍّ واطئٍ بلا مسندٍ جلس الطّبّاخ.

- «يجب أن نتابع المسير». قال الملك.

- «إنّك مريضٌ جدّاً». قال الطّبّاخ: «جلالتكم لا يمكنكم، أنتم...».

- «بلا، بلا، بلا». قال الملك: «هُراء، غباء، حماقة، كلام فارغ. ليز بانتظاري!».

سمع الطّبّاخ يُجيبه، لكنّ النّوم غلبه قبْل أنْ يفهمه، ووجد نفسه ثانيةً في الكاتدرائيّة على العرش قُبالة المذبح الكبير، وسمع الجوقة، وفكّر بحكاية المغزل التي روتها أمُّه له. فجأةً، بَدت له الحكاية في غاية الأهمّيّة، لكنّ ذاكرته أبَتْ أن ترتّب السّياق على نحوٍ صحيح: إذا أنجز المرء شيئاً من الغَزْل يكون قد أنجز أيضاً قطعةً من الحياة، وكلّما أسرع في فتل المِغْزل، لأنّه مستعجلٌ مثلاً، أو لأنّه مصابٌ بألمٍ ما، أو لأنّ الأمور لا تسير كما يروم، تمضي الحياة بسرعةٍ أكبر أيضاً، وإذا بالرّجُل في الحكاية قد بلغ آخر الغَزْل، وانقضى كلّ شيءٍ في حين أنّه لم يكدْ يبدأ، لكنّ ما جرى بين النّقطتين لم يستطع الملك أن يتذكّره؛ ولهذا السّبب فتح عينيه، وأصدر أمره بوجوب المتابعة فوراً إلى هولندا، حيث

يوجد قصره وزوجُه في انتظاره مع الحاشية مرتديةً الحرير والتّاج، حيث الاحتفالات لا تنتهي، وحيث تُقدَّم العُروض المسرحيّة كلّ يوم، حسبما تريد، يؤدّيها أفضل الممثّلين القادمين من بلدان الرّبّ جميعها.

ولمفاجأته وجد نفسه ثانيةً على جواده، وقد وضع أحدهم معطفاً على كتفيه، لكنّه ما زال يشعر بالرّيح. بَدت الدّنيا بيضاء: السّماء، والأرض، والأكواخ على جانبيّ الطّريق.

- «أين هودنيتس؟». سأل.

- «الكونت ذهب». أجاب الطّبّاخ.

- «يجب أن نتابع». قال المهرّج: «لم يعُد لدينا نقود؛ صاحب النُّزل طردنا». «سواء كان ملكاً أم لا». قال: «عندي لا بدَّ من دفع الحساب».

حاول الملك أنْ يُحصي تعداد جيشه: المهرّج موجود، والطّبّاخ موجود، وهو نفسه لا يزال موجوداً، وكذلك المهرّج، المجموع أربعة، لكنّه عندما كرّر التّعداد للتّأكُّد لم يجد سوى اثنين: المهرّج والطّبّاخ، ولأنّ هذا لا يمكن أن يكون صواباً، كرّره مرّةً ثالثة، فكانت النّتيجة ثلاثة، وفي المرّة الرّابعة للتّأكُّد توصّل

مُجدّداً إلى أربعة: ملك بوهيميا، الطّبّاخ، والمهرّج، وهو نفسه، وتوقّف عن العدّ.

- «يجب أن نترجّل». قال الطّبّاخ.

وفعلاً كان ارتفاع الثّلج عالياً، بحيث لم تعُد الجياد قادرةً على التّقدُّم.

- «لكنّه لا يستطيع المشي». سمع الملكُ المهرّج يُجيب، ولأوّل مرّةٍ كان وقع صوته خالياً من الخُبث، بلْ كصوت إنسانٍ عاديّ.

- «ولكنْ لا بدّ من أن نترجّل، أنت ترى، ما عاد بإمكاننا التّقدُّم». قال الطّبّاخ.

- «نعم، إنّي أرى». أجاب المهرّج.

بينما أمسك الطّبّاخ عنان الجواد، ترجَّل المَلك بمعونة المهرّج. غرق في الثّلج حتّى رُكبتيه، لَهثَ جواده مرتاحاً لتخلُّصه من الوزن، واندفعت من منخريه أنفاسٌ دافئةٌ، ربَّت الملك على خشمه، ونظر إليه الجوادُ بعينين كامدتين.

- «لا يمكننا ترك الجياد وراءنا ببساطةٍ». قال الملك.

- «لا تقلق، فقبل أنْ تتجمّد من البَرد سيأتي مَن يفترسها». قال المهرّج.

سَعل المَلك. من اليمين سنده المهرّج، والطّبّاخ من اليسار، وخاضوا في الثّلج.

- «إلى أين نحن ذاهبون؟». سأل الملك.

- «إلى البيت». قال الطّبّاخ.

- «أعرف، ولكنّ اليوم، الآن، في هذا البرد. إلى أين سنذهب الآن؟». قال الملك.

- «على مسافة نصف يوم مسيرٍ نحو الغرب، توجد قريةٌ ما زالت مأهولةً». قال الطّبّاخ.

- «بدقّة، لا أحد يعرف». قال المهرّج.

- «مسير نصف يومٍ تُعادل يوماً كاملاً في هذا الثّلج العالي». قال الطّبّاخ.

سعل الملك. خاض، وهو يسْعُل، وسَعل، وهو يخوض. خاض، وخاض، وسعل، واستغرب من أنّ ألم صدره لم يعُد كما كان، بلْ خفَّ جدّاً.

- «أعتقد أنّي سأشفى». قال.

- «بالتّأكيد». قال المهرّج: «هذا واضحٌ، سوف تشفى يا صاحب الجلالة».

أحسَّ الملك أنّه كان سيسقط لو لم يسنده كلاهما. أخذ الثّلج يزداد تراكماً وارتفاعاً، ولم يعُد الملك قادراً في هذه الرّيح القارسة أنْ يُبقي عينيه مفتوحتين. «أين هودِنيتس؟»، سمع نفسه يسأل للمرّة الثّالثة. أحسَّ بألمٍ في عنقه. نُدف الثّلج في كلّ مكانٍ، وعندما أغمض عينيه استمرّ في رؤيتها نقاطاً وامضةً، متراقصةً، مدوِّمةً. زفرَ، رُكبتاه لم تعودا تقويان على حَمْله، لمْ يسنده أحد، فتلقّاه الثّلج الطّريّ.

- «لا يمكننا تركه هنا». سمع أحداً ما يقول فوقه.

- ماذا علينا أن نفعل؟

امتدّت يدان إليه، ورفعتاه عالياً؛ إحداهما: ربّتت على رأسه بحنانٍ تقريباً، فذكّره هذا بمُربّية الأطفال الحبيبة، التي ربَّته

آنذاك في هايدلبرغ، عندما كان أميراً وحسْب، وليس ملكاً، عندما كان كلُّ شيءٍ على ما يرام. خاضت قدماه في الثّلج، وعندما فتح عينيه قليلاً، رأى إلى جانبه معالم سطوحٍ محطّمةٍ، ونوافذ خاوية، وجدار بئرٍ مُعطّلة، لكنّه لم يرَ بشراً.

- «لا يمكننا دخول أيٍّ من هذه البيوت». سمع الملك: «السُّطوح خَرِبة، إضافةً إلى وجود ذئاب».

- «لكنّنا سنتجمد هنا في الخارج». قال الملك.

- «نحن الاثنان لن نجمد من البرد». قال المهرّج.

تلفّت الملك حوله، وفعلاً لم يرَ أثراً للطّبّاخ، كان وحْده مع تيل.

- «لقد ذهب في طريقٍ آخر، لا عتب عليه، كلّ امرئٍ يهتمّ بأمر نفسه في العاصفة». قال المهرّج.

- «لماذا لنْ نجمد من البرد؟». سأله الملك.

- أنت محمومٌ جدّاً. حرارتك مرتفعة جدّاً؛ البرودة لن تؤذيك، سوف تموت قبل ذلك.

- «بأيّ مرض؟». سأل الملك.

- بالطّاعون الدّمَّلي.

صمت الملك لحظاتٍ، ثمّ سأله: «أنا مريضٌ بالطّاعون؟».

- «يا لبؤسك!». قال المهرّج: «يا لَبؤس ملك الشّتاء! نعم، بالطّاعون، منذ عدّة أيّام. ألم تلْحظ الدّمامل على رقبتك؟ ألا تشعر بها عندما تتنفّس؟».

أخذ الملك شهيقاً. كان الهواء جليديّاً. سعل: «إذا كان الطّاعون، فسوف تُصاب أنت بالعدوى». قال الملك.

- شدّة البرد لا تلائم العدوى.

- هل يمكن أنْ أستلقي الآن؟

- «أنت ملك، يمكنك أن تفعل ما تشاء، متى وأينما تشاء». قال المهرّج.

- إذنْ، ساعدني، سأستلقي.

- «أمرك يا صاحب الجلالة». قال المهرّج، وسنده من رقبته، وساعده على الاستلقاء على الأرض.

لمْ يسبق للملك أن اسْتلقى بهذه الطّراوة. بَدت تراكمات الثّلج تتوهّج بضعفٍ، وبدأت السّماء تعتم، لكنّ نُدف الثّلج لا تزال

ترفُّ وتومِض. تساءل في نفسه عمّا إذا كانت الجياد المسكينة لا تزال حيّةً، ثمّ فكّر بزوجِه ليز.

- أيمكنك إيصال رسالةٍ إليها؟

- طبعاً، يا صاحب الجلالة.

لمْ يعجبه أنْ يخاطبه المهرّج بهذا الاحْترام، هذا غير مناسب، فسبب وجود مهرّج البلاط هو عدم السّماح بنوم العقل من كثرة التّبجيل، المهرّج يجب أن يكون وقحاً! تنحنح كي يَزْجره، لكنّه اضطّرّ أن يسعل مُجدّداً، وأحسَّ بصعوبةٍ كبيرةٍ في الكلام.

ثمّة شيءٌ آخر، ماذا كان؟ آه، نعم، الرّسالة إلى ليز. لطالما أحبَّت المسرح، وهو لم يفهم هذا التّعلُّق قط. أناسٌ يقفون على الخشبة، ويتظاهرون بأنّهم أناسٌ آخرون. ابتسم. ملكٌ من دون مملكةٍ في العاصفة، وحْده مع مُهرّجه، مثل هذا الوضع لن يرِد في أيّة مسرحيّةٍ، فهو سخيفٌ جدّاً. حاول أنْ يعتدل، لكنّ يديه غاصتا في الثّلج، فارتمى مُجدّداً. ما الذي أراد أن يفعله؟ صحيح، الرّسالة إلى ليز.

- «الملكة». قال.

- «نعم». قال المهرّج.

- هل ستخبرها؟

- سأفعل ذلك.

انتظر الملك، ولكنْ لم يظهر على وجه المهرّج ما يدلُّ على أنّه سيسخر منه، على الرّغم من أنّ هذا هو واجبه. أغمض عينيه منزعجاً، وفوجئ بأن هذا لم يغيّر في الوضع شيئاً، ما زال يرى المهرّج، وما زال يرى الثّلج. أحسَّ بورقٍ في يديه، من الواضح أنّ المهرّج قد دسَّه بين أصابعه، وأحسَّ بشيءٍ قاسٍ، لا بدَّ من أنّها قطعة فَحْم. «سوف نلتقي ثانيةً أمام الرّبّ»، أراد أن يكتب: «أنا لم أحبّ سواكِ في الحياة»، ولكنْ بدا له كلّ شيءٍ بعدئذٍ متداخلاً، ولم يعُد واثقاً ممّا إذا كان قد كتب ذلك أم أراد أنْ يشرعِ في كتابته، ولم يعُد يعرف تماماً لمن يوجّه خطابه، ولذلك كتب بيدٍ مرتجفةٍ: «غوستاف أدولف سيموت قريباً، أعرف هذا الآن، لكنّي سأموت قبل ذلك»، ولكنّ هذا ليس موضوع الرّسالة على الإطلاق، ولذلك أضاف: «اهتمّي جيّداً بالحمار، إنّي أهديه لكِ»، ولكنْ لا، هذا لم يُرِد أنْ يقوله لها، إنّما للمهرّج، والمهرّج كان هنا، فيمكنه أن يقول له هذا شخصيّاً، في حين أنّ الرّسالة

موجّهةٌ إلى ليز؛ لذلك بدأ من جديد، وأراد أن يكتب، لكنّ الوقت قد فات، ولم يعُد بمقدوره الكتابة؛ لقد ارتخت يَده.

لمْ يبقَ إلّا أنْ يأمل بأنّه قد كتب كلّ ما كان مُهمّاً.

من دون بذْل جهدٍ نهض ومشى، وعندما التفت مرّةً ثانيةً لَحظ أنّهم عادوا ثلاثة مُجدّداً: المهرّج راكعاً مرتدياً معطف الفراء الملكيّ، والملك على الأرض، وقد تغطّى نصف جسده تقريباً ببياض الثّلج، وهو. رفع المهرّج نظره، فالتقت نظراتهما. رفع المهرّج يَده إلى جبينه، وانحنى مُحيّياً.

حنى رأسه مُحيّياً، استدار، وغادر، وبما أنّه لم يعُد يغوص في الثّلج، فقد غادر بسرعة.

جوع

- «كان يا ما كان». تحكي نِله.

كان قد مضى عليهم ثلاثة أيّامٍ في الغابة. بين الحين والآخر يتسلّل بعض النّور من خلال أوراق الشَّجر، التي شكّلت سقفاً كثيفاً، وعلى الرّغم من هذا السّقف فوقهم يبتلّون من المطر. يتساءلون عمّا إذا كان للغابة نهاية. وبيرمين الذي يسير أمامهما، ويَحكُّ بين الحين والآخر نصف قرص صلعته، لا يلتفت إليهما؛ يسمعانه أحياناً يُهَمهم، وأحياناً يغنّي بلغةٍ أجنبيّة. لقد باتا يعرفانه الآن جيّداً، بما يكفي لئلّا يخاطبانه، فهذا قد يغضبه، وإذا غضب، فلنْ يطول الأمر حتّى يؤلمهما.

- «كان هناك أُمّ عندها ثلاث بنات». تحكي نِله: «وكان عندهنَّ إوزّة واحدة، وضعت بيضةً دهبيّةً واحدة».

- ما نوع البيضة؟

- بيضة ذَهبيّة.

- قلتِ: دهبيّة.

- الشّيء نفسه. البنات كنَّ مختلفاتٍ جدّاً، اثنتان منهنّ شرّيرتان بروحين سوداوين، لكنّهما جميلتان، والابنة الصُّغرى كانت على عكسهما طيّبة القلب وروحها بيضاء كالثّلج.

- وهل كانت جميلةً أيضاً؟

- كانت أجمل الثّلاث، جميلة مثل الصُّبح.

- مثل الصُّبح؟

- «نعم». قالت بانزعاج.

- هل الصُّبح جميل؟

- جدّاً.

- الصُّبح؟

- جميلٌ جدّاً. أَجْبرت الأختان الشّرّيرتان الأختَ الصُّغرى على العمل من دون توقّفٍ نهاراً وليلاً، فأدْمَت أصابعها من التّنظيف، وقدماها صارتا كتلتين مؤلمتين، وشابَ شَعرُها قبل أوانه. ذات يومٍ فقست البيضة الذّهبيّة، وخرج منها عقلة الإصبع، وسأل الآنسة: ماذا تتمنّين؟

- أين كانت البيضة طوال الوقت قبْل ذلك؟

- لست أدري، كانت مركونةً في زاويةٍ ما.

- طوال الوقت؟

- نعم، كانت في زاويةٍ ما.

- بيضة من ذهب؟ وحقيقةً لم يأخذها أحد؟

- إنّها حكاية!

- من إبداعكِ أنتِ؟

صمتت نِله. بدا لها السُّؤال بلا معنى، وبَدت معالم الصَّبيّ في غسق الغابة نحيلةً جدّاً، إنّه يمشي مَحنيّ الظّهر قليلاً، ورأسه مائلٌ إلى الأمام فوق الصَّدر، وجسمه بالغ الرِّقّة، كأنّه دُميةٌ خشبيّةٌ دبّت فيها الحياة. هل ابتدعت هذه الحكاية؟ إنّها هي نفسها لا تعرف. لقد سمعت الكثير جدّاً من الحكايات برواية أمّها، وعمّتها، وجدّتها، سمعت الكثير عن عُقلة الإصبع، وعن البيضة الذّهبيّة، والذّئاب، والفرسان، والسَّحَرة، وعن الأخوات الشّرّيرات والطّيّبات، بحيث لم تعُد في حاجةٍ إلى التّذكُّر؛ فما إنْ يبدأ المرء بالرّوي حتّى تتتالى الحكاية من نفسها، وتتّصل الأجزاء ببعضها، مرّةً على هذا النّحو، ومرّةً بهذا الشّكل، وإذا بالحكاية قد اكتملت.

- «هيّا، تابعي!». قال الصّبيّ.

وفيما هي تحكي عن عُقلة الإصبع، الذي حوَّل الأخت الطّيّبة إلى سنونوةٍ بناءً على رغبتها، كي تتمكّن من الهروب إلى أرض الأحلام، حيث كلّ شيءٍ خيِّرٌ، وما من أحدٍ يعاني الجوع، لفت نظر نِله أنَّ الغابة تزداد كثافةً باستمرار. كان يُفترض بهم أن يقتربوا من مدينة آوغسبورغ، لكنّ الحال لا يدلُّ على ذلك.

توقّف بيرمين، استدار متشمّماً حول نفسه، ثمّة ما أثار انتباهه. انحنى وتفحّص جذع شجرة بتولا، اللّحاء الأسْود/ الأبيض، وتجويف غُصنٍ سابق.

- «ماذا هناك؟». سألت نِله، وفزعت في اللّحظة نفسها من تهوّرها، وأحسّت أنّ الصّبيّ إلى جانبها قد جَمد.

ببطءٍ أدار بيرمين نحوهما رأسه الكبير ذا الصّلعة الشّوهاء، وقد التمعت عيناه بعدوانيّة.

- «تابعي الحكاية». قال.

مازالت تحسُّ حتّى الآن أماكن قرصِه إيّاها على ذراعيها وساقيها، وكتفها ما زال يؤلمها كما قبل أربعة، أو خمسة أيّامٍ، عندما لوى

ذراعها بقبضة خبيرٍ وراء ظهرها. أراد الصّبيُّ أن يساعدها، فرفسه في بطنه بقوّةٍ، لم يستطع بعدها لبقيّة النّهار أنْ ينهض واقفاً.

وعلى الرّغم من ذلك فإنّ بيرمين حتّى الآن لم يتجاوز حدود الخطر. لقد آلمهما، ولكنْ ليس بشدّةٍ كبيرةٍ، وفي كلّ مرّةٍ أمسك نله أيضاً، فإنّه لم يلمسها أبداً فوق ركبتيها، أو تحت سُرّتها، بما أنّه كان يعرف أنّ بإمكانهما الهروب في أيّ وقتٍ، فقد احتفظ بهما بالطّريقة الوحيدة الممكنة؛ بأنْ يعلّمهما ما يريدان تعلّمه.

- «تابعي الحكاية». قال ثانيةً: «لن أرجوكِ مرّةً أُخرى».

ونِله التي ما زالت تتساءل ما عساه رأى في تجويف الغُصن، حكت عن وصول عُقلة الإصبع والسّنونوة إلى بوّابة أرض الأحلام، التي يحرسها حارسٌ ضخمٌ مثل برجٍ. قال لهما: «هنا لن تجوعا أبداً، ولن تعطشا أبداً، لكنّكما لن تدخلاها». ترجيّا، وتوسّلا، وابتهلا، إلّا أنّه لا يعرف الرّحمة، فقلبه من حجر، بثقل قنطار في صدره، ولا يخفق، ولا يتوقّف عن تكرار: «لن تدخلا! لن تدخلا!».

وسكتت نِله، فنظرا كلاهما إليها، وانتظرا.

- «وبعد؟». سألها بيرمين.

- «لم يدخلا». أجابت نله.

- أبداً؟

- قلبه كان من حجر!

حدّق بيرمين إليها لحظةً، ثمّ ضحك وتابع المشي، فتبعه الطّفلان. لقد اقترب اللّيل،

وعلى نقيض بيرمين، الذي نادراً ما يقدّم لهما شيئاً، لم يعُد لديهما أيّ طعام.

عادةً، تحتمل نِله الجوع أفضل من الصّبيّ، فتتخيّل عندها أنّ الألم والضّعف في داخلها هُما شيءٌ ينتمي إلى مكانٍ آخر لا علاقة له بها؛ أمّا اليوم، فكان حالُ الصّبيّ أفضل منها، إنّه يشعر بجوعه كشيءٍ خفيفٍ مثل خفقٍ وتأرجُحٍ، ويكاد يشعر بأنّه قادرٌ على التّحليق في الهواء. في أثناء مشيهما وراء بيرمين ما زال هو في أفكاره منشغلاً بدرس قبل الظُّهر: كيف تقلّد إنساناً؟ كيف تقوم بالنّظر في عيني إنسانٍ برهةً قصيرةً، ثمّ تكونه، أن تقف مثلما يقف، أن تجعل جرْس صوتك مثل صوته، وأن تنظر مثله؟

ليس هناك ما يحبّه النّاس أكثر من هذا، ليس هناك ما يحبّون أن يضحكوا عليه مثل هذا، ولكنْ عليك أن تتقن الفعل؛ إذْ إنْ

أخطأت في الأداء فسيعدّونك بائساً، فلِكي تقلّد شخصاً ما، يا أبله، يا غبيّ، يا حجراً جافّاً عديم الموهبة، عليك ألّا تشبهه وحسْب، بلْ أن تكون أكثر شبهاً به من نفسه، فهو في وسعه أن يكون كيفما يشاء؛ أمّا أنت، فيجب عليك أن تصير هو تماماً، وإن كنت غير قادرٍ على ذلك، فدَعْك من الأمر، أُترْكه وارْجع إلى طاحون والدك، ولا تضيّع وقت بيرمين!

المسألة تتعلّق بأنْ تنظر لتراقب، هل تفهم؟ هذا هو المهمّ: انظر، وراقب، اِفْهم النّاس. ليس الأمر بهذه الصُّعوبة، إنّهم ليسوا معقّدين، إنّهم لا يريدون شيئاً عجيباً، لكنْ كلّ واحدٍ يريد مبتغاه بطريقةٍ مغايرةٍ نوعاً ما، وعندما تفهم أنت الطّريقة التي يريد بها مبتغاه، فكلّ ما عليك هو أنْ تريد مثله، وجسمك سوف يتفاعل معك، وعندها يتغيّر الصّوت من نفسه، وعندها تنظر عيناك بطريقةٍ صحيحة.

طبعاً يجب أنْ تتمرّن. دائماً على المرء أنْ يتمرّن. أن يتمرّن، ويتمرّن ويتمرّن. مثلما تتمرّن على الرّقص على الحبْل، أو المشي على اليدين، أو مثلما عليك التّدرُّب طويلاً حتّى تستطيع الاحتفاظ بستّ كُراتٍ في الهواء دفعةً واحدةً. عليك دائماً وأبداً أن تتمرّن، وعمليّاً مع معلّم، لا يُسمح لك بأيّة هفوةٍ، فالمتمرّن يمرّر لنفسه دائماً كثيراً من الهفوات، الإنسان لا يكون حازماً مع

نفسه، ولهذا يجب على المدرّب أن يرفسك، ويضربك، ويسخر منك، وأن يقول لك: إنّك ولدٌ بائسٌ لن يُتقن الأمر أبداً.

ومن شدّة انشغال الصّبيّ بالتّفكير في كيفيّة تقليد النّاس يكاد ينسى جوعه، فيتخيّل آل شتيغر، والحدّاد، والكاهن، وهنَّا كرِل العجوز، التي لم يَعرف عنها أنّها ساحرة؛ أمّا الآن وقد عَرف، فإنّه يجد تفسيراً جديداً لأمورٍ كثيرةٍ، وأخذ يستدعيهم الواحد بعد الآخر، ويتخيّل وقفة كلٍّ منهم، وطريقة كلامه؛ فيحني كتفيه، ويُضيِّق صدره، يحرّك شفتيه بلا صوتٍ: «ساعدني بالمطرقة يا شابّ، دُقّ المسمار»، وترتجف يده قليلاً عندما يرفعها؛ هذا من تأثير الرّوماتيزم.

يتوقّف بيرمين، ويأمرهما بجمع أغصانٍ جافّة. يعرفان أنّه لا جدوى من ذلك؛ فبعد ثلاثة أيّامٍ من المطر، تغلغل البلل إلى كلّ شيء، ولمْ يبق شيءٌ بمنأى عنه، ولم يعُد هناك أيّ شيءٍ جاف، ولكنْ لأنّهما لا يريدان أن يغضب بيرمين، ينحنيان ويدبّان هنا وهناك، ويمدّان أيديهما إلى داخل الدّغل، ويتصرّفان كأنّهما يفتّشان.

- «كيف تنتهي الحكاية؟». يهمس الصّبيّ: «هل يدخلان إلى أرض الأحلام؟».

- «لا». تهمس نِله: «يجدان قصراً يحكمه ملكٌ شرّيرٌ، فيقتلانه، وتصبح الصّبيّة ملكة».

- هل تتزوّج عُقلة الإصبع؟

تضحك نِله.

- «ما السّبب؟». يسأل الصّبيُّ، وقد فوجئ بأنّه يريد معرفة ذلك، ولكن في خاتمة كلّ حكايةٍ لا بدَّ من زواجٍ، وإلّا فإنّها لا تنتهي، وإلّا لبقيت الأمور عوجاء».

- كيف لها أنْ تتزوّج عقلة الأصبع؟

- لمَ لا!

- لأنّه عُقلة إصبع.

- إذا كان قادراً على السِّحر، يمكنه جعل نفسه طويلاً.

- حسنٌ إذنْ، يسْحر نفسه، ويصير أميراً، ويتزوّجان، وإذا لم يموتا بعد، فهما حيَّان حتّى اليوم. جيّد؟

- أفضل.

ولكنْ عندما رأى بيرمين الأغصان التي جلبوها إليه، بدأ يصيح، ويضرب، ويقرص. يداه سريعتان وقويّتان، وعندما يعتقد أحدهما أنّه قد نال نصيبه من الضّرب، فنجا رفيقه، تكون يدا بيرمين قد أمسكتا بالثّاني.

- وكان يصيح ويشتم: «جرذان، قوارض، أغبياء، عواطل، جنادب، روث، لا نفع منكما لأيّ شيء، لا عجب أنّ أولياءكما قد طرداكما!».

- «غير صحيح». قالت نِله: «نحن هربنا».

- «نعم، نعم، وأباه أحرقه الجلّاد، أعرف ذلك، سمعت القصّة كذا مرّة!». قال بيرمين.

- «شنقه، لم يحرقه». قال الصّبيّ.

- هل رأيت ذلك بنفسك؟

صمت الصّبيّ.

- «خوزقه!». وضحك بيرمين: «أنت لا تعرف شيئاً، عندما يُشنق شخصٌ لأنّه ساحر، يحرقونه بعد موته شنقاً، هكذا تجري الأمور، هذا ما يفعلونه؛ أي: إنّهم قد أحرقوه، وإضافة إلى ذلك شنقوه».

قرفص بيرمين، وأخذ يحرّك الأغصان بأصابعه هنا وهناك، ويفرك أعوادًا ببعضها، وهو يقول كلمات. تعرَّف الصّبيّ إلى كلمات التّعويذة: «اشعِل، نار، نار الرّبّ، ملاك، احملها إلي، أوقد خشباتي الصّغيرة، اشعِل هذا العود»؛ إنّها تعويذةٌ قديمةٌ، كان كلاوس أيضاً يستعملها، وفعلاً لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى شمَّ الصّبيُّ رائحة الخشب المحروق المُحبّبة، ففتح عينيه، وصفّق بيديه. انحنى بيرمين مُحيّياً مع ابتسامةٍ عريضة. ملأ خدّيه هواءً ونفخ على النّار، انعكس ضوء الشُّعلة على وجهه، ووراءه تراقص ظلّه الهائل على جذوع الأشجار.

- والآن، أرياني شيئاً ممّا تجيدان.

- «نحن مُتعبان». قالت نِله.

- إذا أردتما أن تأكلا العبا. هكذا هو الوضع الآن، وهكذا سيبقى إلى أن تفطسا. أنتما من الشّعب المُتنقّل(3)، لا أحد يحميكما، وإذا أمطرت، ليس لديكما سقفٌ، ولا بيت، ولا أصدقاء إلّا من

بين مَن هُم مثلكما، ولن يحبّوكما كفاية؛ لأنّ الطّعام قليل، ومقابل ذلك أنتما حُرّان، لستما مُلزمين بطاعة أحد، ولكن عندما تصير الأوضاع حرجةً عليكما بالإسراع في مغادرة المكان، وعندما تجوعان عليكما أن تلعبا.

- هل ستعطينا طعاماً؟

- «ممنوع، شموع، دموع، ممنوع، ممنوع!». هزّ بيرمين رأسه ضاحكاً وجلس وراء النّار: «لا مزيد، لا ذرّة، لا قطعة، ولا ترفعا صوتيكما، فهناك مرتزقة في الغابة، في مثل هذا الوقت يكونون في غاية السُّكْر، وسيكونون في غاية الغضب أيضاً؛ لأنّ الفلّاحين حول نورنبرغ قد شكّلوا عصبة مُتّحدة، فإذا عثروا علينا، سيكون حالنا وخيماً».

تردّد الاثنان لحظات؛ إذْ كانا حقّاً مُتعبين جدّاً، لكنّهما لهذا السّبب هنا في نهاية المطاف، لهذا السّبب غادرا مع بيرمين، كي يُقدّما عرْضاً، وليتعلّما فنوناً جديدة.

بدأ الفتى أوّلاً بالرّقص على الحبل، شدَّ حبله على ارتفاعٍ قليلٍ، على الرّغم من أنّه قد أتقن خلال المدّة الماضية ألّا يسقط، ولكنْ لا يمكن أبداً توقُّع ما قد يرميه به بيرمين، أو أن يهزّ الحبل. مشى الصّبيُّ بعض الخطوات الحَذرة، كي يختبر شعوريّاً قوّة شدّ

الحبل، الذي يكاد لا يراه في ضوء الغسق، وعندما أحسَّ بالأمان مشى بسرعةٍ، ثمَّ ركض في المكان. قفز واستدار حول نفسه في الهواء، هبط على الحبل، ومشى إلى الخلف حتّى أخره. مشى عائداً، وانثنى بشدّةٍ ليمشي فجأةً على يديه حتّى وصل إلى طرفه الثّاني، تشقلب ليقف على قدميه ثانيةً، جدَّف بيديه قليلاً حتّى استعاد توازنه، ثمّ انحنى مُحيّياً، وقفز إلى الأرض.

صفَّقت نِله بحماسةٍ كبيرة.

- بصق بيرمين، وقال: «المقطع الأخير كان بشعاً».

انحنى الصّبيُّ، وأخذ حجراً، رماه في الهواء، التقطه ثانيةً من دون أن ينظر إليه، ورماه عالياً ثانيةً. فيما الحجر في الهواء، أخذ من الأرض حجراً آخر ورماه عالياً، التقط الأوّل، رماه عالياً، وأخذ ثالثاً من الأرض بسرعة البرق ورماه، التقط ورمى الأوّل، وثنى ركبته ليأخذ حجراً رابعاً، وأخيراً صار معه خمسة أحجار تدور حول رأسه، صعوداً ونزولاً في ضوء الغسق. نِله قطعت أنفاسها، بيرمين تجمَّد، ولم تصدر عنه حتّى نأمة، وعيناه كانتا شقّين ضيّقين.

كانت الصّعوبة تكمن في أنّ الأحجار ليست متوافقة الشّكل، ولا الوزن؛ لهذا كان على اليَد أن تتلاءم مع كلّ حجر، أن تتلقّف

الحجر كلّ مرّةٍ بشكلٍ مختلف، على الذراع عند تلقّف الحجر الثّقيل أن ترتخي أكثر، وأن ترمي الحجر الخفيف بقوّةٍ أكبر، بحيث يطيرون كلّهم بالسّرعة نفسها، وفي حلقة الدّوران نفسها، ولا ينجح هذا إلّا بعد كثيرٍ من التّمرين، كما لا ينجح إلّا إذا نسي المرء أنّه الشّخص الذي يرمي الحجارة، وليس على هذا الشّخص في أثناء ذلك إلّا أن ينظر إلى كيفيّة طيرانها، ولكنْ حالما ينهمك الرّامي في المسألة، تتلخبط الأمور كلّها، وإذا فكّر الرّامي في أثناء العمليّة، فإنّه يفقد الإيقاع، ولا يستطيع الاستمرار.

لمُدّةٍ وجيزةٍ تمكّن الصّبيُّ من الاستمرار، فلمْ يفكّر، بلْ أبقى نفسه داخليّاً على الهامش، ينظر إلى الأعلى، ويرى الأحجار تطير فوقه، وتلقّف من بين أوراق الشّجر آخر نورٍ من سماء المساء، وأحسَّ بنقاط مطرٍ على جبينه وشفتيه، وسمع هسيس النّار، وأحسَّ بأنّه لن يتمكّن من الاستمرار طويلاً قبل أن تختلط الأمور ببعضها، ولكي يستبق حدوث ذلك، ترك الحجر الأوّل يطوح إلى الدُّغل وراءه، ثمّ الثّاني، فالثّالث، والرّابع، والأخير، ونظر مدهوشاً إلى يديه الفارغتين: «أين ذهبت الحجارة؟». وانحنى مُحيّياً وهو يتظاهر بالحيرة.

صفّقت نِله بحماسةٍ مُجدّداً، وقام بيرمين بيده بحركة ازدراء، ولكنْ بما أنّه لم يقل شيئاً مُسيئاً، أدرك الصّبيُّ أنّه قد أدّى

الّلعبة بنجاح. طبعاً كان سينجح بصورةٍ أفضل لو أعاره بيرمين الكُرات الخاصّة بهذه الّلعبة، لديه ستّ منها، من جلدٍ سميكٍ، ملساء وعمليّة، وكلٌّ منها بلونٍ مختلف، بحيث تتحوّل في الّلعب إلى نافورةٍ ملوّنةٍ وامضةٍ، إذا سرَّع اللاعب طيرانها. بيرمين يحفظها في كيس الخيش الذي يحمله دوماً على كتفه، الذي لا يجرؤان على لمسه. «حاوِلا، مُدّا أيديكما إلى داخله، سأكسر أصابعكما». سبق للصّبيّ أن رأى بيرمين يطيّرُ الكُرات في هذا، أو ذاك السّوق؛ إنّه يؤدّي الّلعبة برشاقةٍ، لكنّه لم يعُد بتلك الخفّة التي كان عليها فيما مضى، وإذا دقّق المرء النّظر فسيلْحظ أنّه من كثرة شربه البيرة الثّقيلة، بدأ يفقد الإحساس بالتّوازن؛ ولهذا السّبب تحديداً لن يسمح له بيرمين مطلقاً باستعمال كُراته.

والآن، حان وقت المسرحيّة. أعطى الصّبيُّ نِله إشارةً برأسه، فقفزت فوراً إلى الأمام، وبدأت تروي: «ثمّة جيشان احْتشدا ذات يومٍ أمام براغ الذّهبيّة، فلعلعت الأبواق، ولمعت دروع المقاتلين، وها هو ذا الملك الشّاب ممتلئاً شجاعةً بصحبة عقيلته الإنجليزيّة، لكنّ جنرالات القيصر لا يراعون شيئاً، قرعوا طبولهم، هل تسمعها؟ فحلَّ الوبال بالمسيحيّة».

أخذ الصّبيُّ والفتاة يتبادلان الأدوار من مشهدٍ إلى آخر، فيغيّران النّبْرة، والصّوت، والّلغة، وبما أنّهما لا يعرفان التشيكيّة، ولا

الفرنسيّة، ولا اللّاتينيّة، فإنّهما يرطنان بأجمل ما لا يُفهَم. الصّبيُّ في دور قائد جيش القيصر، يعطي أمره، يسمع المدافع تدوي وراءه، يرى فرسان بوهيميا يوجّهون أسلحتهم نحوه، يسمع أمر الانسحاب، لكنّه لا يبالي به، فالانسحاب لا يحقّق غنائم، ويتقدّم. الخطر كبيرٌ، لكنّ الحظّ حليفه، يتراجع الفرسان أمام شجاعة كتائبه، تلعلع أبواق النّصر، إنّه يسمعها أوضح من المطر، وسرعان ما يمثُل في قاعة عرش القيصر. صاحب الجلالة يجلس بجلالٍ على العرش، وبيده النّاعمة يقلّده وشاحاً ووساماً: «اليومَ أنقذت حُكمي أيُّها القائد العام». ينظر في وجوه كبار حُكمه، يحني رأسه قليلاً، فينحنون بكلّ طاعة. عند ذلك تقترب منه سيّدةٌ رفيعة المقام، وتقول له: «أريد أن أكلّفك بمهمّة»، فأجابها بهدوء: «مهما كانت، ولو كلّفتني حياتي، فأنا أحبّكِ». فقالت: «أعرف أيُّها السّيّد النّبيل، ولكنْ يجب أن تنسى هذا الأمر. اسمع مهمّتي لك، أريدك أن...».

ثمّة ما ضرب رأسه؛ تطاير شَررٌ أمام عينيه، وانقصفت رُكبتا الصّبيّ، احتاج إلى لحظاتٍ ليُدرك أنّ بيرمين قد رماه بشيء. تلمّس جبينه، انحنى إلى الأمام، ها هو الحجر، ومُجدّداً أحسَّ بالإعجاب لقدرة بيرمين على التّصويب.

- «يا لكُما من جرذين!». قال بيرمين: «يا عديمي الموهبة، أتظنّان أنّ هناك مَن يرغب في مشاهدة هذا؟ مَن الذي يحبُّ أن يبحلق في أولادٍ يمثلون؟ هل تمثلان لنفسيكما؟ إذاً عودا إلى أبويكما، ما داما لم يُحرَقا، أم تقومان بالتّمثيل لجمهور؟ إذاً، يجب أن تكونا أفضل: قصّةً أفضل، تمثيلاً أفضل، أسْرع، بحيويّةٍ أكثر، بفطنةٍ أكثر، أكثر من كلّ شيء! ويجب أن تُجْريا بروفات».

- «وجبينه؟». صاحت نله: «إنّه ينزف!».

- ليس كفاية، يُفترض به أنْ ينزف أكثر. مَن لا يُتقن عمله، فلينزف طوال النّهار.

- «يا خنزير!». صرخت نله.

شارداً التقط بيرمين حجراً.

خفضت نِله رأسها بسرعة.

- «سنبدأ من البداية مُجدّداً». قال الصبي.

- «لا أريد مزيداً اليوم». قال بيرمين.

- «بل سنعيدها». قال الصبي: «سنعيدها مرّةً ثانيةً».

- «لا أريد المزيد، دعك من هذا». قال بيرمين.

وهكذا جلسا إليه. كانت النّار قد خَبت إلى وهجٍ ضعيف. خطرت في بال الصّبيّ ذكرى، لم يعرف ما إذا كان قد خبِرها أم حلم بها: ضجّةٌ ليليّةٌ من الدّغل، طنينٌ، وتكسُّرٌ، وطقطقةٌ من الجهات جميعها، وحيوانٌ كبيرٌ، ورأس حمارٍ عيناه مبحلقتان، وصرخةٌ لم يسبق أن سمع مثلها، والدّم الحارّ المتدفّق. هزَّ الصّبيُّ رأسه، أبعدها، أمسك يَد نِله، ضغطت أصابعها على أصابعه.

ضحك بيرمين ضحكةً سخيفة. تساءل الصّبيُّ مُجدّداً ما إذا كان هذا الرّجُل يقرأ أفكاره. ليس هذا صعباً، سبق أنْ أوضح كلاوس له ذلك؛ ما على المرء إلّا أن يعرف التّعويذات الصّحيحة.

ليس بيرمين في حقيقة الأمر شخصاً رديئاً، ليس رديئاً تماماً على كلّ حال، ليس بالكامل،

حسبما يبدو للوهلة الأولى. أحياناً يبدر منه بعض اللّين، شيءٌ من المرونة التي كان يمكن أن تتحوّل إلى لُطفٍ، لو لم يتوجّب عليه أنْ يعيش حياة الشّعب المتنقّل القاسية. لقد بلغ من العمر في واقع الأمر ما لا يسمح له بالتّنقُّل من مكانٍ إلى آخر، وأن يحتمل المطر، وينام تحت الأشجار، ولكنْ بطريقةٍ ما نتيجة سوء

الحظّ، وأحداثٍ مؤسفةٍ، فاتته جميع فرص إيجاد عملٍ مع طعامٍ وسريرٍ، ولم يعُد العمر يسمح بفرصٍ جديدة، فإمّا أنّ ركبتيه خلال سنواتٍ قليلةٍ قادمةٍ ستؤلمانه جدّاً، بحيث لن يقدر على متابعة التّجوال، وسيضطّرُّ إلى البقاء في أوّل قريةٍ في طريقه، عند أوّل فلّاحٍ يشفق عليه ويُشغِّله عنده مُياوماً، ولا بدَّ من أنْ يكون كبير الحظّ في هذا؛ إذْ لا أحد يقبل بأحدٍ من الشّعب المتنقّل؛ لأنّه يجلب النّحس، وسوء الطّقس، ويعطي الجيران الفرصة للاستغابة، وإمّا أنّ بيرمين سيضطّرُّ إلى التّسوُّل أمام أسوار نورنبرغ، أو آوغسبورغ، أو مونْشن؛ لأنّ دخول المدن محظورٌ على المتسوّلين، فالنّاس يرمون الطّعام للمساكين، إلّا أنّه لا يكفي الجميع؛ لأنّ الأقوياء منهم يأخذونه، وهناك سيموت بيرمين من الجوع.

قد لا تصل الأمور إلى هذا الحدّ على الإطلاق. مثلاً، قد يتعثّر في مكانٍ ما في الطّريق، فالجذور الرّطبة غدّارة، ولا يُصَدَّق كم يكون زلقاً الخشب المبلول، وقد يدوس على حجرٍ غير ثابتٍ في مكانه على ما يبدو، في أثناء تسلّقه إلى مكانٍ أعلى، عند ذلك سيرتمي بساقٍ مكسورةٍ على قارعة الطّريق، ومَن يمرّ به، سوف يبتعد عنه بقرفٍ، وإلّا ما الذي يُفترض به أن يفعل، أن يحمله؟ أن

يدفّئه، ويطعمه، ويعتني به مثل أخ؟ مثل هذه المواقف تحدث في خرافات القدّيسين، وليس في الواقع الحقيقيّ.

إذنْ، ما هو أفضل ما يمكن أن يحدث لبيرمين؟ أن يتوقّف قلبه، أن يشعر فجأةً بوخزةٍ عبْر صدره، ويتمدّد الألم على نحوٍ غير متوقّعٍ إلى أحشائه، في أثناء تقديمه مشهداً في إحدى ساحات السّوق: يرفع نظره إلى الكُرات الطّائرة، ثمّ لحظة من العذاب الأقصى، ثمّ ينتهي كلُّ شيء.

وقد يسبّبها لنفسه بنفسه، من دون صعوبةٍ تُذْكر. كثيرون من الشّعب المتنقّل يفعلونها، فهُم يعرفون أنواع الفِطر، التي تؤدّي إلى نوم الإنسان إلى الأبد، لكنّ بيرمين اعترف لهما في لحظة ضعفٍ أنّه لا يجرؤ على الإقدام عليها، ثمّ إنّ أكثر أوامر الرّبّ تشدّداً كان في معارضة قتل النّفس: «إنّ مَن يقتل نفسه ينجُ في الواقع من ظُلم هذه الدّنيا، لكنّه يدفع ثمن ذلك عذاباً أبديّاً في الآخرة»، وأبديّاً لا تعني وقتاً طويلاً وحسب، بلْ تعني أطول وقتٍ يمكنك تخيُّله مضروباً بألفٍ من السّنوات، والوقت الذي يحتاج إليه عصفورٌ لكي ينقل بمنقاره جبل بلوكسبِرغ من مكانه، يُعدُّ الجزء الأصغر من الأبد، وعلى الرّغم من أنّه بهذا الطّول، فالإنسان لا يتعوّد على الرُّعب، ولا على الوحدة، ولا على الألم،

هكذا رُتِّبَ الأمر، فمَن الذي يمكن أن يلوم بيرمين على كونه ما هو عليه؟

مع العلم بأنّ كلّ شيءٍ كان يمكن أن يكون مختلفاً. لقد رأى أوقاتاً أفضل، وذات يومٍ كان أمامه مستقبل، حتّى إنّه، وفي ذروة حياته وصل إلى لندن، وكلّما أسْكرته البيرة الثّقيلة يبدأ بالكلام عن ذلك، فيحكي عن نهر التّايمز العريض جدّاً في ضوء المساء، وعن الحانات، وعن ازدحام الطّرقات، ما أكبر هذه المدينة! يمشي المرء طوال أيّامٍ، ولا يصل إلى نهايتها، والمسارح منتشرةٌ الواحد إلى جوار الآخر. لم يفهم اللّغة، لكنّ أناقة الممثّلين، ورشاقتهم، والحقيقة التي تعلو وجوههم أثّرت به عميقاً، فلم يعد يعجبه أيُّ شيءٍ بعدهم.

آنذاك كان لا يزال شابّاً. كان أحد أفراد مجموعةٍ كبيرةٍ من فنّاني الأداء الذين رافقوا الأمير النّاخب الشّاب فريدريش في وحدات التّموين والإمداد التي عبرت القناة الإنجليزيّة. لقد سافر فريدريش لكي يتزوّج الأميرة إليزابيت، وبما أنّ الإنجليز يقدِّرون فنّاني الأداء، فقد أحضر معه ما يمكن لبلده أنْ تقدّمه كلّه: المتكلّمين من بطونهم، بالعي النّار، المتجشّئين، لاعبي العرائس، المصارعين، المشاة على أيديهم، الحُدْب، الكسحان المزيّفين، وبيرمين أيضاً. في اليوم الثّالث من الاحتفال عرض بيرمين فقرة

كُراته السّتّ في دار السّيّد بيكون أمام كبار السّادة والسّيّدات. كانت الطّاولات مغطّاةً بالزّهور، وسيّد الدّار كان واقفاً في مدخل القاعة تعلو وجهه ابتسامةٌ ذكيّةٌ وشرّيرة.

- «ما زلتُ أراهما أمامي». قال بيرمين: «الأميرة المتكلّفة، والأمير الذي لا يعرف ما يجري له. يُفترض بنا أنْ نبحث عنه!».

- ماذا يُفترض بنا؟

- أنْ نبحث عنه! يُقال: إنّه يذهب من بلدٍ إلى بلدٍ، ويعيش على حساب الأشراف البروتستانت. يُقال: إنّه ما زال يتصرّف على أنّه ملك، ويُقال: إنّه يأخذ معه حاشيته الصّغيرة، ولكنْ هل لديه مهرّج؟ ربّما كان مهرّج بلاطٍ عجوزٍ هو ما يحتاج إليه ملكٌ بلا مملكة.

كثيراً ما ردّد بيرمين هذ القول، وكثيراً ما يكون الإكثار من البيرة هو السّبب: «يكرّر نفسه، ولا يبالي بذلك»؛ أمّا الآن عند النّار، فإنّه يعلك آخر قطعةٍ من اللّحم المُقدّد، فيما يجلس الولدان إلى جانبه جائعَيْن ومُنصتَيْن إلى أصوات الغابة. يمسكان أحدهما بيَد الآخر، ويحاولان التّفكير بأشياء تشغلهما عن الجوع.

وببعض التّمرين ينجح المرء في ذلك جيّداً، فإنْ عرف المرء الجوع حقّاً، فإنّه يعرف أيضاً كيف يُخرسه لمدّةٍ من الزّمن.

يتوجّب على المرء أن يبعد عن ذهنه أيّة صورةٍ تتّصل بما يُؤكل، وأنْ يكوّر قبضتيه، ويصمد، وألّا يسمح له بالتّغلّب على الذّات.

عوضاً عنه، يمكن للمرء التّفكير في ألعاب الخفّة، التي من الممكن التّدرُّب عليها بالأفكار أيضاً، وبذلك يتحسّن المرء، أو يتخيّل المرء كيف يتحرّك على الحبْل، على ارتفاعٍ عجيبٍ، فوق ذُرى وغيوم. رمشَ الصّبيُّ في الجَمْر، الجوع يجعل المرء أخفّ ثقلاً، وفيما ينظر في الجَمْر الأحمر، يتراءى له كأنّه يرى تحته النّهار المنير الواسع، كأنّ الشّمس تبهر بَصره.

وضعت نِله رأسها على كتفه. «أخي». تقول في نفسها. إنّه الآن كلّ ما تبقّى لها. فكّرت في بيتها، الذي لن تراه ثانيةً، وفي أمّها التي كانت غالباً حزينةً، وفي أبيها الذي كان يضربها على نحو أسوأ من بيرمين، وفكّرت في أخواتها، وفي الخَدم. فكّرت في الحياة التي كانت في انتظارها: ابن آل شتيغر، العمل في المخبز، ولا تسمح لنفسها طبعاً بالتّفكير في الخبز، ولكنْ بما أنّها قد فكّرت الآن في أنّه لا يجوز لها التّفكير فيه، وترى أمام عينيها الرَّغيف الطّريّ، ففي وسعها أنْ تشمّه، وتشعر بمذاقه بين أسنانها.

- «دعْكِ من هذا!». قال الصّبيّ.

ضحكت وتساءلت في نفسها: كيف عرف ما فكّرت فيه؟ لكنّ كلامه أثّرَ؛ فالخبز قد تلاشى.

انثنى بيرمين على نفسه نائماً، مثل كيسٍ ثقيلٍ مرميٍّ على الأرض، ظهره يرتفع وينخفض، ويشْخر مثل حيوان.

يتلفّت الولدان حولهما بقلق.

يشعران بالبرد.

قريباً ستنطفئ النّار.

فن النوروالظل العظيم

إنَّ آدم أولاريوس، عالِمَ الرّياضيات في قصر غوتّورْف، وأمين مُتحف الغرائب فيه، ومؤلّف كتابٍ عن الرّحلة المُضْنية لبعثة القصر إلى روسيا وفارس، التي رجع منها قبل بضع سنواتٍ، من دون أذى تقريباً، لمْ يكن في واقع الأمر قد سقط على فمه، فعجز عن الكلام، لكنّه وجد صعوبةً في النّطق اليوم نتيجة القلق؛ إذْ إنَّ الواقف قبالته، مُحاطاً بستّةٍ من الأمناء في أرديةٍ سوداء، الخاشعين بيقظةٍ، والحاملين لبحر عِلمه الشّاسع مثل وِزْرٍ خفيفٍ، لم يكن سوى العلّامة الأب أَثَنازيوس كيرشر، رئيس الجامعة الباباويّة الرُّوميّة بشخصه.

وعلى الرّغم من أنّ هذا هو لقاؤهما الأوّل، فقد تصرّفا حِيال بعضهما كأنّهما يعرف أحدهما الآخر منذ نصف حياةٍ، فهذا كان أمراً معتاداً بين العلماء. اسْتعلم عمّا قاد الزّميل الجليل إلى هنا، من دون أن يبيِّن قصده بـ(هُنا) أهُو: الدّولة الرومانية المقدّسة للأمّة الألمانيّة، أم هولشتاين، أو قصر غوتّورْف الشامخ خلفهما؟

أطال كيرشر التّفكير، كأنّه مُضطَرٌّ إلى استخراج الجواب من أعماق ذاكرته، قبل أنْ يُجيب بصوتٍ خافتٍ، إنّما بطبقةٍ حادّةٍ جدّاً، بأنّه قد غادر روما المقدّسة لمقاصد مختلفة، أهمُّها العثور على علاجٍ شافٍ للطّاعون.

- «ليكُن الرّبُّ معنا». قال أولاريوس: «هل انتشر ثانيةً في هولشتاين؟».

صمت كيرشر.

ارتبك أولاريوس في تقدير عُمر مُحدّثه، يكاد المرء يعجز عن تصوُّر أنّ هذا الرّأس ذا الملامح الرّقيقة قد حلَّ لُغز القوّة المغناطيسيّة، ولُغز النّور، ولُغز الموسيقا، إضافةً إلى الزَّعم بأنّه قد حلَّ لُغز الكتابة المصريّة القديمة. كان أولاريوس واعياً بأهمّيّة ذاته، ولم يُعدّ من العلماء المُتّصفين بالتّواضع، ولكنْ في حضور هذا الرّجُل هدّده صوتُه بأنْ يخذله.

وكان أمراً مفروغاً منه أنّ العداوة الدّينيّة مرفوعةٌ بين العلماء. قبْل نحو ثُلث قرنٍ، عندما بدأت الحرب الكبرى، كان الأمر مختلفاً، غير أنّ الأوضاع قد تغيّرت؛ في روسيا مثلاً: عقد أولاريوس البروتستانتي صداقاتٍ مع رهبان فرنسيّين، ولم يكن سرّاً أنّ كيرشر كان يتبادل الرّسائل مع كثيرٍ من العلماء

الكالفينيّين، ولكنْ قبْل قليلٍ، عندما ذكر كيرشر، على هامش الحديث، موتَ الملك السُّويديّ في معركة لوتسن، وقال في هذا الصَّدد: «إنّ الرّبَّ كان رحيماً»، كبحَ أولاريوس نفسه بضغطٍ شديدٍ، كي لا يردَّ عليه قائلاً: «إنّ موت غوستاف أدولف كان كارثةً، يجب على كلّ إنسانٍ عاقلٍ أن يُدرك يَد الشّيطان فيها».

- «قلتَ إنّك تريد علاج الطّاعون». قال أولاريوس الذي لم يحصل على جوابٍ بعد، ثمّ تنحنح وتابع: «وقلتَ إنّك لهذا السّبب قدِمْت إلى هولشتاين، فهل رجع الطّاعون إلينا ثانيةً؟».

ترك كيرشر برهةً أُخرى تمرُّ، تمعَّن في أثنائها برؤوس أصابعه كعادته على ما يبدو، قبل أنْ يجيب بأنّه قد جاء إلى هولشتاين بحثاً عن علاجٍ شافٍ من الطّاعون طبعاً، في حال انتشاره هنا؛ أمّا حيث تفشّى، فهناك تحديداً لن يجد المرء العلاج لمنع انتشاره، فالرّبُّ اللّطيفُ بنا قد رتّب الأمر على نحوٍ ممتازٍ، بحيث أنّ الذي يفتّش عن مساعدةٍ، كي لا يُعرِّض حياته للخطر، يخرج إلى الأماكن التي لم ينتشر فيها المرض، فهناك فقط يمكن العثور على العلاج المضادّ وفق قوّة الطّبيعة، ومشيئة الرّبّ.

جلسا في حديقة القصر، على المقعد الحجريّ الوحيد الذي سَلِم من الدَّمار، وهُما يغمسان عيدان سُكّرٍ في نبيذٍ مُخفّف.

أمناء كيرشر السّتّة وقفوا على مسافة احترامٍ، وهُم يراقبونهما مشدوهين.

لم يكن النّبيذ جيّداً، وكان أولاريوس يعرف أنّ الحديقة والقصر لا يتركان انطباعاً مؤثّراً؛ فجماعات السّلب والنّهب أسقطت الأشجار المُعمِّرة جميعها، والمَرْجُ مُغطّى ببقع محروقة، وكانت الأحراش مُصابةً بأضرارٍ كبيرةٍ، مثل واجهة بناء القصر، الذي ما زال ينقصه جزءا من السّقف، وقد بلغ أولاريوس ما يكفي من العُمر ليتذكّر جيّداً تلك الأيّام، التي كان القصر فيها زينة الشّمال، وفخر دوقية يوتلاند. آنذاك، كان لا يزال طفلاً، وأبوه حِرَفيّاً بسيطاً، لكنّ الدّوق اكتشف موهبته، فأرسله للدّراسة، ثم أرسله لاحقاً بوصفهِ مبعوثاً دبلوماسيّاً إلى روسيا، ثمّ إلى فارس النّائية والمشرقة، حيث رأى جِمالاً وأسوداً برؤوس نُسورٍ، ورأى أبراجاً من اليشب، وأفاعي ناطقة. كان بودِّه أنْ يبقى هناك، لكنّه كان قد أقسم على الولاء للدّوق، وكانت زوجُه في انتظاره في دارهم، هذا ما فكّر فيه على الأقلّ، فلم يكن يعرف أنّها قد ماتت في أثناء غيابه، وهكذا رجع إلى البلد البارد، وإلى الحرب، وإلى حياة الأرمل الكئيبة.

دبَّب كيرشر شفتيه، ورشف جرعة نبيذٍ أُخرى، وكشَّر وجهه على نحوٍ غير ملحوظٍ، ومسح شفتيه بمنديلٍ صغيرٍ مُبقّعٍ بالأحمر، وتابع شارحاً سبب قدومه.

- «تجربة». قال: «الطّريقة الجديدة لاكتساب اليقين. لذلك يقوم المرء بمحاولاتٍ، مثلاً: يشعل المرء كُرةً من الكبريت، والقار، والفحم، وفوراً يحسُّ أنّ مرأى النّار يولِّد فيه الغيظ، وإذا بقي في المكان نفسه، فإنّه يصبح كالمأخوذ تماماً من الغضب، وعلّة ذلك أنّ الكُرة تعكس صفات الكوكب الأحمر، المرّيخ. بالطّريقة نفسها يمكن للمرء الاستفادة من صفات كوكب نبتون المائيّة من أجل تهدئة الأرواح المُستثارة، أو الصِّفات المُربكة للقمر المُخادع لعلاج تسمُّم الحَواس. الإنسان اليَقِظ لا يحتاج إلّا للحضور مُدّةً قصيرةً بالقُرب من مغناطيسٍ مشابهٍ للقمر حتى يسْكَر، لكأنّه شرب قِربة نبيذ».

- هل يؤدّي المغناطيس إلى السُّكْر؟

- اقرأ كتابي. في عملي الجديد سأفصّل أكثر في الموضوع. عنوانه هو: (فنّ النّور والظلّ العظيم) باللّاتينية طبعاً، وسيجيب عن الأسئلة المفتوحة.

- أيّة أسئلة؟

- كلّها. والآن فيما يتعلّق بتجربة كُرة الكبريت: نبّهتني المحاولة إلى فكرة إعطاء مريضٍ بالطّاعون جُرعةً من مغليّ الكبريت، ودَم القواقع؛ لأنّ الكبريت من جهةٍ يطرد المكوّنات المرّيخيّة للمرض، ومن جهةٍ أُخرى فإنّ دَم القواقع، بوصفهِ بديلاً تنّينولوجيّاً، يُحلّي ما يُحمِّض عصائر الجسم.

- عفواً؟

تفحّص كيرشر رؤوس أصابعه ثانيةً.

- «دَمُ القواقع يحلُّ محلَّ دَم التّنّين؟». سأل أولاريوس.

- «لا». قال كيرشر بتسامحٍ: «محلَّ مرارة التّنّين».

- وما الذي قادك إلى هنا؟

- البدائل لها حدود، فمريض الطّاعون في التّجربة مات، على الرّغم من جرعة الشراب المغليّ، ما برهن بجلاءٍ على أنّ دَم تنّينٍ حقيقيٍّ كان سيشفيه، وبناءً على ذلك نحتاج إلى تنّين، وفي هولشتاين يعيش آخر تنانين الشّمال.

نظر كيرشر إلى يديه، وأنفاسه تشكّل سُحُباً صغيرةً من البخار، وكان أولاريوس يرتعد بَرْداً؛ داخل القصر لم يكن أدفأ، بطول

المنطقة وعُرضها لم يعُد هناك أيّ شجرٍ، وحطب المدفأة القليل كان يستهلكه الدّوق في غرفة نومه.

- هل ثبتت رؤيته، التّنّين؟

- طبعاً لا؛ فالتّنّين الذي يراه المرء هو تنّينٌ يفتقد إلى أهمّ صفةٍ يجب توفّرها في التّنّين، وهي: أن يجعل العثور عليه مُستحيلاً؛ ولهذا السّبب تحديداً يجب مواجهة مزاعم النّاس جميعها، الذين رأوا تنانين، بأقصى درجات عدم التّصديق، فكلّ تنّينٍ ترك النّاس يرونه هو -بداهةً- تنّينٌ معروفٌ بأنّه ليس تنّيناً أصليّاً.

حكّ أولاريوس جبينه.

- من الواضح في هذه المنطقة أنّه لم تحدث عموماً أيّة رؤيةٍ لتنّين؛ وبذلك لدي التّأكيد على أنّه لا بدَّ من وجود واحدٍ هنا.

- ولكنّ هناك مناطق أُخرى كثيرة لم تقع فيها رؤية تنّين، فلماذا هنا تحديداً؟

- أوّلاً: لأنّ الطّاعون قد انسحب من هذه المنطقة، وهذه دلالةٌ قويّةٌ. ثانياً: لأنّني استعملتُ بنْدولاً.

- لكنّ هذا سِحر!

- «لا، إذا استعملت بندولاً مغناطيسيّاً». نظر كيرشر إلى أولاريوس بعينين لامعتين، واختفت من وجهه الابتسامة المستخفّة، وانحنى كمن يؤدّي تحيّةً، وببساطةٍ أذهلت أولاريوس، سأله: «هل تساعدني؟».

- على ماذا؟

- على العثور على التّنّين.

تظاهر أولاريوس بأنّ عليه أن يفكّر، عِلماً بأنّ الأمر لم يتعلّق بقرارٍ صعبٍ، فهو لم يعُد شابّاً، ليس لديه أولاد، وزوجُه ميتة، كان يزور قبرها يوميّاً، حتّى الآن ما زال يحدث أن يستيقظ في اللّيل ويبكي، فهو يفتقدها كثيراً، والوحدة تثقل على كاهله. ما مِن شيءٍ يشدّه إلى هذا المكان، فإذا كان أهمّ عالِمٍ في الدُّنيا يدعوه إلى مغامرةٍ مشتركةٍ، فلا داعي لإطالة التّفكير. أخذ شهيقاً كي يُجيبه.

لكنّ كيرشر سبقه، فنهض واقفاً، ونفض غباراً عن ردائه، وقال: «حسنٌ إذاً، سننطلق غداً باكراً».

- «بودّي أنْ يرافقني مُساعدي». قال أولاريوس بشيءٍ من الانزعاج: «المعلم فلِمينغ خبيرٌ بالمنطقة، ومُعينٌ جيّد».

- «نعم، ممتاز». قال كيرشر الذي من الجليّ أنّه كان يفكّر في شيءٍ آخر: «إذاً، غداً باكراً، هذا جيّد، سندبّر أمورنا. والآن، هل لك أن تقودني إلى الدّوق؟».

- إنّه لا يستقبل أحداً حاليّاً.

- لا تقلق، عندما يعرف مَن أنا، سيعدُّ نفسه محظوظاً.

أربع عرباتٍ كانت تهتزُّ على الدَّرب. كان الجوُّ بارداً، وضبابُ الصَّباح يتصاعد شاحباً من المُروج. كانت العَربة الأخيرة ممتلئةً بالكتب حتّى سقفها، التي اشتراها كيرشر قبل فترةٍ في هامبورغ، وفي العربة التي تليها جلس ثلاثة أمناء ينسخون مخطوطاتٍ، قَدْرَ الإمكان في أثناء سيْر العَربة، وفي التي بعدها كان هناك أمينان نائمان، وفي العربة الأماميّة كان أثَنازيوس كيرشر، وآدم أولاريوس، ورفيق سفراته الطّويلة المعلّم فلِمينغ يخوضون في حوارٍ يتابعه بيقظةٍ أمينٌ آخر، وعلى رُكبتيه أوراقٌ وريشةٌ للتّدوين.

- «ولكنْ ماذا سنفعل في حال عثرنا عليه؟». سأل أولاريوس.

- «التّنّين؟». سأل كيرشر.

للحظةٍ نسي أولاريوس واجب الاحترام وفكّر: «ما عدتُ أحتمله». ثمَّ قال: «نعم، التّنّين» عوضاً عن أن يُجيب، التفت كيرشر إلى المعلّم فلمينغ قائلاً: «هل فهمتُ على نحوٍ صحيحٍ أنّك موسيقيّ؟».

- أنا طبيبٌ، لكنّني بالدّرجة الأولى أكتب قصائد، ودرست الموسيقا في لايبزيغ.

- قصائد باللّاتينيّة أم بالفرنسيّة؟

- بالألمانيّة.

- ولِمَ هذا؟

- «ماذا سنفعل في حال عثرنا عليه؟». كرّر أولاريوس.

- «التّنّين؟». سأل كيرشر، وكم كان بودّ أولاريوس الآن أنْ يصفعه.

- «نعم». قال أولاريوس: «التّنّين!».

- سوف نُسَكِّنه بالموسيقا، إنّني أفترض أنّ السّيّدين قد دَرسا كتابي، التّصويت الموسيقيُّ عالميّاً.

- «الموسيقي؟». سأل أولاريوس.

- التّصويت الموسيقي.

- لِمَ ليس الموسيقا؟

نظر كيرشر إلى أولاريوس مُستنكراً.

- «من البدهيّ». قال فلمينغ: «أنّ ما أعرفه عن الهارموني كلّه أعرفه من كتابك».

- كثيراً ما أسمع ذلك، هذا ما يقوله الموسيقيّون جميعهم، تقريباً. إنّه عملٌ مهمٌّ. ليس أهمَّ أعمالي، لكنّه مهمٌّ جدّاً لا شكّ. هناك عددٌ كبيرٌ من ذوي رُتبة دوق يريدون بناء الأرغن المائيّ الذي وضعتُ تصميمه، وفي مدينة براونشفايغ يخطّطون لبناء بيانو القِطط الذي وضعتُ تصميمه أيضاً، وهذا يُذهلني نوعاً ما؛ لأنّ كلّ شيءٍ كان مجرّد لعبة أفكارٍ، وأشكّ في أنّ النّتائج ستبهج الآذان.

- «ما هو بيانو القِطط؟». سأل أولاريوس.

- أنت لم تقرأ الكتاب إذنْ؟

- إنّها ذاكرتي. أنا لم أعُد شابّاً، وهي لم تعُد تطيعني في معظم الأحيان منذ رحلتنا المُتعِبة.

- والله أعلم، أتذكر عندما حاصرتنا الذّئاب في ريغا؟

- «إنّه بيانو يولِّد أصواتاً عن طريق تعذيب الحيوانات». قال كيرشر: «تضرب على ملمسٍ، فتنزل مطرقته على حيوانٍ صغيرٍ، أنا أقترح القِطط، لكنّه سيشتغل أيضاً مع فئران الحقل. الكلاب أكبر من المطلوب، والجداجد أصغر من اللّازم، فبإلحاق ألمٍ موزونٍ جيّداً يُصدر الحيوانُ صوتاً، وإذا رفعتَ إصبعك عن الملمس يتوقّف الألم أيضاً، فيسكت الحيوان، وبترتيب الحيوانات حسب طبقات صوتها، ستتولّد بهذه الطّريقة الموسيقا الأكثر خروجاً عن المألوف».

ساد صمتٌ لمُدّةٍ قصيرة. نظر أولاريوس في وجه كيرشر، فيما فلمينغ يُعضّضُ شفته السُّفلى.

- وأخيراً، سأل كيرشر: «لماذا تكتب قصائدك بالألمانيّة؟».

- «أعرف أنّ هذا يثير الاستغراب». قال فلمينغ الذي كان ينتظر هذا السّؤال: «لكنّ الأمر ممكن! إنّ لغتنا قَيْدُ الولادة حاليّاً. ها نحن ثلاثة رجالٍ من البلد نفسه، ونتحادث باللّاتينيّة. لماذا؟ قد تكون الألمانيّة حاليّاً غير مَرنةٍ، قَيْد النّضج، مخلوقاً ينمو، لكنّه ذات يومٍ سيكبر ويرشُد».

- «أعود إلى التّنّين ثانيةً». قال أولاريوس ليغيّر الموضوع، فقد خبر هذا الموقف كثيراً؛ إذْ عندما يبدأ فلمينغ الكلام عن

موضوعه المفضّل، فسيطول حديثه قبْل أنْ تسنح الفرصة لتدخّل شخصٍ آخر، ودائماً ينتهي الحديث بأن يلقي فلمينغ بعض قصائده الألمانيّة بوجهٍ أحمر، وقصائده كانت جيّدةً، لها لحنها ومتانتها، ولكن مَن المستعدّ من دون إنذارٍ مُسبقٍ للإصغاء إلى قصائد الآن، وبالألمانيّة فوق ذلك؟

- «لغتنا مازالت كتلةً متشابكةً من اللّهجات». قال فلمينغ: «وإذا صعب على المرء متابعة الجُملة، فإنّه يأخذ الكلمة المناسبة من اللّاتينيّة، أو حتّى الفرنسيّة، ويلوي الجُمَل بطريقةٍ ما حسب الأسلوب اللّاتينيّ، لكنّ هذا سيتغيّر بمرور الوقت. على المرء أنْ يغذّي اللّغة، ويعتني بها، وأن يساعدها على النّموّ، وأن يساعدها؛ يعني: أن يكتب الشِّعر بها». احمرَّ خدّا فلمينغ، ووقف شَعرُ لِحيته قليلاً، ونظرت عيناه بجمود: «إنّ مَن يبدأ جُملةً بالألمانيّة يجب أن يضغط على نفسه كي ينهيها بالألمانيّة».

- «أليس إيلامُ الحيوانات ضدَّ مشيئة الرّبّ؟». سأل أولاريوس

- «لماذا؟». قطَّب كيرشر جبينه: «لا يوجد فارقٌ بين حيوانات الرّبّ وبين جمادات الرّبّ. الحيوانات آلاتٌ ذات تركيبٍ دقيقٍ، تتشكّل من آلاتٍ أكثر دقّة. فسواءٌ استخرجتُ صوتاً من نافورة ماءٍ أم من قطّةٍ صغيرةٍ. أين الفارق؟ لا أظنّك تزعُم أنَّ للحيوانات

أرواحاً خالدةً، فأيّ زحامٍ سيحدث في الفردوس، لن يتمكّن المرءُ من الالتفات من دون أن يدوس على دودة!».

- «في لايبزيغ كنت منشداً في جوقة الصّبيان». قال فلمينغ: «يوميّاً في الخامسة صباحاً كنّا نقف في كنيسة توماس لنغنّي. كان على كلّ صوتٍ أن يتبع نوتة لحْنه، والذي يُخطئ في الغناء كان عقابه بالعَصا. كان الأمر صعباً، ولكنْ ذات صباحٍ ما زلت أذكره، فهمتُ لأوّل مرّةٍ معنى الموسيقا. ولاحقاً، بعد أنْ تعلّمتُ فنَّ الطِّباق، فهمتُ ماهي اللّغة، وكيف يكتب الإنسان بها شِعراً، بأنْ يدعها تهيمن. نظر ونذر، أمان وقلب إنسان. القافية الألمانيّة: سؤال وجواب، عذاب، رُهاب، كتاب. القافية ليست تصادفَ أصواتٍ، القافية موجودة هناك حيث تتواءم الأفكار».

- «جيّد أنّك تلمُّ بالموسيقا». قال كيرشر: «معي نوتات ألحان، يمكن بها تبريد دَم التّنّين، وتسكين حَواسّه. أتُجيد عَزْف البوق؟».

- ليس جيّداً.

- الكمان؟

- متوسّط. ما مصدر هذه الألحان؟

- أنا ألّفتُها وفْق أدقّ معطيات العِلم، لا تشغل بالك، لن تحتاج إلى أن تعرف شيئاً للتّنّين، سنجد موسيقيّين لهذه المهمّة، لأسبابٍ تتعلّق بمنزلتنا الاجتماعيّة؛ لا يليق بنا أن نعزف على آلات.

أغمض أولاريوس عينيه، ورأى في ذهنه للحظةٍ سحليّةً تصعد من الحقل، رافعةً رأسها بارتفاع بُرجٍ نحو السّماء: «هكذا إذاً يمكن أن تنتهي». فكَّرَ: «بعد الأخطار كلّها التي نجوتَ منها».

- «مع احترامي لحماستك كلّها أيُّها الشّاب». قال كيرشر: «لكنّ الألمانيّة لا مستقبل لها؛ أوّلاً: لأنّها لغةٌ بشعةٌ، ولَزِجةٌ، وغير نظيفةٍ، وأداة تعبيرٍ للنّاس الجَهَلة الذين لا يستحمّون. ثانياً: لم يعُد هناك أيّ وقتٍ لنموٍّ طويل الأمد حتّى تصير لغةً، فبعد ستٍّ وسبعين سنة ينتهي عصر الحديد، وستغمر النّار العالَم، وربُّنا سيعود مُكلّلاً بالمجد. لا حاجة للمرء إلى أن يكون فلكيّاً عظيماً ليتنبّأ بذلك، الرّياضيات البسيطة تكفي».

- «بأيّ نوعٍ من التّنانين يتعلّق الأمر هنا؟». سأل أولاريوس.

- الأرْجح بتنّينٍ عجوزٍ من النّوع الدّوديّ ذي القدمين. إنّ خبرتي في التّنّينولوجيا لا تبلغ مستوى مرشدي المرحوم تزيموند، ولكنْ في

أثناء رحلة يومٍ إلى هامبورغ أعطتني سُحُبٌ ذبابيّة الشّكل، مبرومةٌ، صغيرةٌ، الإشارة الضّروريّة عدّة مرّات. هل سبق أنْ كنتما ذات يومٍ في هامبورغ؟ المدهش هو أنّها لم تُدمَّر على الإطلاق!

- «قلتَ سُحُب؟». سأل فلمينغ: «كيف يتسبّب التّنّين في...».

- ليس بالتّسبُّب، بلْ بالتّناظر؛ فوق مثل تحت. السّحابة تشبه ذبابةً، ومن هنا جاءت التّسمية: سحابةٌ ذبابيّة، والتّنّين الدّوديّ ذو القدمين يشبه دودة المطر؛ من هنا جاء اسمه. الدّودة والذُّبابة حشرتان، هل فهمتما؟

سند أولاريوس رأسه بين يديه. كان منزعجاً قليلاً. في روسيا أمضى آلاف السّاعات في عربات، لكنّ هذا كان قبل مدّةٍ لا بأس بها، وهو لم يعُد شابّاً، ولكنْ من الطّبيعي أن يكون انزعاجه متعلّقاً بكيرشر، الذي لم يعُد بالنّسبة إليه مُحتملاً، بطريقةٍ لا قُدرة لديه على تفسيرها.

- «وإذا هُدِّئَ التّنّين؟»، سأل فلمينغ: «إذا عثرنا عليه وأسرناه، ماذا بعد ذلك؟».

- «نسحب منه دماً، بقَدْر ما تتّسع القِرَبُ الجلديّة التي بحوزتنا، ثمّ أنقله إلى روما، وأعالجه مع مساعديَّ؛ ليصير دواءً شافياً من

الموت الأسْود، ثمّ نقدّمه جرعاتٍ للبابا، والقيصر، والأمراء الكاثوليك...»، وتردّد برهةً: »... وكذلك ربّما لأولئك البروتستانت الذين يستحقّونه. لمن بالتّحديد؟ لا بدَّ من التّفاوض على ذلك، وسيكون لهذا صحّته، إذا كنت أنا بالتّحديد، بمعونة الرّبّ، مَن سيضع النّهاية لهذه المذبحة، وأنتما سوف أذكركما في كتابي، وإذا توخّينا الدِّقة، فقد قمتُ بذلك».

- ذكرتَنا في كتابك؟

- بغية اختصار الوقت، كتبتُ هذا الفصل في روما. يا غوغليَلمو، هل الفصل معنا هنا؟

انحنى السّكرتير، وفتّش تحت مقعده، وهو يئنّ.

- «فيما يتعلّق بالموسيقيّين». قال أولاريوس: «أقترح أنْ نبحث عن السّيرك المتجوّل في مرج هولشتاين، يحكون عنه الكثير، والنّاس يأتون من أماكن بعيدةٍ ليشاهدوه. هناك لا بدَّ من وجود موسيقيّين».

اعْتدل السّكرتير، وقد احمرَّ وجههُ، وأخرج كمّيّةً من الأوراق، قلَّب فيها بُرهةً، نفّ أنفه في منديل جيبٍ لم يعُد نظيفاً، ونظّف به صلعته لاحقاً. طلب الإذن بصوتٍ خافتٍ، وبدأ يقرأ. كانت لاتينيّته ذاتَ لحنٍ إيطاليٍّ واضحٍ، وأخذ يضبط الإيقاع بريشته

بأسلوبٍ خجول. «وهكذا انطلقتُ برفقة علماءَ ألمانٍ من ذوي الفضل في رحلة البحث. لم تكن الظّروف ملائمةً، وأحوال الطّقس قاسية، كانت الحرب قد تراجعت من المنطقة، لكنّها كانت ترسل دائماً هبَّاتٍ من البلاء، بحيث على المرء أن يتحسّب لفِرَق السَّلب والنَّهب، كما لقطّاع الطُّرق، ولحيواناتٍ جائعةٍ، لكنّني لم أسمح لهذا كلّه أن يزعجني، بلْ أسْلمتُ روحي إلى الرّبّ القدير، الذي لطالما قد حمى خادمه المتواضع، وعثرتُ بعد وقتٍ قصيرٍ على التّنّين، الذي هُدِّئَ وسُيطرَ عليه بإجراءاتٍ خبيرة. إنّ دَمه الحارّ قد خدمني كأساسٍ لمشاريع كثيرةٍ، سآتي على وصفها في مواضِع أُخرى من هذا العمل، وبذلك أُبْعِدَ الوباءُ المروّعُ الذي أقلق المسيحيّة زمناً طويلاً، عن الشّخصيّات العظيمة القويّة الجديرة نهائيّاً، بحيث لن يصيب الوباء في المستقبل إلّا الشّعب البسيط، وإذا أنا ذات يوم...».

- شكراً غوغليَلمو، هذا يكفي. طبعاً بعد كلمات: علماء ألمان من ذوي الفضل، سأضيف اسميكما. لا داعي للشُّكر، أنا أصرُّ. هذا أقلُّ ما يمكن.

وربّما كان الأمر كذلك فعلاً. فكّر أولاريوس أنّ ذِكر اسمه في كتاب أثَنازيوس كيرشر، سيمنحه ما يستحقّه من خلود؛ أمّا تقريره هو عن رحلته، فسرعان ما سيُنسى، مثل قصائد المسكين

فلمينغ، الذي كان بين الحين والآخر يرسلها للنّشر. لقد الْتَهم العصرُ الفجعانُ كلّ شيءٍ تقريباً، لكنّه سيقف عاجزاً أمام هذا: «ما دامت الدنيا قائمة فسيستمر الناس في قراءة أثنازيوس كيرشر».

في صباح اليوم التّالي عثروا على السّيرك. كان صاحب النُّزُل الذي باتوا فيه قد أرشدهم إلى الذّهاب غرباً: «تابعوا الطّريق الزّراعيّ باتّجاه الغرب، ولن تتيهوا عنه». قال لهم. وبما أنّه لا وجود لتلالٍ هنا، والأشجار جميعها قد أُسْقِطت، رأوا من بعيدٍ، بعد مدّةٍ قصيرةٍ، سارية عَلمٍ ترفرف، وأعلاها قطعة قماشٍ ملوّنة.

وبعد فترةٍ أُخرى تعرّفوا إلى خيامٍ، وإلى مقاعد المشاهدين المرتّبة على شكل نصف حلبةٍ دائريّةٍ، وقد نُصب فوقها عمودان شُدَّ بينهما حبْلٌ، مثل خطٍّ مستقيمٍ، ولا بدَّ من أنّ أصحاب السّيرك هُم مَن جلبوا معهم هذه الأخشاب كلّها. بين الخِيام كانت هناك عرباتٌ مُغطّاة، وكانت الجِياد والحمير ترْعى، إضافةً إلى بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون، وهناك رجُلٌ نائمٌ في أرجوحةٍ شبكيّةٍ، وامرأةٌ تغسل ثياباً في برميل غسيل.

رمش كيرشر. شَعَرَ أنّه متوعِّك. تساءل في نفسه: أكان سبب ذلك هو اهتزاز العربة أم إنّ الأمر يتعلّق بوجود هذين الألمانيّين.

لم يكونا ودودَيْن، وكانا جدّيّيْن زيادةً عن اللّزوم، ومحدودَيْن، ولهما جبينان سميكان، إضافةً إلى ما لا يستطيع المرءُ تجاهله، ورائحتهما كانت كريهةً. مضى عليه وقتٌ طويلٌ خارج دولة ألمانيا، وكاد ينسى وجع الرّأس الذي تسبّبه معاشرة الألمان.

إنّهما لا يُقدّرانه حقَّ قدْرِه، كان هذا جليّاً. هو معتادٌ على ذلك؛ منذ طفولته كان يُبخَس حقّه، في البداية من أبويه، ثمّ من معلّم مدرسة القرية، إلى أنْ لفت القسُّ أنظار الجزويت إليه، فأرسلوه للدّراسة، ثمّ افتقد التّقدير حتّى من إخوته في العقيدة، الذين لم يروا فيه أكثر من فتى متحمّس. لم يلْحظ أحدٌ قدراته الكامنة سوى مُرشده تِزيموند، الذي اكتشف فيه شيئاً ما، وانتقاه من بين حشْد الرُّهبان ذوي التّفكير البطيء، وسافرا معاً عبر ألمانيا بالطّول والعرض. لقد تعلّم الكثير من تزيموند، الذي هو أيضاً بخسَه حقّه؛ إذْ لم يره أهلاً لأكثر من تابعٍ متدرِّبٍ، فكان لا بدَّ له من أن ينفصل عنه خطوةً فخطوةً، وبأكبر حذرٍ ممكنٍ؛ إذْ من التّهوُّر أن تجعل مثل هذا الرّجُل عدوَّك. كان عليه التّظاهُر بأنّ الكتب التي ألّفها ليست أكثر من جداجد مُسالمة، لكنّه أرسلها

سِرّاً مع رسائل إهداءٍ إلى شخصيّاتٍ مهمّةٍ في الفاتيكان، وفعليّاً لم يُجرَح تزيموند وحسْب من دعوة سكرتيره فجأةً إلى روما، بلْ مرض ورفض أن يباركه عند الوداع. ما زال كيرشر يرى المشهد بوضوحٍ أمام عينيه: الغرفة في فيينّا، وتزيموند ملفوفاً ومتشبّثاً بغطاء السّرير. أخذ حطام العجوز يُهَمْهِم شيئاً ما، ويتظاهر بأنّه لا يفهمه، وهكذا اضطّرّ كيرشر إلى الرّحيل من دون بركاته إلى روما، حيث استقبله ورحَّب به العاملون في المكتبة الكبرى، ولكنْ ليبخسوه حقّه بعدئذٍ أيضاً. ظنّوا فيه القُدرة على الحفاظ على الكتب، والعناية بها، ودراستها، لكنّهم لم يُدركوا أنّه قادرٌ على تأليف كتابٍ بأسرعِ من الوقت الذي يحتاج إليه شخصٌ آخر لقراءته، وهكذا كان عليه أن يُبرهن لهُم على ذلك المرّة تِلو الأُخرى، إلى أنْ استدعاه البابا أخيراً ليشغل أهمَّ كرسيٍّ تعليميٍّ في جامعته، مع تزويده بالتّفويضات الاستثنائيّة كلّها.

وسيكون وضعه دائماً هكذا. لقد خلَّف ارتباكات الماضي وراءه، ولم يعُد يتيه في الزّمن، ومع ذلك لم يدرك النّاس الطّاقة الكامنة فيه، ولا تصميمه، ولا ذاكرته الخارقة. فحتّى الآن، وبعد أن بات مشهوراً في البلدان جميعها، ولا يمكن لأحدٍ أنْ يدرس العلوم من دون الاطّلاع على أعمال أثنازيوس كيرشر، لا يمكنه مغادرة روما من دون أن يعيش الحالة: ما إنْ يقابل مواطنيه حتّى يحسَّ

بنظرات تبخيس القدْر القديمة المألوفة. كم أخطأ في إقدامه على هذه الرّحلة! يُفترض بالمرء أن يبقى في مكانه، أن يعمل هناك، أن يستنهض قواه، وأن يختفي وراء الكتب. على المرء أن يكون سُلطةً لا جسم لها، أن يكون صوتاً، تسمعه الدُّنيا كلّها من دون السُّؤال عن شكل الجسم الذي صدر منه الصَّوت.

لقد استسلم ثانيةً لنقطة ضعفٍ. في واقع الأمر لم يكُن همّه الحقيقيّ هو الطّاعون، لكنّه كان في حاجةٍ إلى سببٍ للخروج بحثاً عن التّنّين. «التّنانين هي أقدم وأذكى الكائنات». سبق لتزيموند أنْ قال: «وعندما تقف قبالة أحدها، تصير إنساناً آخر، وحينما تسمع صوته، لا يبقى شيء على ما كان عليه. لقد استنتج كيرشر الكثير الكثير عن العالم، لكنّ التّنّين كان ينقصه، ومن دون تنّينٍ سيبقى إنجازه غير مُكتملٍ، وفي حال اشتدّت درجة الخطر فعلاً، يمكنه اللّجوء إلى آخر وأقوى ردع، إلى ذلك السِّحْر، الذي يجوز للمرء استعماله مرّةً واحدةً في حياته، عندما يكون الخطر في ذُروته». أكّد عليه، وحذّره تزيموند: «عندما يقف التّنّين أمامك، ولم يعُد أيُّ شيءٍ يسعفك، يمكنك استعمال السِّحْر مرّةً واحدةً فقط، واحدةً ووحيدةً لا غير. فكِّرْ مليّاً إذن، مرّة واحدة، ثمّ عليك أن تستدعي إلى مخيّلتك أقوى المستطيلات السِّحريّة:

SATOR

AREPO

TENET

OPERA

ROTAS

هذا أقدمها كلّها، وأشدّها سرّيّةً، وفيه تكمن الطّاقة العُظمى. يجب أن تتخيّله أمامك، أغْمِض عينيك، وتملّاه بوضوحٍ، وانْطقه من دون تحريك الشّفتين، ومن دون صوتٍ، حرفاً فحرفاً، ثمّ انْطق بصوتٍ عالٍ وجليٍّ كي يسمعك التّنّين حقيقة لم يسبق لك قطّ أن اعترفت بها، ولا حتّى لأخلص أصدقائك، ولا حتّى في الاعتراف الكنسيّ. هذا هو المهم: أنّها لم تُنطَق بعد، عندها سيتصاعد ضبابٌ، ويكون في وسعك أن تهرب. سيحلُّ ضعفٌ في أطراف الوحش، ويغشى عقله نسيانٌ ثقيل، وستتمكّن من الهرب، قبل أنْ يُمسك بك، ولكنْ لا تنسَ، لا يمكنك فعلها سوى مرّةٍ واحدة!

نظر كيرشر إلى رؤوس أصابعه. إذا لم تنجح الموسيقا في تسكين التّنّين، فهو مصمّمٌ على اللّجوء إلى استعمال هذه الوسيلة، والهروب على ظهر أحد جِياد العربة. التّنّين بعدئذٍ سيفترس الأمناء على الأرجح، سيكون الأمر مدعاةً للأسف، ولا سيّما

غوغليَلمو، الذي كان سريع التّعلُّم، والألمانيّين أيضاً لا شكّ، أمّا هو فسوف ينْجو، بفضل العِلم، إنّه ليس في حاجةٍ إلى الخشية من أيّ شيء.

ستكون هذه آخر رحلاته. فهو لا يظنّ أنّه قادرٌ على تحمُّل عناءٍ آخَر، إنّه لم يُهيّأ لخوض مثل هذه المشقّات. طوال الطّريق كان ينتابه شعورٌ بالغثيان؛ الطعام كان مقيتاً، وبارداً دائماً، ولا يجوز للمرء أن يقلّل من شأن الأخطار. صحيحٌ أنّ الحرب قد تراجعت في اتّجاه الجنوب، لكنّ هذا لا يعني أنّ الوضع هنا في الشّمال مُريح. كم كان الدّمار منتشراً، وكم تدهور حالُ البشر! صحيحٌ أنّه قد عثر في هامبورغ على بعض الكتب التي سبق أن بحث عنها طويلاً، مثل: (الإنسان العضويّ)، لهارتموت إلياس فارنيك، وطبعة جديدة من (معادن ميلوسينا) لغوتفريد روزِنشتاين وبعض الصّفحات بخطّ اليَد، التي يُرجّح أن يكون مؤلّفها هو سيمون التّوريني، لكنّ هذا لم يكن سلواناً ينسيه أنّه قد اضطّرّ منذ أسابيع للتّخلّي عن مختبره، حيث كلّ شيءٍ واضحٌ، وفي متناول اليَد، في حين تهيمن الفوضى خارجه على كلّ شيء.

لماذا تبدي مخلوقات الرّبّ هذه الشّراسة، ما مصدر مَيلها العنيد إلى الفوضى وإبراز الأشواك؟ إنّ ما كان هناك واضحاً للعقل، ثبت في الخارج على أنّه دغلٌ كثيف. لقد أدرك كيرشر

مبكّراً أنّ على الإنسان اتّباع العقل من دون أن يسمح لنزوات الواقع بأن تُربكه. إذا كان الإنسان يعرف كيف لا بدَّ لتجربةٍ من أن تنتهي، فلا بدّ من التّجربة من أنْ تنتهي هكذا، وإذا كان يمتلك تصوّراً واضحاً عن الأشياء، فعليه عندما يصفها أنْ يعطي هذا التّصوُّر حقّه، وليس ما عاينه بالملاحظة.

ولأنّه قد تعلّم أن يثق كلّيّاً بروح الرّبّ، تمكّن من إنجاز أعظم أعماله، فكّ شيفرة الكتابة الهيروغليفيّة، فبلائحة العلامات القديمة التي اشتراها الكردينال بِمْبو ذات يومٍ، توصَّل إلى فكّ اللّغز: استغرق في تأمُّل الصُّور الصّغيرة، إلى أنْ فَهم، فإذا جمع المرءُ ذئباً وأفعى معاً، فلا بدّ من أنْ يعني هذا وجوداً خطراً، ولكنْ في حال وجود موجةٍ منقّطةٍ تحتهما، فهذا يعني تدخُّل الرَّبّ لحماية الجديرين بحمايته، وهذه الصُّور الثلاث الواحدة إلى جانب الأُخرى تعني الرَّحمة، وعندها نزل كيرشر على رُكبتيه، وشكر السّماء على هذا الإلهام. الرّسم البيضويّ المُتّجه يساراً يرمز إلى المحكمة، وإذا وُجدِت معه شمسٌ، فهذا يُشير إلى نهار المحاكمة؛ أمّا إذا وُجِد قمرٌ، فهذا يشير إلى عذاب الرّجُل الذي يصلّي ليلاً، ويعني بذلك روح المُذْنب، وأحياناً الجحيم. الرّجُل الصّغير هو الإنسان، وفي حال حَمْله عَصا، فالمعنى هو الإنسان العامل، أو العمل، والعلامات وراءه تدلّ على نوع عمله: إذا كانت

هناك نقاط فهو يعمل في البِذار، وإنْ كانت هناك شحطات فهو يعمل في السُّفن، والدّوائر تدلّ على أنّه كاهن، وبما أنّ الكاهن يكتب أيضاً، فيمكن أن يكون ناسخاً، وهذا يتعلّق بوجوده إمّا في أوّل السّطر، وإمّا في آخره، فالكاهن يأتي دائماً في البداية، والنّاسخ يأتي بعد الأحداث التي دوَّنَها. كانت تلك أسابيع انتشاء، وسرعان ما لم يعُد في حاجةٍ إلى استعمال الّلائحة، بلْ كتب هو نفسه بالهيروغليفيّة، كأنّه لم يفعل سوى ذلك طوال عُمره. لم يعُد يستطيع النّوم ليلاً؛ لأنّه بات يحلم بالعلامات، صارت أفكاره مؤلّفةً من نقاطٍ، وشحطاتٍ، وزوايا، وأمواج. هكذا كان الأمر عندما شَعَر المرء بالمِنَّة، وكتابه الذي سيطبعه قريباً بعنوان (أوديب المصريّ) كان أعظم إنجازاته: «طوال آلاف السّنين وقف البشر عاجزين أمام الّلغز، لم يستطع أحدٌ أن يحلَّه».

لكنّ المزعج في الأمر هو أنّ الناس كانوا ذوي فَهْمٍ بطيءٍ وبُلداء. وصلت إليه رسائلُ من إخوةٍ في العقيدة من المَشرق، يخبرونه فيها عن متتاليات علاماتٍ هيروغليفيّةٍ لا تنسجم مع النّظام الذي وصفه، وكان عليه أن يجيبهم أنّ ما نقشه أحْمقٌ ما، ناسخٌ ما، قبل عشرة آلاف سنةٍ في الحَجر، لا يلعبُ أيَّ دورٍ؛ لأنّه لا يعرف طبعاً عن نظام هذه الكتابة بقدْر ما تعرفه سُلطةٌ علميّةٌ مثله هو، فما داعي الانشغال بهذه الأخطاء؟ هل استلم ذلك

النّاسخ كتابَ شُكرٍ من سيزار نفسه؟ أمّا كيرشر فيستطيع إبراز هذا الكتاب. فقد كتب للقيصر قصيدة مديحٍ بالهيروغليفيّة، وكتاب الشُّكر الذي وصل إليه من فيينّا طواه وخاط حوله كيساً من الحرير صار يحمله معه دائماً. لا إراديّاً وضع كيرشر يَده على صَدره، تحسّس الرِّقَّ عبْر صدّارته، وشَعر بتحسُّنٍ فوريّ.

توقّفت العربات.

- «هل أنت على ما يُرام؟». سأله أولاريوس: «تبدو شاحباً».

- «أنا على خير ما يُرام». أجاب كيرشر بانفعال.

دفع الباب وترجَّل. كان عَرقُ الجِياد يتصاعد بخاراً، وكان المَرْجُ رَطباً. رمشَ واستند إلى العربة؛ كان يشعر بدوخة.

سمعوا صوتاً يقول: «رجالٌ مهمون عندنا هنا!».

كان هناك عند الخِيام بعضُ الرِّجال، وعلى مسافةٍ أقرب جلست المرأة العجوز عند برميل الغسيل، ولكنْ إلى جانبهم مباشرةً وقف حمارٌ وَحْده. رفع الحمار نظره إليهم، ثمّ نكّس رأسه، والتقط بعض الحشائش.

- «هل سمعتم هذا أيضاً؟». سأل فلمينغ.

أولاريوس الذي ترجَّل بعده هزّ رأسه موافقاً.

- «هذا أنا». قال الحمار.

- «هناك تفسيرٌ للأمر». قال كيرشر.

- «وما هو هذا التّفسير؟». سأل الحمار.

- «فنّ التّكلّم من البطن». قال كيرشر.

- «صحيح». قال الحمار: «أنا اسمي أوريغينِس».

- «أين يختبئ المتكلّم من بطنه؟». سأل أولاريوس.

- «إنّه نائم». قال الحمار.

وراءهما كان فلِمينغ والسّكرتير قد ترجَّلا، ثمّ تبعهما الأُمناء الآخرون.

- «هذا جيّدٌ فعلاً». قال فلمينغ.

- «قلّما ينام». قال الحمار: «لكنّه الآن يحلم بكم». كان لصوته وقْع عميق وغريب، كأنّه لا يخرج من حَنْجرةٍ بشريّةٍ. «أتريدون مشاهدة العرض؟ سوف نعيده بعد غد. لدينا آكلُ النّار، والذي يمشي على يديه، والذي يبلع قطع النّقود؛ أي: أنا. أتريدون أن تروا ذلك؟ أعطوني قطع نقودٍ، وسوف أبلعها كلّها، وعندنا راقصة، ومديرة مسرح، ولدينا عذراء تُدفن، وتبقى تحت الأرض

مدّة ساعةٍ، وعندما يُكشف التّراب عن القبر ترونها حيّةً، ولمْ تختنق. ولدينا راقصةٌ أيضاً، هل ذكرت هذا سابقاً؟ مديرة المسرح، والممثلة، والعذراء هُنّ الشّخص نفسه، وعندنا أفضل بهلوانٍ على الحبْل، إنّه مديرنا، لكنّه نائمٌ حاليّاً، وعندنا أيضاً رجُلٌ مُتداخل الأعضاء، إذا رأيتموه فسيتغيّر حالكم فوراً، لا يعرف المرءُ أين رأسه من رِجْليه، حتّى هو نفسه لا يجد ذراعيه».

- «وعندكم متكلّمٌ من بطنه». قال أولاريوس.

- «يا لكَ من رجُلٍ فطين!». قال الحمار.

- «هل عندكم موسيقيّون؟»، سأل كيرشر، الذي كان على وعيٍ بظرفِ أنّ سُمعته يمكن أن تتضرّر، إذا تحادث مع حمارٍ أمام شهود.

- «طبعاً». أجاب الحمار: «عندنا ستّة منهم. المدير والمديرة يرقصان، وهذا يشكّل الذّروة، قمّة عَرْضنا، فكيف سيتحقّق هذا من دون موسيقيّين؟».

- «هذا يكفي!». قال كيرشر: «على المتكلّم من بطنه أنْ يُظهِر نفسه الآن».

- «إنّي هنا». قال الحمار.

أغمضَ كيرشر عينيه، وزفرَ طويلاً، ثمّ أخذ نفَساً عميقاً، وفكّر في أنّ الرّحلة كلّها كانت غلطةً، الزّيارة هنا، هذا كلّه كان غلطةً. فكّر بهدوء غرفة مُطالعته، بطاولة عَمله الحجريّة، بالكتب على الرّفوف. فكّر في التّفّاحة المقشّرة، التي يحضرها له معاونه بعد الظُّهر عندما تدقّ السّاعة ثلاثاً، وفي النّبيذ الأحمر في كأس الكريستال الفينيسيّ الأحبّ إلى قلبه. فرك عينيه واستدار.

- «أتحتاج إلى شافٍ؟». سأل الحمار: «ونبيع أدويةً أيضاً. ما عليك إلّا أن تقول».

- «إنّه مجرّد حمار». فكّر كيرشر. ومع ذلك، كوَّر قبضتيه من الغضب: «وصلنا إلى مستوى أنْ تسْخر منّا حتّى الحيوانات الألمانيّة! رتِّبْ أنت الأمر». قال لأولاريوس: «تكلم مع هؤلاء النّاس».

نظر إليه أولاريوس مُستغرباً.

فشَخ كيرشر فوق كومةٍ من روث الحمار راجعاً إلى العربة، من دون أن يأبه له. أغلق بابها عليه، وسحب السّتائر، فغطّى النّوافذ. سمع أولاريوس وفلمينغ يتكلّمان مع الحمار. لا بدّ من أنّهم يضحكون منه الآن، كلّهم، لكنّه لم يُبالِ، ولم يُرِد حتّى أنْ يعرف، ولكي يُهدّئ خاطره حاول أن يفكّر بعلاماتٍ مصريّة.

عندما رأت العجوز عند برميل الغسيل أنّ أولاريوس وفلمينغ يتقدّمان نحوها، وضعت إصبعين في فمها، وأطلقت صفرةً، فوراً جاءها ثلاثة رجالٍ وامرأة من إحدى الخيام، كان الرِّجال متيني البنْية بصورةٍ لافتةٍ، والمرأة التي لم تعُد شابّةً كان شَعرها بُنّيّاً، وعيناها يقظتين وممتلئتين حيويّة.

- «رجالٌ مهمون عندنا». قالت المرأة: «قليلاً ما ننال مثل هذا الشّرف. أتريدون مشاهدة عَرْضنا؟».

حاول أولاريوس أن يُجيب، لكنّ صوته خذله.

- أخي هو أفضل بهلوانٍ على الحبْل، كان مهرّج البلاط عند ملك الشّتاء. أتريدون مشاهدته؟

مازال صوت أولاريوس لا يُطاوعه.

- ألا تتكلّمان؟

تنحنح أولاريوس. كان واعياً أنّه بدا سخيفاً، لكنّه كان عاجزاً؛ إذْ إنّه لم يستطع أن يتكلّم.

- «طبعاً نريد أن نشاهد شيئاً». قال فلمينغ.

- «إذن شاهدا بهلواناتنا». قالت المرأة: «أروا السّادة المحترمين شيئاً!».

وفوراً تشقلب أحد الثّلاثة، ووقف على يديه، وبسرعةٍ غير بشريّةٍ تسلّقه الثّاني عالياً، ووقف بيديه على قدميّ الأوّل، والآن تسلّقهما الثّالث عاليًا، لكنّه وقف بقدميه على قدميّ الثّاني، وانتصب مادّاً ذراعيه نحو السّماء، وفجأةً، قبْل أن ينتبها كانت المرأة قد تسلّقت الأوّل والثّاني، وجذبها الثّالث إليه، ورفعها فوق رأسه. حدّق أولاريوس بنظرهِ نحو الأعلى.

- «أتريدان مشاهدة المزيد؟». صاحت المرأة نحو الأسفل.

- بودّنا هذا بكلّ سرور، لكنّنا لم نأتِ لهذا الغرض. نحن في حاجةٍ إلى موسيقيّين، وسندفع جيّداً.

- هل السّيّد المحترم مرافقك أبْكَم؟

- «لا». قال أولاريوس: «لا أبداً. أقصد ليس أبْكمَ».

فضحكت وقالت: «أنا اسمي نِله!».

- «وأنا أولاريوس». قال أولاريوس: «عالِم رياضيّاتٍ في قصر غوتّورف».

- «هلّا نزلتِ ثانيةً». قال فلمينغ: «فالحوار هكذا صعب!».

وكما تلبيةً للأمر، تساقط البُرجُ البشريُّ؛ إذْ قفز الرّجُل الأوسط، والرّجُل الأعلى انحنى إلى الأمام، والرّجُل في الأسفل تشقلب، بدا كأنّ المرأة ستسقط، ولكنْ في أثناء طيرانهم ترتّب الأمرُ بطريقةٍ ما، بحيث وصل الجميع إلى الأرض على أقدامهم، وقاماتهم مُنتصبة. صفّق فلمينغ، فيما بقي أولاريوس مشدوهاً.

- «لا تصفّق». قالت نِلِه: «فهذا لم يكن عرضاً. لو كان عرضاً، لكان عليكما أن تدفعا نقوداً».

- «ونحن نريد أن ندفع». قال أولاريوس: «للموسيقيّين خاصّتكم».

- «إذاً، عليكما سؤالهم هُم. الجميع عندنا أحرار. إذا أرادوا الذّهاب معكما، يمكنهم الذّهاب، وإذا أرادوا متابعة التّجوال معنا، فيمكنهم ذلك أيضاً. كلّ امرئٍ في سيرك أولنشبيغل موجودٌ فيه فقط لأنّه يريد الوجود فيه؛ لأنّه لا يوجد سيركٌ أفضل من سيرك أولنشبيغل، حتّى مُتداخل الأعضاء موجودٌ معنا بملء إرادته؛ لنْ يكون مرتاحاً في مكانٍ آخرَ كما هنا».

- «تيل أولنشبيغل موجود هنا؟». سأل فلمينغ.

- «لأجله يأتي النّاس من كلّ مكان». قال أحد البهلوانات الثّلاثة: «أنا ما كنت لأغادر، ولكنْ اسألوا الموسيقيّين».

- «معنا عازفُ فلوت، وعازفُ ترومبيت، وقارعُ طُبولٍ، ورجُلٌ يعزف على كمانين في وقتٍ واحد. اسألوهم، فإذا أرادوا الرّحيل سنفترق كأصدقاء، وسنجد موسيقيّين آخرين، لن يكون الأمر صعباً، فالكلّ يريد العمل مع سيرك أولنشبيغل».

- «تيل أولنشبيغل؟». سأل فلمينغ ثانيةً.

- هو نفسه.

- وأنتِ أخته؟

هزّت نِله رأسها نفْياً.

- لكنّكِ قلتِ...

- أعرف ما قلته أيُّها السّيّد المحترم. إنّه أخي، لكنّني لستُ أخته.

- «كيف يستقيم هذا؟». سأل أولاريوس.

- ها أنت تستغرب، أيُّها السّيّد المحترم.

نظرت في عينيه؛ بَرقت عيناها، والرّيح داعبت شَعرها. جفَّ حَلْقُ أولاريوس، وشَعرَ بأطرافه خفيفةً، كأنّه قد التقط مرضاً في الطّريق.

- «إنّك لا تفهم الوضع، أليس كذلك؟». دفعت بهلواناً في صدره قائلةً: «هلّا أحضرت الموسيقيّين؟».

هزّ رأسه موافقاً، تشقلب وذهب ماشياً على يديه.

- «لديّ سؤال». وأشار فلمينغ نحو الحمار، الذي كان ينتف الحشائش بهدوءٍ، رافعاً رأسه بين الحين والآخر نحوهم بعينيْ حيوانٍ مُطفأتين: «مَن الذي علَّم الحمار...».

- الكلام من البطن.

- وأين يختبئ المتكلّم من بطنه؟

- «اسأل الحمار». قالت العجوز.

- «ومَن تكونين أنتِ؟«، سألها فلمينغ: «هل أنتِ أمّهما؟».

- «معاذ الله». قالت العجوز: «أنا العجوز فقط. لستُ أمّ أحدٍ، ولستُ ابنة أحد».

- لا بدّ من أن تكوني ابنة أحدٍ ما.

تيل

- إذا كان مَن كنتُ ذات يومٍ ابنتهما، تحت العشب منذ مدّة، فابنة مَن سأكون الآن؟ أنا إلزِه كورنْفَس من شتانْغِنريت. كنت جالسةً أمام بيتي أحْفر تُربة حديقتي الصّغيرة، ولم أفكّر في أيّ شيءٍ، وعندها مرَّ أولنشبيغل، ومعه نِله، وأوريغينِس أمام العَربة، فصِحْتُ: «تحيّةً للرّبّ يا تيل«؛ لأنّي تعرّفت إليه. فشدّ العنان فجأةً، فتوقّفت العربة، وقال: «لا توجّهي تحيّتك للرّبّ، فهو لا يحتاج إليكِ، بلْ تعالي معنا». لم أعرف ما كان يريد، فقلت له: «لا مقالب مع النّساء العجائز؛ لأنّهنّ فقيراتٌ وضعيفاتٌ أوّلاً، وبإمكانهنّ ثانياً أن يَسْحرْنَك فتمرض«، فأجاب: «أنتِ مكانكِ ليس هنا. أنتِ واحدةٌ منّا». فقلت: «كنتُ ذات يومٍ، هذا مُحتملٌ؛ أمّا الآن، فأنا عجوز!». فأجابني: «كلّنا عجائز». فقلت: «لكنّي سأموت قريباً». فأجاب: «مثلنا جميعاً». فسألته: «إذا متُّ في الطّريق معكم، فماذا ستفعلون؟». فأجابني: «في هذه الحالة سنتركك وراءنا، فمن يموت لا يعود صديقي». عندها لم يعُد لديّ ما أقوله، يا حَضرة المحترم، ولهذا تراني هنا.

- «تستغلّنا جميعنا». قالت نِله: «تشتغل قليلاً، تنام طويلاً، ولها دائماً رأيها».

- «صحيحٌ كلّه». قالت العجوز.

- «لكنّها تحفظ جيّداً». قالت نِله: «تروي أطول القصص الشِّعريّة، ولا تنسى حتّى بيتاً واحداً أبداً».

- «قصصٌ شِعريّةٌ ألمانيّة؟». سأل فلمينغ.

- «طبعاً». أجابت العجوز: «لم أتعلّم اللّغة الإسبانيّة قطّ».

- «أسمعينا شيئاً». قال فلمينغ.

- إذا دفعتَ، سأسمِعك شيئاً.

فتّش فلمينغ في جيبه. رفع أولاريوس نظره عالياً إلى الحبْل، واعتقد للحظةٍ أنّه يرى أحداً هناك فوق، لكنّ الحبْل كان يتأرجح خالياً مع الرّيح. عاد البهلوان يتبعه ثلاثةُ رجالٍ مع آلاتهم.

- «الأمر سيكلّف مالاً». قال الأوّل.

- «سنأتي معكم، لكنّنا نطلب مالاً». قال الثّاني.

- «مالاً وذهباً». قال الأوّل.

- «والكثير منه». قال الثالث: «أترغبان في سماع شيء؟».

ومن دون أن يعطيهما أولاريوس أمراً بذلك، اتّخذوا وضعيّتهم، وبدأوا يعزفون، أحدهم على أوتار العود، والثّاني ينفخ في مزمار القِرْبة، والثّالث يقرع الطّبْل، وأزاحت نِله شَعرها إلى الخلف، وانطلقت ترقص، فيما أخذت العجوز تروي قصّةً شِعريّةً على إيقاع الموسيقا: لم تغنِّ، بلْ تَلت بإيقاعٍ ينسجم مع اللّحن. حكت عن عاشقَيْن لم يتمكّنا من الالتقاء؛ لأنّ بحيرةً كانت تفصل بينهما، فيما تربّع فلمينغ جالساً على الحشائش قُرْب العجوز كي لا تفوته كلمة.

في العربة أمسك كيرشر رأسه بيديه وهو يتساءل: «متى سينتهي أخيراً هذا الضّجيج الشّنيع؟». لقد ألّف أهمّ كتابٍ في الموسيقا، ولهذا تحديداً كان سَمعه أرْهف من أنْ يُعجبه مثل هذا الزّعيق الشّعبيّ، وأحسّ فجأةً بأنّ العربة ضيّقةٌ عليه، وأنّ المقعد قاسٍ، وهذه الموسيقا المبتذلة تُعلن عن مَرحٍ تشارك فيه الدُّنيا كلّها عَداه.

زَفَرَ، رَمَت الشّمسُ حُزْمة شُعاعٍ رفيعةً وباردةً عبْر شقوق ستائر النّوافذ، وللحظةٍ تراءى له ما شاهده بِعَدِّهِ مَسْخاً متولّداً من صداعه، وألم عينيه، ثمّ أدرك أنّه لم يكن مُخطئاً، فثمّة شخص يجلس قبالته.

هل بلغتُ هذا الحدّ الآن؟ كان يعرف دائماً، أنّ الشّيطان بنفسه سيظهر له ذات يومٍ، لكنّ الغريب هو غياب العلامات الدّالّة: لا وجود لرائحة كبريت، والشّخص له قدما إنسان، والصّليب المُعلَّق في صَدر كيرشر لم يسخن. إذنْ، هذا الجالس -حتّى إنْ لم يفهم كيرشر كيف تمكّن من التّسلّل دونما صوتٍ إلى داخل العربة- كان بشراً. كان نحوله باهظاً، وعيناه غائرتين في محجريهما. كان يرتدي صدريةً ذات ياقةٍ من الفَرْو، وينتعل حذاءً مُدبّباً، وقد رفع قدميه على مقعد الجلوس، الأمر الذي يُعدُّ وقاحةً وضيعة. التفت كيرشر نحو الباب.

انحنى الرّجُل قليلاً إلى الأمام، ووضع يَده بحركةٍ تكاد تكون لطيفةً على كتفه، فيما أغلق بالأُخرى قفل الباب.

- «عندي سؤال». قال الرّجُل.

- «ليس معي مال». قال كيرشر: «ليس هنا في العربة، المال مع أحد الأمناء في الخارج».

- «ما أجمل أن تكون هنا! لقد انتظرتُ طويلاً، لدرجة أنّي فكّرت في أنّ الفرصة لنْ تُتاح أبداً، ولكنْ أنت مَن يجب أن يعرف: الفُرَص كلّها تأتي، وهذا هو الجميل في الأمر، أنّها تأتي في حينها، وأنا فكّرتُ عندما رأيتك، بأنّي الآن أخيراً سوف أعرف. أنت تقول:

إنّك قادرٌ على أن تشفي، وأنا أيضاً قادرٌ على ذلك. أتعرف دار الموت في ماينتس؟ كانت طافحةً بمرضى الطّاعون، كان السُّعال فظيعاً، والأنين والآلام، وأنا قلتُ: «عندي مسحوق، سأبيعه لكم، سيشفيكم»، فصاح الخنازير المساكين جميعهم، يحدوهم الأمل: «أعطنا إيّاه، أعطنا المسحوق!»، فقلت لهم: «عليَّ تحضيره أوّلاً»، فصاحوا: «حَضِّر مسحوقك!». فقلت: «الأمر ليس بهذه السّهولة، ينقصني أحد المكوّنات، ومقابله يجب على واحدٍ منكم أن يموت». فهَيْمَن عليهم السُّكون. كانوا مذهولين، ولمْ يلفظ أيٌّ منهم ولوْ كلمة في البداية، فصحتُ بهم: «أحدكم يجب أن يموت بيديّ. يؤسفني هذا، ولكنْ لا شيء يأتي من العدم، فأنا في الواقع خيميائيٌّ أيضاً، أتعرف؟ مثلك تماماً، أعرف القوى الخفيّة، والأرواح الشّافية تطيعني أيضاً».

ضحك الرّجُل. حدّق كيرشر إليه، ثمّ مدَّ يَده إلى الباب.

- «لا تفعل هذا!». قال الرّجُل بصوتٍ جعل كيرشر يسحب يَده فوراً. «إذن، قلت لهم: أحدكم يجب أنْ يموت، ولست أنا مَن يحدّد أيّكُم، بلْ عليكم أنتم فيما بينكم أن تختاروه». فسألوني: «وكيف لنا أن نفعل ذلك؟». فأجبتهم: الأشدّ مرضاً، الذي لا يؤسف كثيراً لموته. انتبهوا إذنْ، أنتم الذين مازلتم قادرين على المشي، خذوا عكاكيزكم وانطلقوا، وآخر من يبقى في الدّار سأشقّ

بطنه، وآخذ أحشاءه». لا رأتْ عينُك، في لحظةٍ كانت الدّار خالية. ثلاثة أموات بقوا في الدّار، لا حيَّ فيهم، فقلت لهم: «أترون؟ أنتم قادرون على المشي، أنتم لستم في النّزع الأخير؛ لقد شَفيتكم. ألم تعُد تعرفني يا أثنازيوس؟».

- «لقد عرفتك». قال كيرشر.

في الخارج كانت الموسيقا تقصف. تساءل كيرشر إنْ كان يُفترض به أن يصيح طالباً النّجدة، إلّا أنّ الباب كان مُقفلاً. ولوْ سمعوه، وهذا غيرُ مُحتملٍ، سيكون عليهم كسْر الباب أوّلاً، ولا يريد المرءُ أن يتخيّل ما قد يفعله الرّجُل به في أثناء ذلك.

- كم كان يرغب في معرفة محتوى الكتاب! كان مستعدّاً لتقديم حياته لقاء ذلك، وقد قدّمها، لكنّه لم يعرف قطّ ما في الكتاب؛ أمّا أنا، فيمكنني الآن استخلاصه منك. لطالما اعتقدتُ باحتمال أنْ أرى الدّكتور الشّابّ ثانيةً، وأنْ أعرف منه مباشرةً، وها أنت الآن هنا. إذن، ما هو محتوى الكتاب اللّاتينيّ؟

أخذ كيرشر يصلّي من دون صوت.

- لم يكُنْ للكتاب غلاف، ولكنْ كانت فيه صور. في إحداها كان هناك جُنْدُب، وفي صورةٍ أُخرى حيوانٌ غير موجود، برأسين وأجنحة، وربّما كان موجوداً، ما أدراني! وفي صورةٍ أُخرى هناك

رجُلٌ في كنيسةٍ، لكنّها بدون سقفٍ، كانت فوقها أعمدة، ما زلت أذكر ذلك، وفوق الأعمدة أعمدة أُخرى. كلاوس أراني الكتاب، وقال لي: «أُنْظر، هذا هو العالم». أنا لم أفهم، وأظنّه لم يفهم أيضاً، ولكنْ إنْ لم يتمكّن هو من معرفة ذلك، فأنا على الأقلّ أريد أن أعرف. وأنت تفحّصت أغراض كلاوس، وتفهم اللّاتينيّة أيضاً، إذنْ، أخبرني ماذا كان ذاك الكتاب، مَن كتبه، وما هو عنوانه؟

أخذتْ يَدا كيرشر ترجفان. ذاك الصّبيّ ما زال محفوظاً في ذاكرته بوضوحٍ، وكذلك الطّحّان بجلاءٍ، الذي لن ينسى في حياته كلماته المُتحشرجة الأخيرة على المشنقة، وبوضوحٍ جليٍّ ما زالت في ذاكرته صورة زوجِ الطّحّان الباكية، لكنّه خلال حياته قلَّب صفحات كتبٍ لا تُحصى، وشاهد كثيراً من المطبوعات، بحيث لم يعُد يَميزُ بينها الآن. الأمر يتعلّق بكتابٍ كان في حيازة الطّحّان، ولكنْ لا جدوى مهما حاول، لقد خذلته ذاكرته.

- «هل تتذكّر الاستجواب؟». سأله الرّجُل النّاحل بلطفٍ: «الرّجُل الكبير، الكاهن اليسوعي». كان يكرّر: «لا تخفْ، لن نؤذيك إذا قلت الحقيقة».

- «وأنت قلت الحقيقة». قال كيرشر.

- وهو لم يؤذِني، لكنّه كان سيؤذيني لو لم أهرب.

- «أجل، وحسناً فعلت». قال كيرشر.

- لم أعرف قطُّ ما جرى لأمّي. بعض النّاس قالوا إنّهم رأوها تغادر القرية، ولكنْ ما من أحدٍ رآها تصل إلى مكانٍ آخر.

- «لقد أنقذناك». قال كيرشر: «الشّيطان كان سيمسك بك أنت أيضاً؛ إذْ لا يمكن للمرء أن يعيش إلى جواره من دون عواقب. بإفادتك ضدّ أبيك فقدْ سلّطتهُ عليك. أبوك اعترف ونَدِم. الرّبُّ رحيم».

- أريد أن أعرف فقط. الكتاب. عليك أنت أن تقول لي ذلك، ولا تكذب؛ لأنّي سألْحظ ذلك. هذا ما كان يكرّره طوال الوقت كاهنك العجوز: لا تكذب؛ لأنّي سألحظ ذلك. عِلماً بأنّك كنت تكذب عليه طوال الوقت، ولم يلْحظ ذلك.

انحنى الرّجُل إلى الأمام، ولم يعُد هناك بين أنفه ووجه كيرشر أكثر من عرْضِ كفّ؛ لم يبْدُ أنّه كان ينظر إليه بقدْر ما كان يشمّه. كانت عيناه شبه مغمضتين، وتراءى لكيرشر أنّه يسمعه يتشمّم الهواء حوله.

- «لم أعُدْ أذْكر». قال كيرشر.

- لا أصدّق هذا.

- لقد نسيت.

- وإذا كنتُ لا أصدّقك؟

تنحنح كيرشر. «ساتور». قال بصوتٍ خافتٍ، ثمّ سَكت. أغمض عينيه، لكنّهما كانتا ترجفان تحت الجفنين، كأنّه ينظر إلى هنا وهناك بسرعةٍ، ثمّ فتحهما ثانيةً. سالت دمعةٌ على خدّه. «أنت مُحِقٌّ». قال بصوتٍ حياديّ: «أنا أكذب كثيراً. كذبت على الدّكتور تزيموند، لكنّ هذا لا يشكِّل شيئاً. لقد كذبت على قداسة البابا، كما كذبت على جلالة القيصر. إنّي أكذب في الكتب، وأكذب دائماً».

تابع البروفِسور كلامه بصوتٍ متقطّعٍ، لكنّ تيل لم يستطع أنْ يفهمه، دَهَمهُ ثقلٌ فريد. مسح جبهته. سال على وجهه عرقٌ بارد. المقعد قبالته كان خالياً، كان وحْده في العربة، والباب مفتوحاً، ترجَّلَ، وهو يتثاءب.

في الخارج كان الضّباب كثيفاً، والسُّحُب تتحرّك متجاوزةً إيّاه، والهواء مشبعاً بالبياض.

توقّف الموسيقيّون عن العزف، تراءت له معالم أشخاصٍ، كانوا مُرافقي البروفسور، وذاك الظّلّ لا بدَّ من أن يكون نِلِه. في مكانٍ ما صَهَلَ حصان.

جلس تيل على الأرض. سرعان ما خفَّ الضّبابُ ثانيةً، واخترقته حُزَمٌ من أشعّة الشّمس. صار ممكناً أن يرى المرء معالم العربات، وبعض الخِيام، ومقاعد المشاهدين، وبعد لحظاتٍ هَيْمَن ضوءُ النّهار السّاطع، والرُّطوبة تتبخّر من العُشب، وتلاشى الضّباب.

نظر الأُمناء إلى بعضهم بعضاً بحَيرةٍ؛ أحدُ جواديّ العربة اختفى، وعريش العربة منتصبٌ في الهواء، وفيما كان الجميع يتساءلون عن هجمة الضّباب المفاجئة وسببها، وفيما أخذ البهلوانات يتشقلبون لعدم تحمُّلهم مرور وقتٍ من دون حركةٍ، وفيما تابع الحمار أكْل العُشب، وفيما تابعت العجوز التّلاوة ل فلمينغ، وفيما استغرق أولاريوس ونِلِه في الحديث معاً، بقي تيل جالساً في مكانه بلا حراكٍ، وقد ضيَّق عينيه، ورفع أنفه عالياً في الهواء، كما أنّه لم ينهض عندما اقترب أحدُ الأُمناء من أولاريوس، وقال له: «إنّ صاحب المعالي البروفسور كيرشر على ما يبدو قد ركب جواداً وغادر، من دون وداعٍ، ومن دون أن يترك خبراً».

- «من دونه لن نجد التّنّين». أجابه أولاريوس.

- «هل ننتظره؟». سأل الأمين: «فلربّما يعود».

رمى أولاريوس نظرةً في اتّجاه نِله، وأجاب: «هذا هو الأفضل».

توجّهت نِله إلى تيل وسألته: «ما الذي جرى لك؟».

رفع نظره إليها، وقال: «لستُ أدري».

- ماذا حدث؟

- لقد نسيت.

- طيِّرْ لنا كُراتك، عندها ستعود إلى طبيعتك.

نهض تيل واقفاً. تلمَّس الكيس المعلّق في خصره، وأخرج منه كُرةً صفراء أوّلاً، ثمّ حمراء، ثمّ زرقاء، ثمّ خضراء، وباسترخاءٍ بدأ يُطيّرها في الهواء، وأخرج مزيداً من الكُرات، واحدةً كلّ مرّةٍ، ثمّ أُخرى، وأُخرى، وأُخرى إلى أنْ بَدت كأنّها تجاوزت العشرة، وهي تطير فوق رأسه بين يديه المبسوطتين، والكلُّ يتابع الكُرات الصّاعدة والنّازلة، ثمّ الصّاعدة من جديد، حتّى الأُمناء ابتسموا.

كان الوقت في الصّباح الباكر، ونِله تنتظر منذ مدّةٍ أمام الخيمة. كانت تفكّر، وهي تمشي ذهاباً وإياباً، كما صلَّت، انتزعت حشائش من الأرض، بَكت بصمتٍ، دلكت أصابعها إلى أنْ تماسكت أخيراً.

انسلّتْ إلى داخل الخيمة، كان تيل نائماً، ولكنْ بمجرّد أن لمست كتفه استيقظ فوراً.

أخبرته بأنّها أمضت اللّيلة مع السّيّد أولاريوس، وهو من حاشية قصر غوتّورف القائم في السّهل.

- وماذا بعد؟

- الأمر مختلفٌ هذه المرّة.

- ألم يقدّم إليكِ هديّةً جميلة؟

- بلى، أهداني.

- إذنْ، مثل كلّ مرّة.

- إنّه يريدني أن أذهب معه.

تظاهر تِيل بالدّهشة بأنْ رفع حاجبيه.

- يريد أن يتزوّجني.

- لا!

- بلْ نعم.

- يتزوّجك؟

- نعم.

- أنتِ؟

- أنا.

- لماذا؟

- إنّه جادٌّ. يعيش في قصر. يقول إنّه قصرٌ جميلٌ، وباردٌ في الشّتاء، ولكنْ لديه ما يكفي من الطّعام، ولديه دوق يُعيله ويعتني بأمره، وما عليه لقاء ذلك إلّا أن يُعلّم أولاد الدّوق، وأنْ يقوم أحياناً ببعض الحسابات، وأن ينتبه إلى الكتب.

- كي لا تهرب الكتب؟

- أنا موافقة، وضعه جيّد.

تدحرج تيل عن فراش التّبن، ونهض واقفاً، وقال: «عليكِ أن تذهبي معه إذنْ».

- إنّه لا يعجبني كثيراً، لكنّه إنسانٌ طيّبٌ، ووحيدٌ جدّاً، زوجُه ماتت عندما كان في روسيا. أنا لا أعرف أين تقع روسيا.

- بجوار إنجلترا.

- نحن لم نصل إلى إنجلترا بعد.

- الحال في إنجلترا يشبه هنا.

- وعندما رجع من روسيا كانت ميتةً، ليس لديهما أولاد، وهو حزينٌ منذ ذلك الوقت. صحّته ما زالت جيّدةً نوعاً ما، لَحظتُ ذلك، وأعتقد أنّه صادق. لن يأتيني مثله ثانيةً.

جلس تيل إلى جانبها، وأحاط كتفيها بذراعه. تناهى إليهما من الخارج صوت العجوز تتلو قصّةً شِعريّةً. يبدو أنّ فلمينغ ما زال جالساً إليها، وطلب إليها تكرار القصّة كي يحفظها.

- «مثل هذا الرّجُل أفضل من أحد آل شتيغر». قالت.

- ويُرَجح أنّه لن يضربكِ.

- «مُحتمل». قالت نله مفكّرةً: «وإذا فعلها فسأضربه أنا أيضاً. كمْ سيتعجّب!»

- وما زلتِ قادرة على إنجاب أولاد.

- لا أحبُّ الأولاد، ثمّ إنّه ليس شابّاً، لكنّه سيكون شاكراً، بأولاد أو من دونهم.

صمتت نِله. جعلت الرّيح قماش الخِيام يُطقطق، وعادت العجوز إلى البداية.

- أنا في الحقيقة لا أريد.

- ولكن يجب عليكِ.

- لماذا؟

- لأنّنا لم نعُد شباباً يا أختي، ولأنّنا لن نستعيد شبابنا، ولا حتى يوماً واحداً. ما من أحدٍ سيرتاح إذا كان عجوزاً بلا مأوى، وهو يسكن في قصر.

- لكنّنا ننتمي إلى بعضنا.

- نعم.

- قد يأخذك معي أيضاً.

- هذا غيرُ وارد. أنا لا أستطيع البقاء في قصرٍ. لن أحتمل ذلك، وإنْ احتملت، لن يريدوا بقائي طويلاً هناك، فإمّا أنْ يطردوني، وإمّا أنْ أحرق أنا القصر، إمّا هذا، وإمّا ذاك، لكنّه سيكون

قصرك، إذاً لا يجوز لي أن أحرقه، وبناءً على ذلك لن نصل إلى حلّ.

بقيا برهةً صامتين.

- ثمّ قالت: «أجل، لن نصل إلى حلّ».

- «تُرى، ما سبب رغبته فيكِ؟ فأنتِ لستِ بارعة الجمال». قال تيل.

- ستأتيك اللّكمة على فمك فوراً.

ضحك تيل.

- أظنّ أنّه يُحبّني.

- ماذا؟

- أعرف، أعرف.

- يُحبّك؟

- هذا موجود.

في الخارج نهق الحمار، والعجوز بدأت تتلو قصّةً جديدة.

- «لولا وجود اللصوص حينذاك في الغابة». قالت نِلِه.

- لا تفتحي هذا الموضوع.

فصمتت.

- «الرّجال من صنفه لا يأخذون عادةً مَن هُم مثلك». قال تيل: «لا بدّ من أنّه رجُلٌ طيّب. ولو لمْ يكن رجُلاً طيّباً، لديه سقفٌ فوق رأسه، ولديه مالٌ في محفظته. قولي له إنّكِ تقبلين، قبل أن يغيّر رأيه».

أخذت نِله تبكي. رفع تيل يده عن كتفها ونظر إليها. بعد قليلٍ هدأت.

- «هل ستأتي لزيارتي؟». سألته.

- لا أعتقد.

- لمَ لا؟

- فكّري في كيف سيكون الحال. هو لن يريد أن يُذكّره أحدٌ بالمكان الذي وجدكِ فيه. في القصر لن يكون أحدٌ على عِلمٍ بالأمر، وأنت نفسك لن تريدي أنْ يعرف أحدٌ بالأمر. السّنوات ستمرّ يا أختي، وسرعان ما ستُنسى الوقائع، لكنّ أولادك سيستغربون من أنّك تجيدين الرّقص، والغناء، والتقاط كلّ شيء.

قبّلته على جبينه. انسلّت من الخيمة متردّدةً، ثمّ وقفت وذهبت إلى العربات لتخبر رياضيّ القصر أنّها تقبل عَرْضه بالذّهاب للعيش معه في غوتورف.

عندما رجعت وجدتْ خيمة تيل خاويةً. لقد غادر بسرعة البرق، ولم يأخذ معه سوى كيس الكُرات، وحبْلٍ طويلٍ، والحمار. لم يتكلّم مع أحدٍ عدا المعلّم فلمينغ، الذي التقاه على المَرْج وتبادلا الحديث، لكنّ فلمينغ أبى أن يُفصح عمّا قال له تيل.

السّيرك تشتّت شمله في الاتّجاهات جميعها، فاتّجه الموسيقيّون مع البهلوانات نحو الجنوب، ورحل آكل النّار مع المرأة العجوز في اتّجاه الغرب، والآخرون ذهبوا في اتّجاه الشّمال الشّرقيّ على أمل الابتعاد عن الحرب والجوع، ووجد مُتداخل الأعضاء لنفسه مكاناً في مُتحف العجائب برعاية أمير بافاريا النّاخب.

بعد ثلاثة شهورٍ، وصل الأُمناء إلى مدينة روما، حيث كان أثنازيوس كيرشر في انتظارهم نافدَ الصّبر، ولم يغادر المدينة من بعْد قطّ، أجرى آلاف التّجارب، وكتب عشرات الكتب، إلى أنْ مات مُبجّلاً بعد أربعين عاماً.

نِله أولاريوس عاشت ثلاث سنواتٍ أطول من كيرشر. أنجبت أولاداً، ودفنت زوجها، الذي لم تحبّه، لكنّها قدَّرته واحترمته

دائماً؛ لأنّه عاملها جيّداً، ولم يتوقّع منها أكثر من بعض المودّة. أمام عينيها ازدهر قصر غوتورف من جديد، ورأت أحفادها يكبرون، وهزّت في حضنها أوّل ابنٍ لأحد أحفادها. لم يخطر في بال أحدٍ أنّها جالت ذات يومٍ مع تيل أولنشبيغل عبْر البلد كلّه، ولكنْ تماماً حسبما تنبّأ. استغرب أحفادها قدرتها على التقاط ما يُرمى إليها كلّه، على الرّغم من تقدُّمها في السِّنّ. كانت محبوبةً ومحترمةً، ولم يخطر في بال أحدٍ أنّها كانت ذات يومٍ شيئاً آخر غير امرأةٍ فاضلةٍ، وهي بدورها لم تعترف لأحدٍ بأنّها ما زالت حتّى اليوم تأمل بعودة ذاك الصّبيّ، الذي هربت معه من قريتها ذات يومٍ، ليأخذها من جديد.

وعندما حام الموت حولها، ومعه بَلبلة الأيّام الأخيرة، خُيِّل إليها فجأةً أنّ بإمكانها رؤيته. وقف عند النّافذة نحيلاً ومبتسماً، ثمّ دخل الغرفة نحيلاً ومبتسماً، فاعتدلت في سريرها مبتسمةً، وقالت له: «لقد طال غيابك!».

ودوق غوتورف، أحد أبناء ذاك الدّوق، الذي وظّف زوجها عنده آنذاك، جاء إلى سرير الموت، ليودّع أقدم عضوٍ في طاقم قصره، وقد أدرك أنّ اللّحظة غير مناسبةٍ الآن لتصحيح خطأ، فأمسك يدها الصّغيرة العنيدة، التي مدّتها إليه، وزوّدته غريزته بالجواب: «أجل، لكنني الآن هنا».

في السَّنة نفسها مات في سهل هولشتاين آخر تنانين الشّمال. كان عُمره سبعة آلاف سنة، كان على درجةٍ كبيرةٍ من التّعب لأن يختبئ.

وهكذا وسَّد رأسه بين أعشاب المَرْج، ومدّد جسمه الذي تلاءم كُليّاً مع ما تحته، بحيث لن يتمكّن حتّى النّسر من تمييزه، فوق طراوة الحشائش، تنهّد وأسِفَ برهةً قصيرةً لأنّ كلّ شيءٍ قد انتهى الآن، فلن يستمتع من بعد بعطور الورود، ولا بالرّيح، ولن يرى الغيوم في أثناء العاصفة، ولا بزوغ الشّمس، ولا منحنى ظلّ الأرض على الصّفحة النّحاسيّة الزّرقاء للقمر، الذي لطالما كان يُبهجه.

أغمض عيونه الأربع، ودَمدم بصوتٍ خافتٍ عندما أحسَّ بعصفورٍ دوريٍّ يحطّ على أنفه. كان راضياً عن كلّ شيءٍ، فقد رأى الكثير، لكنّه لم يكن يعرف ما يجري مع واحدٍ من صنفه بعد الموت، ونام وهو يتنهّد. لقد دامت حياته طويلاً، وقد آن الأوان الآن لأنْ يُحوّل نفسه.

في نفق السور

كان ماتيّاس في الحال قد قال: «يا ربّنا، القادر على كلّ شيء، يا سيّدنا يسوع المسيح ساعدنا»، فأجابه كورف: «لكنّ الرّبَّ ليس هنا!»، فعلّق آيزنْكورت: «الرّبُّ موجودٌ في كلّ مكانٍ، يا خنزير»، فأجابه ماتيّاس: «ليس هنا تحت»، وضحك الجميع، ولكن بعدئذٍ وقع انفجار، وصدمتهم هجمة هواءٍ ساخنٍ بشدّةٍ هائلةٍ ورمتهم أرضاً. سقط تيل فوق كورف، وماتيّاس فوق آيزنكورت، ثمّ حلَّ ظلامٌ دامِس. مرّت برهةٌ من دون أن يتحرّك أحدٌ منهم، بلْ أوقفوا أنفاسهم جميعاً، وفكّر كلٌّ منهم فيما إذا كان قد مات، وأدرك الجميع تدريجيّاً؛ لأنّ مثل هذا الأمر لا يستوعبه المرء دفعةً واحدةً، أنّ النّفق قد انهار. إنّهم يعرفون أنّهم لا يجوز أن يُصدروا أيّ صوتٍ؛ إذْ إنْ كان السُّويديّون قد حقّقوا خرقاً، وإن كانوا يقفون في العتمة فوقهم بحرابٍ مشرعةٍ، فلا يجوز أنْ تَصدر عنهم أبسط نأمةٍ، فلا تنفّس، ولا تشمُّم، ولا لُهاث، ولا سُعال.

الظّلمة تامّةٌ، لكنّها تختلف عن ظلام فوق. عندما يحلُّ الظّلام، يبقى المرء قادراً على رؤية شيءٍ ما. لا يدري المرء ماذا يرى، ولكنْ ليس هناك عماء؛ إذا حرّكتَ رأسك، تجد أنّ الظّلام ليس

متساوياً في كلّ مكانٍ، وعندما تعتاد عيناك، تتبدّى بعضُ المعالم، ولكنْ ليس هنا تحت؛ يبقى الظّلام مُظلماً، يمضي الوقت، ومزيدٌ من الوقت، ولا يعودون قادرين على حبْس أنفاسهم، فيتنفّسون بحذرٍ، وتبقى الظّلمة مطبقةً تماماً، كأنّ الرّبّ قد أطفأ أضواء الدُّنيا كلّها.

أخيراً، ولأنّه على ما يبدو لا يوجد فوقهم سويديّون، وسكاكين في أيديهم، قال كورف: «تسجيل حضور!».

فأجاب ماتياس: «منذ متى صِرت قائدنا، يا سكران، يا بهيمة؟».

فقال كورف: «يا طيز، الملازم فطس بالأمس، والأقدميّة لي الآن».

فأجابه ماتياس: «أجل، ربّما فوق، ولكنْ ليس هنا».

فردَّ كورف: «سأقتلك إنْ لم تسجّل -الآن- حضورك. يجب أن أعرف مَن بقي منّا حيّاً».

قال تيل: «أعتقد أنّي ما زلتُ حياً».

إنّه في واقع الأمر ليس واثقاً. كيف للمرء أنْ يعرف، وهو مرميٌّ أفقيّاً، وما حوله كلّه أسْود، ولكنْ الآن، بعد أن سمع صوته، انتبه إلى صحّة الواقعة.

- «انزل عنّي إذن. أنت مرميٌّ فوقي، أيُّها الهيكل العظميّ». قال كورف.

- «عندما يكون مُحقّاً، فهو مُحقٌّ». فكّر تيل، وليس من المُحبَّذ البقاء مستلقياً فوق كورف، وهكذا دحرج نفسه جانباً.

- «ماتياس، سجِّل حضورك الآن». قال كورف.

- أنا حاضرٌ إذن.

- كورت؟.

انتظروا، لكنّ آيزنكورت، الذي يناديه الجميع بهذا اللّقب، بسبب يَده اليمنى الحديديّة، وربّما كانت اليُسرى؛ إذْ لا أحد يتذكّر بدقّةٍ، فالظّلمة مطبقةٌ، ولا يستطيع المرء أن يتأكّد؛ لا يُسجّل حضوره.

- كورت؟

صمتْ، حتّى الانفجارات ما عادت تُسمع الآن. قبْل قليلٍ كانوا يسمعونها، أصوات قصفٍ بعيدة تصل إليهم من فوق، تجعل الحجارة ترتجف؛ كان هؤلاء جنود تورستنسن السُّويديّ، يحاولون دكّ التّحصينات؛ أمّا الآن، فلا يُسمع إلّا صوتُ

الأنفاس. تُسمع أنفاسُ تيل، وكورف كذلك، وماتياس أيضاً، ولكنْ ليس كورت.

- «هل متَّ؟». يقول كورف: «كورت، هل فطست؟».

لكنّ كورت لا يَحيرُ جواباً، وهذا ليس من عادته على الإطلاق؛ إذْ من الصّعب إسكاته عادةً. سمع تيل ماتياس يتلمّس، يحاول على الأغلب تلمُّس عنق كورت؛ بسبب نبض القلب، ثمّ تلمّس اليّد، الحديديّة أوّلاً، ثمّ الصّحيحة. سعل تيل؛ هناك غبارٌ في الهواء، لم يعُد هناك تيّار، وبات المرء يحسُّ الهواء مثل زبدةٍ سميكة.

- «نعم، لقد مات». قال ماتياس أخيراً.

- «متأكّد؟». سأله كورف، وكان الانزعاج بادياً في صوته. منذ الأمس صارت له الأقدميّة؛ لأنّ الملازم أُصيب، وها هو اليوم بمرؤوسَين فقط.

- «إنّه لا يتنفّس». قال ماتياس: «وقلبه لا يخفق، ولا يريد أن ينطق، وهنا، يمكنك أن تتلمّسه، نصف رأسه غير موجود».

- «أكل خراء». قال كورف.

- «أجل». قال ماتياس: «هذا اسمه أكل خراء. على الرّغم من أنّي لم أكن أحتمله. بالأمس أخذ سكّيني، وعندما طالبته بأنْ يعيدها إليّ قال: بكلّ سرورٍ، ولكنْ بين أضلاعك. يستحقّ هذه الميتة».

- «أجل، الرّحمة لروحه». قال كورف.

- «لن تخرج من هنا». قال تيل: «أقصد روحه. كيف ستجد طريقها للخروج من هنا؟».

لبرهةٍ ساد صمتٌ قانطٌ، لتفكير الجميع في أنّ روح كورت لا تزال محجوزةً هنا، باردةً، وزلقةً، وربّما غاضبة، ثمّ سُمع صوت نبْشٍ، وتحريكٍ، وقلب.

- «ماذا تفعل عندك؟». سأل كورف.

- «أفتّش عن سكّيني». قال ماتياس: «لن أتركها لهذا الخنزير».

اضطرَّ تيل إلى السُّعال ثانيةً، ثمّ سأل: «ما الذي حدث؟ أنا جديدٌ في الجيش، ما سبب الظّلام؟».

- «لأنّ أشعّة الشّمس لا تصل إلينا». أجاب كورف: «هناك الكثير من التّراب بينها وبيننا».

- «الحقُّ عليَّ». فكّر تيل: «فلْيسخرْ. سؤالي في الحقيقة لم يكن ذكيّاً». وكي يسْأل على نحوٍ أفضل قال: «أيجب أن نموت؟».

- «نعم، طبعاً». قال كورف: «نحن والآخرون جميعهم».

- «وفي هذه أيضاً معه حقّ». فكّر تيل: «على الرّغم من ذلك، من يدري؟ أنا مثلاً: حتّى الآن لم أمُت ولا مرّة». ثمّ، ولأنّ الظلمة تُبلبل الذّهن، حاول أن يتذكّر ما الذي أوصله إلى نفق السّور.

مبدئيّاً، لأنّه جاء إلى مدينة بْرُن. كان في مقدوره الذّهاب إلى مكانٍ آخر، ولكنْ بعد أن تقع الواقعة يصبح المرء دائماً أكثر حكمةً، فجاء إلى برُن، فقد كان الشّائع أنّ المدينة غنيّةٌ وحصينةٌ، ولم يحْدِسْ أحدٌ طبعاً بأنّ تورستنسن مع نصف الجيش السُّويديّ سيزحف إلى هنا، بلْ لطالما قيل إنّه سيزحف نحو فييّنا، حيث يتربّع القيصر على عرشه، غير أنّ ما يفكّر فيه السّادة تحت قبّعاتهم الواسعة لا يعرفه أحد.

والأمر الآخر كان آمِر المدينة، بحاجبيه الكثَّين، ولحيته الصّغيرة المُدبّبة، وخدّيه المدهنين اللّامعين، وهذا الزّهو السّائل من أصابعه الصّغيرة المبسوطة. كان يشاهد عَرْضَ تيل في السّاحة الرّئيسة، وبجهدٍ على ما يبدو، فقد كان جفناه السّاميان شبه

مرخيّين، ولأنّه في اعتقاده يستحقّ مشهداً أرقى من مهرّجٍ بصدّارةٍ مبرقعة الألوان، قال متذمّراً:

- ألا تستطيع تقديم ما هو أفضل؟

ليس من عادة تيل أن ينزعج، ولكنْ إنْ حدث وانزعج، فهو أفضل مَن يهين الآخر، فيُسمِع أمثال هذه الشّخصية ما لا تنساه طوال حياتها. ماذا قال له يا تُرى؟ هذه الظّلمة تُربك الذّاكرة حقّاً. لِسوء حظّه أنّهم كانوا حينذاك يجنّدون الشّباب للدّفاع عن حِصْن برُن.

- سترى، ستساعد الشّباب، ستنضمُّ إلى الجنود. يحقُّ لك اختيار الوحدة التي تناسبك، ولكنْ انتبهوا إليه لئلّا يهرب!

ثمّ ضحك آمِرُ المدينة، كأنّ ما فعله به كان مقلباً ناجحاً، وعلى المرء أن يعترف بأنّ المقلب لم يكُن بهذا السُّوء، فالمهمُّ في حالة الحصار هو ألّا يتمكّن أحدٌ من الهرب؛ أمّا إذا تمكّن المرء من الهرب من الحصار، فهو ليس حصاراً.

- «ماذا سنفعل الآن؟». سمع تيل ماتياس يسأل.

- «سنبحث عن المِعْوَل». أجاب كورف: «لا بدّ من أنْ يكون هنا، وأقول لك فوراً، دون مِعْولٍ لا حاجة بنا إلى محاولة أيّ شيء. إنْ لم نجده نكون قد انتهينا».

- «كان مع كورت». قال تيل: «لا بدّ من أن يكون تحته».

سمع الاثنين في الظّلام يُحرّكان، ويسحبان، ويتلمّسان، ويشتمان. بقي جالساً؛ فهو لا يريد أن يقف في طريقهما، ولا يريد بالدّرجة الأولى أن يذكّرهما بأنّه هو، وليس كورت، مَن كان يحمل المِعْوَل. إنّه ليس واثقاً تماماً؛ لأنّ المرء هنا يزداد اضطّراباً باستمرار، فيبقى مُتذكّراً الأحداث القديمة بوضوحٍ، ولكنْ كلّما اقتربت الأمور من الانفجار الأخير، ازداد تحوّلها في الرّأس إلى حساء. يذكر ببعض الثّقة أنّ المِعْول كان معه، ولكنْ لأنّه كان ثقيلاً، ويُحشر طوال الوقت بين ساقيه، فإنّه الآن في مكانٍ ما في النّفق، لكنّه لم يأتِ على ذِكْر ذلك بكلمة، فمن الأفضل أن يعتقد الاثنان بوجود المِعْول مع آيزنكورت؛ لأنّ كورت في نهاية المطاف قد تجاوز هذا كلّه، ولم يعُد يهمّه على الإطلاق مدى سخطهما.

- «هل ستساعدنا أيّها الهيكل العظميّ؟». سأل ماتياس.

- «سأساعدكما بالتّأكيد». قال تيل، من دون أن يتحرّك من مكانه: «إنّي أبحث وأبحث، أبحث كالمجنون، مثل الخُلْد، ألا تسمع؟».

ولأنّه يُتقن الكذب، اكتفيا بذلك؛ أمّا سبب عدم رغبته في الحركة، فالأمر يتعلّق بالهواء؛ فقد بات خانقاً قاتلاً. لا شيء يدخل، ولا شيء يخرج، وسرعان ما يغشى على المرء ولا يفيق ثانيةً. في مثل هذا الهواء من الأفضل ألّا يتحرّك المرء، وألّا يتنفّس إلّا بقدْر الضَّرورة.

كان من الأفضل ألّا يُسجِّل نفسه مع النّاقبين. هذا كان خطأ. فكّر في أنّ النّاقبين يوجدون في عُمق الأرض، والطّلقات تطير فوق الأرض. لدى العدوّ ناقبون لكي يفجّروا أسوار تحصيناتنا، ونحن لدينا ناقبون كي نفجّر الأنفاق التي ينقبها العدوُّ تحت أسوارنا. «النّاقبون يحفرون». فكّر: «أمّا فوق فهناك ضربٌ وطَعنٌ». «وإذا كان النّاقب يقظاً». فكّر: «واستغلّ اللّحظة، فيمكنه متابعة نقب نفقٍ لنفسه فقط، يوصله إلى مكانٍ ما في العراء خارج التّحصينات». هكذا فكّر تيل، ويهرب قبل أن ينتبه أحدٌ إلى الأمر، ولأنّ هذا هو ما فكّر فيه تيل، قال للضّابط الذي كان يمسك بياقته إنّه يريد الانضمام إلى النّاقبين.

فسأله الضّابط: «ماذا؟».

- قال الآمِرُ: إنّ الخيار متروكٌ لي.

فقال الضّابط: «صحيح، لكنْ حقاً تريد الانضمام إلى النّاقبين؟».

- لقد سمعتَ ما قلتُه.

أجلْ، كان هذا غباءً: النّاقبون يموتون دائماً، تقريباً، لكنّه لم يسمع بذلك إلّا عندما صار تحت الأرض. من كلّ عشرة جنودٍ يموت ثمانية، من كلّ عشرين يموت ستّة عشر، من كلّ خمسين يموت سبعة وأربعون، من كلّ مئة يموت الجميع.

جيّدٌ على كلّ حال أنّ أوريغينِس قد نَجا، كان ذلك نتيجة شجارهما في الشّهر الماضي في الطّريق إلى برُن.

- «في الغابة يوجد ذئاب». قال الحمار: «وهُم جوعى، فلا تتركني أقف هنا».

- لا تخفْ، الذّئاب بعيدة جدّاً.

- أنا أستطيع أنْ أشمّ رائحتهم، إنّهم قريبون جدّاً. أنت تتسلّق شجرةً؛ أمّا أنا، فأقف تحت، فماذا أفعل عندما يأتون؟

- ستفعل ما أقوله لك.

- وإذا قلتَ شيئاً غبيّاً؟

- أيضاً؛ لأنّي أنا الإنسان. ليتني لم أعلّمك الكلام!

- وليتك أنت أيضاً لم تتعلّمه، فنادراً ما تقول شيئاً له مغزى، كما أنّك لم تعد مسيطراً تماماً عندما تلعب بالكُرات، وقريباً ستنزلق قدمك عن الحبْل. لا أمر لك عليَّ!

وعندها غضب تيل، وتسلّق شجرةً، وغضب الحمار، وبقي تحت. سبق أن نام تيل كثيراً على الشّجر، فلم يعُد الأمر يشكّل صعوبةً بالنّسبة إليه، كلّ ما يحتاج إليه المرء هو غصنٌ ثخينٌ، وحبْلٌ لربط نفسه بالغُصن، وشعورٌ نامٍ بالتّوازن، وكما في أمور الحياة كلّها، يحتاج الإنسان هنا أيضاً إلى تمرين.

طوال نصف اللّيل بقي يسمع الحمار، وهو يشتم تحت، وإلى طلوع القمر بقي يتذمّر ويُدمدم حتّى أسِف تيل لحاله، لكنّ الوقت كان قد تأخّر، وفي اللّيل لا يستطيع المرء متابعة التّرحال، فماذا كان يُفترض بالمرء أن يفعل؟ وهكذا نام تيل، وعندما استيقظ ثانيةً، لم يجد الحمار تحت. ليس الذّنب ذنب الذّئاب، وإلّا لانتبه للأمر لو أتوا؛ يبدو أنّ الحمار قد قرّر أنّ بمستطاعه أن يحقّق شيئاً وَحْده أيضاً، فلا يحتاج إلى متكلّمٍ من بطنه.

وفيما يتعلّق بتطيير الكُرات كان أوريغينس مُحقّاً. هنا في برُن أمام الدّير، انزلقت يده جانباً قليلاً، فسقطت منه كُرةٌ على الأرض. تظاهر بأنّ الأمر كان مقصوداً، ولوى وجهه فضحك الجميع، لكن هذه غلطة، وليست مُزاحاً، وقد تتكرّر، وإذا تكرّرت، وقدمه فعلاً على الحبْل، فماذا عندها؟

الجيّد في الموضوع الآن، هو أنّه لم يعُد هناك داعٍ للقلق بشأنه؛ إذْ لا يبدو أنّهم سيخرجون من هنا.

- «لا يبدو أنّنا سنتمكّن من الخروج من هنا». قال ماتياس.

علماً بأنّ صاحب هذه الكلمات هو تيل، فهي فكرته، التي ضلّت طريقها في ظلمة النّفق إلى رأس ماتياس، ومن المُحتمل أنّ الأمر كان بالعكس، مَن يدري؟ ثمّ ها هو المرء يرى الآن أضواءً صغيرةً، مثل اليراعات الطّائرة، التي لا توجد في واقع الأمر هنا، وتيل يعرف ذلك، فعلى الرّغم من أنّه يرى الأضواء الصّغيرة، فهو يرى أيضاً أنّ الظّلام ما زال مُطبقاً كالسّابق

تأوّه ماتياس، ثمّ سمع تيل خبْطاً، كأنّ أحدهم يخبط على جدارٍ بقبضته، ثمّ أطلق ماتياس شتيمةً مجنونةً لا يعرفها تيل. «عليّ أن أحفظها». فكّر، غير أنّه نسيها فوراً، وتساءل في نفسه ما إن

كان قد ابتكرها بنفسه، ولكن ماذا، ما الذي ابتكره؟ وفجأةً لم يعُد يعرف.

- «سوف لن نخرج من هنا». كرّر ماتياس.

- «أغلِقْ فمكَ الغبيّ!». قال كورف: «سوف نجد المِعْوَل، وسنحفر مَخرجاً لنا، الرّبُّ سيساعدنا».

- «لماذا يُفترض به ذلك؟». سأل ماتياس.

- «إنّه لم يساعد الملازم». قال تيل.

- «سأحطّم جمجمتيكما». قال كورف: «وعندها لن تخرجا حتماً».

- «لماذا انضممتَ إلى النّاقبين، ألستَ أولنشبيغل المشهور؟». سأل ماتياس.

- أجبروني قسْراً. هل تظنُّ أنّي سأتطوّع بملْء إرادتي؟ وماذا عنك أنت؟

- أنا أيضاً أجبروني. سرقتُ خُبزاً، فقيّدوني بالأغلال. جرى كلُّ شيءٍ بسرعةٍ كبيرةٍ، ولكنْ أنت؟ كيف حدث ذلك؟ فأنت مشهور! لماذا يجبرون شخصاً مثلك؟

- «لا أحد مشهور هنا تحت». قال كورف.

- «ومن الذي أرغمك أنت؟». سأل تيل كورف.

- «أنا لا يرغمني أحدٌ على أيّ شيء. من يريد إرغام كورف، فسيقتله كورف. كنتُ طبّالاً لدى القائد الدّوق كريستيان فون هالبرشْتات، ثمّ التحقتُ بالفرنسيّين بوصفي موسيقيّاً، ثمّ بالسُّويديّين، ولكنْ عندما توقّفوا عن دفع الأجْر عُدتُ إلى الفرنسيّين، ولكنْ إلى سلاح المدفعيّة، ثمّ أصيب مدفعي، كان منظراً مروّعاً! إصابة مباشرة بقذيفةٍ حارقةٍ، فانفجر البارود، واشتعلت النّيران كأنّ نهاية العالم قد حلّت، لكنّ كورف رمى نفسه مبكّراً في الدّغل ونَجا، بعدها التحقتُ بقوّات القيصر، لكنّهم لم يحتاجوا إلى مدفعيّين، ولم أرغب بالانضمام إلى الرّمَّاحة، فجئتُ إلى برُن، ولأنّي كنتُ مُفلساً، ولأنّ النّاقبين يتقاضون أعلى أجْرٍ، صرتُ ناقباً، ومضى عليَّ هنا ثلاثة أسابيع. معظم النّاقبين لا يعيشون هذه المدّة. قبل فترةٍ وجيزةٍ كنتُ مع السُّويديّين، وها أنا الآن أقتل السُّويديّين، وأنتما -يا كيسا الرّوث- محظوظان لردمكما مع كورف؛ لأنّ كورف لا يموت بسرعة». أراد أن يقول المزيد ولكنْ نقصه هواء وأخذ يسعل، ثم سكت لبرهة، قال بعدها: «أنت، أيّها الهيكل العظميّ، هل تملك مالاً؟».

- «لا أملك شيئاً». قال تيل.

- على الرّغم من أنّك مشهور. هل يمكن أن يكون المرء مشهوراً، ولا يملك مالاً؟

- إذا كان أحمق، يمكن.

- وأنت أحمق؟

- يا أخي، لو كنتُ ذكيّاً، هل سأكون هنا؟

ضحك كورف. ولأنّ تيل يعرف أنْ لا أحدَ يستطيع أن يراه، تلمّس صدّارته، القطع الذّهبيّة في الياقة، والفضّيّة في سجاف الأزْرار، واللّؤلؤتان مخيطتان على نحوٍ متينٍ في ثنْية الصّدّارة تحت، كلّ شيءٍ لا يزال في مكانه. «بصدق، لو كان معي مال لأعطيتك منه».

- «يا لك من خنزيرٍ مسكين!». قال كورف.

- إلى الأبد، آمين.

فضحك ثلاثتهم.

توقّف تيل وكورف عن الضّحك، فيما استمرّ ماتياس. انتظراه، لكنّه استمر.

- «لن يتوقّف». قال كورف.

- «سيُجنّ». قال تيل.

انتظرا ثانيةً، لكنّ ماتياس لا يتوقّف.

- أنا كنت في ماغديبورغ في أثناء المعركة، كنت مع المحاصِرين. هذا كان قبْل أنْ أنضمّ إلى السُّويديّين، كنت لا أزال مع قوّات القيصر، عندما سقطت المدينة غنمنا كلّ شيءٍ، أحْرقنا ما تبقّى، وقتلنا الجميع. «افعلوا ما تريدون». قال الجنرال. لا ينجح المرء في ذلك فوراً، أتعلم؟ على المرء أن يعوِّد نفسه تدريجيّاً، على أنّه يجوز له ذلك حقّاً، أنّ هذا ممكن، أنْ تفعل بالإنسان ما تشاء».

تراءى لتيل فجأةً كأنّهم ثلاثتهم خارج النّفق، يجلسون على مَرْجٍ، السّماءُ فوقهم زرقاء، والشّمسُ ساطعةٌ، بحيث يضطّرّ المرء إلى أنْ يضيِّق عينيه، ولكنّه فيما يرمش يعرف أنّ هذا ليس حقيقيّاً، ثمّ لا يعود، في واقع الأمر، ما هذا الذي أدْرك في الحال أنّه ليس حقيقيّاً، ودَهَمهُ السُّعال بسبب فساد الهواء، وغاب المَرْج.

- «أعتقد أنّ كورت قال شيئاً». قال ماتياس.

- «لم يقل أيّ شيء». قال كورف.

- «إنّه مُحقٌّ». فكّر تيل، الذي لم يسمع شيئاً أيضاً. ماتياس يتخيّل أنّ كورت قال شيئاً.

- «أنا أيضاً سمعته». قال تيل: «كورت قال شيئاً ما».

ومباشرةً سمعا ماتياس يهزّ آيزنكورت الميت، ويقول: «أما زلت حيّاً؟ هل أنت معنا؟».

تذكّر تيل الأمس، أم كان ذلك قبْل أمس؟ الهجوم الذي قُتل الملازم في أثنائه. فجأةً، انفتحت فجوةٌ في جدار النّفق، وفجأةً، لمعت سكاكينٌ، وعَلتْ صرخاتٌ، وسُمعت طلقاتٌ وطقطقةٌ. ضغط نفسه عميقاً في الوَحْل، أحدهم داس على ظهره، وعندما رفع رأسه ثانيةً، كان كلّ شيءٍ قد انتهى: أحد السُّويديّين طعن الملازم بالسّكّين في عينه، وكورف ذبح السُّويديّ في عنقه، وماتياس قتل السُّويديّ الثّاني بطلقة رصاصةٍ في بطنه، فصرخ هذا مثل خنزيرٍ بعد تلقّي المخْرز، فلا شيء يماثل ألم رصاصةٍ في البطن، والسُّويديُّ الثّالث هجم على أحد جنودنا، لم يعرف تيل اسْمه؛ لأنّه كان جديداً، ولم يعُد الأمر الآن مهمّاً، فلا حاجة به الآن إلى معرفة الاسم، وقطع رأسه بالسّيف، فانبثق الدّمُ مثل

نبع ماءٍ أحْمر، لكنّ السُّويديّ لم يفرح طويلاً؛ لأنّ كورف الذي ما زالت طبنجته مذخّرة، أطلق النّار على رأسه، «كليب – كلاب، زيب – زاب». لم تطُل المعركة أطول من ذلك.

مثل هذه الأمور لا تستغرق وقتاً طويلاً أبداً. حتّى آنذاك في الغابة مضى كلُّ شيءٍ بسرعةٍ. ليس في وسع تيل إلّا أنْ يفكّر في الأمر؛ بسبب الظّلمة. في الظّلمة تتداخل الأمور كلّها ببعضها، وذاك الذي نسيه المرء يعود إلى الذّاكرة فجأةً. آنذاك في الغابة كان الأقربَ إلى العرَّاب، وقد أحسَّ بيده، ولهذا يعرف ملمسها جيّداً، ولهذا يتعرّف إليها الآن. لم يأتِ على ذكرها سابقاً أبداً، ولم يفكّر فيها؛ إذْ بإمكان المرء أن يفعل هذا: ألّا يفكّر في أيّ شيءٍ بكلّ بساطة، عندها تكون الحادثة كأنّها لم تقع.

أمّا الآن في الظّلام، فإنّ كلّ شيءٍ يعود إلى الذّاكرة. إغماضُ العينين لا يُسعف إلّا قليلاً، مثل فتحهما على اتّساعهما، ولكي يصدَّ عنه ذلك يقول: «هلّا غنّينا شيئاً، لعلّ أحدهم يسمعنا؟».

- «أنا لا أغنّي». قال كورف.

ثمّ بدأ كورف بالغناء: «إنّه مُفرّق الجماعات، واسمه موت». شارك ماتياس في الغناء، ثمّ انضمّ تيل إليهما، فصمت كلاهما فوراً ليُنصِتا إلى غنائه. صوتُ تيل حادٌّ، ونقيٌّ، وقويّ. «يمتلك

السُّلطة من أعلى الأرباب. اليوم يجلخ نَصْله، فيصبح ألمع، عمّا قريبٍ سيبدأ حصاده، وليس في وسعنا سوى المعاناة».

- «هيّا، شاركاني». قال تيل.

فشاركا، لكنّ ماتياس توقّف مُجدّداً، وأخذ يضحك بينه وبين نفسه. «احترسي أيّتها الزّهرة الصّغيرة، كلّ ما هو أخضر ويانع اليوم، سيحصده المنْجَل غداً». سُمع الآن صوتُ كورت مشاركاً في الغناء، من دون أن يتمكّن من رفع صوته عالياً؛ لأنّه مبحوحٌ، وينشز عن اللّحن، ولكنْ لا يجوز أن يكون المرء هنا صارماً، فعندما يكون أحدهم ميتاً، سيصعب عليه الغناء أيضاً. «النّرجس البهيّ، زينة المَرْج، والخُزامى الجميلة الشّبيهة بالعمائم التّركيّة، احترسْنَ يا زهراتي الجميلات».

- «يا للروعة!». قال كورف.

- «قلت لك إنّه مشهور». قال كورت: «إنّه ليشرّفنا أنْ يفطس معنا رجُلٌ مُحترم».

- «مشهور، أجل». قال تيل: «أمّا مُحترم، فلم أكن يوماً طوال حياتي. أتعتقدان أنّ أحداً قد سمع الغناء، أتعتقدان أنّ أحداً سيأتي؟».

أنصَتوا. بدأت الانفجارات من جديد: قصف، اهتزاز الأرض، هدوء.

- «تورستنسن سيفجّر نصف سور المدينة». قال ماتياس.

- «لن ينجح». قال كورف: «ناقبونا أفضل من ناقبيهم. سيعثرون على الأنفاق السُّويديّة، وسيملؤونها بالدُّخان. أنت لم ترَ بعدْ كارل الطّويل ساخطاً».

- «كارل الطّويل ساخطٌ دائماً، وسكرانٌ دائماً أيضاً». قال ماتياس: «في وسعي أنْ أخنقه، وإحدى يديَّ وراء ظهري».

- مُخُّك صار مستنقعاً على ما يبدو.

- هل أريك؟ تظنّ نفسك سيّداً عظيماً بعد ماغديبورغ، وما لا أدري أين كنت أيضاً.

سكن كورف برهةً، ثمّ قال بصوتٍ خافتٍ: «أنت، سأقتلك».

- متأكّد؟

- سأفعلها.

ثمّ صمتوا فترةً، سمعوا في أثنائها القذائف والتّفجيرات فوق، كما سمعوا تساقُط حجارة. لم يقل ماتياس أيَّ شيءٍ؛ لأنّه أدرك

أنّ كورف جادٌّ، وكورف أيضاً لم يقل شيئاً؛ لأنّ الشّوق غلبه دفعةً واحدةً، وتيل يعرف ذلك جيّداً؛ لأنّ الأفكار في الظّلام لا تبقى عند أحدهم وحْده، بلْ تصل إلى الآخرين أيضاً، شاءوا أمْ أبوا. كورف يشتاق إلى الهواء الطّلْق، والضّوء، والحرّيّة، لأنْ يتحرّك حيثما شاء، ولأنّ هذا يذكّره بشيءٍ آخر، قال: «هانَّة السّمينة!».

- «أجل، أجل». قال ماتياس.

- «الرّدفان الممتلئان». قال كورف: «والمؤخّرة».

- «يا إلهي!». قال ماتياس: «الإلْيتان. المؤخّرة. المؤخّرة من الخلف».

- هل ضاجعتها أنت أيضاً؟

- «لا». قال ماتياس: «أنا لا أعرفها».

- «وصدرها». تابع كورف: «قرب توبينغن عرفتُ واحدةً أُخرى عليها صدر، هكذا. لو أنّك رأيتها! كانت تسمح للرّجُل أن يفعل ما يشاء، كأنّ الرّبَّ غير موجود».

- «هل عرفت كثيراً من النّساء، أولنشبيغل؟». سأل ماتياس: «كان معك مال ذات يوم، وكنت تلبّي رغباتك. أخبرنا».

كان تيل على وشك أنْ يُجيب، عندما فجأةً، لم يعُد ماتياس إلى جانبه، بلْ اليسوعي على كرسيٍّ بلا مسند، وقد رآه ماثلاً أمامه بوضوحٍ كما حينذاك: «عليك أن تقول الحقيقة، عليك أن تخبرنا، كيف استدعى الطّحّانُ الشّيطان، عليك أن تقول إنّك خِفْت. لماذا عليك أن تقول؟ لأنّها الحقيقة؛ لأنّنا نعرفها، وإذا كذبت، أُنظر، هناك يقف المعلّم تيلمَن، أُنظر ماذا يحمل في يَده، سوف يستعملها. إذنْ، أخبرنا. أمّك أخبرتنا أيضاً. لم تشأ في البداية، فكان عليها أن تحسّ بها، وبعد أن أحسّت بها أخبرتنا، هكذا تجري الأمور دائماً، الكلُّ يخبروننا بعد أن يحسّوا بها. نحن نعرف مُسبقاً ما ستخبرنا به؛ لأنّنا نعرف الحقيقة، ولكنْ يجب أن نسمعها منك، ثمّ مال إليه، وقال همساً، وبودٍّ تقريباً: أبوك انتهى أمْره. أنت لن تنقذه، ولكنْ يمكنك أن تنقذ نفسك، أظنّه سيريد ذلك».

لكنّ اليسوعي ليس هنا، تيل يعرف ذلك، فقط النّاقبان موجودان هنا، وبيرمين هناك على درب الغابة، لقد تركاه في الحال على الأرض. «ابقيا هنا». يصيح بيرمين: «سأجدكما، سأوجعكما!». وهذه غلطة، فقد باتا يعرفان الآن أنّ عليهما ألّا يساعداه، عاد الصّبيُّ راكضاً، وأخذ كيس الكُرات. فصرخ بيرمين كمن يُشوى على السّيخ، وأخذ يشتم مثل حوذيٍّ، ليس فقط لأنّ

الكُرات هي أثمن ما يملك، بلْ لأنّه فهم معنى أن يأخذ الصّبيُّ كُراته: «سأسلّط عليكما لعنتي، سأجدكما، لنْ أذهب إلى العالم الآخر، سأبقى هنا لأبحث عنكما!». يدبُّ الخوف في المرء عند رؤية بيرمين مطروحاً هكذا، ملتوياً على نفسه، فهربَ الصّبيُّ، وبقي يسمعه من بعيدٍ، وهو يركض ويركض، ونِله إلى جواره، وما زالا يسمعانه. «الذّنب ذنبه». تقول لاهثةً، لكنّ الصّبيّ يحسُّ بأنّ لعنات بيرمين تفعل مفعولها، وأنّ شيئاً ما سيصيبهما بسوءٍ، في عزّ الظّهيرة. «ساعدني وارفعني أيُّها الملك، انتشلني، أخرجني، امحُ ما حدث آنذاك في الغابة».

- «هيّا! أخبرنا». يقول أحدهم. تيل يعرف هذا الصّوت، إنّه صوت ماتياس: «احكِ لنا عن الأرداف والصُّدور، هيّا! إذا كنّا سنموت، فيفضَّل مع سماع شيءٍ عن الصُّدور».

- «لن نموت». قال كورف.

- «ولكنْ احكِ». قال ماتياس.

- «احكِ». يقول ملك الشّتاء أيضاً: «ماذا حدث هناك في الغابة، تذكّر، ما الذي جرى؟».

لكنّ الصّبيّ لا يحكي شيئاً، لا للملك، ولا لأيّ إنسانٍ آخر، ولا لنفسه تحديداً؛ إذْ عندما لا يفكّر المرء بالأمر، فكأنّه قد نسيه، وإذا نسيه المرء، فإنّه لم يحدث.

- «احكِ». يقول ملك الشّتاء.

- «أنت يا قزم». قال تيل؛ لأنّ غضبه بدأ يتصاعد: «أنت ملكٌ بلا مملكة، أنت لا شيء، وفوق ذلك كلّه أنت ميت. اذهب، ابتعد من هنا».

- «ابتعد أنت». قال ماتياس: «أنا لم أمُت بعد، الذي مات هو كورت. احكِ!».

لكنّ الصّبيّ لا يستطيع أنْ يحكي؛ لأنّه نسي، نسي درب الغابة، ونِله، ونفسه هناك على الدّرب، نسي الأصوات بين أوراق الشّجر. «لا تتابع المشي». ولكنْ ما هكذا جرى الأمر، الأصوات لمْ تهمس بهذا، وإلّا لأطاعها هو ونِله، وفجأةً، وقف الثّلاثة أمامهما، الثّلاثة الذين لا يتذكّرهم، فهو لا يراهم، لقد نسيهم، نسي وقفتهم أمامهما.

لصوصٌ، شُعثٌ، قِماء، غاضبون، من دون أن يعرفوا سبب ذلك. «ما هذا، طفلان!». قال أحدهم.

ونِلِه فكّرت بالأمر، لحُسن الحظّ. فكّرت بما قاله لها الصّبيُّ: «نكون في أمانٍ ما دُمنا الأسرعَ. إذا ركضتِ أسْرعِ من الآخرين، لا يمكن أن يمسّوكِ بسوءٍ». فغيّرت اتّجاهها فجأةً، وانطلقت راكضةً. لاحقاً، لم يعُد الصّبيُّ يعرف، وكيف له أن يعرف، فقد نسي كلّ شيءٍ، لماذا لم يركض هو أيضاً؛ ولكنْ هذا هو واقع الأمر، غلطةٌ واحدةٌ تكفي، ألّا تفهم أمراً ذات مرّةٍ، أنْ تبحلق أكثر من الجائز ذات مرّةٍ، وها هو أحدهم يضع يده على كتف الصّبيّ. انحنى فوقه. تفوح منه رائحة كحولٍ وفطرٍ. يريد الصّبيُّ أن يهرب، لكنّه تأخّر جدّاً، وبقيت اليَد حيث هي، واللص الثّاني إلى جانبه، والثّالث يلاحق نِلِه، لكنّه عاد بعد قليلٍ لاهثاً، لم يمسك بها طبعاً.

حاول الصّبيُّ أن يجعل اللصوص يضحكون، وقد تعلّم هذا من بيرمين المطروح على الأرض، على مسافة ساعةٍ من هنا، الذي ربّما ما زال حيّاً، وربّما كان سيقودهما على درب الغابة بطريقةٍ أفضل، فمعه لم يسبق أن صادفوا ذئاباً، أو أشراراً، ولا مرّة خلال المدّة الطّويلة معاً. إذنْ، حاول الصّبيُّ أنْ يُضحكهم، لكنّه لم ينجح، فهُم لا يريدون أن يضحكوا، إنّهم في غاية الغضب، ويتألّمون، فأحدهم جريح، وهو الذي سأله: «أمعك نقود؟». وفعلاً كان معه بعضُ النّقود، وأعطاه إيّاها. قال لهم إنّ في وسعه

أن يرقص من أجلهم، أو أن يمشي على يديه، أو أن يطيّر الكُرات، وكاد الفضول يغلبهم، لكنّهم لَحظوا أنّهم من أجل هذا سيضطّرّون إلى إفلاته، «وهُم ليسوا على هذه الدّرجة من الغباء». قال الذي كان يمسكه.

وعندها أدرك الصّبيُّ أنّه ليس في مقدوره فعل أيّ شيءٍ، سوى نسيان ما جرى؛ نسيانه حتّى قبل أن ينتهي: نسيان أيديهم، ووجوههم، وكلّ شيء. ألّا يكون هنا، حيث هو موجود، بلْ الأفضل إلى جانب نِله، وهي تركض إلى أن تتوقّف أخيراً، تستند إلى جذع شجرةٍ؛ كي تستردّ أنفاسها، ثمّ تسلّلت عائدةً، وهي تضبط تنفّسها مع شديد الحذر لئلّا ينكسر غصنٌ تحت قدميها، مختبئة بين الأدغال، فقد مرّ الثّلاثة من جانبها مترنّحين، ولم ينتبهوا إلى وجودها، وغادروا، لكنّها انتظرت قليلاً في مخبئها، قبل أن تجرؤ على الخروج والمشي في الدّرب نفسه الذي مشته مع الصّبيّ قبل حين، وعثرت عليه، وركعت إلى جانبه، وأدرك كلاهما أنّه لا بدّ من نسيان كلّ شيءٍ، وأنّ النّزيف لا بدّ من أنْ يتوقّف؛ لأنّ تيل ليس من الصّنف الذي يموت. «أنا مجبولٌ من هواء». قال تيل: «لن يحصل لي أيّ شيء». لا داعي للنّواح. كلّ شيءٍ ما زال يتعلّق بالحظّ. كان من المحتمل أن يكون الوضع أسوأ.

أنْ يَعلق المرء هنا في النّفق مثلاً، ربّما كان أسوأ؛ لأنّ هنا حتّى النّسيان لا يفيد. إذا نجح المرء في نسيان النّفق العالق فيه، فإنّه على الرّغم من ذلك يبقى في النّفق.

- «سأدخل الدّير». قال تيل: «إذا خرجنا من هنا. إنّي جادٌّ تماماً».

- «دير مِلْك؟». سأل ماتياس: «سبق أن زرته مرّة. الأوضاع هناك ممتازة».

- أنْدِكس. لديهم أسوارٌ منيعةٌ هناك. إنْ كان هناك مكان آمن ففي أندكس.

- أتأخذني معك؟

- «بكلّ سرور». فكّر تيل: «إذا أخرجتنا من هنا فسنذهب معاً»، وقال: «أنت يا غُراب البَيْن، من المؤكّد أنّهم هناك لن يدخلوك».

واتّضح له أنّ العكس هو الصحيح، العتب على الظّلمة. «كنتُ أمزح فقط». فكّر: «طبعاً سيستقبلونك»، وقال: «أنا أجيد الكذب!».

نهض تيل واقفاً. من الأفضل أن يحفظ لسانه. ظهرُه يُؤلمه، ولا يستطيع الوقوف على ساقه اليُسرى. على المرء أنْ يحمي قدميه؛

فليس لديه سوى اثنتين، وفي حال تأذّت إحداهما، فلن يستطيع السّير على الحبْل.

- «كان عندنا بقرتان». قال كورف: «الأكبر سنّاً كانت تدرُّ حليباً بصورةٍ جيّدةٍ». يبدو أنّه قد تورّط أيضاً في ذكرى. يستطيع تيل تخيُّل الصّورة أمامه: الدّار، المَرْج، الدُّخان المتصاعد من المدخنة، أب وأمّ، كلّ شيءٍ فقير وقَذِر، لكنّ كورف لم يعِشْ طفولةً أُخرى.

تلمّس تيل الجدار في عدّة مواضع: هنا الإطار الخشبيّ الذي ركّبوه قُبَيل الانفجار، في أعلاه هناك قطعة مكسورة، أمْ كان ذلك في أسفله؟ سمع كورف يبكي بصوتٍ خافت.

- «لقد سُرقت». قال كورف، وهو ينتحب: «سُرقت، سُرقت! الحليب الجيّد سُرق كلّه».

يُزحزح تيل قطعة صخرٍ في السّقف، غير ثابتةٍ، وتتحرّك من مكانها، فتتساقط أحجار.

- «كُفَّ عن هذا». قال ماتياس.

- «هذا ليس من فعلي، أُقسِم». أجاب تيل.

- «أمام ماغديبورغ خسرتُ أخي، طلقة في الرّأس». قال كورف.

- «أنا خسرت زوجي أمام براونشفايغ، كانت مع وحدة المؤونة والإمداد، أصابها الطّاعون مع الطّفلين أيضاً». قال ماتياس.

- ما كان اسمها؟

- «يوهانّا كان اسم الزّوجة. لم أعُد أذكر اسميّ الولدين». قال ماتياس.

- «أنا خسرتُ أختي». قال تيل.

تعثّر كورف، وهو يحوص، سمعه تيل إلى جواره، فتراجع ليتجنّبه. يُفضّل عدم الاصطدام به؛ فشخصٌ من نوع كورف لا يحتمل أن يصدمه أحد، فيضرب فوراً. انفجارٌ جديدٌ، وتساقط الأحجار من جديد، السّقف لن يحتمل طويلاً.

- «سوف ترى». قال بيرمين: «الموت ليس بهذا السّوء. ستعتاد عليه».

- «لكنّي لن أموت». قال تيل.

- «هذا جيّد». قال كورف: «وهذا هو الصّحيح، أيّها الهيكل العظميّ».

داس تيل على شيءٍ طريٍّ، لا بدّ من أنّه كورت، ثمّ اصطدم بجدارٍ من حصى خشنٍ، هنا انهار النّفق. أراد أن يحفر بيديه، فالأمر الآن سيَّان، الآن لا يجوز أن يوفّر المرء في الهواء، لكنّه اضطّرّ إلى السُّعال فوراً، والحصى لا يتحرّك. كورف كان مُحقّاً؛ بدون مِعْولٍ لا يمكن الحَفر.

- «لا تخفْ، لنْ تلْحظ الأمر». قال بيرمين: «عقلك تبلّد حتّى النّصف، وسرعان ما سيخذلك النّصف الباقي، عندها سيغشى عليك، وعندما تستيقظ تكون قد متّ».

- «سأتذكّرك». قال أوريغينس: «سوف أحقّق شيئاً في المستقبل، الخطوة التّالية هي أن أتعلّم الكتابة، وإذا أحببت، سأكتب كتاباً عنك، للأطفال وكبار السّنّ. ما رأيك بهذا؟».

- «ألا تريد أن تعرف شيئاً أبداً عن كيف سارت أموري؟». تسأله أمّه أغنيتا: «أنت وأنا، وأنا وأنت، كم مضى على ذلك؟ أنت حتى لا تعرف ما إن كنتُ حيّةً، يا صغيري».

- «لا أريد أن أعرف شيئاً». قال تيل.

- أنت خُنته مثلي. لا داعي لأنْ تغضب منّي. أنت سمّيته خادم الشّيطان، مثلي. سمّيته ساحراً، مثلي. أنت قلت مثلما قلتُ أنا.

- «إنّها مُحقّة ثانيةً». قال كلاوس.

- «ربّما، إذا عثرنا على المِعْول». قال ماتياس لاهثاً: «ربّما استطعنا بالمعول أنْ نُخلخله».

- «سواءٌ كنت حيّاً أم ميتاً، أنت تثقل كفّة الفارق كثيراً». قال كلاوس: «هناك كثيرٌ من الحُجرات بين الاثنين، كثيرٌ من الزّوايا المغبرّة، حيث لا تعود ما أنت عليه، ولا ما ستصير إليه بعد. كثيرٌ من الأحلام، التي لن تستطيع أن تستيقظ منها. لقد رأيتُ مِرْجلاً ممتلئاً بدمٍ يغلي فوق لَهبٍ حارّ، والظّلال ترقص حوله، وعندما يشير الأسْود العظيم إلى أحدها، علماً بأنّه لا يفعلها إلّا كلّ ألف سنة، عندها لا نهاية للصُّراخ، عندها يغطّس الظّلّ رأسه في الدّم ويشرب، أوتدري؟ هذه لم تكن جهنّم بعد، ولا حتّى المدخل إليها. لقد رأيت أماكن، حيث تشتعل الأرواح مثل المشاعل، ولكنْ بحرارةٍ أشدّ، وضوءٍ أقوى، وإلى الأبد، ومن دون توقّفٍ عن الصُّراخ؛ لأنّ آلامها لا تتوقّف، ولن تتوقّف. أنت تظنّ يا بنيّ أنّك تحْدِس ذلك، لكنّك لا تحْدِس شيئاً. أنْ تكون سجيناً في النّفق، حالٌ يماثل الموت تقريباً في ظنّك، أنّ الحرب هي الجحيم تقريباً، لكنّ الحقيقة هي أنّ كلّ شيءٍ عندك أفضل، هنا تحت أفضل، في الخارج في خِضمِّ المذبحة أفضل، على كرسيّ التّعذيب أفضل. إذنْ، لا تستسلم، تمسّك بالحياة».

ضحك تيل.

- «لماذا تضحك؟». سأله كورف.

- «إذاً، بُحْ لي بتعويذة». قال تيل: «أنت لم تكن في حياتك ساحراً جيّداً، ولكنّك لربّما تعلّمتَ شيئاً جديداً».

- «مع مَن تتكلّم؟»؟ سأله بيرمين: «ما مِن روحٍ هنا سواي».

انفجارٌ جديدٌ، تَلته أصواتُ تكسُّرٍ ورعْدٍ. أطلق ماتياس صرخة عواءٍ، لا بدّ من أنّ جزْءاً من السّقف قد انهار.

- «اتلُ صلاتك». قال آيزنكورت: «أنا كنت الضّحيّة الأولى، والآن جاء دور ماتياس».

قرفص تيل. سمع كورف يُنادي، لكنّ ماتياس لم يعُد يُجيب. أحسَّ بشيءٍ يمشي على خدّه، فعلى عنقه، ثمّ كتفه، يولِّد شعوراً مثل عنكبوتٍ، ولكنْ هنا لا توجد حيوانات، إذاً، لا بدّ من أنْ يكون دَماً. تلمّس وعثر على جرحٍ في جبينه، يبدأ عند منبت الشّعر، ويمتدّ إلى بداية الأنف. أحسَّ به طريّاً جدّاً، والدّم السّائل يشتدّ غزارةً، لكنّه لم يشعر بأيّ ألم.

- «يا ربّ، اغفر لي». قال كورف: «يا يسوع المسيح، اغفر لي. أيّتها الرّوح القُدس، لقد قتلت رفيقاً بسبب جزمة. جزمتي كانت ممتلئةً بالثّقوب، وكان مستغرقاً في نومه، كان هذا في المعسكر قرب مونيخ، ماذا كان يُفترض بي أن أفعل؟ كنت في حاجةٍ إلى جزمة، فمَددتُ يدي. خنقته، فتح عينيه، لكنّه لم يعُد قادراً على الصِّياح. كنت في حاجةٍ ماسّة إلى جزمة، وكان يملك ميداليّةً تصدُّ الطّلقات، كنت في حاجةٍ إليها أيضاً، فبسببها لم تصبني أيّة طلقةٍ، لكنّها لم تُسعفه ضدَّ الخنق».

- «هل أبدو مثل كاهن كنيسة؟». سأله تيل: «يمكنك أن تعترف لجدّتك، ودعني أنا لشأني».

- «يا سيّدي يسوع الحبيب». قال كورف: «في براونشفايغ أنقذتُ امرأةً من المحرقة، كانت ساحرةً، في أوّل الفجر، وكانت ستُحرق عند الظّهيرة. كانت شابّةً صغيرة. تسلّلتُ عابراً، لم يرَ أحدٌ شيئاً، كانت العتمة لا تزال مهيمنةً، قطعتُ قيودها بالسّكّين، وقلت لها: اهربي معي بسرعة! فأطاعت، وكانت شاكرةً جدّاً، ثمّ ضاجعتها بقدْر ما أردتُ، وقد أردت كثيراً، ثمّ ذبحتها ودفنتها».

- إنّي أغفر لك. قبل انقضاء هذا اليوم ستكون معي في الجنّة.

انفجارٌ جديد.

- «لماذا تضحك؟». سأله كورف

- لأنّك لن تدخل الجنّة، لا اليوم، ولا لاحقاً، فغُرابُ بَيْنٍ مثلك سيتأذّى حتّى الشّيطان من لَمسه، يُضاف إلى ذلك، أنا أضحك لأنّي لا أموت.

- «على العكس». قال كورف: «أنا لم أرِد أنْ أصدّق في البداية، لكنّنا لن نخرجَ من هنا أحياء. هذه نهاية كورف».

انفجارٌ جديدٌ، يزلزل كلّ شيء. يضع تيل يديه فوق رأسه، كأنّما هذا سيفيده شيئاً.

- ربّما كانت هذه نهاية كورف، ولكنّها ليست نهايتي. لن أموت اليوم.

قام بقفزةٍ، كأنّه يقف على الحبل. ساقه تؤلمه، لكنّه يقف بثباتٍ على قدميه. سقط حجرٌ على كتفه، زاد سيلانُ الدّم على خدّه. انفجارٌ جديدٌ، ومزيدٌ من حجارةٍ تتساقط: «ولن أموت غداً، ولا في أيّ يومٍ آخر. أنا لا أريد ذلك، هل سمعت؟».

كورف لم يُجبه، ولكنْ ربّما لا يزال يسمعه.

لذلك يصيح تيل: «لن أفعلها، سأذهب الآن، الوضع هنا لم يعُد يعجبني».

انفجارٌ، زلزلةٌ، يسقط حجرٌ آخر، ويلامس كتفه.

- سأذهب الآن. هكذا كنت أتصرّف دائماً؛ عندما يضيق الحال أذهب. لن أموت هنا. لن أموت اليوم. لن أموت!

فستفاليا

1

ما زالت تمشي منتصبة القامة كالسّابق. ظهْرُها يؤلمها دائماً تقريباً، لكنّها لم تسمح لذلك بأنْ يتبدّى عليها، وكانت تمسك بالعَصا، التي لا بدّ لها من أن تتعكّز عليها، كأنّها من توابع الموضة. مازالت تشبه لوحاتها الشّخصيّة القديمة، بلْ لقد تبقّى من جمالها ما يكفي، ليُربك مَن يلتقونها على نحوٍ غير متوقّع، كما الآن، عندما أزاحت قلنسوة الفِراء عن رأسها إلى الوراء، وتلفّتت حولها بنظرةٍ ثابتةٍ في القاعة الأماميّة، وبناءً على إشارةٍ متّفقٍ عليها مُسبقاً، أعلنت وصيفتها وراءها، أنّ صاحبة الجلالة ملكة بوهيميا ترغب في محادثة السّفير القيصري.

لقد رأت الخادمين في زيّهما الرّسميّ، وهُما يتبادلان النّظرات. يبدو أنّ الجواسيس هذه المرّة قد أخفقوا، فلا أحد هنا كان متهيّئاً لقدومها. تحت اسمٍ مستعارٍ غادرت دارها قُرب دِن هاغ، بوثيقة عبورٍ صادرةٍ عن برلمان الاتّحاد الهولنديّ باسم مدام دي كورْنوايِه. لم يكن في مرافقتها سوى حوذيّ العربة، ووصيفتها عندما سافرت عن طريق بِنتهايم، أولدِنزال، إبّنبورِن في اتّجاه

الشّرق عبْر حقولٍ متروكةٍ، وقرى محروقةٍ، وغاباتٍ مقطوعة الشّجر، وعبْر مناظر الحرب نفسها طوال الطّريق. لم يكن هناك فنادق، ما اضطرّهم إلى المبيت في العربة متمدّدين على مقعد الجلوس، وكان الأمر خطيراً، لكنّ عربةً صغيرةً لملكةٍ عجوزٍ لم تُثر اهتمام الذّئاب، ولا قطاع الطرق، وهكذا بلغوا بأمانٍ الطّريق المؤدّية من مونستر إلى أوزنابروك.

وفوراً تغيّر كلّ شيء. الأراضي كانت مزروعةً، وللدُور سقوفها السّليمة. ثمّة جدولٌ يدير دولاب طاحون. على جانبيّ الشّارع كانت هناك أكواخ حراسة، يقف أمامها رجالٌ بصحّةٍ وافرةٍ، وفي أيديهم رماحٌ ذات فؤوس. إنّها المنطقة المحايدة. هنا لم تدُر رحى الحرب.

أمام سور أوزنابروك كان هناك حارس، اقترب من نافذة العربة، وسأل عن مُرادهم. من دون أيّة كلمةٍ مدّت إليه الآنسة فون كوات، الوصيفة، وثيقة العبور، ومن دون كبير اهتمامٍ ألقى الحارس عليها نظرةً، وأعطاهم إشارة المتابعة، وأوّل مواطنٍ صادفوه على جانب الشّارع، وكان يرتدي ثياباً نظيفةً، ولحيته مُعتنى بها، دلّهم على الطّريق إلى مقرِ السَّفير القيصريّ، وهناك حملها الحوذيّ من العربة عبْر الأرض المُوحلة حتّى بوّابة المقرّ، ومن بعدها الوصيفة، من دون أن تُصاب ثيابهما بأيّ ضَرر. فتح

لهما البوّابة حارسان مزوّدان برُمحين من الفأس ذاتها، وبثقة من له هنا حقّ الملكيّة والتّصرُّف الحُرّ، حسْب المراسم سارية المفعول في أوروبا كلّها، يُعدُّ الملكُ الزّائرُ أيضاً سيّد الدّار، مشت إلى القاعة الأماميّة، في حين طلبت الوصيفة وراءها مقابلة السَّفير.

تهامس الخادمان، وتبادلا إشارات. عرفت ليز أنّ عليها استغلال المفاجأة. لا يجوز في أيٍّ من هذين الرّأسين أنْ تتشكّل فكرة إمكانيّة صدِّها.

مضى عليها وقتٌ طويلٌ لم تظهر فيه بصفتها ملكة، فمَن يسكن في منزلٍ صغيرٍ، ولا يزوره إلّا تُجّارٌ جاؤوا يطالبون بديونهم، لا يجد فرصة لذلك، لكنّها كانت ابنة أخت الملكة العذراء إليزابيت، وحفيدة ماريا ملكة اسكوتلندا، وابنة جايكوب حاكم المملكتين، وقد تدرّبت منذ طفولتها على الوقوف، والمشي، والنّظر كملكة، وهذه تُعدُّ صنعةً أيضاً، ومن يتعلّمها مرّةً لا ينساها.

الأمر الأكثر أهمّيّةً عدم الاستفسار، وعدم التّردُّد. عدم الإيحاء بنفاد الصّبر، وعدم إبداء أيّة حركةٍ قد توحي بالشّك. لا والداها، ولا حتّى زوجها المسكين فريدريش، الذي مضى وقتٌ طويلٌ على موته، لدرجة أنّها تضطّرّ إلى مشاهدة لوحاته الشّخصيّة كي

تتذكّر وجهه، كانوا يقفون بهذه الاستقامة، كأنّ الرّوماتيزم، والضّعف، والقلق لا ينالون منها.

وبعد أن وقفت برهةً منتصبة القامة، مُحاطةً بالهمْس والاندهاش، خطت خطوةً وأُخرى في اتّجاه مصراعيّ الباب المُطليّين بلونٍ ذهبيٍّ. مثل هذا الباب لا وجود له في منطقة فستفاليا، لا بدّ من أنّ أحدهم قد أحضره من مكانٍ بعيد، وكذلك اللّوحات على الجدران، والسّجّاد على الأرض، وستائر الدّامسكو، وأقمشة الجدران الحريريّة، والشّمعدانات الرّباعيّة، والثّريّات المثقلة بالكريستال المُدلّاة من السّقف، التي كانت شموعها كلّها مشتعلةً على الرّغم من ضوء النّهار. ما من دوقٍ، ولا أميرٍ، ولا حتّى بابا كان ليُحوِّل داراً بورجوازيّةً في مدينةٍ صغيرةٍ إلى مثل هذا القصر. ما كان ليفعل هذا إلّا ملك فرنسا، وقيصر ألمانيا.

خَطت نحو الباب من دون توقّف. لا يجوز أنْ تتردّد الآن، فأقصر نأمة اضطّرابٍ ستكون كافيةً لجعل الخادمين الواقفين على يمين ويسار الباب يتذكّران أنّ عدم فتح الباب لها أمرٌ وارد، وفي حال حدوث ذلك، يكون تقدُّمها قد صُدّ، وعندها ستضطّرّ إلى الانتظار على أحد الكراسي الوثيرة، وسيظهر أحدهم ليخبرها بأنّ السّفير -مع الأسف- لا وقت لديه، لكنّ سكرتيره سيكون بعد

ساعتين قادراً على مقابلتها، وسوف تحتجّ، وسيقول الخادم ببرودٍ، إنّه آسِفٌ، وسترفع صوتها، والخادم سيُكرّر قوله من دون تأثّر، وسترفع صوتها أعلى، فيتراكض خَدمٌ آخرون، وهكذا دفعة واحدة لا تعود ملكةً، بلْ امرأةً عجوزاً شاكية في القاعة الأماميّة.

ولهذا يجب أن تنجح؛ إذْ لن تكون هناك محاولة ثانية. على المرء التّحرُّك كأنّ الباب غير موجود، ولا يجوز أنْ يبطئ أمامه، على المرء أن يمشي كأنّه سيصطدم بالباب بكلّ قوّةٍ، إنْ لم يُفتح له، وبما أنّ الآنسة فون كوات تتبعها على مسافة خطوتين، فستصطدم الوصيفة إذاً بظهرها، وستكون المذلّة لا تُطاق؛ ولهذا السّبب بالتّحديد سيفتحون الباب، هذه هي الحيلة كلّها.

وقد نجحت. بوجهين ذاهلين أمْسك الخادمان بالأكرتين، وفتحا المصراعين. دخلت ليز إلى غرفة الاستقبال. التفتت إلى الوراء، وأمرت وصيفتها بإشارةٍ من يدها ألّا تتبعها. كان هذا غيرُ مألوفٍ؛ فالملكة لا تقوم بزيارةٍ عادةً من دون مرافقةٍ، لكنّ هذه أيضاً لم تكن حالةً طبيعيّةً، فتوقّفت الوصيفة مذهولةً، وأغلق الخادمان الباب أمامها.

بدا المكان شاسعاً، ربّما بسبب المرايا المرتّبة بحذق، ربّما كان ذلك أحد الأعمال الفنّيّة لساحر البلاط في فيينّا. بَدت الغرفة

على درجةٍ من الاتّساع، بحيث لا يستوعب المرءُ تماماً، كيف يمكن أن تتّسع لها الدّار. مثل صالةٍ في قصرٍ امتدّت الغرفة، وبحر من السّجّاد فصل بين ليز وبين طاولة مكتبٍ نائيةٍ، وهناك في البعيد كانت ستائر الدّامسكو مُزاحَةً جانباً، تفسح مجال الرّؤية لامتدادٍ مفتوح، لمزيدٍ من السّجّاد، ولمزيدٍ من الشّمعدانات الذّهبيّة، ولمزيدٍ من الثّريّات واللّوحات.

نهض من وراء طاولة المكتب سيّدٌ قصير القامة بلحيةٍ وَخَطَها الشَّيْبُ، وبدا مظهرهُ عاديّاً جدّاً، إلى درجة أنّ ليز احتاجت إلى برهةٍ حتّى لَحظت وجوده. خلع قبّعته، وأدّى انحناءة تحيّةٍ بلاطيّة.

- «أهلاً بكِ». قال: «آمَلُ يا مدام أنّ الرّحلة لم تكن مُتعبةً».

- أنا إليزابيت، ملكة.

- عذراً للمقاطعة، فقط من أجل تخفيف الجهد عن صاحبة السُّموّ. لا حاجة للإيضاحات، فأنا في الصّورة.

استهلكت ليز بعض الوقت حتّى فهمت ما قاله. أخذت نفساً عميقاً لتسأله، من أين له معرفة من تكون، لكنّه كان أسرع منها ثانيةً.

- لأنّ هذا اختصاصي، مدام، أنْ أعرف الأمور، وواجبي أنْ أفهمها.

قطّبت جبينها. شعرت بحرارةٍ، وهذا يعود جزئيّاً إلى معطف الفراء السّميك، ويعود ما تبقّى إلى أنّها غيرُ مُعتادةٍ على أنْ يقاطعها أحد. وقف الآن مُنحنياً إلى الأمام، يده اليسرى على الطّاولة، واليُمنى وراء ظهره، كمن أصيب فجأةً بألمٍ أسفل ظهره. توجّهت بسرعةٍ إلى أحد الكراسي أمام طاولة المكتب، ولكنْ كما في حُلمٍ، بَدا المكانُ واسعاً جدّاً، والطّاولة بعيدةً جدّاً، بحيث أنّها ستستغرق وقتاً حتّى تصل إليها.

بما أنّه قد خاطبها بصاحبة السُّموّ، فهذا يعني، أنّه يُقدِّر منزلتها بوصفها عضواً في العائلة الملكيّة الإنجليزيّة، لكنّه لا يعترف بها بصفتها ملكة بوهيميا، وإلّا لتوجّب عليه مخاطبتها بصاحبة الجلالة؛ وهو حتّى لا يعترف بها بصفتها الأميرة النّاخبة، وإلّا لخاطبها بلقب صاحبة السُّموّ الرّفيع، النّادر هناك في الوطن الإنجليزيّ، في حين أنّه في الرّايخ هنا أرْفع من سُموّ ابن الملك. ولأنّ هذا الرّجُل بالتّحديد يفهم عمله، فمن المهمّ أنْ تجلس قبْل أنْ يطلب إليها ذلك، فبينما من الطّبيعيّ من ناحيته أنْ يعرض على أميرةٍ الجلوس، فإنّ هذا ليس من حقّه تُجاه ملكةٍ، فالملوك

يجلسون من دون أن يُطلب إليهم ذلك، ويبقى الجميع وقوفاً، إلى أنْ يسمح لهم الملك بالجلوس.

- أتريد صاحبة السُّموّ..

ولكنْ بما أنّ الكرسيّ لا يزال بعيداً، قاطعته.

- هل أنت مَن أظنّ أنّك إيّاه؟

جعله هذا يصمت لحظةً؛ من جهةٍ لأنّه لم يتوقّع أن تكون ألمانيّتها بهذه الجودة. لقد استفادت من وقتها، فلم تُمضِ السّنوات في كسلٍ، بلْ تلقّت دروساً في اللّغة الألمانيّة من شابٍّ ألمانيٍّ وسيمٍ وودودٍ، لاقى إعجابها وكادت تعشقه، لطالما رأته في أحلامها، حتّى إنّها شرعت مرّةً في صياغة رسالةٍ إليه، لكنّ هذا لم يكن ممكناً؛ إذْ لا يجوز لها أن تعرّض نفسها إلى فضيحة، وصمتَ من جهةٍ أُخرى؛ لأنّها جرحت شعوره، فالسّفير القيصريّ يجب أن يخاطب بسَعادة السَّفير، من قِبَل الجميع، إلّا من ملك. كان عليه في الحديث معها إذن، أن يُصرَّ على صيغة خطابٍ، لن تسمح له به بأيّ حال من الأحوال، وليس لهذه المشكلة سوى حلٍّ واحدٍ: مَن كانت مثلها لا يجوز أن تلتقي بمن كان مثله أبداً.

وعندما أوشك على معاودة الكلام، غيّرت اتّجاهها، وذهبت إلى كرسيٍّ بلا ظهرٍ، وجلست، فسَبقته. استمتعت بهذا النّصر

الصَّغير، سَندت عصاها إلى الجدار، وشبكت أصابعها في حِجْرها، ثمّ رأت نظرته.

دَهَمها إحساسٌ جليديٌّ، كيف كان لها أن تقع في مثل هذه الغلطة؟ لا بدّ من أنّ السّبب في ذلك هو أنّها خارج الممارسة منذ سنوات. طبعاً ما كان لها أنْ تبقى واقفةً، ولا السّماح له بأنْ يعرض عليها الجلوس، ولكنْ أن تجلس على كرسيٍّ بلا ظهرٍ، ما كان يجوز لهذا أنْ يحدث معها أبداً، فهي بصفتها ملكة، لها الحقّ حتّى في حضور القيصر بالجلوس على كرسيٍّ بظهرٍ، ومسْندَيْ ذراعين، حتّى إنّ الكنبة تُعدُّ إذلالاً؛ أمّا على كرسيٍّ بلا ظهر، فهذا مستحيل، وقد كان السّفير حريصاً على وضع هذا النّوع من الكراسي في أطراف غرفة الاستقبال جميعها، ولا يوجد كرسيٌّ بظهرٍ إلّا وراء طاولة المكتب.

ماذا كان يُفترض بها أن تفعل؟ ابتسمت وقرّرت أن تتظاهر بأنّ الأمر لا أهمّيّة له، لكنّه الآن متفوّقٌ عليها: لن يحتاج إلى أكثر من استدعاء الموجودين في القاعة الأماميّة، والإعلان أمامهم بأنّها في حضوره قد جلست على كرسيٍّ بلا ظَهرٍ، وسينتشر الخبر كالنّار في الهشيم عبْر أوروبّا، حتّى في الوطن، إنجلترا، سيضحك النّاس.

- «هذا يتعلّق بما تشائين سُموّك أنْ تظنّي». قال السَّفير: «ولكنْ بما أنّه لا يحقُّ لخادمك المتواضع أن يفترض أنّ صاحبة السُّموّ قد تفترض ما يُغاير الصّحيح، فإنّه لا يحقُّ لي ثانيةً الإجابة عن سؤال صاحبة السُّموّ بنعم وحسْب. أنا هو، يوهان فون لامْبيرغ، سفيرُ القيصر في خدمة سُموّك. أترغبين بشرابٍ مُنعشٍ؟ بنبيذ؟».

وهذه كانت أيضاً إساءةً حاذقةً أُخرى إلى كرامتها كملكةٍ، فالمضيف لا يعرض على الملك شيئاً؛ لأنّ للملك الزّائر حقّ الملكيّة والتّصرُّف الحُرّ، فهو الذي يطلب ما يشاء، وهذه الأمور كانت مهمّة. لقد أمضى السُّفراء ثلاث سنواتٍ في التّفاوض فقط حول مَن عليه أن ينحني لِمَن، ومن عليه أن يخلع قبّعته لِمَن أوّلاً. إنّ مَن يرتكب خطأً في قواعد اللّياقة، لا يمكنه أن يكسب، وبناءً على ذلك أهملت عَرْضه، الأمر الذي كان صعباً؛ لأنّها كانت في غاية العطش. جلست ساكنةً على الكرسيّ الذي لا ظَهْرَ له، وأخذت تتأمّله، وكانت تتقن ذلك. لقد تعلّمت الجلوس بهدوءٍ، ولديها خبرةٌ في ذلك، على الأقلّ لم يتفوّق عليها أحدٌ في هذا.

أمّا لامبيرغ فما زال في وضعيّة الانحناء احتراماً، يدٌ على الطّاولة، والأُخرى وراء ظهره، ومن الجليّ أنّه يفعل ذلك كي لا يضطّرّ إلى حسم أمره بين أنْ يجلس، أو أنْ يبقى واقفاً، ففي حضور ملكةٍ

لا يجوز له الجلوس؛ أمّا في حضور أميرةٍ، فإنّ بقاءه واقفاً يُعدُّ خرقاً لقواعد اللّياقة القيصريّة، إذا كانت هي جالسة، وبما أنّه بصفته سفير القيصر لا يعترف بلقب مَلكيّة ليز، سيكون مقنعاً أنْ يجلس، ولكنْ في الوقت نفسه سيكون في الأمر إهانة فظّة، يتجنّبها بهذا الأسلوب، انطلاقاً من المجاملة، ولأنّه لا يعرف بعْد ما في يديها من أسلحةٍ وعُروض.

- «من بعد إذنكِ، إذا سمحتِ، لديّ سؤال». ودفعةً واحدةً أحسّت ليز أنّ طريقته في الكلام لا تُطاق مثل نبْره النّمساويّ.

- «كما تعرفين يا صاحبة السُّموّ، وأنتِ خيرُ مَن يعرف، ينعقد هنا مؤتمر المبعوثين، ومنذ بدء المفاوضات لمْ يطأ أيُّ رأسٍ أميريٍّ مهدور دَمُه مدينتيْ: مونستر وأوزنابروك، ومهما كان خادمكِ المُطيع سعيداً باستقبال الزّيارة الكريمة لسموّك، والتّرحيب بها في داره المُتواضعة، فإنّه يشعر بالدّرجة نفسها...». وتنهّد كأنّ ما سيقوله يقلقه جداً: »... أنّ الأمر لا يليق».

- تعني أنّه كان علينا نحن أيضاً أنْ نُرسل مبعوثاً.

ابتسم ثانيةً. كانت تعرف بماذا يفكّر، وكانت تعرف أنّه يعرف ذلك: «أنتِ لا أحد، أنت تقيمين في دارٍ صغيرةٍ، ديونك تغمركِ لما فوق رأسك، أنتِ لا يحقّ لكِ إرسال مبعوثٍ إلى المؤتمر».

- «أنا لست هنا على الإطلاق». قالت ليز: «وهكذا يمكننا تبادل الحديث، أليس كذلك؟ يمكنك تصوّر الحال كمونولوجٍ فرديٍّ، تقول أفكارك بصوتٍ عالٍ، وأنا أجيبك من داخل أفكارك».

أحسّت بشيءٍ لم تحسب له حساباً؛ لقد صرفت وقتاً طويلاً في التّحضيرات، وفي التّفكير، وخافت من هذه المقابلة، والآن، بعد أنْ قطعت هذا الشّوط، حدث ما يلفت الانتباه: كان الأمر مُسلّياً، تلك السّنوات كلّها في الدّار الصّغيرة، بمنأى عن الأشخاص المشهورين، والأحداث المهمّة، وها هي دفعةً واحدةً تجلس كما في مسرحٍ، مُحاطةً بالذّهب، والفضّة، والسّجّاد، وهي تحاور إنساناً ذكيّاً، لكلّ كلمةٍ في حضوره ثقلها.

- «جميعنا نعرف أنّ إمارة بفالتس تشكّل نقطة خلافٍ دائمٍ أيضاً». قالت: «تماماً مثل حقّ انتخاب القيصر، الحقّ الذي كان يملكه زوجي المُتوفّى».

ضحك لامبيرغ ضحكةً خافتةً.

أرْبكها هذا، وهذا هو مُبتغاه تماماً، ولهذا بالتّحديد لا يجوز لها أن تحيد عن هدفها.

- «الأمراء النّاخبون في الرّايخ». قالت ليز: «لنْ يقبلوا أنْ يحتفظ آل فيتلزباخ البافاريون بهذا الحقّ، الذي انتزعه القيصر من

زوجي بطريقةٍ غير قانونيّة، وسيقولون: إذا كان سيزار يستطيع تجريد أحدنا من حقّه، فيمكنه أن يفعلها معنا جميعاً، وإذا نحن...»

- من بعد إذنكِ، لقد قبلوا بذلك منذ وقتٍ طويل. زوجك يا صاحبة السُّموّ، وأنتِ أيضاً، كنتما تحت البنْد الثّامن من قانون الرّايخ؛ أيْ: إنّ دَمكما كان مهدوراً، الذي يُلزِمني، بالمناسبة، في أيّ مكانٍ آخر باعتقالك.

- لهذا كان لقاؤنا معك هنا، وليس في أيّ مكانٍ آخر.

- من بعد إذنكِ...

- سآذن لك، ولكنْ بعد أن تسمع ما لديّ. إنّ دوق بافاريا، الذي يُسمّي نفسه أميراً ناخباً، يحمل ضدّ القوانين كلّها لقب زوجي. ليس من حقّ القيصر سحْب الاعتراف بحقّ الأمير النّاخب. الأمراء النّاخبون ينتخبون القيصر؛ أمّا القيصر، فلا ينتخب الأمراء النّاخبين، لكنّنا نفهم الوضع، القيصر مدينٌ ماليّاً لبافاريا، وبافاريا استعادت السّيطرة على الجماعات الكاثوليكيّة تماماً، ولهذا السّبب أقدّم عَرْضي، أنا ملكة بوهيميا المتوّجة، والتّاج...

- من بعد إذنك، لشتاءٍ واحدٍ فقط قبل ثلاثين...

-... سيَرثه ابني.

- تاج بوهيميا لا ينتقل بالوراثة. لو كان وراثيّاً، لما تمكّن قادة الطّبقات العُليا في بوهيميا من عرضه على كونت بفالتس فريدريش، زوجك يا صاحبة السّموّ، وكونه قَبِل التّاج، يعني أنّه يعرف أنّ ابنكِ، يا صاحبة السّموّ، لا يحقّ له المطالبة به.

- يمكن رؤية الأمر من هذه الزّاوية، ولكنْ هل هذه الرّؤية مُلزِمة؟ إنجلترا قد لا تراها كذلك، فإذا طالب ابني بالتّاج، فإنّ إنجلترا سوف تدعمه.

- في إنجلترا تسود حربٌ أهليّة.

- صحيح، وإذا عُزِل أخي من قِبَل البرلمان، فسيُعرض التّاج البريطانيّ على ابني.

- هذا في الحدّ الأدنى غير وارد.

في الخارج صدحت أصوات ترومبونات: نداءٌ نحاسيٌّ تصاعد، وعلق في الهواء لبرهةٍ، ثمّ تلاشى. رفعت ليز حاجبيها متسائلةً.

- «إنّه لونغفيل، زميلي الفرنسيّ». قال لامبيرغ: «يجعل الآلات النّحاسيّة تُحيّيه، عند جلوسه لتناول الطّعام كلّ يومٍ. حاشيته هنا تبلغ ستّمئة رجُلٍ، منها فقط أربعة رسّامي بورتريه، يرسمونه

باستمرار، وثلاثة نحّاتي خشب، ينحتون تماثيل نصفيّة له. ما سيفعله بهذا كلّه، سيبقى سرّاً من أسرار الدّولة.

- هل سألته عن الأمر؟

- لسنا مخوّلين لتبادل الحديث.

- أليس هذا مُعيقاً في عملية التّفاوض؟

- لسنا هنا كأصدقاء، ولا كي نصبح أصدقاء. سفير الفاتيكان يتوسّط بيننا، كما يتوسّط سفير فينيسيا بيني وبين البروتستانتيّين؛ لأنّ سفير الفاتيكان ليس مخوّلاً بدوره للكلام مع بروتستانتيّين، والآن، أنا مضطّرٌّ إلى توديعك، مدام، التّشرف بهذا الحوار عظيمٌ، ولا أستحقّه، إلّا أنّ واجبات مُلحة تستدعيني.

- حقّ انتخابٍ ثامن.

رفع نظره إليها. التقت نظراتهما لحظةً فقط، ثمّ أعاد نظره إلى الطّاولة.

- «ليحتفظ البافاري بلقب حقّ الانتخاب». قالت ليز: «ونحن نستغني شكليّاً عن بوهيميا، وإذا...».

- من بعد إذنك، لا يمكن لصاحبة السّموّ أنْ تستغني عن شيءٍ لا يخصّها.

- الجيش السُّويديُّ على مشارف براغ. قريباً ستعود المدينة إلى أيدي البروتستانتيّين.

- السُّويد في حال استيلائها على المدينة، فإنّها حتماً لن تعطيكِ إيّاها.

- قريباً ستنتهي الحرب، ثمّ سيُعلن عفوٌ عام، وسيُغفر الخَرْق... الخَرْق المزعوم لقانون سلام الرّايخ، الذي اقترفه زوجي.

- مفاوضات العفو العام انتهت منذ مدّة، سيُعفى عن الأفعال الحربيّة جميعها، باستثناء أفعال شخصٍ واحد.

- أستطيع تخمين مَن يكون.

- «هذه الحرب غير النّهائيّة بدأت مع زوجك يا صاحبة السّموّ، مع كونت إمارة بفالتس، الذي أراد تسلّق ذروةٍ لا قدرة له عليها. أنا لا أقول إنّك تحملين الوِزْر، ولكنْ في وسعي تصوّر أنّ ابنة جايكوب الكبير لم تحاول نهائيّاً كبْح جِماح الزّوج، ودعوته إلى التّواضع». سحب لامبيرغ ببطءٍ كرسيّه إلى الوراء، واعتدل في وقفته: «لقد طال أمدُ الحرب جدّاً، إلى حدّ أنّ غالبية الأحياء

اليوم لا تعرف حياة السِّلْم، إلى حدّ أنّ العجائز فقط ما زالوا يتذكّرون السِّلْم. أنا وزملائي، أجل، والغبيُّ الذي يأمر بنفخ الأبواق كلّما أراد الجلوس إلى المائدة، نحن الوحيدون القادرون على إنهائها. كلّ طرفٍ يريد مناطق لا يريد الطّرف الآخر التّنازل عنها بأيّ حالٍ من الأحوال، وكلّ طرفٍ يُطالب بدعمٍ ماليٍّ، وكلّ طرفٍ يريد إلغاء اتفاقيّات المساعدات، والأطراف الأُخرى تريد عَدَّها غير قابلةٍ للإلغاء، كي تحلَّ محلّها اتّفاقيّاتٌ جديدةٌ، يعدُّها الآخرون غير مقبولة. إنّ ما يجري هنا يفوق طاقات أيّ إنسانٍ بمراحل، وعلى الرّغم من ذلك، لا بدّ لنا من أنْ ننجزه. أنتم بدأتم هذه الحرب، مدام، وأنا سأنهيها».

شدَّ شريطاً حريريّاً مُدلّى فوق الطّاولة. سمعت ليز من الجوار رنين جرسٍ؛ إنّه يستدعي سكرتيراً. فكّرت: أحد الأقزام الشّيب ليقودها إلى الخارج. أحسّت بدوخةٍ، وخُيّل إليها أنّ المكان يرتفع ويهبط، كأنّها على مَتْن سفينة. لم يسبق قطّ أنْ كلّمها أحدٌ بهذه الطّريقة.

شدّت انتباهها حزمةُ ضوءٍ ساقطةٌ عبْر شقٍّ بين السّتائر، كانت تدوِّم فيها ذرّات غُبار، وقد تلقّتها مرآةٌ على الجدار المقابل، ورمتها إلى الجدار الآخر، حيث جُعلت جزءاً من إطار لوحةٍ يلمع. كانت اللّوحة للفنّان روبنز: امرأةٌ طويلة القامة، ورجُلٌ يمسك رُمحاً،

فوقهما طائرٌ في زرقة السّماء. كانت تُشيع شيئاً من مرحٍ يتراقص في الهواء. إنّها تذكر روبنز جيّداً، كان رجُلاً حزيناً، يتنفّس بصعوبةٍ مسموعة. أرادت أن تشتري إحدى لوحاته، لكنّ سعرها كان باهظاً بالنّسبة إليها؛ لم يبدُ أنّ ثمّة ما يهمُّه سوى المال، فكيف كان قادراً على الرّسم هكذا؟

- «براغ لم تكن قطّ لنا». قالت: «براغ كانت غلطةً، لكنّ إمارة بفالتس من حقّ ابني حسْب قانون الرّايخ. لم يكن من حقّ القيصر أن يجرّدنا من حقّ الانتخاب؛ لهذا السّبب لم أرجع إلى إنجلترا. لقد دعاني أخي أكثر من مرّةٍ إلى العودة، لكنّ هولندا مازالت رسميّاً جزءاً من الرّايخ، وما دمتُ مقيمةً هناك، فإنّ حقّنا لا يزال قائماً».

انفتح بابٌ، ودخل رجُلٌ بدينٌ ذو وجهٍ ودودٍ، وعينين ذكيّتين. نزع قبّعته وانحنى مُحيّياً، وعلى الرّغم من شبابه لمْ يتبقّ الكثير من الشَّعر في رأسه.

- «الكونت فولكنشتاين». قال لامبيرغ مقدّماً إيّاه: «فارس السّفارة. سوف يؤمّن لكِ مكان مَبيت. لم يعُد لدينا غرف ضيافةٍ، كلّ زاويةٍ في المدينة امتلأت بالمبعوثين وحواشيهم».

- «نحن لا نريد بوهيميا». قالت ليز: «لكنّنا لنْ نتخلّى عن حقّ انتخاب إمارة بفالتس. إنّ ابني البِكْر الذي كان ذكيّاً وجديراً بالمحبّة، والذي كان الجميع سيوافقون عليه، مات، انقلبت العبّارة وغرق».

- «يؤسفني هذا!». قال فولكنشتاين ببساطةٍ حرّكت مشاعرها.

- اِبني الثّاني، التّالي في وراثة العرش، ليس ذكيّاً، وليس جديراً بالمحبّة، لكنّ إمارة بفالتس وحقّها الانتخابيّ من حقّه، وفي حال أنّ بافاريا لن تُعيدها، فلا بدّ من إيجاد حقٍّ انتخابيٍّ ثامن. لن يصبر البروتستانت على وضعٍ مُغايرٍ، وإلّا فإنّي سأرجع إلى إنجلترا، حيث سيقوم البرلمان بعزل أخي، وتتويج ابني، الذي سيطالب ببراغ، وهو جالسٌ على العرش الإنجليزيّ، والحرب لن تنتهي، أنا سأمنع ذلك، أنا وحْدي.

- «لا داعي لاستثارة بعضنا بعضاً». قال لامبيرغ: «سأنقل رسالة سموّك إلى صاحب الجلالة القيصر».

- ولا بدّ للعفو العام من أنْ يشمل زوجي أيضاً. إذا كانت الأفعال الحربيّة جميعها سوف تُغفر، فيجب أن تُغفر أفعاله أيضاً.

- «ليس في هذه الحياة». قال لامبيرغ.

نهضت واقفةً، والغضب يغلي في داخلها. أحسّت بأنّها قد تضرّجت احْمراراً، لكنّها تمكّنت على الرّغم من ذلك من الحفاظ على زاويتي فمها مرفوعتين، وأنْ تستند إلى عصاها، وتلتفت نحو الباب.

- «إنّه لشرفٌ عظيمٌ غير متوقّع. ألق في هذه الدّار المتواضعة». نزع لامبيرغ قبّعته، وانحنى احتراماً. لم يكن في صوته أيّ أثرٍ للسُّخرية.

رفعت يدها بتلويحة ملكية متراخية وتابعت مشيها دونما كلمة.

تجاوزها فولكنشتاين، وصل إلى الباب ونقر عليه بإشارة معينة – فوراً فتح الخادمان من الخارج المصراعين. تقدمت ليز إلى القاعة الأمامية يتبعها فولكنشتاين، وتوجها نحو المخرج قبل الوصيفة.

- «فيما يتعلّق بالمبيت يا صاحبة السّموّ الملكيّ». قال فولكنشتاين: «يمكننا أن نعرض...».

- لا داعي لأنْ تجهد نفسك.

- لا جهد في هذا، إنّما شرفٌ كبيرٌ...

- أتعتقد جادّاً أنّي أرغب في المبيت في أيّ مكانٍ يعجُّ بجواسيس القيصر؟

- لأكون صادقاً: سيَّان، حيثما أقمتِ يا صاحبة السّموّ الملكيّ، سيكون المكان ممتلئاً بالجواسيس، لدينا الكثير منهم. إنّنا نخسر في ساحات المعارك، ولم يتبقّ كثيرٌ من الأسرار، فماذا على جواسيسنا المساكين أن يفعلوا طوال النّهار؟

- القيصر يخسر في ساحات المعارك؟

- «أنا بنفسي كنتُ مؤخّراً في المَعْمعة، تحت في بافاريا. إصبعي ما زال هناك!». رفع يده، وحرّك القفّاز، ليُريها أنّ غلاف السّبّابة اليمنى فارغ: «لقد خسرنا نصف جيشنا. إنّكِ لم تأتِ في وقتٍ غير مناسبٍ يا صاحبة السّموّ الملكيّ. إنّنا لا نُقْدِم على تنازلاتٍ أبداً ما دُمنا أقوياء».

- الوقت مناسب؟

- الوقت -دائماً- مناسب، إذا بدأ المرء على نحوٍ صحيح. رفِّه عن نفسك بنفسك، ولا تبالي بما يُؤسف له؛ إذْ سرعان ما سيتآمر الزّمان عليكِ والمكان أيّتها السّعادة.

- ما هذا، عفواً؟

- كان هذا قولاً لشاعرٍ ألمانيّ. صار لدينا منهم الآن، الشّعراء الألمان. اسمه باول فلمينغ، قصائده تُبكي من عُمق جمالها، مات شابّاً مع الأسف، بمرض الرّئتين. لا يجرؤ المرءُ على تصوّر ما كان ليصير إليه. بسببه صرتُ أكتب بالألمانيّة.

ابتسمت: «قصائد؟»

- نثر.

- حقّاً، بالألمانيّة؟ حاولتُ مرّةً أن أقرأ مارتين أوبيتس...

- أوبيتس!

- أجل، أوبيتس.

ضحكا كلاهما.

- «أعرف، يبدو الأمر من قبيل الحماقة». قال فولكنشتاين: «لكنّني أعتقد أنّ الأمر سينجح، وقد قرّرت أن أدوِّن ذات يومٍ حياتي بالألمانيّة؛ لهذا جئت إلى هنا. سيأتي يومٌ يريد النّاس فيه أن يعرفوا كيف جرت الأمور في المؤتمر العظيم، لقد جئتُ بلاعب خفّةٍ من دير أندِكس إلى فيينّا، أو بالأحرى هو الذي أوصلني، لولاه لكنتُ ميتاً، ولكنْ عندما أرسله القيصر بعدئذٍ ليرفّه عن المبعوثين هنا بعُروضه، انتهزتُ الفرصة، وجئت معه».

أعطت ليز إشارةً لوصيفتها، فانطلقت لتأتي بالعربة. كانت في الواقع عربةً جميلةً، وسريعةً، ولائقةً بالمقام نوعاً ما، استأجرتها ليز بآخر مدّخراتها لمدّة أسبوعين، مع جوادين قويّين وحوذيٍّ موثوق؛ هذا يعني أنّ في وسعها البقاء في أوزنابروك ثلاثة أيّام، وستضطرّ بعدها إلى العودة إلى دارها.

خرجت إلى العراء، ورفعت قلنسوة معطف الفراء فوق رأسها. هل نجحت في مسعاها؟ إنّها في واقع الأمر لا تدري. كان لديها أكثر بكثير لتقوله، والكثير أيضاً لتسوس الأمور من زوايا مختلفة، لكنّ الأمور على ما يبدو تجري على هذا النّحو دائماً. أبوها قال مرّةً: إنّ المرء لا يستطيع استعمال سوى جزءٍ يسيرٍ من أسلحته.

اقتربت العربة، وهي تطقطق. ترجّل الحوذيُّ. التفتت إلى الوراء وعرفت بأسفٍ حقيقيٍّ أنّ فارس السّفارة البدين لم يتبعها إلى العراء؛ كان بودّها أن تتابع الحديث معه قليلاً.

أمسك بها الحوذيُّ من جانبيْ خصرها، وحملها إلى العربة.

2

قبل ظُهْر اليوم التّالي قصدت ليز السّفير السُّويديّ، وفي هذه المرّة أعلنت مُسبقاً عن زيارتها، فالسُّويد كانت دولةً صديقةً، ولا داعي لمفاجأتها، وسوف يبتهج السّفير بلقائها.

كانت اللّيلة مريعةً. بعد بحثٍ طويلٍ وجدوا غرفةً في نُزُلٍ قذرٍ جدّاً: لا يوجد نوافذ، والأرض مفروشة بأغصانٍ جافّةٍ، وعوضاً عن السّرير فراش تبنٍ ضيّق، اضطّرّت إلى أن تتقاسمه مع الوصيفة. وأخيراً، بعد ساعاتٍ من النّوم القلِق، جاءها فريدريش في المنام، وكانا معاً في هايدلبرغ ثانيةً، كما آنذاك، وأمامهما أناسٌ بأسماءٍ عسيرة اللّفظ، يُلحّون عليهما لقبول تاج بوهيميا. مشيا متجاورين عبْر أحد أروقة القصر الحجريّة، وشَعرا في أعماق روحيهما بطمأنينة انتماء أحدهما إلى الآخر. عندما استيقظت، سمعت شخير الحوذيّ النّائم في الخارج وراء الباب، وفكّرت في أنّه قد مضى عليها من دون فريدريش حتّى الآن بقدْر السّنوات التي أمضتها زوجةً له.

عندما دخلت القاعة الأماميّة في السّفارة، كبحت تثاؤباً دَهمها؛ فقد نامت قليلاً جدّاً. هنا أيضاً يوجد سجّاد؛ أمّا الجدران، فكانت عاريةً وفق التّقشّف البروتستانتيّ، ولكنْ على الجدار

الأطول عُلّق صليبٌ مزدانٌ بلآلئ. كانت القاعة ممتلئةً بالنّاس: بعضهم يدرس ملفّات، وبعضهم الآخر يمشي بقلقٍ جيئةً وذهاباً، يبدو أنّهم ينتظرون منذ وقتٍ طويل. ما السّبب يا ترى في أن قاعة لامبيرغ الأماميّة كانت خاويةً من النّاس؟ هل لديه قاعةٌ أُخرى، أو ربّما عدّة قاعات؟

العيون جميعها التفتت إليها، وحلَّ صمتٌ، وكما البارحة، مشت بخطواتٍ ثابتةٍ نحو الباب، ومن ورائها ترفع وصيفتها صوتها، الحادّ جدّاً، وهي تُعلن: «ملكة بوهيميا هنا». وفجأةً، انتابتها خشيةٌ متوتّرةٌ بأنّ الأمر لن يمضي على خيرٍ هنا.

وفعلاً، لم يمدَّ الخادمُ يده إلى قبضة الباب.

بنصف خطوةٍ بشعةٍ تمكّنت من التّوقّف عند الباب تماماً، مع الاضطّرار إلى أن تسند يدها إليه، وسمعت كيف كادت الوصيفة تعثر وراءها. دَهمتها سخونةٌ. سمعت تهامساً، وسمعت وشوشاتٍ، وسمعت ضحكاتٍ ساخرةً أيضاً.

بهدوءٍ تراجعت خطوتين، ولحُسْن الحظّ كانت الوصيفة سريعة البديهة، فتراجعت خطوتين أيضاً. أحكمت ليز قبضتها بعصبيّةٍ على يد عكّازها ونظرت إلى الخادم بابتسامتها الودودة.

بَحْلق الحارس ببلاهةٍ. طبعاً، لم يخبره أحدٌ بأنّ هناك ملكة لبوهيميا، كان شابّاً، لا يعرف شيئاً، ولم يشأ أن يجازف بارتكاب غلطةٍ، سيلومه الجميع عليها.

ولكنّها لا يمكن ببساطةٍ أن تجلس، فالملكة لا تبقى منتظرةً في قاعة الانتظار إلى أن يتفرّغ أحدهم لها. كانت هناك أسبابٌ موجبةٌ لعدم مجيء الرّؤوس المتوّجة إلى مؤتمر المبعوثين، ولكنْ ماذا كان يُفترض بها أنْ تفعل غير ذلك؟ ابنها الذي تكافح في سبيل حقّه الانتخابيّ، كان متجبّراً، وبلا خبرةٍ، ومن المؤكّد أنّه كان سيفسد كلّ شيءٍ، وليس لديها دبلوماسيّون.

شكرت ربّها من كلّ قلبها عندما فتح أحدهم الباب من الجانب الآخر. امتدّ رأسٌ من الفتحة. كانت إحدى العينين أعلى من الأخرى، وكان الأنف تحتهما مائلاً على نحوٍ غريب، والشّفتان كانتا ممتلئتين، لكنّهما بَدتا غير منسجمتين معاً، وعلى ذقنه نبتت لحيةٌ مُدبّبةٌ شعثاء.

- «يا صاحبة الجلالة». قال الوجه.

دخلت ليز، وأغلق الرّجُل الأعوجُ البابَ وراءها بسرعةٍ، كمن يتجنّب تسلّل آخرين وراءها.

- «ألفيزِه كونتاريني، في خدمتكِ». قال بالفرنسيّة: «سفير جمهورية فينيسيا. أنا أقوم هنا بالوساطة. تفضّلي».

قادها عبْر دهليزٍ ضيّق. هنا أيضاً كانت الجدران عاريةً، في حين كانت السّجّادة فخمةً جدّاً -أدركت ليز ذلك، فهي قد أشرفت على تأثيث قصرين- لا تُقدَّر بثمن.

- «كلمة استباقيّة للتّوضيح». قال كونتاريني: «أكبر صعوبةٍ ما زالت تواجهنا كالسّابق، هي أنّ فرنسا تطالب السُّلالة القيصريّة للبيت النّمساويّ أن تكفّ عن دعم السُّلالة الإسبانيّة. بالنّسبة إلى السُّويد الأمر سيّان، ولكنْ بسبب المبالغ العالية للمعونات التي تلقّتها السُّويد من فرنسا، يتوجّب على السُّويد أن تتبنّى المطلب الفرنسيّ. القيصر ما زال قطعيّاً ضدَّ المطلب. ما دامت هذه الإشكاليّة لم تُحلّ، لن نحصل على أيّ توقيعٍ من أحد العروش الثّلاثة».

أمالت ليز رأسها، وابتسمت بغموضٍ، كما كانت تفعل طوال حياتها، عندما لا تفهم أمراً ما. لربّما، فكّرت: لا يريد منها شيئاً محدّداً، بلْ هو معتادٌ ببساطةٍ على الثّرثرة. هذا النّوع من النّاس موجودٌ في كلّ بلاط.

وصلا إلى نهاية الدّهليز، فتح كونتاريني الباب، وانحنى لها كي تتقدّمه بالدّخول. «صاحبة الجلالة، السّفيران السُّويديّان: الكونت أوكْسِنْستيرْنا، والدكتور آدلر سَلفيوس».

نظرت حولها مذهولةً. رأتهما جالسين، أحدهما في الزّاوية اليمنى، والثّاني في الزّاوية اليسرى من قاعة الاستقبال، وكلٌّ منهما على كرسيٍّ بظهرٍ بحجم الآخر، كما في وضعيّة استعدادٍ ليبدأ الرّسّام بتصويرهما، وفي منتصف القاعة انتصب كرسيٌّ آخر بظهرٍ ومسنديْ ذراعين، وعندما توجّهت ليز إليه، نهض الرّجُلان، وقدّما انحناءةً عميقةً. جلست ليز، وبقي الرّجُلان واقفين. كان أوكسنستيرنا رجُلاً ضخماً بخدَّين ممتلئين، في حين كان سلفيوس نحيفاً، وطويل القامة، ويوحي بالمقام الأوّل بأنّه مُتعَبٌ جدّاً.

- «جلالتكِ كنتِ في زيارة لامبيرغ؟». سأل سَلفيوس بالفرنسيّة.

- أنتم على عِلمٍ بذلك؟

- «أوزنابروك صغيرة». أجاب أوكسنستيرنا: «أنتِ تعرفين جلالتك أنّ هذا مؤتمرٌ للمبعوثين؟ فلا أمراء، ولا حُكّام، ولا...».

- «أعرف هذا». أجابت: «وأنا في الحقيقة لست هنا، والسّبب في عدم وجودي هنا، هو حقّ الانتخاب الذي يخصُّ عائلتي. إذا كانت معلوماتي صحيحةً، فإنّ السُّويد تساند مطلبنا في استرداد

اللّقب». شعرت بانشراحٍ للتّكلّم بالفرنسيّة؛ الكلمات تتدفّق على نحوٍ أسرع، والعبارات تأتي منسجمةً. خُيِّل إليها كأنّ اللّغة تبني الجُمل بنفسها. كان الأحبّ إلى قلبها أنْ تتكلّم بالإنجليزيّة، الغنيّة، اللّيّنة، الغنائيّة، لغة موطنها، لغة المسرح والقصائد، ولكنْ تقريباً لا أحد يفهمها هنا، كما لم يكن هناك سفير إنجليزي في أوزنابروك، ففي نهاية المطاف ضحّى والدها بها، وبفريدريش، كي ينأى ببلده عن الحرب.

انتظرت. لم يعلّق أحدٌ بشيء.

- «هذا صحيح، أليس كذلك؟». سألت أخيراً: «أنّ السُّويد تدعم مطلبنا، أليس هذا صحيحاً؟».

- «من حيث المبدأ». أجاب سلفيوس.

- إذا كانت السُّويد تصرُّ على استردادنا لقب الجلالة، فسيعرض ابني من جانبه التّخلّي عن هذا الاسترداد عينه، إذا كان البلاط القيصريّ يؤكّد لنا في اتّفاقيّةٍ سريّةٍ إحداثَ حقِّ انتخابٍ ثامن.

- «القيصر لا يستطيع إحداث حقّ انتخابٍ جديد». قال أوكسنستيرنا: «لا حقّ له في ذلك».

- «ألفيزِه كونتاريني، في خدمتكِ». قال بالفرنسيّة: «سفير جمهورية فينيسيا. أنا أقوم هنا بالوساطة. تفضّلي».

قادها عبْر دهليزٍ ضيّق. هنا أيضاً كانت الجدران عاريةً، في حين كانت السّجّادة فخمةً جدّاً -أدركت ليز ذلك، فهي قد أشرفت على تأثيث قصرين- لا تُقدَّر بثمن.

- «كلمة استباقيّة للتّوضيح». قال كونتاريني: «أكبر صعوبةٍ ما زالت تواجهنا كالسّابق، هي أنّ فرنسا تطالب السُّلالة القيصريّة للبيت النّمساويّ أن تكفّ عن دعم السُّلالة الإسبانيّة. بالنّسبة إلى السُّويد الأمر سيّان، ولكنْ بسبب المبالغ العالية للمعونات التي تلقّتها السُّويد من فرنسا، يتوجّب على السُّويد أن تتبنّى المطلب الفرنسيّ. القيصر ما زال قطعيّاً ضدَّ المطلب. ما دامت هذه الإشكاليّة لم تُحلّ، لن نحصل على أيّ توقيعٍ من أحد العروش الثّلاثة».

أمالت ليز رأسها، وابتسمت بغموضٍ، كما كانت تفعل طوال حياتها، عندما لا تفهم أمراً ما. لربّما، فكّرت: لا يريد منها شيئاً محدّداً، بلْ هو معتادٌ ببساطةٍ على الثّرثرة. هذا النّوع من النّاس موجودٌ في كلّ بلاط.

وصلا إلى نهاية الدّهليز، فتح كونتاريني الباب، وانحنى لها كي تتقدّمه بالدّخول. «صاحبة الجلالة، السّفيران السُّويديّان: الكونت أوكْسِنْستيرْنا، والدكتور آدلر سَلفيوس».

نظرت حولها مذهولةً. رأتهما جالسين، أحدهما في الزّاوية اليمنى، والثّاني في الزّاوية اليسرى من قاعة الاستقبال، وكلٌّ منهما على كرسيٍّ بظهرٍ بحجم الآخر، كما في وضعيّة استعدادٍ ليبدأ الرّسّام بتصويرهما، وفي منتصف القاعة انتصب كرسيٌّ آخر بظهرٍ ومسنديْ ذراعين، وعندما توجّهت ليز إليه، نهض الرّجُلان، وقدّما انحناءةً عميقةً. جلست ليز، وبقي الرّجُلان واقفين. كان أوكسنستيرنا رجُلاً ضخماً بخدَّين ممتلئين، في حين كان سلفيوس نحيفاً، وطويل القامة، ويوحي بالمقام الأوّل بأنّه مُتعَبٌ جدّاً.

- «جلالتكِ كنتِ في زيارة لامبيرغ؟». سأل سَلفيوس بالفرنسيّة.

- أنتم على عِلمٍ بذلك؟

- «أوزنابروك صغيرة». أجاب أوكسنستيرنا: «أنتِ تعرفين جلالتك أنّ هذا مؤتمرٌ للمبعوثين؟ فلا أمراء، ولا حُكّام، ولا...».

- «أعرف هذا». أجابت: «وأنا في الحقيقة لست هنا، والسّبب في عدم وجودي هنا، هو حقّ الانتخاب الذي يخصُّ عائلتي. إذا كانت معلوماتي صحيحةً، فإنّ السُّويد تساند مطلبنا في استرداد

الّلقب». شعرت بانشراحٍ للتّكلّم بالفرنسيّة؛ الكلمات تتدفّق على نحوٍ أسرع، والعبارات تأتي منسجمةً. خُيِّل إليها كأنّ الّلغة تبني الجُمل بنفسها. كان الأحبّ إلى قلبها أنْ تتكلّم بالإنجليزيّة، الغنيّة، الّليّنة، الغنائيّة، لغة موطنها، لغة المسرح والقصائد، ولكنْ تقريباً لا أحد يفهمها هنا، كما لم يكن هناك سفير إنجليزي في أوزنابروك، ففي نهاية المطاف ضحّى والدها بها، وبفريدريش، كي ينأى ببلده عن الحرب.

انتظرت. لم يعلّق أحدٌ بشيء.

- «هذا صحيح، أليس كذلك؟». سألت أخيراً: «أنّ السُّويد تدعم مطلبنا، أليس هذا صحيحاً؟».

- «من حيث المبدأ». أجاب سلفيوس.

- إذا كانت السُّويد تصرُّ على استردادنا لقب الجلالة، فسيعرض ابني من جانبه التّخلّي عن هذا الاسترداد عينه، إذا كان البلاط القيصريّ يؤكّد لنا في اتّفاقيّةٍ سريّةٍ إحداثَ حقِّ انتخابٍ ثامن.

- «القيصر لا يستطيع إحداث حقّ انتخابٍ جديد». قال أوكسنستيرنا: «لا حقّ له في ذلك».

- «إذا أعطاه الأعيان هذا الحقّ، فسيستطيع». قالت ليز.

- «ولكنْ لا يجوز لهم ذلك». قال أوكسنستيرنا: «ثمّ إنّنا نريد أكثر من ذلك بكثير، نحن نريد استرداد ما انتُزِع منّا كلّه منذ سنة 1623».

- إنّ حقّ انتخابٍ جديدٍ سيكون لمصلحة الكاثوليك؛ لاحتفاظ بافاريا به. وسيكون لمصلحة البروتستانت؛ لأنّ جهتنا ستضيف إليها أميراً ناخباً بروتستانتيّاً جديداً.

- «ربّما». قال سَلفيوس.

- «أبداً». قال أوكسنستيرنا

- «أنتما مُحقّان كلاكما». قال كونتاريني.

نظرت ليز إليه متسائلةً.

- «ما من حلٍّ آخر». أجابها كونتاريني بالألمانيّة: «يجب أن يكونا كلاهما مُحقّين: الأوّل مقرّبٌ من أبيه مستشار الدّولة، ويريد للحرب أنْ تستمرّ، والثّاني أوفدته الملكة الشّابّة ليحقّق السّلام».

- «ماذا تقول؟». سأله أوكسنستيرنا.

- استشهدتُ بمثلٍ ألمانيٍّ شعبيّ.

- «بوهيميا ليست جزءاً من الرّايخ». قال أوكسنستيرنا: «لا يمكننا أن نشمل براغ في المفاوضات. كان يجب الاتّفاق على ذلك مُسبقاً. على المرء دائماً أن يساوم على ما سيُتفاوضُ حوله، قبل الشُّروع في التّفاوض».

- «من ناحيةٍ أُخرى». قال سَلفيوس: «ترى صاحبة الجلالة الملكة...».

- صاحبة الجلالة لا خبرة لديها، وأبي وصيٌّ عليها، وهو يرى أن...

- كانت.

- كيف؟

- الملكة بلغت السّنّ القانونيّة.

- بَلَغتها حديثاً. أبي المستشار هو الأكثر خبرةً في أوروبّا في إدارة سياسة الدّولة. منذ أنْ لفظ عظيمنا غوستاف أدولف أنفاسه في لوتْسن...

- منذئذٍ توقّفنا عن الانتصار تقريباً، لولا مساعدة الفرنسيّين لَضِعنا.

- أتريد أن تقول...

- مَن أكون أنا لأقلّل من أهمّيّة منجزات السّيّد مستشار الدّولة صاحب السّعادة الكونت والدكم؟ لكنّني أرى...

- ولكنْ ربّما لم يكن لرأيك تلك الأهمّيّة، ربّما لم يكن لرأي السّفير الثّاني...

- رئيس المفاوضات.

- بتسمية الملكة التي أبي هو وصيّها.

- كان. أبوك كان وصيّها.

فقال كونتاريني: «ربّما كان في إمكاننا الاتّفاق على أنّ اقتراح صاحبة الجلالة يستحقّ أن يُؤخذ بعين الاعتبار. لا يجب أنْ نقول إنّنا سننفّذه، ولا أن نَعِد بالتّفكير في اقتراحها، ولكنْ يمكننا أن نتّفق جميعنا، على أنّ اقتراحها قد يستحقّ من طرفنا أن يُؤخذ بعين الاعتبار».

- «هذا لا يكفي». قالت ليز: «حالما تسقط براغ، يجب أن يوجَّه طلبٌ رسميٌّ إلى لامبيرغ، لإعادة تاج بوهيميا إلى ابني، وعندها سيوافق ابني في اتّفاقيّةٍ سرّيّةٍ معه على التّنازل عن التّاج، في

حال إبرامه مع السُّويد وفرنسا اتّفاقيّةً سرّيّةً بشأن حقّ الانتخاب الثّامن، ويجب أن يجري هذا بسرعة.

- «لا شيء يجري بسرعة». علّق كونتاريني: «أنا موجودٌ هنا منذ بداية المفاوضات. فكّرت في أنّي لن أحتمل الإقامة أطول من شهرٍ في هذه المنطقة المطريّة الفظيعة. حتى الآن مضت خمس سنوات».

- «أنا أعرف حالَ أنْ يشيخ الإنسان منتظراً». قالت ليز: «ولن أنتظر أكثر. إذا لم تطالب السُّويد بتاج بوهيميا، كي يتمكّن ابني بعدئذٍ من التّخلّي عنه في عمليّة التّبادل لقاء حقّ الانتخاب، لن يكون بين أيديكم عندها أيّ شيءٍ من أجل الحصول على حقّ الانتخاب الثّامن؛ هذا سيعني نهاية سُلالتنا الحاكمة، لكنّني ببساطةٍ سأعود إلى إنجلترا. كم بودّي العودة إلى الوطن، وكم بودّي أن أذهب إلى المسرح ثانيةً!».

- «وأنا أيضاً أرغب في العودة إلى فينيسيا». قال كونتاريني: «أرغب في أن أصبح رئيس الجمهوريّة هناك».

- «اسمحي لي بتساؤلٍ، يا صاحبة الجلالة، لكي أفهم». قال سَلفيوس: «أنتِ قصدتِنا هنا كي تطالبينا بمعالجة أمرٍ ما كنّا لنعالجه من أنفسنا، وتهديدك هو كالتّالي: إذا لم ننفّذ ما

تريدين، فإنّك سوف تسحبين مطلبك؟ كيف يُفترض بالمرء أن يسمّي هذه المناورة؟».

ابتسمت ليز ابتسامتها الأكثر غموضاً، وشعرت الآن بأسفٍ حقيقيٍّ لعدم وجود حافّة خشبة مسرحٍ أمامها، ولعدم وجود شبه عتمة صالة المشاهدين، والجمهور المُنصت مشدوداً. تنحنحت، وعلى الرّغم من معرفتها مسبقاً بالجواب، تظاهرت، توخّياً لتأثيرٍ أعمق في الجمهور غير الموجود، بأنّ عليها التّفكير.

- «أقترح». قالت أخيراً: «أن تسمّيها سياسة».

3

في اليوم التّالي، اليوم الأخير من إقامتها في مدينة أوزنابروك، غادرت ليز غرفة النُّزُل عند أوائل العصر؛ لتذهب إلى حفل الاستقبال الذي يقيمه الأسْقف. لم يوجّه إليها أحدٌ أيّة دعوةٍ، لكنّها سمعت أنّ كلّ مَن له قيمة سوف يحضر هناك. غداً في مثل هذا الوقت ستكون في طريق عودتها عبْر مناطق مخرّبةٍ إلى دارها الصغيرة قُرب دِن هاغ.

لم يكن في مقدورها أن تمدّد إقامتها؛ كان عليها أنْ تغادر، ليس فقط بسبب نقص المال، إنّما لأنّها تعرف قواعد الدراما الجيّدة أيضاً: إنّ ملكةً معزولةً تظهر فجأةً، ثمّ تختفي، يترك انطباعاً مؤثّراً، في حين أنّ ملكةً معزولةً تظهر وتبقى، إلى أنْ يعتاد المرء عليها، ويبدأ بالتّنكيت عليها، فهذا لا يصلح. لقد تعلّمت هذا في هولندا، حيث استُقبلَت مع فريدريش ذات يومٍ بكلّ ودٍّ، وحيث صار أعضاء البرلمان خلال المدّة المنقضية منشغلين كلّما التمست الّلقاء بهم.

حفْل الاستقبال لدى الأسْقف سيكون آخر ظهورٍ لها، لقد قدّمت اقتراحاتها، وقالت ما لديها لتقوله، أكثر من هذا لا يسعها

أن تعمل من أجل ابنها. المؤسف أنّه شبيهٌ بخاله؛ لوحٌ فظٌّ، كلاهما يشبهان جدّها، لكنّهما لم يَرثا شيئاً من ذكائه المترصّد. كلاهما كانا فارعَي الطّول، دَعيَّيْن، متسلّطَيْن، بصوتٍ عميقٍ، وأكتافٍ عريضةٍ، وحركاتٍ بطيئةٍ، وكانا مُغرمَيْن بالخروج للصَّيد. أخوها هناك في الوطن سوف يخسر معركته ضدّ البرلمان، وابنها في حال صار حقّاً أميراً ناخباً، فإنّ التاريخ لن يحتفظ باسمه كحاكمٍ عظيم. لقد بلغ الثّلاثين من عُمره، كاد يتجاوز الشّباب، وهو يتسكّع حاليّاً في إنجلترا، في الصَّيد ربّما، فيما تتفاوض هي في فستفاليا من أجله، ورسائله النّادرة إليها كانت قصيرةً، وعلى درجةٍ من البرود تقارب العِداء.

ودائماً، كلّما فكّرت فيه، تشكّلت في ذاكرتها صورة الآخر: ابنها الجميل، بِكْرها الذّكيّ المُشرق، الذي ورث عن أبيه روحه الودودة، وعنها عزّتها، وفرحها، وأملها. عندما تتراءى لها صورته فإنها تحمل وجوهاً مختلفةً، في الوقت نفسه، تراه وعُمره ثلاثة شهور، وهو في الثّانية عشرة، وفي الرّابعة عشرة، وتشعر عندها باقتراب وإلحاح تلك الصّورة الأُخرى، التي كانت ترافق كلّ فكرةٍ مرتبطةٍ به، فتبذل ليز جهدها لتقليص تفكيرها به إلى الحدّ الأدنى ما أمكن: صورة العبَّارة المُنقلبة، أعماق النّهر السَّوداء.

كانت تعرف شعور أنْ يبتلع المرء ماءً بالخطأ في أثناء السّباحة، ولكن الغرق؟ لم تستطع تخيُّل ذلك.

كانت أوزنابروك صغيرةً جدّاً، فكان في إمكانها أن تذهب من النُّزُل مشياً، إلّا أنّ حالة الشّوارع كانت قذرةً حتّى بالنّسبة إلى الظّروف الألمانيّة، وعلاوةً على ذلك: كيف كان سيبدو الأمر؟

وهكذا تركت الحوذيّ يقودها إلى العربة، حيث استندت إلى ظهر المقعد ناظرةً إلى أبنية الجملون الضّيّقة في أثناء سَير العربة. جلست الوصيفة إلى جانبها صامتةً، فقد اعتادت أن تتجاهلها ليز، فلم تبدأ معها حديثاً قطّ؛ فأفضل ما كان في وسع وصيفةٍ أن تُتقنه هو التّصرُّف كقطعة أثاث. كان الطّقس بارداً، والسّماء تمطر رذاذاً ناعماً، وعلى الرّغم من ذلك تجلّت الشّمس وراء الغيم مثل بقعةٍ شاحبة. نظّف المطرُ الهواء من روائح الأزقّة. ثمّة أطفالٌ يركضون، ورأت ليز مجموعةً من جنود المدينة على جيادهم، ثمّ عربةً يجرُّها حمارٌ تحمل أكياس طحين، ثمّ انعطفوا إلى السّاحة الرّئيسة، هناك قبالتهم كان مقرّ السّفير القيصريّ، الذي زارته ليز أوّل أمس، في منتصف السّاحة انتصب هيكلٌ خشبيٌّ فيه ثقوبٌ لتثبيت السّاعِدَيْن والرّأس. في الشّهر الماضي، حكت لها صاحبة النُّزُل: كانت هناك ساحرة مقيّدة إلى الهيكل، كان القاضي رؤوفاً بها، فأبقى على حياتها،

وبعد عشرة أيّامٍ من وقوفها على هيكل التّجريس طردوها من المدينة.

كانت كاتدرائيّة سانت بيتر بناءً أخرقَ وألمانيّاً، كتلةً ضخمةً ومشوّهةً، أحد بُرجَيْها أثْخن من الآخر، وقد بُني على جانبه الأيمن بناءٌ طولانيٌّ بأفاريز ضخمةٍ، وسطح جملون. امتلأت السّاحة بعددٍ من العربات، بحيث لم تستطع عربة ليز الاقتراب حتّى بوّابة الكاتدرائيّة، فاضطرَّ الحوذيُّ إلى التّوقّف على مسافةٍ، ثمّ حمل ليز إلى بوّابة المدخل. كانت رائحته

سيّئةً، والمطر بلّل معطفها الفَرْو، إلّا أنّه لم يدعها تسقط من بين ذراعيه.

أنزلها على نحوٍ غير لطيفٍ، فاستندت إلى عكّازها كي لا يختلّ توازنها. في مثل هذه اللّحظات تحسُّ بحقيقة عُمرها. دفعت قلنسوة معطفها إلى الوراء، وفكّرت: «ظهوري العلنيّ الأخير». دَهمها تهيّجٌ اقشعرَّ له جسمها، لحظة لم تمرّ بمثلها منذ سنواتٍ طويلة. رجع الحوذيُّ ليحضر الوصيفة، لكنّ ليز لم تنتظر، بلْ دخلت وحْدها.

منذ وصولها إلى قاعة المدخل سمعت ليز الموسيقا. بقيت واقفةً وأنصتت.

- صاحب الجلالة القيصريّة أرسل إلينا أفضل عازفي الآلات الوتريّة في بلاطه.

كان لامبيرغ يرتدي عباءةً بلونٍ قرمزيٍّ داكنٍ، ويضع حول عنقه قلادة وسام الفروة الذّهبيّة، وإلى جانبه يقف الكونت فولكنشتاين. رفع كلاهما قبّعتيهما، وانحنيا تحيّةً. حنت ليز رأسها لفولكنشتاين الذي ابتسم لها.

- «صاحبة السّموِّ الملكيّ ستسافر غداً». قال لامبيرغ.

إنّ ما أربكها هو أنّ الجُملة لم يكن لها وقعُ سؤالٍ، بلْ أقرب إلى الأمر.

- السّيّد الكونت على اطّلاعٍ جيّدٍ دائماً.

- ليس بالجودة التي أرغب في أنْ أكون عليها أبداً، لكنّني أعِدكِ يا صاحبة السُّموّ، بأنّكِ لن تجدي مثل هذه الموسيقا بسهولةٍ في مكانٍ آخر. إنّ فيينّا راغبةٌ في التّعبير للمؤتمر عن حظوته لديها.

- هل لأنّ فيينّا تخسر في ساحة المعركة؟

تظاهر بأنّه لم يسمع السُّؤال، وتابع: «وهكذا أرسل البلاط أفضل عازفيه، وممثّلين مرموقين، وأفضل لاعب خِفّة. هل زُرتِ السُّويديّين يا صاحبة السُّموّ؟».

- إنّك حقّاً تعرف كلّ شيء.

- وبتِّ تعرفين الآن يا صاحبة السُّموّ أنّ السُّويديّين منقسمون فيما بينهم.

صدحت في الخارج أصواتُ أبواقٍ، قام خَدمٌ بفتح الباب بقوّةٍ، دخل رجُلٌ يبرق من كثرة الأحجار الكريمة، وتستند إلى ساعده امرأةٌ بذيل فستانٍ طويلٍ، وإكليلٍ يتوّجِ رأسها. رمى لامبيرغ في أثناء مروره نظرةً غير عابسةٍ، وأمال رأسه قليلاً، بحيث لا تُعدُّ الحركة بمنزلة تحيّة.

- «فرنسا؟». سألته ليز.

أومأ لامبيرغ برأسه إيجاباً.

- هل أرسلتَ اقتراحنا إلى فيينّا؟

لم يردّ لامبيرغ، ولم يبْدُ عليه ما إنْ كان قد سمع السُّؤال.

- أم لا ضرورة لذلك؟ هل تملك تفويضاً كاملاً باتّخاذ القرار وحْدك؟

- قرار القيصر هو دائماً قرار القيصر، وليس لأحدٍ سواه. والآن، لا بدّ لي من أن أودِّعكِ؛ فحتّى في حماية الاسم المُستعار لا يليق بخادمك المتواضع أنْ يتابع الحديث مع سموّك.

- ألأنَّ دمي مهدورٌ أم لأنّ الزّوجَ الكريمة ستغار؟

ضحك لامبيرغ بصوتٍ منخفضٍ، ثم قال: «إذا سمحتِ سموّكِ، سيرافقكِ الكونت

فولكنشتاين إلى الصّالة».

- أيجوز له ذلك؟

- إنّه روحٌ طلقةٌ أمام الرّبّ؛ يجوز له كلّ ما يليق.

رفع فولكنشتاين ذراعه بشكل زاويةٍ، فوضعت ليز يدها على ظهر يده، ومشيا إلى الصّالة بخطواتٍ موزونة.

- هل السُّفراء كلّهم هنا؟

- كلّهم، غير أنّه لا يجوز لهذا أنْ يُحيّي ذاك، ولا يحقّ لهذا أبداً أن يتكلّم مع ذاك. كلّ شيءٍ مرتّبٌ بدقّة.

- أيجوز لكَ أن تكلّمني يا فولكنشتاين؟

- حتماً لا، ولكنْ يجوز لي أن أمشي معكِ، وسوف أحكي لأحفادي عن هذا، وسوف أكتب عنه أيضاً. ملكة بوهيميا، سأكتب، إليزابيت الأسطوريّة...

- ملكة الشّتاء؟

- عروس العنقاء الجميلة أردتُ أن أقول.

- أتتكلّم الإنجليزية؟

- قليلاً.

- وقرأتَ جون دَن؟

- ليس كثيراً، ولكنْ على الأقلّ الأغنية الجميلة التي يطالب فيها أباك يا صاحبة السُّموّ الملكيّ، بأنْ يساند أخيراً ملك بوهيميا؛ ليس الإنسان جزيرة.

رفعت نظرها. كان سقفُ الصّالة مزيّناً برسوماتٍ بدائيّةٍ غير مُتقنةٍ، من الصّنف الذي كثيراً ما يشاهده المرء في الإمارات الألمانيّة عادةً بريشة فنّانٍ إيطاليٍّ من الدّرجة الثّانية، ما كان ليحقّق شيئاً في فلورنسا. هناك إفريز يحمل تماثيل قدّيسين بنظراتٍ جادّةٍ: اثنان يحملان حَربتين، واثنان يمسكان صليبين،

وواحدٌ كوَّر قبضتيه، وواحدٌ يحمل تاجاً، وقد عُلِّقت تحت الإفريز مشاعلُ، وفي أربع ثريّاتٍ سقفيّةٍ اشتعلت عشراتٌ من الشّموع، التي تعدّد انعكاس ضوئها من خلال المرايا. عند الجدار الخلفيّ وقف ستّة عازفين: أربع كمنجات، وقيثارةٌ، والأخيرُ يحمل بوقاً غريب الشّكل، لم ترَ ليز شبيهاً له سابقاً.

أنصَتا. حتّى في وايت هول لم تسمع مثل هذا. يبدأ كمانٌ الصُّعود بلحنٍ من القاع، يتلقّاه الكمان الثّاني مانحاً إيّاه جلاءً وقوّةً، ويسلّمه إلى الثّالث، فيما يقوم الرّابع بملاعبة الأوّل بلحنٍ ثانٍ أخفّ. فجأةً، يتّحد اللّحنان ويتداخلان لتتلقّاهما القيثارة ببروزها في المركز الآن، فيما توجِد الكمنجات كما في حوارٍ هادئٍ فيما بينها، لحناً جديداً، وفي هذه اللّحظة تعيدُ إليهم القيثارة اللّحن الآخر، فيندمجان معاً، وفوقهما يرتفع نداء فرحٍ لحنٍ ثالث بصوت البوق المعدنيّ النّابض.

ثمّ حلَّ صَمْتٌ. كانت المقطوعة قصيرةً، لكنّها ولّدت إحساساً بأنّها قد دامت أطول بكثيرٍ، كأنّها قد حملت زمنها الخاصّ في ذاتها. بعض المستمعين صفّقوا بتردُّدٍ، وبعضهم الآخر وقفوا بسكونٍ، وبدوا كأنّما ينصتون إلى دواخلهم.

- «في الطّريق إلى هنا كانوا يعزفون لنا كلّ مساءٍ». قال فولكنشتاين: «أطولهم هناك اسمه هانس كوشنَر، ولد في قرية هاغِنْبرون، لم يتعلّم في مدرسةٍ، ويجد صعوبةً في الكلام، لكنّ الرّبّ باركه».

- صاحبة الجلالة!

اقترب منهما زوجان: سيّدٌ بوجهٍ بارز التّقاطيع، وبفكٍّ كبيرٍ، تستند إلى ذراعه سيّدةٌ بَدت كأنّها تشعر ببردٍ شديد.

رأت ليز بأسفٍ أنّ فولكنشتاين، الذي حُظِر عليه كما يبدو أن يأخذ وجود هذا الرّجُل بعين الاعتبار، قد تراجع خطوةً، وبسط يديه وراء ظهره، واستدار. انحنى السّيّدُ احتراماً، وثنت السّيّدة ركبتها بأسلوب البلاط.

- «فيزنْبِك». قال السّيّدُ لافظاً المقطع الأخير من اسمه كانفجارٍ صغيرٍ: «المبعوث الثّاني لأمير براندنبورغ النّاخب. في خدمتكِ يا صاحبة الجلالة».

- «جميل». قالت ليز.

- احترامي كلّه لمطالبة جلالتكِ بحقّ انتخابٍ ثامن.

- أنا لم أطالب بشيء. أنا امرأةٌ ضعيفة. النّساء لا يفاوضْنَ، ولا يُطالبْنَ بشيء. من ناحيةٍ أُخرى، لا يحمل ابني حاليّاً أيَّ لقبٍ يسمح له بأن يُطالب بشيءٍ ما. نحن لا يمكننا المطالبة. كلّ ما يمكننا هو أنْ نتخلّى، لقد عرضتُ هذا بكلّ تواضعٍ، ما من أحدٍ غيرنا يمكنه التّخلّي عن تاج بوهيميا، نحن فقط نستطيع ذلك، وسنفعله كمقايضةٍ بحقّ الانتخاب. المطالبة بالتّاج لنا هي واجب أعيان البروتستانت في الرّايخ.

- أي نحن.

ابتسمت ليز.

- وإنْ لم نفعل ذلك، مثلاً: لأنّنا لا نريد أن تحتفظ سُلالة فيتلزباخ البافارية بحقّ الانتخاب...

- هذا سيكون غلطةً؛ لأنّهم سيحتفظون به في كلّ الأحوال، وفي هذه الحال سنضطرّ إلى التّخلّي عن حقّ انتخاب إمارة بفالتس بوضوحٍ، وأمام العالم كلّه، وعندها لن يكون لديكم ما تطالبون به.

أومأ المبعوث برأسه مفكّراً.

وفجأةً، خطرت في بالها فكرةٌ، لم يسبق لها أنْ تجرّأت على التّفكير بها. الأمر سينجح! عندما فكّرت بأن تستأجر عربةً، وتسافر بها إلى أوزنابروك، وتتدخّل في المفاوضات، بدا لها الأمرُ في البداية كفكرةٍ عبثيّةٍ تماماً، واحتاجت إلى نحو سنةٍ كي تمتلك زمام الثّقة بنفسها أوّلاً، وسنةٍ أُخرى لتشرع في تنفيذها حقّاً، لكنّها في حقيقة الأمر كانت تتوقّع طوال الوقت أنّهم سيسخرون منها.

ولكن الآن، وهي تقف قبالة الرّجُل ذي الفكّ الكبير، أدركت مُرتبكةً، أنّ هناك إمكانيّة حقيقيّة للنّجاح؛ لقب الأمير النّاخب لابنها. «لمْ أكنْ أمّاً جيّدةً لك». فكّرت: «كما أنّي لم أحبّك بمقدار ما كان يجب، لكنّني أنجزت شيئاً من أجلك، لم أرجع إلى إنجلترا، بلْ بقيتُ في البيت الصّغير مُدّعيةً أنّه مقرُّ ملكٍ في المنفى، وقد رفضتُ الرّجال جميعهم بعد موت أبيك المسكين، على الرّغم من أنّ الكثيرين رغبوا بي، وكان بينهم شباب يافعون؛ لأنّني كنت أسطورةً وجميلةً إضافة إلى ذلك، لكنّني كنت أعرف أنّه لا يجوز حدوث فضيحةٍ في سبيل مطلبنا، ولم أنسَ ذلك في أيّة لحظة».

- «نحن نعتمد عليكم». قالت. هل أصابت النّبْرة الصّحيحة أم كان ذلك احتفاليّاً أكثر ممّا يجب؟ لكنّه كان ذا فكٍّ عظيم، وحاجباه كانا كثّيْن جدّاً، وعندما ذكر اسمه، كادت تنهمر الدُّموع

من عينيه. بالنّسبة إليه كان النّبْرُ البليغُ لائقاً: «نحن نعتمد على براندنبورغ».

قام الرّجُل بانحناءة احترامٍ، وقال: «إذنْ، اعتمدوا على براندنبورغ».

تفحّصت الزّوجة ليز بنظرةٍ جليديّةٍ، على أمل أن يكون الحديث قد انتهى الآن، تلفّتت ليز بحثاً عن فولكنشتاين، لكنّه غاب عن نظرها؛ وفي الوقت نفسه تحرّك الزّوجان البراندنبورغيّان مبتعدين بخطواتٍ رصينة.

وقفت وحيدةً. عاود العازفون العزف. عدّت ليز ضربات الإيقاع وتعرّفت إلى أحدث رقصات الموضة؛ إنّها مِنويت. شكّل الحضور صفّين: السّادة هنا، والسّيّدات مقابلهم. تباعد الصّفّان عن بعضهما، ثمّ اندفعا نحو بعضهما، أمسك كلُّ شريكين بيدَي بعضهما المحشوّتين في قفّازين، وبعد التفافةٍ انفصلا، وتباعد الصّفّان ثانيةً، ثمّ تكرّر كلُّ شيءٍ، فيما الموسيقا تنوّعِ على اللّحن من بدايته على نحوٍ غنائيٍّ خفيف: تباعُدٌ، اقتراب، التفاف، تباعد. كان اللّحن يبثّ شوقاً، يشعر به الإنسان من دون أن يدرك إلى مَن، أو إلامَ. هناك يخطو السّفير الفرنسيّ إلى جانب الكونت أوكسنشتيرنا؛ لم يتبادلا النّظر، لكنّهما كانا يتحرّكان

محمولين على الإيقاع بالخطوة نفسها. وهناك كان كونتاريني أيضاً، الذي كانت زوجُه في مَيْعة الصِّبا، وذات جمالٍ وقوامٍ رشيقٍ، كما رأت هناك فولكنشتاين بعينين شبه مغمضتين تاركاً نفسه كلّيّاً للموسيقا، ومن الواضح أنّه لم يعُد يفكّر بها.

شعرت بالأسف لعدم قدرتها على المشاركة. لطالما كانت تحبُّ الرّقص، ولكنْ كلّ ما تبقّى لها هو منزلتها، وهذه كانت على درجةٍ من العلوّ، بحيث يصعب عليها النّزول إلى صفوف الرّاقصين، يُضاف إلى ذلك أنّ حركتها كانت صعبةً، فمعطف الفراء كان سميكاً جدّاً بالنّسبة إلى صالةٍ مدفّأةٍ بهذا العدد الكبير من المشاعل، ولا يمكنها أن تخلعه؛ لأنّ الثّوب الذي ترتديه تحته كان بسيطاً جدّاً، فمن مجموعة أثوابها القديمة لم يبق سوى هذا، والبقيّة بيعت، أو رُهنت، وكثيراً ما تساءلت عن سبب احتفاظها به. الآن عرفت.

تقارب صفّا الرّاقصين ثانيةً، ولكنْ فجأةً وقعت فوضى؛ لقد وقف أحدهم في منتصف الصّالة، ولم يبدُ على وجهه أنّه ينوي الابتعاد عن طريق الرّاقصين، أمّا على أطراف الصّالة فقد استمرّوا يتحرّكون على إيقاعات الموسيقا، هناك كان سَلفيوس، وعلى الجانب الآخر زوجُ البراندنبورغيّ؛ أمّا في المنتصف، فلم يعُد الصّفّان قادرَيْن على الالتصاق، واصطدم بعض الرّاقصين

ببعضهم، فيما اختلّ توازن آخرين، محاولين جميعهم تجاوز الواقف، كان ناحلاً بخدَّين أجْوَفين، وذقنٍ مدبّبةٍ، وندبةٍ على جبينه، وكان يرتدي صدّارةً مبرقعة الألوان، وسروالاً فضفاضاً، وحذاءً جلديّاً أنيقاً، وكان يعتمر على رأسه قبّعة أجراسٍ، وبدأ الآن بألعاب خِفّةٍ، فطارت في الهواء أشياء فولاذيّة، اثنان أوّل الأمر، تبعهما ثالثٌ، ثمّ رابعٌ، ثم خامس.

احتاج الأمر إلى بضع لحظاتٍ حتّى أدرك الجميع معاً أنّها نِصال! تراجع النّاس إلى الوراء، انحنى الرِّجال خائفين، ورفعت السّيّدات أيديهنّ أمام وجوههنّ للحماية، لكنّ الخناجر المنحنية كانت تعود دائماً إلى يديه، ودائماً بالشّكل الصّحيح، المقابض نحو الأسفل، فيما بدأ الآن إضافة إلى ذلك بالرّقص، بخطواتٍ قصيرةٍ إلى الأمام، وإلى الوراء، ببطءٍ بادئ الأمر، ثمّ أسرع، ما كان يؤدّي إلى تغيُّر الموسيقا؛ إذْ لم يكن هو الذي يتقيّد بالموسيقا، إنّما العكس. توقّف الجميع عن الرّقص، وأخلوا مكان الوسط كي يروا على نحوٍ أفضل كيف يُطيِّر الخناجرَ حوله، وهي تُحلّق مع كلّ رميةٍ أعلى فأعلى، إلى أنْ لم يعُد الأمر رقصةً أنيقةً متعقّلةً، بلْ صار مطاردةً جامحةً تتبع إيقاعَ ركضٍ لاهثٍ، ويتسارع باستمرار.

ثمّ أخذ يغنّي. كان صوته حادّاً، ويُصْدي كالمعدن، لكنّه يطابق اللّحن من دون أن ينقطع تنفّسه. لم يفهم أحدٌ كلمات أغنيته. لا شكّ في أنّها بلُغةٍ من اختراعه، وعلى الرّغم من ذلك كان يُخيَّل إلى المرء كأنّه يعرف الفحوى، كأنّه يفهم من دون أن يتمكّن من التّعبير عن فهمه بكلمات.

قلَّ عددُ الخناجر في الهواء، بقي أربعةٌ، ثمّ ثلاثةٌ، وهو يغمدها الواحد بعد الآخر في حزام خصْره.

وفجأةً، دوَّتْ صرخةٌ في القاعة. التّنّورة الخضراء لإحدى السّيّدات، كانت زوجُ كونتاريني، تلطّخت فجأةً ببقعٍ حمراء. من الواضح أنّ أحد النِّصال قد مرَّ على راحة يد الرّجُل، لكنّ أحداً لم يلْحظ تأثير ذلك على وجهه. رمى الخنجر الأخير، ضاحكاً، عالياً جدّاً، بحيث مرّ عبْر ذراعي إحدى الثّريّات من دون أن يلمس أيّة قطعة كريستال، وأمسكه في أثناء هبوطه، ووضعه في مكانه. سكتت الموسيقا. انحنى مُحيّياً الجمهور.

انطلق التّصفيق. «تيل!». صاح أحدهم: «برافو تيل!». صاح آخر: «برافو! برافو!».

عاد الموسيقيّون إلى العزف. أحسّت ليز بدوخةٍ. كان الجوّ في الصّالة حارّاً جدّاً بسبب كثرة الشّموع والمشاعل، وفراؤها كان

سميكاً جدّاً. إلى يمين قاعة المدخل كان هناك بابٌ مفتوحٌ، ووراءه هناك درجٌ صاعد. تردّدت ليز، ثمّ صعدت.

كاد انحدار الدَّرج أن يكون واقفاً، بحيث اضطّرّت مرّتين إلى التّوقُّف لاهثةً. استندت إلى الجدار. اسوَدّت الدّنيا أمام عينيها برهةً قصيرةً، شعرت بضعفٍ في ركبتيها، واعتقدت أنّها ستسقط على الأرض، ثمّ استعادت قواها، وتمالكت نفسها، وتابعت الصُّعود. أخيراً، وصلت إلى شرفة صغيرة.

رمت قلنسوة معطفها إلى الوراء، واستندت إلى سور البلكون الحجريّ. تحتْ كانت السّاحة الرّئيسة، وإلى يمينها اشرأبَّ بُرْجا الكاتدرائيّة نحو السّماء. بَدا أنّ الشّمس قد غربت في الحال، والهواء ما زال مُشبعاً برذاذ مطر.

في غسق السّاحة تحتْ ثمّة رجُلٌ يعبرها؛ إنّه لامبيرغ. كان يمشي حانياً ظهره قليلاً، بخطواتٍ قصيرةٍ زاحفةٍ في اتّجاه مقرّ السّفارة. كانت عباءته القرمزيّة تخفق على كتفيه بتثاقُل.

وقف لحظةً عند الباب غارقاً في نفسه، كأنّه يفكّر، ثمّ دخل.

أغمضت عينيها. أنعشها الهواء البارد.

- «كيف حال حماري؟». سألت.

- إنّه يؤلّف كتاباً، وكيف حال الصّغيرة ليز؟

فتحت عينيها. كان يقف إلى جانبها مستنداً إلى السّور. كانت يده مربوطةً بقطعة قماش.

- «هل حافظتِ على نفسك؟». قال: «لقد تقدّمتِ في السّنّ، لكنّكِ لم تصيري بلهاء بعد، وما زلت تثيرين ضجّةً من حولك».

- وأنتَ أيضاً، لكنّ قبّعة الأجراس هذه لا تناسبك.

رفع يده السّليمة، ولعب بالأجراس: «القيصر يريدني أن ألبسها؛ لأنّ صورتي في كرّاسٍ أعجبه، مرسومة بهذا الشّكل. قال لي: لقد أمرتُ بإحضارك إلى فيينّا، ويجب أن تظهر حسبما يعرفك النّاس».

أشارت إلى يده الجريحة التي يسيل منها الدم.

- أمام عليّة القوم يحدث دائماً أن تزلَّ يدي قليلاً. بعدها يعطونني نقوداً أكثر.

- وكيف هو، هذا القيصر؟

- مثل الجميع، ينام ليلاً، ويحبُّ جدّاً أن يُعامَل بلُطف.

- وأين نِله؟

صمت لحظةً، كمن يحاول أن يتذكّر عمَّن يتحدّث، ثمّ قال: «لقد تزوّجت منذ مدّةٍ طويلة»

- السّلام قادم، تيل. أنا سأعود إلى الوطن، سأعبر البحر إلى إنجلترا. أتريد أن ترافقني؟ سأعطيك غرفةً دافئةً، ولن تجوع، ولن تعاني، حتّى عندما لا تعود قادراً على تقديم عروضك.

لمْ يحِرْ جواباً. اختلطت قطرات المطر بكثيرٍ من نُدَف الثّلج، بحيث لم يعد ثمّة شكّ في أنّها ستثلج.

- «إكراماً للأيّام القديمة». قالت: «أنت تعرف مثلي تماماً أنّ القيصر عاجلاً أم آجلاً سيغضب عليك، عندها ستعود إلى الشّارع ثانيةً. سيكون حالك عندي أفضل».

- أتريد ليز الصّغيرة أن تمنَّ عليَّ، وترأف بي؟ حساءَ اليوم، وغطاءً سميكاً، وشبشباً دافئاً، إلى أنْ أموت بسلام؟

- ليس الأمر بهذا السّوء.

- ولكنْ أتعرفين ما الأفضل؟ الأفضل من الموت بسلام؟

- قل لي أنت.

- عدم الموت، يا صغيرتي ليز. هذا أفضل بكثير.

التفتت نحو الدَّرج. تناهت إليها من الصّالة تحتْ هتافاتٌ، وضحكٌ، وموسيقا، وعندما التفتت إليه ثانيةً، لم يعُد هناك. انحنت فوق السّور مذهولةً، لكنّ السّاحة كانت غارقةً في العتمة، ولا أثر لتيل.

- «إذا استمرّت تثلج هكذا». فكّرت: «سيكون كلّ شيءٍ غداً مُغطّى بالأبيض، وستكون العودة إلى دِن هاغ صعبة. ألم يبكّر الثلج جدّاً في هذا الوقت من السّنة؟ يُحتمل أن يكون المسؤول عن ذلك إنساناً بائساً مقيّدًا الآن تحت إلى هيكل التّجريس، مع العلم بأنّي أنا المسؤولة، فأنا ملكة الشّتاء!».

أمالت رأسها إلى الوراء، وفتحت فمها بأقصى ما تستطيع. لم تفعل هذا منذ وقتٍ طويلٍ جدّاً. مازال الثّلج حلواً وبارداً مثلما كان قديماً، ولكي تتذوّقه على نحوٍ أفضل، وفقط لعلمها بأنّ أحداً لن يراها في هذه العتمة، مدّت لسانها خارج فمها.

انتهت

دانييل كيلمَن

ولد في مونيخ عام 1975. كان والده مُخرجاً، ووالدته ممثّلةً، يعملان بين النّمسا وألمانيا، وكان جدُّه لأبيه كاتباً تعبيريّاً، يُقيم في فيينّا. بعد المدرسة درس دانييل في فيينّا الفلسفة والأدب الألمانيّ.

لاقى عمله الخامس «أنا وكامينسكي» 2003 نجاحاً عالميّاً، وعُدَّتْ روايته «مسح العالم» 2005 أكبر نجاحٍ أدبيٍّ ألمانيٍّ منذ الحرب العالميّة الثّانية. قام كيلمن بتدريس مادّة فنِّ الأدب في عددٍ من الجامعات الألمانيّة، وحاليّاً في قِسم الأدب الألمانيّ في نيويورك، ويعيش حاليّاً بين نيويورك وبرلين، وهو عضو الأكاديميّة الألمانيّة للّغة والأدب.

حصل كيلمن على كثيرٍ من الجوائز، منها: جائزة كانديد، وجائزة الأدب العالميّ، وجائزة كلايست، وجائزة توماس مَن.

تُرجِم له إلى العربيّة: «مسح العالم» و«زمن مالر».

المترجم: نبيل الحفار

مواليد دمشق 1945. حاصل على إجازة في الأدب الألماني 1969 لايبزيغ، وماجستير في الأدب الألماني 1971 لايبزيغ؛ ثم دكتوراه في العلوم المسرحية 1989 برلين. عمل رئيساً لقسم الدراسات المسرحية في المعهد العالي للفنون المسرحية - دمشق، ورئيس تحرير مجلة «الحياة المسرحية» - دمشق، كما أنه عضو اللجنة العلمية العليا في هيئة الموسوعة العربية - دمشق. حاز نبيل الحفار على جائزة الأخوين غريم للترجمة - برلين 1982، وجائزة معهد غوته للترجمة، فئة المحترفين - لايبزيغ 2010. له ترجمات كثيرة في المسرح، والرّواية، والقصّة، والبحوث من الألمانية، أهمّها: ترجمة أعمال كافكا الرّوائيّة.

كما له مقالات وبحوث في النقد المسرحي.